الإخوان المسلمون فى سورية



مذكرات وذكريات

الحكم البعثى (العلوى)

من عام ١٩٦٣ - حتى عام ١٩٧٧

عدنان سعد الدين

مكتبة مدبولى



الإخوان المسلمون فى سورية

مذكرات وذكريات

الحكم البعثى (العلوى)

من عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٧٧

اسم الكتاب: الإخوان المسلمون فى سورية
مذكرات وذكريات
الحكم البعثى (العلوى)
من عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٧٧
المؤلف: عدنان سعد الدين
الطبعة: الاولى ٢٠١٠
رقم الايداع: ٢٠٠٩/٢٠٤٤٥
الترقيم الدولى: ٦ - ٨١٢ - ٢٠٨ - ٩٧٧
الناشر: مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
ت: ٢٥٧٥٦٤٢١ ف: ٢٥٧٥٢٨٥٤
Web site : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com

عدنان سعد الدين

الكتاب الثالث

الإخوان المسلمون فى سورية

مذكرات وذكريات

الحكم البعثى (العلوى)

من عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٧٧

مكتبة مدبولى
٢٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الكاتب والكتاب

بقلم الأستاذ الأديب عبدالله الطنطاوي

الكاتب:

إذا عرفت الكاتب، عرفت الكتاب، وإذا عرفت الكتاب، عرفت الكاتب، فالأسلوب هو الرجل في سلوكه الفكري والأدبي، كما هو في سلوكه في الحياة.

ومؤلف هذا الكتاب، هو الأستاذ والأديب، والسياسي والمفكر معاً، وقد قدمت شذرات حييات عن حياته الحافلة، في مقدمتيّ للجزءين: الأول والثاني، وسوف أستكمل ما بدأت في هذه المقدمة، لهذا الجزء الخطير من هذا الكتاب القيم الذي لم يؤلف مثله في بابه حتى الآن.

أما أنا -العبد القليل- فقد صار مستقبلي في قبري، وليس في منصب أسعى إليه، أو هدف دنيوي أزاحم الناس والإخوان عليه- والأستاذ المؤلف، ليس المرجَّى لنفع دنيوي، حتى تزوَّر الشهادات له، ولستُ ممن يطمع فيما يقتتل عليه وحوله الناس، والإخوان

شريحة منهم.. أقول: أما أنا، فأشهد الله الذي يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ، أني سوف أدلي بشهادتي هنا، في تجرد، ما استطعت، بعون الله تعالى.

خروج عن الامتثال:

إذن... سوف أتحدث عن صاحب هذا الكتاب حديثاً قد يحرجني، بل سوف يخرجني عن الامتثال الذي هو أرقى أنواع الأدب، فقد امتثلتُ في مقدمتيّ للمجلدين، الأول والثاني، ولم يُسمح لي إلا بالبوح بالنزر اليسير الذي لا يجرح مروءة، ولا يخدش حياء، لا للمؤلف الكبير، ولا لصاحب هذه السطور التي تبقى حيّة وهي تتحدث عن بعض الرجال الرجال، خشية الانزلاق نحو ما يأباه الضمير الحي، وذو العفة، ولكن ضميري الذي أحسبه حياً -دونما تزكية ولا ادعاء- يأبى الا الكلام، ولو على استحياء، إنصافاً للرجل الذي تعرض-وما يزال- لظلم بعض ذوي القربى، في وقت هم والجماعة في مسيس الحاجة إليه، وإلى إمكاناته الكبيرة، ونظراته الثاقبة، وفكره الاستراتيجي، وإلى استشرافه المستقبل في تخطيطه وحركته.

من مبادراته ذوات النظرة المستقبلية:

سوف أذكرها في اختصار يناسب الحيز الذي تشغله هذه المقدمة، منذ اختياره مراقباً عاماً للجماعة:

١- بادر إلى تشكيل لجنة لوضع النظام الأساسي والداخلي للجماعة،تعتمد عليه في مسيرتها، وأخرى لعمل خطة للجماعة، تسير

بموجبها.

كان الأستاذ المراقب العام منذ عام ١٩٧٥ يكره الارتجال في العمل، ويعتمد التخطيط نهجاً له وللجماعة التي تولّى مسؤوليتها منذئذ، فكانت للجماعة خطة عامة، ولكل مركز، ولكل جهاز خطته المشتقة منها.

٢- عمل ميزانية للجماعة، وتحرك بين الإخوان لتغطيتها، وكان الإخوان من الأسخياء، غطوا تلك الميزانية الكبيرة، بأريحية يُشكرون عليها ويثابون إن شاء الله تعالى.

٣- رفع شعار (المحاسنة) ليحكم العلاقة بيننا وبين إخواننا الذين استمروا مع الأستاذ عصام العطار، الأمر الذي هدأ من ثائرة الثائرين من الطرفين.

٤- وتحت شعار (حشد الطاقات الإسلامية) بادر إلى بناء علاقات طيبة بين الجماعة وبين عدد من العلماء، انتهت إلى تشكيل الجبهة الإسلامية في سورية.

٥- عمل على توحيد فكر الإخوان، وكلمة الإخوان، ليصدروا عن آراء ومواقف متقاربة، إن لم تكن متطابقة.

٦- طرح فكرة توحيد التنظيمات الإخوانية الأربعة في سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين، في تنظيم واحد، تحت مسمّى: تنظيم الإخوان في بلاد الشام، وقد لقيت هذه الفكرة ترحيباً من قادة هذه التنظيمات ودعا إلى مؤتمر يعقد في إحدى الدول الأوروبية لتنفيذ هذه

الفكـرة الرائدة، ولكن أحـد هذه التنـظيمـات تراجع عمـا اتفق علـيه، فتعثر تحقيقها.

٧- كمـا دعا إلى جمع الحـركات الإخوانيـة في البلاد العربـية في تكتلات إقليمية، فهناك تنظيم وادي النيل، ويجمع الإخوان المصريين والإخـوان السـودانـيين، وتـنظـيم الإخـوان في الـمـغـرب، وليـبـيـا وتونس، والجزائر وموريتانيا في تنظيم واحد.

وتنـظيم بـلاد الشـام الذي يجـمع الإخـوان في سـورية، ولبـنان، وفلسطين، والأردن.

وهكذا ولكن الرياح جرت بما لا تشـتهي السفن وكانت الأحداث العاصفة التي أودت بكثيـر من الأفكار والخطط والطموحات أو حدَّتْ من فعاليتها.

٨- زيارة المراكز:

ومن أجل الـنهوض بالـجماعـة من كـبوتهـا، وكانت خـرجت من انشقاق قسمها نصفين، بادر إلى زيارة المراكز فطافها كلها من مشرقها إلى مغـربها، ومن شـمالهـا إلى جنوبهـا. . كان يدخل سـورية، وكان ممنـوعاً من دخولهـا، سراً، وقد تعـرض عدة مرات للكـشف، ولكن الله الرحمن الرحيم سلم، ونجا من أيدي الظالمين ومن عيونهم.

كان يلتقي الإدارات، ويلقي التعليمات والإرشادات، ويستمع إلى هموم كل مركز، ويحاول حل المـشكلات، وتذليل المعوقات، وكان الإخـوان في غايـة السـعادة لأن الأسـتاذ عـدنان هـو أول مراقب عـام

يتفقدهم، وخاصة في تلك الظروف الصعبة القاسية، تحت وطأة بساطير العسكر، وقانون الطوارئ، والأحكام العرفية، وعبث الميليشيات الطائفية المسلحة، وإجرامها الذي أصاب الناس في المقاتل. كما كان يطوف على المراكز الخارجية، ويجتمع بإداراتها، ويعطي تعليماته وتوجيهاته، ويحثّ الإخوة على العطاء والبذل والسخاء بالوقت والراحة والمال... يحثهم على دفع الاشتراكات والزكوات والتبرعات، فالحمل على الأرض، والجماعة في حاجة إلى من يحملها اليوم، بعد أن حملت الكثيرين فيما مضى من الزمان.

وبهذه الحركة المدروسة الواعية، دبت الحياة في كل المراكز، الداخلية منها و الخارجية، وانتظم البريد بينها، وتمتنت الصلات بينها وبين المكتب التنفيذي، وصارت العلاقات أخوية حميمة، وانتعش العمل الدعوي والتنظيمي في سائر المحاور والجهات.

لقد أتعب، وما تعب، في هذه التنقلات والزيارات.

٩- أقام علاقات خارجية مهمة ليس للجماعة عهد بها أو بمثلها، مع عدد من الدول. كالأردن، والعراق، ومصر، والسودان، والسعودية، واليمن، وتركيا، وباكستان، وأفغانستان وسواها، كما أقام علاقات مع عدد من الأحزاب في بلدان الوطن العربي، والعالم الإسلامي، والدول الأوروبية، ومن أجل هذه، جال في الكثير من الدول العربية والإسلامية والأوروبية، وأمريكا، لتمتين الصلات معها ومع بعض أحزابها ورجالاتها، وسياسييها، ومفكريها، وشارك معهم

في ندوات، وكان له معهم حوارات، وعقد مؤتمرات صحفية، وحاضر في العديد من المخيمات والمؤتمرات، وشارك في أنشطتها في عمل دؤوب، لا يكلّ ولا يملّ، استعلى على التعب والنوم والراحة والمرض، وما زال. . .

همة قعساء تذلل الصعاب:

إنه طاقة لم تستطع السنون أن تنال منها، أو أن تفعل فعلها فيها كما فعلت بطاقات سواه. . . تصوّروا أنه ذات مرة -وهو المبتلى بذلك المرض الصعب، شفاه الله وعافاه منه ومن سواه- يخرج من المستشفى بعد أخذ جرعتين كيماويتين أو بيولوجيتين، وبعد إحدى عشرة ساعة أمضاها في المستشفى، يعود إلى البيت مرهقاً- وهو على عتبة الثمانين -مدّ الله في عمره، ومنحه الصحة والعافية- فلا يأوي إلى سريره لينام أو يستريح من هذا العناء القاسي، والآلام المضنية، بل ينصرف إلى أوراقه وقلمه، ليكتب ما انثال على الخاطر، مما هو من صلب هذا الكتاب الرائع الذي أقدمه إليكم لتقرؤوه على مكث، وأنتم على أرائككم، أو في أسرتكم، في تمام الراحة والهدوء. . وما بالى بالمرض، ولا بالآلام، لأن همه في إنجاز هذا الكتاب صار شغله الشاغل، وهمه الناصب.

صدق من قال: إن الأستاذ أبا عامر لا ينام ولا ينيم، لا يستريح ولا يدع من يعمل معه يستريح، شعاره في هذا: ذهب وقت النوم ودقت ساعة العمل، ونحن في سباق مع الزمن، ومع الخصوم والأعداء معاً.

وبهذه الهمة القعساء، وبهذا التخطيط والدقة والسرعة في الإنجاز والتنفيذ، نقل الجماعة إلى آفاق جديدة ما كنا نعرفها، أو نحلم بها وبمثلها. . .

نقلها من مرحلة التفكير في الأسرة، إلى التفكير بالدولة. . .

بتسلمه قيادة الجماعة، حصلت للجماعة نقلة نوعية شملت كل مجالي الحياة الدعوية والتنظيمية.

كنا نحلم بتفريغ بعض الإخوة، فبادر إلى ذلك، وكنا نحلم أن يكون في بعض المراكز سيارة أو أكثر، فأمر بذلك. . . فكنا نطوف على المراكز، ولا يمر شهر أو شهران، إلا نراها، وربطناها بالمكتب التنفيذي ربطاً محكماً بفضل الله تعالى وتوفيقه، حتى بلغ بكثير من الإخوة أن يصفوا هذه المرحلة، بالمرحلة الذهبية في حياة الجماعة التي كانت أجهزتها وإداراتها تعمل كخلية النحل، من العمل الطلابي الذي شمل كل مراحل التعليم المتوسطة والثانوية والجامعية، إلى قسم الأخوات، إلى قسم العمال، إلى المكتب السياسي والإعلامي، إلى العمل المسجدي بنشاطه الملحوظ. .

كان صاحب تجربة عميقة، ونظرة مستقبلية تجاوزت حدود الزمان والمكان، وطاقة التنظيم فيهما. . كانت ثقته بالله كبيرة، في رعاية هذا التنظيم الرسالي الذي أسسه على التقوى رجل رباني، هو الإمام حسن البنا طيب الله ثراه.

كان يدعو إخوانه إلى العزم، والتوكل على الله، وألا يربؤوا بالمعوقات المادية، فهي مذللة بفضل الله تعالى.

كانت تربيته الروحية على أيدي مشايخ حماة، أمثال العارف بالله محمد الحامد والشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة -رفع الله قدره في عليين- واضحة في سلوكه وتفكيره، وقد برزت في كتابه القيم: في التزكية والسلوك.

القيادي السياسي:

إذا كان الأستاذ الكبير عمر بهاء الدين الأميري -تغمده الله بفيض رحمته ورضوانه- دبلوماسي الإخوان السوريين، فإن الأستاذ الكبير عدنان سعد الدين هو سياسيهم الأول بلا منازع؛ فقد أمضى عمره في العمل السياسي.. وانطلق يثقف نفسه ثقافة سياسية منذ نعومة أظفاره، فقرأ الكثير من الكتب السياسية، والنشرات السياسية التي كانت تصدر عن الأحزاب السورية كافة، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين وما بينهما... فقد شغفه حبّ السياسة وكتبها، بعد أن أدرك أهميتها في حياة الفرد والجماعة والمجتمع والدولة في وقت مبكر، فلا مستقبل للجماعة ما لم تشغل السياسة حيزاً مهماً من وقتها، ومن برامجها، ومن حركتها، فتكون على وعي من حاضرها ومستقبلها، لتكون عصية على الانتهازيين والوصوليين من الحيتان الذين لا يرقبون في الله والدعوة والوطن شعباً وأرضاً، إلا ولا ذمة.. وما أكثرهم وما أخطرهم..

وقد أدركنا هذا من الأيام الأولى لتسلمه منصب المراقب العام، من أحاديثه المستفيضة عن الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتنموي المأساوي الذي انتهت إليه الأمور في سورية، ومن تحليله

للأسباب التي جاءت بهؤلاء الطائفيين وأذنابهم إلى السلطة، وضرورة التخطيط العميق، والتنفيذ الدقيق للخطة المزمع وضعها وإقرارها من مجلس الشورى.. حتى تكون الجماعة على المستوى الذي يؤهلها للتصدي لهؤلاء ولمخططاتهم المدمرة.

ولو أن الأمور سارت -حسب الخطة- لكان -والله أعلم- وضع الجماعة غير وضعها الآن، ولكان وضع سورية الوطن غير ما هو عليه الآن، ولكن... شاءت إرادة الله أن يتعجل المتعجلون، وأن يشذّ عن الخطة من يشذ، وأن تقع الجماعة والوطن فريسة مخطط طائفي، مدعوماً بمخطط صهيوني لئيم، خَدَعَ الشعب بشعارات براقة يحبّها المواطن، وفرّط بالأرض كتفريطه بالإنسان، وهو يزعم أنه ما جاء إلى الحكم إلا ليحرر فلسطين.. زعموا أنهم سوف يغيّرون التاريخ، فغيّروا الجغرافيا، وزيّفوا التاريخ، وسلموا الجولان لحلفائهم وحماتهم الصهاينة، وعاشت سورية -وما تزال- في ظلام دامس، على أيدي من جيء بهم ليكونوا الأسوأ في تاريخ سورية الحبيبة عبر الدهور.

ثمة رجال عاشوا لمبادئ اعتنقوها، وعمروا حياتهم بها، وضحوا بالكثير من أجلها، ودعوا الناس إليها، وذادوا عن حياضها، فعُرفوا بآثارهم فيها، والأستاذ عدنان سعد الدين واحد من أولئك الأفذاذ، عمر حياته بجماعة الإخوان المسلمين منذ تأسيسها، فكراً، وتنظيماً، وحركة، فكانت فتوته، وشبابه، وكهولته، وشيخوخته لها، ومن أجلها، وقد توّج خدماته لها، بهذا الكتاب الذي سوف يقترن اسم

مؤلفه به، كما اقترن اسم الأستاذ الشهيد سيد قطب بالظلال، وكما اقترن اسم الشيخ الجليل محمود عبد الحليم بكتابه العظيم: الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ.. رؤية من الداخل.. وسوف يقرن الدارسون اسم عدنان سعد الدين بهذا الكتاب الرصين الذي ننتقل إلى الحديث عنه في إيجاز لمّاح.

الكتاب:

ليس من السهل التصدي لكتابة مثل هذا الكتاب، وخاصة في هذا المجلد الثالث الذي تحدث فيه عن المحظور، بصراحة وشفافية، عما أصاب سورية، شعباً وأرضاً من كوارث، منذ جيء بمجموعة طائفية من المغامرين، والمرتبطين بالدوائر الاستعمارية الأجنبية، ببريطانيا، وفرنسا، وأمريكا، وبالحركة الصهيونية العالمية، وبالكيان الصهيوني تحديداً، وبلا تورية ولا مواربة..

مؤلف هذا الكتاب لم يلامس العديد من الموضوعات المحظورة، بل تعمق في دراستها، وبصراحته المعهودة، وقد حشد الأدلة التي تبرهن على صحة ما يذهب إليه، حتى لا يفتئت عليه أصحاب المفتريات من الطائفيين ومن السائرين في ركابهم.

برغم الظروف الصحية والنفسية الصعبة، وبرغم المعوقات والعقبات الكأداء، وشح المعلومات، وندرة المتعاونين معه في هذا الكتاب.. برغم كل ذلك، وغيره، أقدم وأجاد، وبذل جهوداً غير عادية في جمع المعلومات من مصادرها الموثوقة التي تبيّن للناس مدى الظلم الذي وقع على سورية، وعلى الشعب السوري، وعلى

جماعة الإخوان المسلمين خاصة، في هذه المرحلة الخطيرة التي كشر الذئاب الطائفيون عن أنيابهم فيها.. هذا.. لأنه يتماهى مع دعوة الإخوان، كما لا يتماهى معها إلا القلة من الأبرار الذين وهبوا حياتهم لها، راضين بالمغرم دون المغنم، فقد رضع لبانها منذ يفاعته ويفاعتها، منذ عام ١٩٤٥ وهو ابن ستة عشر عاماً، وحتى يوم الناس هذا.. فهي روح يسري في كيانه.. في عقله ولبه، في دمائه، في مشاعره وأحاسيسه، يدافع عنها، ويؤلمه ما يؤلمها، ولو كان شوكة تشاكها، ويأسى لما أصابها ويصيبها، ويأرق لحالها ولما يلمّ بها، ويقلق لمستقبلها، ويضحي بوقته، وصحته، وماله في سبيلها، فهو منها وإليها.. ولذلك بادر إلى إنصافها، وإنصاف رجالاتها من الرواد والدعاة والمجاهدين والمفكرين والشهداء..

يتحدث في هذا الجزء الخطير من الكتاب، عن مرحلة من أخطر المراحل التي مرت على سورية، من انقلاب آذار ١٩٦٣ حتى عام ١٩٧٧، وفيه ما فيه من الوثائق والأدلة والبراهين عن العلاقات الوثيقة بين النظام الطائفي في سورية، وبين الصهاينة الذين تبنوه منذ انطلقت الدبابات من الجبهة مع إسرائيل، ليقوم انقلابيو آذار بانقلابهم في دمشق، وإسرائيل تحمي ظهورهم، ولا تهتبل هذه الفرصة التي لا تسنح لعدو، فتنقض على الجولان الذي خلا من أقوى الألوية فيه، لأنها تريد التمكين لهؤلاء..وقد عاهدتهم وصدقتهم في الالتزام بما عاهدتهم عليه.

حصل هذا والشعب السوري، وأبناء الأمة العربية في ذهول مما

يجري، والبسطاء، والمنافقون، والوصوليون ارتضوا أن يكونوا مطايا ذليلة لأولئك الانقلابيين، وكثير من السياسيين، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، أسهموا في تكريس الانقلاب، ويتحملون مسؤولية تاريخية كبيرة، بما فرطوا بحق الوطن، أرضاً وشعباً، وقيماً.

والذين (يُخدعون) بالحرب الإعلامية الإعلانية التي تشنها أبواق النظام في دمشق، على إسرائيل، لن يغفر لهم الشعب السوري هذه (الغفلة) التي ما أرادوا بها وجه الله، ولا مصلحة الشعب السوري المظلوم، ولا خدمة القضية الفلسطينية، ولا الوطن العربي، ولا الأمة الإسلامية.. وهناك كتّاب ومحللون وصحفيون غربيون، وقوميون عرب، ووطنيون أحرار، شهدوا بهذه العلاقات الحميمة بين النظام الأسدي، وبين الصهاينة، كما تحدثوا عن حماية الصهاينة لهذا النظام الملعون الذي سنّ القوانين التي تمنع أيّ سوري أو فلسطيني من تعكير أمن إسرائيل، وبهذا كانت الجبهة السورية-الإسرائيلية، أهدأ جبهة بين (عدوين) لعدة عقود.

إذن.. هذا الكتاب -بجملته- هو تأريخ حقيقي ومهم لسورية، منذ نهاية الحرب الكونية الأولى، وحتى يوم الناس هذا، والإخوان المسلمون جزء مهم من حياة سورية الشعب والأرض، وقد تماهى الكل في الجزء حيناً، والجزء في الكل في أكثر الأحيان في هذا الكتاب، فأنت تحسب أنك تقرأ عن الإخوان، فيما أنت تغوص في تاريخ سورية، وما اعتراها طوال ابتلائها بالصهاينة في برّانيّها، وبالبعث الطائفي الحاقد في جوّانيّها.. وكلا العدوين لئيم في عدائه،

خسيس في وسائله وأهدافه، ماكر في حيله التي انطلت حتى على من كنا نحسبهم كباراً في وعيهم، ودينهم، ووطنيتهم، وقوميتهم، فقد (غابت) باطنية أسد وطائفية نظامه عنهم، فسهل عليه خداعهم (بتوازنه الاستراتيجي) ثم بسلمه الاستراتيجي.. ولكنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.. والشعب السوري كله مضبوع.. من (مجلس الشعب) إلى (مجلس الوزراء) إلى القيادتين: القومية والقطرية، إلى (القيادات) العلمانية والوطنية.. أخذهم أسد بالترغيب.. بشراء الذمم، ومن استعصى عليه بالترغيب، أخذه بالترهيب، وكانت ميليشياته المسلحة بالمرصاد لكل معارض، وكانت أجهزته القمعية أشدّ وطئاً، وأحدَّ سيفاً، فأوعز بتعميم الفساد والإفساد، وجوّع الشعب، وسلّط الأشرار على الأحرار، وأنشأ السجون بدل المدارس والمصانع، وعاش الناس في ذعر لا يُصدَّق، وإلى درجة الذهول عما ينبغي عليهم أن يعملوه لإنقاذ وطنهم من الضياع، بعد أن ذاقوا هم وأبناؤهم الأهوال في ظلمات الزنازين، وأقباء التعذيب..

جاء أسد لنشر ثقافة الكراهية، ثقافة الطائفية، ثقافة التمييز بين العلوي وغير العلوي، وبين العلوي من عشيرته، والعلوي من العشائر الأخرى، فسادت الكراهية بين أبناء الشعب الواحد، وصار كلٌّ يتربص بالآخر، والكل يتطلع إلى الشرارة ليحرق أبناء الشعب بعضهم بعضاً، ويضيع الوطن، وتتسع ابتسامات اليهود، وتعلو ضحكاتهم، وهم يرون ربائبهم يسوطون أبناء سورية الأحرار بسياط من نار،

ويزجونهم إلى المحرقة الطائفية التي ستأتي عليهم جميعاً.

ألغى النظام الأسدي سياسة تكافؤ الفرص، فالبعثات الدراسية، والكليات الحربية، وكليات البوليس، حكر على فئة دون سائر فئات الشعب من غير العلويين.. ونشر ثقافة القهر، والقتل، والنفاق، والاستبداد، وخيانة الوطن، وخيانة الأقرباء والأبعداء على حدّ سواء..

فالآن.. لا محبة، لا تصافي، لا تواد، لا تراحم، بل تباغض، وتحاسد، وتحاقد، والكل ينتظر الساعة التي يثأر فيها من ظالميه.. من الذين قتلوا أباه، وأذلوا أخاه، وانتهكوا عرضه، وانتهبوا ماله، واغتصبوا أرضه..

كل هذا وأضعافه تطالعه في هذا المجلد الذي اتسم بالصراحة وبالبعد عن المواربة، وتطالع رصداً أميناً وموثقاً لحوادث خطيرة كثيرة تمسّ سمعة (زعامات) مدانة بالتفريط بالوطن.. من سوريين، وعراقيين، وأكراد وسواهم..

وفي الكتاب تأريخ لمنطقة الشرق الأوسط، وللحوادث الرعيبة والمثيرة فيها، وليس مجرد مذكرات وذكريات حول جماعة الإخوان المسلمين في سورية، كما جاء العنوان.

إن أي باحث في شؤون الشرق الأوسط، ناهيك عن سورية، لا بدّ له من الرجوع إلى هذا الكتاب، لأن المؤلف كان على دراية بل وإحاطة بما كان يجري في تلك الحقبة الشديدة، ومراحلها الدقيقة من حياة سورية، بحكم اهتماماته السياسية والدعوية، فقد وعى مجرياتها

بذكاء السياسي الداعية، أو الداعية السياسي الذي لا يقف عند المظاهر والسطوح، بل يغوص إلى أعماق الحوادث، ويلم بما سبقها، وما سوف يلحقها، ويحلله، ويختزنه في ذاكرته التي تلتقط الشيء فلا يفلت منها.. وخاصة مخططات الطائفيين التي أعملت معاولها في تمزيق النسيج الوطني لسورية.. تمزيق شعبها الذي ما عرف شيئاً عن الطائفية الباطنية، إلا بعد انقضاض هؤلاء الأشرار على دمشق، ووأد ما كانت تتمتع به من حرية، وتعاون، وإخاء، وتسامح كانت فيها كلها مضرب المثل.

الخطة العامة:

لابدّ لي من كلمات موجزات حول الخطة العامة التي كتبتها اللجنة المشكلة لها، وناقشتها القيادة، وأجرت عليها بعض التعديلات، ثم ناقشها مجلس الشورى، وأجرى تعديلاته عليها، ثم اعتمدها، وسارت الجماعة على هداها، وقد أثبتها المؤلف في آخر كتابه، لتكون شاهد صدق على المرحلة الذهبية التي عاشتها الجماعة.

١- كانت نقلة نوعية من المرحلة العكاظية، إلى مرحلة البرمجة والتخطيط.

٢- برز فيها ما كان يدعو الجماعة إلى التطور السلمي في الفكر، والتربية، وبناء المؤسسات.

٣- ظهر فيها التحذير من انجرار الجماعة إلى أي صدام مع النظام البعثي الأسدي، تحت ضغط أي ظرف، مهما بلغت استفزازات النظام من الوقاحة، والعنف، والشدّة.

٤- اعتمدت تربية الجماعة فيها على تجربتين:

الأولى: التجربة النبوية -إن صحّ التعبير ولم يقصّر- تلك التي أرسى دعائمها الرسول القائد، وخلفاؤه الراشدون الهادون المهديون.

الثانية: وهي تجربة حديثة، وضع أسسها مؤسس الجماعة ومرشدها: الرجل الرباني حسن البنا، واستمدها من التجربة النبوية، وسارت الجماعة على خُطاها، مع الأخذ بكل متطلبات العصر ومستجداته.

وصلى الله وسلم على سيدي وقائدي ومرشدي محمد رسول الله، وعلى آله الأطهار، وصحبه الهداة الأخيار الأبرار، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم...

والحمد لله الذي بفضله ونعمته ورحمته تتم الصالحات.

١-٩-٢٠٠٨

عبدالله الطنطاوي

توطئة

احتوى المجلدان: الأول والثاني من هذه الذكريات والمذكرات في تاريخ الإخوان في سورية، على خمس مراحل:

الأولى: امتدت من قبل استقلال سورية عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٤٩، عندما قام قائد الجيش السوري بتخطيط وتحريض من وكالة المخابرات الأمريكية -كما أكدت الوثائق والاعترافات المسجلة- CIA بانقلاب عسكري قوض فيه دعائم الحياة الديمقراطية والمدنية في الجمهورية السورية.

الثانية: مرحلة الانقلابات العسكرية الأربعة التي استمرت خمس سنوات من ٣١-٣-١٩٤٩ وحتى ٢-٢-١٩٥٤، وشهدت انقلاب حسني الزعيم وانقلاب سامي الحناوي وانقلابي أديب الشيشكلي.

الثالثة: دخول هاشم الأتاسي منتصراً على الحكم العسكري إلى دمشق، وبصحبته ساسة سورية، ليعيد الحياة الديمقراطية والعمل بالدستور، وعودة الوزارة المدنية السابقة -التي انقلب عليها الشيشكلي- برئاسة معروف الدواليبي، لتعيش سورية مرة أخرى في ظل حكم ديمقراطي، لم يدم طويلاً، ولم يعمر أكثر من أربع سنين.

الرابعة: قيام الوحدة بين مصر وسورية منذ ٢٢-٢- ١٩٥٨ وحتى ٢٨-٩-١٩٦١، أعقبها الانفصال بين الإقليمين: الشمالي والجنوبي، أو بين القطرين بعد أحداث مليئة بالمفارقات والتناقضات والصراعات والمؤامرات والإخفاقات عبر ثلاث سنوات ونصف أي بعد ٤٤ شهراً.

الخامسة: مرحلة الانفصال التي لم تعمر طويلاً، ولم تقو على الصمود أمام قوى عاتية من داخل سورية وخارجها، فانهارت وتبعثرت وذابت كما تذوب كرات الثلج تحت أشعة الشمس الدافئة.

السادسة: مرحلة الحكم البعثي الذي انطوى على حكم طائفي امتد زهاء ثمان وثلاثين سنة منذ الثامن من آذار عام ١٩٦٣ وحتى وفاة حافظ أسد في حزيران/ يونيه عام ٢٠٠٠، ولذا فلا يسعنا في تسجيل أحداث هذه المرحلة التي طالت واستطالت إلا أن نقسمها إلى فترات، ربما بلغت أو زادت أو نقصت حسب المنعطفات والمفاصل التاريخية والأحداث المفصلية التي شهدتها سورية بعد استيلاء الضابط حافظ أسد على السلطة وحتى وفاته.



تمهيد

في الساعات الأولى من فجر الثامن من آذار/ مارس ١٩٦٣ استيقظت العاصمة على هدير الدبابات والمصفحات في انقلاب عسكري قاده عقيد في الجيش السوري، ترك الجبهة السورية مع العدو الإسرائيلي، واتجه صوب العاصمة ليدخلها من جنوبها، ويحتل مباني الإذاعة والتلفزيون، ومبنى أركان الجيش ودوائر الحكومة دون أي مقاومة، أو إطلاق رصاصة واحدة، وتمّ له استلام السلطة في تمرد سهل، كان من أول أسبابه ضعف رئيس الجمهورية أو خوفه أو تواطؤه، إذ لم يسمح لقائد كبير في الطيران هو الطيار هيثم المهايني قائد قاعدة الضمير، أن يوقف زحف لواء زياد الحريري، ويبطل عملية الانقلاب، بل إن ناظم القدسي كان فيما بعد من المتحمسين لانتخاب حافظ أسد رئيساً للجمهورية بشكل علني أمام جمهور الناخبين.

استغل المخططون للانقلاب طموح اللواء زياد الحريري، وميله إلى حياة اللهو والدعة، فوضعوه واجهة أمام الرأي العام في الداخل والخارج، حتى إذا تمكنوا من الحكم لفظوه لفظ النواة، ولما يمض

على انقلابه ثلاثة أشهر، ونفوه إلى خارج الوطن لينتقل متسكعاً ما بين بيروت وبغداد وباريس، وما يزال منفياً على الرغم من مرور خمس وأربعين سنة على فعلته الشنعاء.

أما السياسيون من ذوي اليسار واليمين جميعاً، فاستمروا في جدالهم العقيم، الذي بدؤوه منذ الساعات الأولى لعهد الانفصال، وظلوا عليه حتى بعد انقلاب الثامن من آذار دون أن يفطنوا، أو يفطن بعضهم، إلى ما يبيت لسورية من كيد، وما يحاك ضدها من تآمر، إلى أن وقعت الواقعة، وسقطت سورية بين براثن حكم جرّ من الكوارث والمآسي والنكبات على الوطن ما لم يكن مسبوقاً في تاريخ سورية، بما في ذلك الزحف الصليبي والغزو المغولي والانتداب الفرنسي في آخر المطاف، وكيلا يتصور القارئ أو المواطن أن في هذا الكلام مبالغة أو تهويلاً، عليه أن يلوذ بالصبر والتريث في إصدار حكمه حتى يفرغ من قراءة ما حدث لسورية طوال أربعة عقود ونيّف، سيطرت فيها الأقليات والحركات الباطنية على مقدرات الوطن وأرضه وشعبه، باسم الأحزاب السياسية تارة، وباسم الجبهة الوطنية التقدمية تارة أخرى.

وأشهد الله وملائكته والناس أجمعين، وأخص منهم القراء والباحثين والمؤرخين، أنني سوف أتحرى الحقيقة ما وسعني، وأن أسند الأحداث والوقائع إلى مصادرها، ولاسيما الكتاب الغربيون من أمثال باتريك سيل، وفان دام، وألن جورج، وغيرهم، وكذا الهيئات المعنية بحقوق الإنسان والدفاع عنها، وكذا منظمات العفو الدولية

الشهيرة والمعتمدة في العالم مثل أمنستي وهيومان رايس ووتش ومنظمة رقيب الشرق الأوسط - من فروع هيومان رايس ووتش- وغيرها، وأن أتقيد بالأمانة العلمية والدقة ما وسعني، سواء أكان ذلك لجماعة الإخوان أم عليها، التزاماً بقول السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقوله جل من قائل: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[1]، وقوله جل شأنه: ﴿ستكتب شهادتهم ويُسألون﴾[2].

* * *

(١) الآية ١٨ من سورة ق.

(٢) سورة الزخرف جزء من الآية ١٩ .

الفترة الأولى

الانقضاض على السلطة
من ٨-٣-١٩٦٣ وحتى ٢٣-٢-١٩٦٦

أولاً: الحريري يحتل دمشق

غادر لواء من الجيش السوري الجبهة مع العدو، ودخل دمشق بقيادة العقيد زياد الحريري في انقلاب سهل، سيطر فيه على دوائر الحكومة ومؤسسات الدولة دون أن يلقى مجابهة أو مقاومة من حكومة الانفصال أو الوحدات العسكرية (التي مر بها ما بين الجبهة ودمشق) التي تفوق في عددها خمسة أضعاف اللواء، أو من المؤسسة الأمنية أو من الأحزاب السياسية التي كانت تشارك في الحكم، أو من الجماهير الشعبية في العاصمة وفي المدن السورية الكبيرة مثل حلب وحماة وحمص واللاذقية ودرعا ودير الزور وإدلب وغيرها.

١ - في نفس اليوم الذي سيطر فيه الانقلابيون على مقاليد السلطة، التقى قادة الانقلاب وأنصارهم في مبنى الأركان العامة، فهنأ بعضهم بعضاً بالعناق والقبلات، وبادروا على الفور إلى تشكيل القيادة

العامة للجيش والقوات المسلحة، وتعيين مجلس لقيادة الثورة، ضم عشرة ضباط، وهم: الفريق الركن لؤي الأتاسي قائداً عاماً للجيش ورئيساً لمجلس قيادة الثورة، وكان برتبة عميد، واللواء زياد الحريري رئيساً للأركان، وكان برتبة عقيد، وتعيين اللواء راشد القطيني نائباً للقائد العام، وكان برتبة عميد (وقد تم ترفيع هؤلاء جميعاً في يوم الانقلاب أي في ٨-٣-١٩٦٣) واللواء الركن غسان حداد، وكان برتبة عميد، واللواء محمد عمران، وكان برتبة عقيد، واللواء صلاح جديد، وكان برتبة مقدم، وقد تم ترفيع هؤلاء بتاريخ ١-١٢-١٩٦٣، ثم جرى ترفيع فهد الشاعر من عقيد إلى عميد إلى لواء، وكذا العقيد فواز محارب، والمقدم موسى الزعبي.

هكذا أضحت الرتب العسكرية (التي ما كانت تعطى إلا بعد دراسة وتدريب واختبار، وبعد زمن محدد) تمنح، أو صار الانقلابيون يمنحونها لأنفسهم بالجملة، ودون أي اعتبار عسكري، كما هو حال الجيوش ذات الأصالة العسكرية المعهودة.

هؤلاء هم أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين منحوا أنفسهم السلطة المطلقة على سورية، والتي تشمل السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية في الداخل، وحق التصرف في السياسة الخارجية، كإقامة العلاقات مع الدول أو المعسكر الذي يودون، وإبرام الاتفاقيات والمعاهدات التي يقررون.

٢- تم الاتفاق مسبقاً بين أعضاء المجلس على أن يكون الأستاذ صلاح البيطار رئيساً للوزراء، وأن تكون الحكومة مناصفة بين البعثيين

والناصريين، فتمت في عصر يوم الانقلاب دعوة القيادات السياسية إلى وزارة الدفاع للتداول في تشكيل الحكومة، فاقترح البيطار أن يتألف مجلس قيادة الثورة من عشرين شخصاً، عشرة من المدنيين، بالإضافة إلى العشرة العسكريين الذين جاء ذكرهم قبل سطور، فتمت الموافقة على الاقتراح، وقد تم تشكيل الوزارة في اليوم التالي بتاريخ ٩-٣-١٩٦٣، ثم حضر عن الناصريين: نهاد القاسم، وعبد الوهاب حومد، -اتحاد اشتراكي- وهاني الهندي، وجهاد ضاحي، -قوميون عرب- وسامي صوفان، وسامي الجندي، -وحدويون اشتراكيون- وحضر عن البعثيين: ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وشبلي العيسمي، وعبد الكريم زهور، وجمال الأتاسي، ومنصور الأطرش، وتم الاتفاق على أن يسمى البيطار نائباً لرئيس قيادة الثورة، والأستاذ نهاد القاسم نائباً لرئيس مجلس الوزراء[١].

٣- عندما وقع الانقلاب لم يكن لحزب البعث في المجتمع السوري حضور قوي، بل بقي لهم وجود رمزي بعد الذي أصابهم من تمزق وتشرذم، والتحاق بتنظيمات أخرى، فلم يجد الانقلابيون إلا عدداً ضئيلاً ظل على ولائه للحزب، لا يزيدون إلا قليلاً عن ٤٠٠ عضو، كما جاء على لسان عدد من قادة الحزب العسكريين أمثال أحمد سويداني وعدد من الباحثين الغربيين أمثال ألن جورج[٢] وفان دام[٣]،

---

(١) أوراق شامية في تاريخ سورية المعاصر: ١٥٣-١٥٥ .

(٢) سورية لا خبز ولا حرية تاليف آلن جورج: ١٦٤ .

(٣) الصراع على السلطة في سورية لفان دام: ٤٥ .

بل إن حافظ أسد ذكر في المؤتمر القطري الذي أعقب الانقلاب، وبعد أن شدد قبضته على مفاصل القوة العسكرية والمدنية أن عدد أعضاء الحزب كله سبعة أعضاء في مدينة حلب كلها، متباهياً بأن انقلابه هو الذي أحيا الحزب وأعاد إليه كيانه.

لهذا لم يكن لدى الحزب كوادر يملأ بها دوائر الدولة والمؤسسات الحكومية، فاستعانوا بمن التف حول انقلابهم وآلتهم العسكرية.

أما الوزارات التي شكلوها فقد بلغ عددها ثماني وزارات ما بين ٨-٣-١٩٦٣ وحتى ٢٣-٢-١٩٦٦ في أقل من ثلاث سنوات، خمسة منها برئاسة صلاح البيطار، واثنتان برئاسة أمين الحافظ، وواحدة برئاسة الدكتور يوسف زعين.

لقد شكل البيطار وزارته من عشرين وزيراً: صلاح البيطار رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية، ونهاد القاسم نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للعدل، وعبد الوهاب حومد للمالية، والفريق محمد الصوفي وزيراً للدفاع، والعميد أمين الحافظ وزيراً للداخلية، ومنصور الأطرش وزيراً للعمل، وعبد الحليم سويدان وزيراً للزراعة، وسامي الدروبي وزيراً للتربية، وعبد الكريم زهور وزيراً للاقتصاد، وجمال الأتاسي وزيراً للإعلام، ودرويش العلواني وزيراً للأوقاف، وهاني الهندي وزيراً للتخطيط، ووليد طالب وزيراً للبلديات، وجهاد ضاحي وزيراً للمواصلات، وسامي صوفان وزيراً للتموين، وأحمد أبو صالح وزيراً للأشغال العامة، وشبلي العيسمي وزيراً للإصلاح الزراعي، وإبراهيم

ماخوس وزيراً للصحة، وسامي الجندي وزيراً للثقافة، وطالب الضماد وزيراً للصناعة.

لقد ضمت وزارة البيطار الأولى بعد الانقلاب عشرة بعثيين وعشرة ناصريين، أكثرهم من أصول بعثية.

لم تعمر هذه الوزارة إلا ٨٦ يوماً، من ٩-٣-١٩٦٣ وحتى ١٢-٥-١٩٦٣ .

كلف البيطار بتشكيل الوزارة الثانية في ١٢-٥-١٩٦٣، فشكلها من ستة عشر وزيراً، كان بعضهم ممن شارك في الوزارة الأولى، أما الوزراء الجدد الذين انضموا إليهم فهم: مصطفى الشماع، عبد الرحمن الطباع، وعبد الخالق نقشبندي، ومظهر الشوربجي، وجورج طعمة، وعادل طربين، وعبد الرزاق شققي، لكنها استقالت بعد ٦٨ يوماً من تشكيلها(١).

شكل صلاح البيطار الوزارة الثالثة في ٤-٨-١٩٦٣، فاستمرت حتى يوم ١٢-١١-١٩٦٣، وكانت تضم عدداً من الوزراء السابقين وعدداً آخر من الوزراء الجدد وهم: نور الدين الرفاعي، وصالح المحاميد، ونور الدين الأتاسي، ومحمد جيوش، والعميد عبد الله زيادة، فكان عمر هذه الوزارة الثالثة مئة يوم لتستقيل، وتخلفها وزارة رابعة شكلها اللواء أمين الحافظ من جميع الوزراء السابقين، مضافاً إليهم: حسان مريود، ويوسف زعين، ومصطفى حداد، ومظهر

---

(١) أوراق شامية: ٣٠ -٣١ .

العنبري، ومحمود الجيوش، وخير الدين حقي، فعمرت هذه الوزارة أكثر من سابقاتها، واستمرت بالسلطة زهاء ١٨٤ يوماً وضمت ٢٣ وزيراً.

عاد البيطار ليشكل الوزارة الخامسة في ١٤-٥-١٩٦٤ من سبعة عشر وزيراً، شارك فيها من الوزراء الجدد: ثابت العريسي، وعبد الله عبد الدايم، وعادل السعدي، وأسعد محفل، وكمال حصني، واللواء ممدوح جابر، وأصلان الوزان، وعبد الرحمن الكواكبي، ثم استقالت بعد أن أمضت في السلطة ١٤٣ يوماً وضمت ٢١ وزيراً.

كُلِّف أمين الحافظ بتشكيل الوزارة السادسة في ٤-١٠-١٩٦٤، فاستمرت في السلطة حتى ١٢-٩-١٩٦٥ أي أكثر من أحد عشر شهراً بقليل.

كان مجموع أيامها ٣٤٤ يوماً لتكون أطول هذه الوزارات الثمانية عمراً في هذه الفترة من حكم البعثيين، وقد دخلها من الوزراء الجدد: عبد الفتاح البوشي، وسليمان الخش، وحسين مهنا، وعبد الكريم الجندي، وجميل شيا، ومصطفى نصّار، ومشهور زيتون، وسميح فاخوري، ومحمود تُجَار، وهشام العاص، ومحمد خير بدوي.

كلف الدكتور يوسف زعين بتشكيل الوزارة السابعة في ١٢-٩-١٩٦٥ وألحق بها من الوزراء الجدد: عبد الفتاح طالب، وعلي تل جبيني، وإبراهيم بيطار، واللواء حمد عبيد، وصادق فرعون، ومحمد عيد عشاوي.

استمرت هذه الوزارة حتى ١-١-١٩٦٦، فكان عمرها مئة وعشرة أيام، لتخلفها وزارة البيطار الثامنة، التي كانت أقصر الوزارات عمراً، إذ لم تمكث في الحكم إلا بضعة وخمسين يوماً، إذ داهمها الانقلابيون في ٢٣-٢-١٩٦٦ بترتيب من القيادة القطرية، وعلى رأسهم صلاح جديد، وعبد الكريم الجندي، وحافظ أسد من وراء ستار.

ثانياً: التسلط الديكتاتوري

الذين يدققون في أحداث هذه المرحلة التي امتدت ثلاث سنوات إلا قليلاً يلاحظ ما يلي:

١- أن سورية استحالت إلى حقل تجارب لدى المغامرين العسكريين، ومن يبحث عن الجاه الزائف والمغنم من المتسلقين، إذ كانت الوزارة لا تستمر أكثر من فصل من فصول السنة ثم تختفي وتنتهي، وإذا سألت عن الأحزاب السياسية والشخصيات الوطنية ورجالات سورية، الذين قادوا بلدهم إلى الاستقلال، وعن شيوخ الإسلام وقادة الوطن، وعن الإخوان المسلمين الذين كانوا يشكلون كتلة برلمانية كبيرة، في ثقلها ونوعية رجالها، بل إذا سألت عن الشعب كله أين هو من أحداث هذه المرحلة من ٨-٣-١٩٦٣ وحتى ٢٣-٢-١٩٦٦ فإنه - في نظر المغامرين- في خبر كان أو في خانة الصفر، لم يعد له وزن أو وجود في نظر الانقلابيين الذين هدموا الحياة الدستورية والبرلمانية والمدنية من القواعد.

لقد أعطى الانقلابيون لأنفسهم صلاحيات مطلقة في كل شيء

بموجب الأحكام العرفية التي أعلنوها منذ الساعات الأولى للانقلاب في ٨-٣-١٩٦٣ بالأمر العسكري رقم (٢) دونما سند من مواد قانونية أو أسباب موجبة كالتي نص عليها قانون إعلان حالة الطوارئ مثل: حالة الحرب، أو تعرض البلاد للخطر، أو حدوث اضطرابات داخلية، أو وقوع كوارث عامة، أو موافقة مجلس الوزراء بأكثرية الثلثين، أو عرضه على المجلس النيابي في أول اجتماع له. وبموجب هذه الأحكام العرفية التي أعلنت دونما سند قانوني، توقف العمل بالدستور، وبالقوانين أو معظمها، وعطل القضاء إلا في بعض القضايا المدنية، وحل مكانه القضاء العسكري والمحاكم الاستثنائية التي حكمت بالإعدام على الألوف دون السماح للمتهم بالدفاع عن نفسه، أو توكيل محام عنه، أو استئناف الحكم الصادر عليه من عسكريين يجهلون القوانين وأصول المحاكمات، والحدود الدنيا لمجريات القضاء، فكانوا يحكمون بالموت على المتهم بعد دقائق يمثلها أمامهم، ثم يدفعون به إلى ساحات الإعدام ولربما كان الضحية سعيداً بقتله ليتخلص من ألوان العذاب التي لم يسمع بها البشر من قبل، مما سيأتي ذكره في حينه، كما جاء في وثائق الدفاع التي نشرتها منظمات العفو الدولية المدافعة عن حقوق الإنسان.

والغريب أو المستهجن الذي تعاف سماعه النفوس أن الذين كانوا يساقون إلى المشنقة أو حقل الرمي، كلٌّ يلفظ بالشهادة قبيل قتله، فقرر السفاحون حرمانه من ذلك، ووضعوا لاصقاً على فمه حتى لا

ينطق بالشهادتين ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كيلا يسمعه المكدسون في المهاجع، والذين ينتظرون دورهم في الإعدام، وبهذه الأساليب الهمجية والوسائل الوحشية نفذ حكم الإعدام بالألوف من عسكريين هم خيرة ضباط الجيش كفاءة وأخلاقاً، ومن علماء ومفكرين وشباب بأعمار الأزهار في مأساة (لم أقرأ ولم أسمع بمثل قسوتها) ما واجهها شعب من شعوب الأرض في النصف الثاني من القرن العشرين، واستمرت حتى مطلع القرن الواحد والعشرين الذي نشهد سنواته الأولى، وسورية لا تزال ترزح تحت وطأة الحكم العرفي، وتسلط أجهزة الأمن على رقاب العباد وحياة المواطنين.

٢- كان الانقلابيون يفتقرون إلى أي تأييد شعبي عدا المرتزقة والانتهازيين الذين تحلقوا حول دبابات اللواء الذي ترك الجبهة مع العدو، - وإسرائيل لم تحرك ساكناً- وجاء إلى العاصمة السورية محتلاً، وكان حزب البعث الذي رفع الانقلابيون رايته، وحكموا باسمه، قد تبعثر وتشتت، وتحول إلى شظايا منذ أيام الوحدة حين التحق بعثيون كثيرون بالأحزاب الوحدوية والناصرية، وترك بعضهم العمل وآثروا العزلة، وهاجم البعض من البعثيين الحزب واتهموه بالانحراف والطائفية، كما صرح بذلك وكتب فيه منظّر حزب البعث مطاع الصفدي، والأمين العام السابق لحزب البعث منيف الرزاز، ومن قبلهما جلال السيد أحد مؤسسي الحزب الأربعة (ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني وجلال السيد) فلم يكن عدد الذين

استمروا بانتمائهم إلى الحزب الذي يقوده عفلق أكثر من ٤٠٠ عضو كما رأينا من قبل، فلم يجد الانقلابيون من يملؤون بهم الوظائف الكبيرة ودوائر الحكومة إلا المنافقين الذين يلهثون وراء المنصب والشهرة والجاه وتكديس المال الحرام.

لم يمض وقت طويل حتى كشف الانقلابيون عن بعض خططهم، فحشدوا أبناء الطوائف والأقليات في الدوائر والمؤسسات، وفي السلك الدبلوماسي وفي الجيش وأجهزة الأمن بشكل علني دون خجل أو حياء، أو حاجة إلى مداراة أو تستر أو إنكار، بعد أن حطموا كل مقومات الشعب وقدراته، وجردوه من كل مناعة أو طاقة على مقاومة رجال السلطة الثوريين التقدميين!!

ومن المفارقات العجيبة أن أحد دعائم الانقلاب على أديب الشيشكلي في مطلع عام ١٩٥٤ الذي انضم فيما بعد إلى المعارضة السورية، وكان عضواً في المكتب السياسي، كثيراً ما كان يكرر - بعد أن رأى ما حل بسورية وشعبها-: لقد خرب العسكريون سورية وحطموها، على مسمع من أعضاء المكتب السياسي السبعة للتحالف الوطني لإنقاذ سورية، هذا ما كنا نسمعه مراراً من السيد مصطفى حمدون.

٣- تستر الانقلابيون أو الطائفيون زوراً بحزب البعث وبالناصريين، وزعموا أنهم سيعيدون الوحدة التي سوّغوا بها انقلابهم للقضاء على الانفصال، وبعد أن تمكنوا نسفوا الناصريين نسفاً، وقضوا عليهم وعلى كل ما يمت لهم بصلة، قضاء مبرماً، بالقتل والإعدام والزج بهم في السجون والمعتقلات (حتى غادر الكثيرون

منهم أرض الوطن) وبتصفية الجيش وأجهزة الأمن من الناصريين والبعثيين غير الطائفيين والإسلاميين ومن أبناء المدن حتى لم يبقوا في الجيش والقوات المسلحة من ذوي الخبرة العسكرية إلا ما ندر، وإذا ذكرهم أو عيّرهم أحد ممن لم يقع في قبضتهم أنهم قلة قليلة لا تشكل إلا نسبة ضئيلة جداً من مجموع المواطنين، قال رئيسهم أمين الحافظ (الذي قدموه عليهم، وأبرزوه واجهة يرتكبون كل الآثام باسمه وينسبونها إليه) في خطبه أثناء جولاته:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

وكثيراً ما كنا نتندر مع أمين الحافظ حينما كنا نلقاه في بغداد، فيقابل ذلك بالضحك العالي وعبارات الندم، مدركاً أنهم استغلوه وخدعوه، واتخذوه واجهة لما اقترفت أيديهم من جرائم تقشعر من هولها الأبدان.

ومن أفظع ما اقترفوه من آثام في هذه الفترة العصيبة بحق المواطنين السوريين: تطاولهم على بعض النساء، خطفاً من الشارع أو بالتخويف أو الاغتصاب في أقبية التحقيق بعد الاعتقال وسَوْق الحرائر إلى غرف التحقيق، والويل كل الويل لمن يسأل عن ابنه أو ابنته بعد خطفهم، بل إن بعض الآباء ظلوا يجهلون مصير أبنائهم وبناتهم حتى كتابة هذه السطور.

ثالثاً: الخداع باسم الوحدة

كانت الهوة سحيقة وعميقة بين الانقلابيين وبين جماهير السوريين

أو معظم أطيافهم، وكان تجسير الهوة بين الانقلابيين والجماهير بعيد المنال عبر الدبابات وبعض الفئات العسكرية المحدودة، وللخروج من هذا المأزق أو هذه العزلة الشعبية، أعلنت السلطة عن رغبتها في إعادة الوحدة بين سورية ومصر، وأنهم -الانقلابيين- قاموا بانقلابهم لتحقيق هذا الهدف الكبير، وأنهم في طريقهم إلى القاهرة لإجراء مباحثات مع عبد الناصر، أعلنوا عن ذلك بعد قيام الانقلاب بستة أيام فقط.

سرعان ما سافر وفدهم إلى مصر، وشرع في المفاوضات مع جمال عبد الناصر في ١٤-٣-١٩٦٣ والتي استمرت حتى ١٧-٤-١٩٦٣ .

١- انضمت بغداد إلى مباحثات الوحدة، ودراسة مشروع اتحاد أو توحيد بين الأقطار الثلاثة، مصر وسورية والعراق.

شرع الأقطار الثلاثة في مباحثات الوحدة على دفعات، من ١٤ إلى ١٦ آذار، ومن ٦ إلى ٨ نيسان، أما الثالثة فقد انتهت في ١٧-٤-١٩٦٣ عندما أعلن المتباحثون عن دستور ينص على قيام جمهورية عربية ثلاثية معتمدة.

حضر المباحثات ناصر، وعامر وآخرون من مصر، وعلي صالح السعدي، وطالب شبيب، وصالح مهدي عماش، وأحمد حسن البكر، عن العراق، والحريري، والقطيني، وفواز محارب، وفهد الشاعر، عن سورية، ثم حضر عن سورية في المرحلة الثالثة من

السوريين مالا يقل عن سبعة عشر يمثلون المجلس الوطني لقيادة الثورة والحكومة والفئات الناصرية.

كان الانقلابيون السوريون يعملون على كسب الوقت، لتثبيت دعائم حكمهم الانقلابي في وحدات الجيش والأجهزة الأمنية ودوائر الحكومة، ولم يكونوا جادين في إقامة وحدة بين مصر وسورية في أي وقت، وبأي صورة من الصور، ولم يكونوا يثقون بعبد الناصر، ولكنهم خادعوه فانخدع للوهلة الأولى، وظن أن الأمر جد. لقد كان عبد الناصر يتبنى لهجة أبوية استفزازية تجاه البعثيين السوريين، ويضغط من أجل دمج جميع القوى السياسية في الأقطار الثلاثة، في تركيب حزبي واحد كما ذكر فان دام في كتابه. وفي ١٧-٤-١٩٦٣ وبعد شهر من المباحثات الشاقة والمتقطعة أعلن دستور ينص على قيام جمهورية عربية متحدة ثلاثية، كما جاء منذ قليل.

لم يضيع البعثيون أو الذين يحكمون باسم البعث ساعة واحدة للسيطرة على مرافق الدولة، وفي مقدمتها القوات المسلحة، وتصفية الآخرين في الجيش من غير العلويين، بدءاً بالسنيين ثم بالدروز والإسماعيليين، فبعد ثلاثة أشهر من الاستيلاء على السلطة طردت اللجنة العسكرية اللواء زياد الحريري وزير الدفاع ورئيس الأركان الذي قام بالانقلاب -حصان طروادة- مع مجموعة من كبار أنصاره الذين بلغ عددهم حوالي ٢٥ ضابطاً كما جاء في تقرير رقيب الشرق الأوسط[١].

ومما يجدر ذكره أن الحريري أسند إدارة المخابرات للضابط

---

(١) تقرير الرقيب: ١٥ .

عارف الجاجه من مدينة حماة، وقد عرفته معلماً في المدرسة التي كنت فيها طالباً، فرغب باللقاء مع عدد من الإخوان عن طريق ضابط الاحتياط م س، فالتقيناه وكنا ثلاثة: الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله، والأخ الداعية م ص وكاتب هذه السطور، فإذا بالضابط الجاجه يستنجد بالمنظمات الحزبية والجماهير الشعبية لفك الحصار الذي ضربته الفئات الطائفية بالجيش حول الحريري، وطلب منا أن نخرج في مظاهرات صاخبة وداعمة، فسألناه:

- تحت أي لافتة أو شعار تتحرك المظاهرات؟

فقال: تحت شعار: الحرية والوحدة والاشتراكية.

فالشيخ عارف -كما كان يسمى وهو يزاول مهنة التعليم- يريد من الإخوان أن يرفعوا شعارات البعث الذي أحرق الأخضر واليابس، فسرعان ما افترقنا مدركين ما كانت عليه هذه المجموعة من الغفلة والسذاجة، وشعرنا بالخطر الذي يهدد الوطن في مستقبله ومصيره.

٢- كشر الانقلابيون عن أنيابهم، ومدَّ الطائفيون رؤوسهم، وظهروا للعيان دون وجل أو خجل، فأدركت جموع المواطنين أن حزب البعث ليس أكثر من ستار لتكتل طائفي خطر، وأن أبناء الأقليات يُحْكمون قبضتهم على الوحدات العسكرية، وأنهم يمسكون بمفاصل القوات المسلحة، ويبعدون عن القطعات العسكرية، وعن الجيش، أو بالأصح عن الوحدات المؤثرة كلَّ مَنْ عداهم، بادئين بحلفائهم الناصريين الذين شاركوهم في الانقلاب، وتقاسموا معهم

عدد الأعضاء في المجلس الوطني للثورة، وعدد الوزارات، حتى أجبروهم على التنحي، فترك أكثر من ألف ناصري مواقعهم في الوزارات، واضطروا إلى تقديم استقالاتهم[1].

تململ الناصريون من سوء ما لاقوه من شركائهم البعثيين، فقرروا القيام بانقلاب عسكري يطيح بالبعثيين الذين خدعوهم بشعارات الوحدة التي أيدوها ظاهراً وعلانية، وحاربوها في السر والخفاء، واضطهدوا أنصارها والداعين إليها، فقاموا في وضح النهار بانقلابهم الذي كان مكشوفاً في ١٨-٧-١٩٦٣، وكان تنظيمهم مخترقاً، فجوبهوا بمقاومة شرسة، ومطاردة عنيفة، فقتل منهم من قتل، وهرب من هرب، واستسلم آخرون، أو أسروا ليقدّموا إلى محاكمة عسكرية، سرعان ما أصدرت أحكاماً بالإعدام على بضعة وثلاثين من الضباط والمشاركين، لينفذ فيهم حكم الموت حالاً بعد صدور الحكم، وكان من أبرزهم العقيد هشام شبيب قائد سلاح الإشارة.

كان العقيد جاسم علوان كبير الانقلابيين وقائدهم، والمعروف باتجاهه الوحدوي، وتأييده المطلق لجمال عبد الناصر، وقد عرفناه عن قرب عبر التحالف الوطني المعارض، وزرناه مراراً في منزله في حي الزمالك بالقاهرة، ولمسنا فيه النبل والخلق الرفيع والحمية والكرم، غير أنه كان من البساطة والعفوية بحيث يقع في مزالق عدة، كلفته الفشل تلو الفشل، بعد أن ارتكب الخطأ الفادح عندما اعترف بأن الشيشكلي قد لفت نظره إلى عدم تغليب الأقليات في اختيار

(١) المصدر السابق: ١٥ .

طلاب الكلية العسكرية، وأن يأخذوا نصيبهم بقدر حجمهم، لدى التحاقهم بالدراسة، لكن العقيد جاسم رفض هذه الفكرة، ولم يتقيد بتعليمات وتوجيهات الشيشكلي -كما اعترف بذلك- عندما كان مدرباً بالفصل الذي كان يضم ضباطاً علويين، أمثال حافظ أسد، وعلي أصلان، ومحمد نبهان(١).

٣- كانت اللجنة العسكرية السرية المكونة من محمد عمران، وحافظ أسد، وصلاح جديد، ومن انضم إليهم فيما بعد، من أبناء الأقليات مثل عبد الكريم الجندي، وأحمد المير، تتحرك في أوساط الجيش كتنظيم من داخل تنظيم البعث، وتتحكم في ترتيبات الجيش من وراء ستار، وتستغل الجيش باسم الحزب، والحزب باسم الجيش والشعب -حسب تعبير الدكتور اللواء غسان حداد عضو مجلس قيادة الثورة وزير التخطيط- وتعمل على احتلال العلويين مواقع عسكرية قيادية، فصلاح جديد غدا رئيس الأركان من عام ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٥، وحافظ أسد قائد سلاح الطيران، وعزت جديد قائد اللواء سبعين أقوى ألوية الجيش والممسك بخناق العاصمة، وبيده مفتاحها(٢).

رابعاً: هدم المساجد والمعابد

ضاقت الجماهير ذرعاً بهذا الحكم الغريب عن طبيعة السوريين،

---

(١) الصراع على سورية لفان دام: ٥٥.

(٢) أوراق شامية للواء الدكتور غسان حداد: ١٦.

وعن معتقداتهم وأفكارهم وتقاليدهم، فعارضوا الحكم بالكتابات والمظاهرات، وفي الوسط الطلابي في المدارس الثانوية والجامعات، وانطلقت الاحتجاجات في المدن السورية الكبيرة، فعومل المواطنون بالقمع والبطش، وقوبل الطلاب ومن تظاهر معهم بالرصاص والقتل، وقد كان من عادات السوريين اللجوء إلى المساجد عندما تحاصرهم قوات الأمن والجيش في عهد الانتداب الفرنسي، ولم يكن الفرنسيون يجرؤون على اقتحام المساجد، بل كانت قواتهم تقف خارجها تهيباً ومراعاة لحرمتها، بل إن المعارضة كانت تعقد مؤتمراتها واجتماعاتها في المساجد الكبيرة (كالجامع الأموي الشهير في دمشق) وهي آمنة مطمئنة، غير أن الأمر اختلف في ظل الحكم التقدمي بعد استيلاء البعث أو الطائفيين على مقاليد الحكم، فلم يعد للمساجد والجامعات ومعاهد العلم حرمة أو كرامة، أمام ميليشيات السلطة أو أفراد الشرطة والأمن والجيش.

١- بعد اشتداد المعارضة في العام الذي تلا الانقلاب، وخروج المظاهرات والاحتجاجات بالألوف في معظم المدن السورية، وكانت حماة أشد المدن معارضة ورفضاً لحكام ٨ آذار ١٩٦٣، فجرى الصدام في المدارس الثانوية، ولاسيما في ثانوية عثمان الحوراني التي خرج طلابها في مظاهرة صاخبة، جوبهت بالقمع والرصاص الحي، فاستشهد طالبان، وساد التوتر والهيجان أجواء المدينة، فاندفع سكانها كالطوفان بقيادة زعماء المدينة ورجالاتها، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم المهندس الزراعي ودارس الفلسفة المجاهد الشيخ مروان حديد، وانتهت حركتهم بالاعتصام في جامع السلطان، أشهر مساجد المدينة،

ومقر شيخ المدينة وصدّيقها الشيخ محمد الحامد، طيب الله ثراه، الذي نصح المعتصمين بإنهاء اعتصامهم وخروجهم من المسجد ومغادرته إلى بيوتهم، لكن السلطة الحاقدة المتلهفة إلى البطش وتصفية المعارضين، حشدت قواتها حول جامع السلطان، وشرعت في قصف المئذنة التي سرعان ما هوت، ودك الحرم والموجودين في داخله، غير أن أبناء المدينة أحاطوا بالوحدات العسكرية المهاجمة، وأمطروها من البيوت والمناطق المحيطة بالمسجد، ولاسيما من المدرسة الشرعية التي تقع على ظهر سوق الطويل، فنشبت معركة حامية بين الوحدات العسكرية التي تطوق المسجد، وبين المدافعين من الداخل والخارج، استمرت ساعات، أو قل سحابة اليوم، كان محصلتها استشهاد أكثر من خمسين شهيداً، أو كما يقدر البعض بسبعين شهيداً، أما الجيش فقد خسر المئات من الضباط والجنود الذين زجت بهم السلطة الباغية في معارك ضد المواطنين، وليس ضد العدو الصهيوني الجاثم على الحدود والمغتصب لفلسطين.

اقتحم الجيش صحن المسجد وباحة الحرم، واعتقل العشرات من المعتصمين داخله، فسيق هؤلاء المعتقلون إلى حمص، ثم إلى سجن تدمر الصحراوي، لتمارس عليهم السلطات ألواناً من العذاب الوحشي بالضرب بأسلاك الكهرباء، ومنعهم من الاستحمام، وحرمانهم من الغذاء إلا اليسير منه، ومن الدواء كما سمعت ذلك تفصيلاً من أخي الذي كان واحداً من المعتقلين بعد خروجه من السجن.

٢- شكلت حكومة الأقليات الباغية محكمة عسكرية برئاسة

المقدم مصطفى طلاس، وقدمت ٢١ من المعتقلين للمحاكمة، فأبدى المساجين شجاعة أذهلت أعداءهم، ولاسيما ما ظهر من شجاعة الشيخ مروان حديد في مواجهة أعضاء المحكمة، فعندما قال طلاس للمساجين:

- أنتم عملاء.

أجاب مروان: العملاء معروفون، وفي مقدمتهم رئيس حزبكم الذي قبض المبالغ من عبد الناصر كما جاء في محاضر المباحثات في القاهرة.

وقد أشار مروان على إخوانه جميعاً عندما ينطق رئيس المحكمة بإعدامهم، أن يبتسموا، ويقابلوا ذلك بالهزء والسخرية، ليسمع الحاضرون ضحكاتهم استخفافاً بهذه المحكمة التافهة التي عقدت جلساتها في المركز الثقافي بحمص، وعندما هدد أحد أعضاء المحكمة المساجين بالموت، أجاب مروان مبتسماً:

- لو كنت أعلم أنك تملك موتي وحياتي لعبدتك، وما تدري لعلك تموت قبلي.

ألغت المحكمة الجلسات العلنية لما كان لها من أثر سلبي على المحكمة وعلى الحكومة، ومن أثر إيجابي على الحركة الإسلامية في نظر المواطنين.

لا يسعني في تسجيل أحداث حماة وجامع السلطان إلا أن أشير إلى خطأ وقعت فيه جماعة الإخوان المسلمين في حماة، فبعد أن

أصدر المكتب التنفيذي توجيهاته إلى مركز الإخوان في حماة أن لا يتورطوا بالصدام، وأن لا يُجروا إليه تحت أي ظرف أو استفزاز تلجأ إليه السلطة، وبعد أن قررت إدارة مركز حماة التقيد بتوجيه المكتب التنفيذي -القيادة- وأقرت الأخذ بأسباب التهدئة وتحاشي الصدام، دعت إلى مهرجان خطابي شعبي في جامع الشيخ زين بحي الحاضر في حارة الشمالية لتوجيه الجماهير وحثها على الركون إلى الهدوء والسكينة، وقف أحد خطباء الجماعة، وقد بلغت فيه الحماسة مبلغها، فنادى بالتعبئة في وجه السلطة، ودعا إلى ما يشبه حلف الفضول لحشد سكان المدينة عبر هيئاتها ومنظماتها وأحزابها في التصدي لأجهزة الأمن والشرطة والحزب الحاكم، وكان الناس كالبركان لا ينقصهم إلا عود الثقاب، لينفجروا ويحدث الصدام.

كان على قيادة المركز في حماة أن تستدرك هذه المخالفة الضارة التي أدت إلى أحداث كارثية، سواء أكان ذلك من داخل هذا التجمع ليستدرك الأمر على الفور، أو يدعو إلى مؤتمر لاحق بالسرعة الممكنة لتبليغ المواطنين بموقف الجماعة، وبالقرار الذي اتخذه مركز الإخوان في تحاشي الصدام، وتجنب كل ما يؤدي إلى إشعال الفتنة في مدينة أبي الفداء الممتحنة أو المبتلاة.

٣- تحرك علماء حماة ووجهاؤها لإيقاف المذبحة وهدر الدماء، وشكلوا وفداً كبيراً ضم حوالي ستين شخصاً، كان الشيخ الحامد رحمه الله على رأسه، وكأن حركتهم كانت بإيعاز من الفريق أمين الحافظ الذي لمس من رفقائه في الحكم رغبة جامحة في الانتقام

والتنكيل والإمعان في القتل، وفي هدم المدينة على رؤوس المواطنين، ولاسيما ممن كانوا يمثلون حقداً بدافع طائفي مقيت، فاستقبل الحافظ ومعه عضوا الرئاسة: محمد عمران ومنصور الأطرش، فوقف الشيخ الحامد متحدثاً، ووقف الحاضرون بمن فيهم أعضاء مجلس الرئاسة توقيراً للشيخ الجليل الذي ارتجل كلمة عظيمة تركت أجمل الأثر في نفوس السامعين، ومما جاء في خطبته قوله:

«لقد استحر القتال بين قبيلتين من قبائل العرب، فقال أحد قادتهم أو حكمائهم: هذا الخصام وهذه الحرب لا يسعها إلا التسامح والعفو من الجميع (أي دونما عتاب أو تلاوم) فكان الصلح الذي وضعت فيه الحرب أوزارها.

قال أمين الحافظ: لابد من التشاور مع أعضاء مجلس الرئاسة.

فقال الشيخ منير لطفي -رحمه الله وطيب ثراه- كما سمعت هذا من فمه-: إن أحد زميليك منصور الأطرش هو ابن قائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش، وهو الذي يعرف للثائرين مكانتهم وكرامتهم، وإن العضو الآخر هو محمد عمران الذي تعلم في حماة، وتخرج في مدارسها، ويعرف حقها عليه.

وبعد تداول بين أعضاء المجلس لم يدم طويلاً، قال أمين الحافظ:

- لقد اتفقنا على إصدار العفو عن المساجين الذين حُكموا بالإعدام، وإطلاق سراحهم.

قال الشيخ الحامد: ونطالب بإصدار العفو عن الهاربين إلى خارج القطر.

فقال أمين الحافظ: ولكم هذا ومطلبكم مجاب.

فقال الشيخ: نود صرف تعويضات للمتضررين الذين لحقهم الأذى في هذه الأحداث.

فوافق الفريق أمين الحافظ على هذا.

غادر الوفد دمشق، وتوجهوا بسياراتهم عائدين إلى حماة عن طريق حمص حيث يحتجز المساجين في سجنها بعد أن أحضرتهم السلطات من سجن تدمر الصحراوي الذي ذاقوا فيه أشد ألوان العذاب، وكان الشيخ الحامد قد راجع قائد المنطقة الوسطى عبد الرحمن الخليفاوي محتجاً على ممارسة التعذيب، فتدخل الخليفاوي مع إدارة السجن، فحدث انفراج التقط فيه المساجين أنفاسهم.

٤- سار موكب العلماء بسياراتهم فرحين جذلين من الفوز الذي حققوه بفضل الله عليهم، وعندما وصل موكب الوفد إلى سجن البالوتي، طالبوا الحرس بإطلاق سراح المعتقلين، فرفض المسؤولون عن السجن ذلك قائلين: لم نتلق أمراً من الرئاسة بهذا الأمر، وطلبوا التريث ريثما يتم الاتصال بدمشق.

لم تمض إلا برهة حتى وصلت التوجيهات لإدارة السجن بقرار العفو، فخرج المساجين ليستقبلهم أعضاء الوفد بالعناق ودموع الفرح، وأركبوا كل واحد بسيارة مع بعض أعضاء الوفد، وسار

الموكب يتهادى إلى وادي حماة الخصيب الجميل، فدخلوها دخول الظافرين، ليروا أبناء المدينة باستقبالهم، وليسمعوا غناء النواعير وشدوها بآذانهم، ولينضموا إلى ذويهم وأرحامهم، فكان يوماً مشهوداً يفيض بالبشر والبهجة، لا ينساه أبناء مدينة أبي الفداء على مر السنين.

معظم هذا الكلام سمعته من فضيلة شيخنا الحامد، رفع الله مقامه في عليين، لأن الشيخ، بما كان عليه من خلق رفيع، أصر على زيارة عائلات المساجين كلها بالتتابع ليهنئهم بسلامة أبنائهم، وكان منزلنا كغيره قد شَرُف بزيارة الشيخ، لأن أخي عبد الجبار، رحمه الله، كان في عداد من صدر عليهم حكم الإعدام، فاستقبلته في أيام الصيف على سطح المنزل المطل على بستان جميل، لأسمع منه تفاصيل زيارة الوفد إلى دمشق، وما أنجزه من نجاح وفوز كبيرين.

٥- لم يكن هدم جامع السلطان حادثة فريدة في ظل حكم البعث، بل امتدت الأيدي الآثمة إلى مساجد أخرى تاريخية وذات أهمية في مدن أخرى، كان منها مسجد خالد بن الوليد في حمص الذي يضم رفات القائد العربي الإسلامي العالمي خالد بن الوليد كبير الفاتحين في تاريخ المسلمين، كما يضم رفات ولده سليمان على ما تنص بعض الروايات التاريخية، وكان أهل حمص يلجؤون إلى مسجد خالد في الشدة وفي الرخاء، عندما يحتفلون بالمناسبات التاريخية العظيمة، مثل ولادة فخر الكائنات سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وهجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، وانتصاره يوم الفرقان في بدر،

وإسرائه إلى بيت المقدس، ومعراجه إلى ما فوق السماوات، كما كان أبناء مدينة حمص يلجؤون إلى جامع سيدنا خالد في أيام الشدة ومقارعة المحتلين لأرض الوطن، فصار اسم خالد يطلق على اسم المدينة التي شرفت به، فتسمى مدينة خالد بن الوليد، كما كانت مدينة حماة تسمى باسم مدينة أبي الفداء الملك الأيوبي العالم المجاهد والمؤرخ الكبير.

كانت نفوس الانقلابيين -أو بعضهم من ذوي النزعة الطائفية- متعطشة إلى سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، ونهب الأموال، وزج المواطنين الوجهاء والشرفاء في غياهب السجون، وعندما اضطربت الأمور في حمص -شأن المدن الأخرى- لجأت مجموعة من المواطنين في حمص إلى جامع خالد بن الوليد يحتمون به، فكانت فرصة للحاقدين كي ينقضوا على الجامع التاريخي دون أن يرعوا لبيت الله وللقائد الفذ خالد بن الوليد ولدماء المواطنين حرمة، فشرعوا في ضرب المسجد وتطويقه وقصفه.

ابتدأت المأساة في صيف ١٩٦٤ بعيد ضرب مسجد السلطان في حماة، عندما توافد المصلون على مسجد خالد لأداء صلاة العصر، كما رأى وروى لي أحد المصلين، ولما فرغوا من أداء الفريضة، انصرف شطر من المصلين، وبقي في المسجد شطر آخر يصغون إلى خطباء كانوا يلقون الكلمات، ويشجبون سياسات السلطة، فأحاطت قوة من رجال الأمن بالمسجد، ودخلت إلى صحن الجامع مجنزرة اقتربت من باب الحرم الذي أغلقه المصلون، ووضعوا خلفه السجاد،

ليستعصي فتحه والدخول منه، فثقب أفراد الأمن الباب الخشبي التاريخي العتيد، وفتحوا كوة أدخلوا منها قضبان الحديد التي وسعت الفتحة حتى كسرت الباب وحطمته قطعاً متناثرة، ودخل الجنود الأشاوس حرم المسجد، وشرعوا بضرب المصلين وجلدهم والتنكيل بهم، ومن ثم إخراجهم ليسيروا بين صفين من الجنود في وضع مهين، لينتهوا بهم إلى لوريات الجيش وناقلات الجنود، ويحشروهم فيها بعضهم فوق بعض، ثم نقلوا إلى المسجد البالوتي، ليقذف بهم في غرفة صغيرة، وهم يزيدون على مئة معتقل، فلم يك باستطاعة أحدهم أن يستلقي أو يجلس لضيق المكان، واستمرت هذه الحالة ساعات طويلة، وقد أنهكهم الجوع والعطش وعدم النوم، وجلوسهم القرفصاء، وهناك استكمل رجال الأمن ممارساتهم في التعذيب والضرب المبرح، واستعمال الأجهزة المستخدمة في تمزيق جلود المعتقلين، وبعد أيام جرت محاكمات (عادلة جداً) للمصلين في المركز الثقافي، فصدرت عليهم أحكام بالسجن، وقد سمعوا من أحد الضباط قوله:

- لو كان لديكم قطعة سلاح واحدة، لأبادكم الجيش عن بكرة أبيكم.

كان نور الدين الأتاسي وزيراً للداخلية في حكومة أمين الحافظ، وقد أشرف بنفسه على عملية اقتحام المسجد واعتقال المصلين، فقد شاهده المعتقلون عندما أُخرجوا من المسجد، وهو واقف خارجه يقود أو يشرف على عملية الاقتحام، دون أن تكون لديه ولدى أفراد

العصابة الحاكمة خشية من الله، أو توقير لبيت الله، أو تقدير واحترام لأعظم قادة العرب والمسلمين أبي سليمان خالد بن الوليد.

٦- كانت دمشق كالبركان، تعج بتحرك الجماهير، ولاسيما الجماعات الإسلامية ضد الحكم الذي تحدى الأمة في عقائدها وأخلاقها وقيمها، وكانت التكتلات الإسلامية ظهرت للعيان، وأبدت معارضتها لسلطة البعث، أو بالأصح لحكم الأقلية التي كانت تتستر بحزب البعث، وكان من أبرز هذه التكتلات الإسلامية: جماعة مسجد المرابط التي كان الدكتور أمين المصري والشيخ عبد الرحمن الباني، وجودت سعيد، ومحمد القاسمي يقومون على قيادتها وتوجيهها، وجماعة كتائب محمد ﷺ التي دعت إلى مقاومة النظام، ومواجهته بالجهاد والسلاح، وكان من قادتها: عدنان المصري، وعبد الرحيم الطباع، ومحمد بن كمال الخطيب، غير أن الثقل الشعبي كان لدى علماء دمشق ذوي الكلمة المسموعة والرأي المطاع، وكان من قادة العلماء أو من أبرزهم الشيوخ الأجلاء: حسن حبنكة، وعبد الكريم الرفاعي، وأحمد الدقر، وقد بلغ الاستياء في نفوس كبار العلماء هؤلاء مبلغاً كبيراً لما كانت السلطة تفعله وتشجع عليه من فساد وانحلال وإباحية وتحدٍ للمواطنين، واستهتار بمعتقداتهم ومشاعرهم.

كانت السلطة تسعى إلى توريط المواطنين بأنشطة تسوغ لها توجيه ضربة قاصمة لأبناء العاصمة، تحطم فيها معنوياتهم، وتبث الرعب في أوساطهم، وتخيف بسحقهم سكان المحافظات الأخرى، ولاسيما

أن في العاصمة الثقل الشعبي ومقر الحكومة والمؤسسات المدنية والعسكرية والأمنية والسفارات والقناصل الأجنبية، فعملت السلطة على جر المواطنين إلى صدام تسفك فيه الدماء، وتزهق الأرواح، وتصادر الأموال، وتنهب فيه المخازن والمحلات الكبيرة والشهيرة، وقد فطن العقلاء في العاصمة إلى ما تبيته السلطات ضد المواطنين، فجمعوا صفوفهم، واتصلوا بالعلماء في المحافظات الأخرى، واتفقوا على رصّ صفوفهم وجمع كلمتهم وتوحيد قراراتهم، وأكدوا على عدم الانجرار إلى صدام ستكون العاقبة فيه وخيمة، غير أن رجال السلطة وأفراد الأمن كانوا يعملون جاهدين على إشعال نار الفتنة، فاعتقلوا عدداً من كبار العلماء أمثال الدكتور أمين المصري، والشيخ عبد الرحمن الباني، وغيرهم، ووزعوا منشورات باسم أحد العلماء دون علمه يدعون الناس إلى جامع دنكز للاستماع إلى محاضرة يلقيها أحد العلماء الذي فوجئ بزج اسمه كمحاضر دون أن يكون على علم بذلك، فصرف أعوانه الناس، وفوتوا على السلطة كيدها، ثم فوجئ الناس بمنشورات باسم العلماء تدعو المواطنين إلى الجامع الأموي وعقد تجمع فيه دون أن يكون للعلماء علم بذلك، وعندما استفسر بعض الناشطين من الشيخ حسن حبنكة الذي دعا إليه العلماء قال: ليس هذا قرارنا، ولا علم لنا بذلك، فهرع أحد تلاميذ العلماء إلى الجامع الأموي لإحباط هذه المكيدة وإطفاء نار الفتنة التي تصر السلطة على إشعالها، وخطب بالناس محذراً ومنبهاً إلى أن العلماء يعقدون جلسة لدراسة الموقف، وإذا بالكهرباء تقطع عن المسجد وعن الحي من حوله، وإذا بأحد الشيوخ من أعوان السلطة، كما هو

الظاهر أو المرجح، يصعد المنبر، ويدعو إلى المواجهة وحمل السلاح، فخرج المصلون وهم ألوف إلى ساحة المسجد للسير في مظاهرة عارمة إلى منزل الشيخ حسن حبنكة (وكان عددهم يزيد على خمسة آلاف) الأب الروحي لسكان العاصمة، رأت أجهزة الأمن أن ساعة الانتقام قد أزفت، فدخلت قوات السلطة إلى باحة الجامع الأموي بالأسلحة الخفيفة والثقيلة، ولما رأى المصلون عصابات التدمير تندفع إلى ساحة الجامع، أغلقوا الباب الكبير تجنباً للقتل وسفك الدماء، فما كان من رجال الأمن والمغاوير والضباط -الذين تغطي النياشين صدورهم- إلا أن اقتحموا المسجد بعد أن حطموا الباب الكبير بالسلاح الثقيل، وسرعان ما فتح (حماة الديار)!! نيران مدافعهم ورشاشاتهم على المصلين دون تمييز بين مصلٍ وآخر بصورة عشوائية، فسالت الدماء في باحة المسجد، وتناثرت الأشلاء على جدران الجامع العريق، وشرع رجال الانقلاب (التقدمي الثوري) يضربون الجرحى والمذعورين من هول الكارثة، ثم طالب سليم حاطوم -الذي كسر بدبابته باب المسجد ومعه مئتان من رجال الصاعقة- رواد المسجد بالاستسلام، وسيقوا إلى سيارات اللوري والشاحنات وهم يُضربون بأخمص البنادق على رؤوسهم، والدماء تغطي وجوههم، وعندما وصلوا إلى سجن المزة، أنزلوا إلى أقبية السجن حيث باشر السجانون بتعذيب المعتقلين بالضرب وصدمات الكهرباء، وبعد أيام اقتيد المعتقلون إلى المسرح العسكري بالربوة لتجري محاكمتهم من قبل محكمة مشكلة من صلاح الضلي، وسليم حاطوم الذي كسر باب المسجد وقتل المصلين، وكان في عداد

المحاكمين الدكتور أمين المصري والأستاذ عبد الرحمن الباني والشيخ جودت سعيد، وكانت وجوه المحاكمين تحكي آثار الضرب واللكمات والجروح الدامية، واللحى التي كان المجرمون ينتفونها كلما عنّ لهم ذلك، بل كانوا يدخلون الأحذية في أفواه المعتقلين، ثم يعودون بهم إلى سجن المزة، ليدخلوا الزنازين الباردة، وليس لكل واحد منهم إلا بطانية واحدة.

أصدر المجرمون الحكم بالإعدام على طائفة من المساجين، كان الأستاذ محمد بن كمال الخطيب واحداً منهم لانتمائه إلى تنظيم كتائب محمد، وكان التعذيب مستمراً دون توقف، وبعد وساطات ومراجعات تم الإفراج عن تنظيم المرابط دون الآخرين، غير أن أمين الحافظ تدخل وأطلق سراح الجميع، وهذا من الأعمال التي يحمد عليها، كما سبق له مثلها في أحداث حماة، وكان ذلك في أحداث الأموي في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٥ .

٧- كان السباعي، رحمه الله وأجزل له الأجر، أكثر من قائد لجماعة الإخوان المسلمين، فهو المراقب العام للجماعة، وهو المعلم والموجه لأبنائها، وكان قائداً لسرايا المجاهدين إلى فلسطين، والمدافع الصلب عن الإسلام في شتى الميادين السياسية والحقوقية والأكاديمية، وهو الأستاذ الكبير الذي كانت محاضراته في الجامعة تستقطب الطلاب وتشغلهم عن دروسهم وكلياتهم، ليتزاحموا في القاعة التي يلقي فيها الشيخ دروسه، فلا يجدوا مقعداً، فيضطروا للوقوف طيلة محاضرة الشيخ، وهو البرلماني اللامع الذي أسكت

بحججه القاطعة وبراهينه الدامغة الساطعة خصوم الدعوة والمتربصين بالإسلام، لقد كان السباعي كل شيء في حياة الجماعة، يملأ قلوبهم بحبه، وعقولهم بفكره، ومشاعرهم بالتعلق به، وبالرغم من أن المرض المؤلم أقعده عن الكثير من نشاطاته، فإنه استمر في عطائه في كليتي الحقوق والشريعة، وفي عمله الدائب في موسوعة الفقه الإسلامي، وفي قاعة البحث التي يتناول فيها أدق الموضوعات للنخبة من الطلاب والمولعين بالإصغاء إلى محاضراته ومناقشاته.

بينما كان الشيخ يشد الرحال إلى الحرمين الشريفين في عمرة اشتد شوقه إليها، كما اشتد شوقه إلى زيارة المسجد النبوي، وقد فاض قلبه حباً وهياماً بالرسول الحبيب الشفيع، فقال فيه من الشعر أجمله وأعطره، واعداً مريديه بأنه سوف يكتب بعد عودته كتاباً يفند فيه من استغلّ مؤلفه عن اشتراكية الإسلام، وأخرجه عن مساره في تفسيرات ملفقة زائفة، وإذا بالمنية توافيه في الأجل المحتوم في ٣-١٠-١٩٦٤، وينتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي والفقهي والدعوي، وبالجهاد في ميادين المعارك ضد الفرنسيين في سورية والإنكليز في مصر، والصهاينة في فلسطين، فخسر الإخوان في بلاد الشام، بل خسر المسلمون في العالم عبقرية لم يستطع أحد من أبناء جيله أن يسد فراغها أو أن يأتي بمثلها.

رحم الله شيخنا وقائدنا مصطفى السباعي في عطائه وجهاده وتضحيته وكرمه وشجاعته وسمو خلقه، وأعاننا على الاقتداء به، والثبات على نهجه، ورفع الله سبحانه قدره ومقامه في عليين مع

الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومع سيد الثقلين حبيبنا وقرة أعيننا محمد ﷺ الذي كان فقيدنا هائماً بحبه والتأسي به، والدفاع عن سنته طيلة سنوات عمره التي قضاها في هذه الحياة الفانية، وجمعنا به في مستقر رحمته ورحاب مغفرته.

خامساً: الزحف الطائفي

في الساعات الأولى من انقلاب ٨-٣-١٩٦٣ صدر البيان التاسع (في الساعة الثانية وأربعين دقيقة) أعيد بموجبه أعضاء اللجنة العسكرية الخمسة إلى القوات المسلحة مع حوالي ثلاثين ضابطاً آخرين، ورفع النقيب حافظ أسد إلى رتبة مقدم -دون أن يمر على رتبة رائد- وعيّن آمراً لقاعدة الضمير الجوية أهم قواعد الطيران في سورية(١) وفي ذلك الصباح وصل صلاح جديد على دراجة هوائية ليستلم مسؤولية شؤون الضباط، وهو المكتب الهام والحساس في مصير الجيش وتنظيمه، وفي الحال استولى محمد عمران على اللواء السبعين، وهكذا بدأ المخطط الاستراتيجي للجنة العسكرية بالتنفيذ باسم المسؤوليات التي نيطت بهم، وباسم أكبر الوحدات العسكرية أو المواقع العسكرية هيبة ونفوذاً(٢).

وهكذا صارت اللجنة العسكرية مجلساً داخل المجلس، تقرر سياستها قبل اجتماعاته، وتضع أعوانها وأبناء عشائرها وطائفتها في

---

(١) باتريك سيل: ١٣١.

(٢) المرجع السابق: ١٣٠ - ١٣١ .

المواقع العسكرية المؤثرة.

٦- بعد أيام قليلة من انقلاب ٨-٣-١٩٦٣، كنت مع الأخوين الكريمين: الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله، والأخ الداعية مصطفى الصيرفي نسير في الشارع المحاذي لنهر العاصي، وكان عبد الكريم يحمل جريدة في يده، فإذا به يقول مندهشاً:

- اسمعوا، فقد قرر مجلس قيادة الثورة أن من صلاحيته حل الجيش، وتركيبه من جديد.

وهكذا، قرروا إعدام الجيش الوطني، والبدء بتشكيل جيش طائفي تحت مسمى الجيش العقائدي!!

بادرت اللجنة العسكرية السرية إلى تصفية الجيش من كفاءاته بدعاوى عجيبة ومزاعم واهية، فشرعت باسم مجلس قيادة الثورة بتسريح العشرات فالمئات، فالآلاف من جيش سورية الوطني، بدعوى أنهم رجعيون أو ناصريون أو انفصاليون أو إسلاميون أو برجوازيون، أو من أبناء المدن، أو طائفيون (كل من أنكر السلوك الطائفي لقادة انقلاب ٨ آذار اتهم بالطائفية).

لقد استغل أعضاء اللجنة العسكرية القرار الذي اتخذ بإبعاد ٧٠٠ ضابط عن الجيش عقب الانقلاب مباشرة، بإشغال أماكن ومواقع هؤلاء الضباط المسرحين، بضباط كان معظمهم من أبناء الطائفة العلوية[١].

وفي ٢-٥-١٩٦٣ قام البعثيون بتسريح أكثر من خمسين ضابطاً

(١) الصراع على السلطة في سورية - فان دام: ٦١ .

من الناصريين، مما حدا بوزير الدفـاع الفريق محمد الصوفي، واللواء راشد القطيـني رئيس الأركان إلى الاستـقالة من مجلس قـيادة الثورة، ومن منصبيـهما، ثم لحق بهما خمـسة وزراء ناصريين[1]، وبعد ثلاثة أشهر من الاستيلاء على السلطة، طرد الانقلابيون اللواء زياد الحريري وزير الدفاع مع مجموعة من أنصـاره يقدر عددها بالعشرات، ثم شرع المجلس الوطني لقيادة الثورة بمطـاردة الناصريين، حتى أجبر أكثر من ألف منهم في وزارات الدولة على الاستقالة[2] كما رأينا سابقاً.

بعد محاولة ١٨-٧-١٩٦٣ الانقلابية التي قام بها الناصريون بقيادة العقـيد جاسم علـوان، والهجوم في وضح الـنهار على محـطة الإذاعة ومبنى الأركان، وخـروج أمين الحافظ من مبنى الأركـان ورشاشه بيده ليقود عملية المواجهة ضد حركة الانقلاب الناصري، الأمر الذي أدى إلى قتل وجـرح المئات، وخلال ساعات مـثل سبعة وعشـرون ضابطاً أمام محكمـة عسكرية، ليقرر إعـدامهم، وينفذ فيهـم حكم الموت في الحال، كما رأينا من قبل.

انسـحـب النـاصـريون مـن الوحـدة، وهـاجم عـبـد الـناصـر فـي ٢٢-٧-١٩٦٣ البعثيـين السوريين، ووصفهم بالفسقـة والقتلة، وأعلن رسمـياً انسحـابه من اتفاقيـة ١٧-٤-١٩٦٣ القاضيـة بإقامة وحـدة بين مصر وسورية والعـراق، وكان عبد الناصر قبل ذلك يرتاب بالـبعثيين،

---

(١) باتريك سيل: ١٣٩ .

(٢) تقرير الرقيب: ١٥ .

ويكنّ لهم نفوراً قوياً، فأطلق حملته ضدهم، وشجع على التظاهرات المناوئة لهم، وهدد بسحب الناصريين من الحكومة[1].

٢- احتلال ضباط علويين لمواقع مهمة مثل رئاسة الأركان وآمرية القوة الجوية، واللواء المدرع السبعين المتمركز حول دمشق، ساعدهم على تشكيل تكتلات طائفية خلال الفترة ١٩٦٣ - ١٩٦٥، وإبعاد المناوئين لهم من الناصريين والوحدويين وغيرهم، وقد قدّر بعض الباحثين أن عدد الذين سرحهم البعث من الجيش إثر محاولة انقلاب ١٨-٧-١٩٦٣ الناصرية بألف ومئة ضابط وصف ضابط كانت أسماؤهم جميعاً لدى محمد نبهان الضابط العلوي الذي كان ضمن التنظيم الناصري، ليحل محلهم عسكريون علويون التحق مئات منهم في الكلية العسكرية بحمص، فاتهم البعض محمد نبهان بأنه كان مدسوساً على الناصريين.

لقد كثّف العلويون أو اللجنة العسكرية أو حزب البعث الذي تنفّذ هذه السياسات باسمه في قبول أعداد كبيرة من أبناء طائفتهم في الكليات العسكرية، وفي مراكز الإعداد الحزبي والتنظيم العسكري، وفي الحرس القومي، وفي الشعبة السياسية والمخابرات، وفي المواقع الستراتيجية المحيطة بدمشق، وبمجرد أن يصل هؤلاء الضباط إلى مراكز قيادية كانوا يقومون باستدعاء أقاربهم وأبناء عشائرهم وطائفتهم، ويمدون لهم يد العون ليتقدموا، ويتم قبولهم بالكليات

---

(١) باتريك سيل: ١٣٥ - ١٣٩ .

العسكرية، والبحرية، والجوية[1]، ويؤكد فان دام صاحب كتاب: الصراع على السلطة في سورية أن معظم الذين تم استدعاؤهم كانوا ينتمون إلى الأقليات، ولاسيما العلويون والدروز والإسماعيليون[2].

وهكذا استطاع حافظ أسد أن يضع رموزه السياسيين في الحكومة ومؤسساتها من طائفة واحدة، هي الطائفة العلوية[3].

كل هذه السياسات الطائفية التي تشمئز منها النفوس، جرت وطبقت باسم قانون الطوارئ رقم (٢) الذي أعلنه الانقلابيون ضحى يوم الانقلاب، وأصدره مجلس قيادة الثورة، فكان أول قرارات المجلس بعد الاستيلاء على السلطة[4].

ويقول الباحث الشهير الدكتور نيقولاوس فان دام: إن زعماء الطائفة العلوية وضباطها البارزين أمثال: محمد عمران وحافظ أسد وعزت جديد وإبراهيم ماخوس اجتمعوا لدراسة النتائج المترتبة على محاولة الانقلاب الفاشل الذي قاده الناصريون، وقرروا ترفيع الضباط، محمد نبهان، ومحمد عمران، وصلاح جديد، إلى رتب دينية مثل: نجيب، والوشاح البابي الأقدس، والمقدم، والمختص!! وتكليف مشايخ الطائفة بحض الشباب على الانخراط بالقوات

---

(١) فان دام: ٥٤ .

(٢) المرجع السابق: ٥٩ .

(٣) رقيب الشرق الأوسط: ٨.

(٤) تقرير الرقيب: ٤٩ .

المسلحة، ومواصلة نزوح العلويين من الجبل إلى المدن الساحلية والداخلية، ولاسيما اللاذقية وطرطوس وحمص[1].

أسجل هذه الوقائع نقلاً عن مصادر أجنبية وعربية، وأنا لا أكاد أصدق أن هذا حدث في سورية، ومن مواطنين محسوبين على بلدنا وشعبنا، وإن جميع الحكومات الوطنية بعد الاستقلال عاملتهم على قدم المساواة مع جميع المواطنين في تكافؤ الفرص، وملء الوظائف المدنية والدبلوماسية، والالتحاق بالجيش ودوائر الدولة، ولولا ذلك لما تمكنوا من التغلغل في القوات المسلحة والقيام بانقلاب استخدموه للتسلط على رقاب العباد، وقمع المواطنين بقسوة بالغة لم تكن معهودة في تاريخ سورية الحديث.

٣- ضج كثير من البعثيين من هذه السياسة الطائفية المقيتة، وَصَبْغِ المجتمع ودوائر الحكومة والمؤسسة العسكرية والأمنية والبعثات العلمية والسلك الدبلوماسي بالصبغة الطائفية، فقد عانى السنيون من التمييز الطائفي لدى تقدمهم للالتحاق بالكليات العسكرية ومراكز التدريب الأخرى، بينما كان يحظى العلويون والدروز والإسماعيليون والمسيحيون بتمييز إيجابي، كما ظهر في حركة تنقلات الضباط داخل القوات المسلحة، لتبقى الوحدات التي يسيطر عليها أبناء الأقليات حول دمشق[2].

---

(١) النصيرية دراسة تحليلية: ١٦٩ - ١٧١ تقي شرف الدين.

(٢) فان دام: ٦٦ .

وعندما فاحت روائح التكتل الطائفي حسب تعبير الدكتور منيف الرزاز الأمين العام للبعث خلال الفترة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ بدأ الحديث عنها في البداية همساً، ثم بدأت الأصوات تعلو عندما ظهرت بوادر مادية -صارخة- تسند هذا الاتهام من القادة الكبار لحزب البعث[١].

انبرى كذلك الأستاذ مطاع الصفدي -من القادة التاريخيين لحزب البعث- لهذه الظاهرة المؤلمة والمخجلة للوطن والمواطن، فأصدر كتابه: حزب البعث، مأساة المولد ومأساة النهاية[٢]، جاء فيه: إن التسريحات بالمئات، والتي استهدفت جميع الضباط من أبناء المدن الكبرى، ومن السنيين خاصة، حتى فرغت أسلحة كاملة من ضباطها الرئيسيين كسلاح الطيران وسلاح البحرية والآليات، كذلك اتبعت نفس الخطة حيال صف الضباط والجنود، حتى أصبح من المتعارف عليه أن ألوية كاملة بأركان حربها وصف ضباطها وجنودها، وقف على طوائف معينة كاللواء سبعين واللواء الخامس، وقال الصفدي كذلك: لقد أغلق باب الكليات العسكرية في وجه شباب المدن السنية، وكذا مختلف المدارس العسكرية، حتى إن دورات كاملة من هذه الكليات قد سرحت من الخدمة جميعها من قبل أن تتخرج[٣] ثم قال: فالمعلمون -العلويون- يصبحون ضباطاً، والفلاحون جنوداً وضباط صف، أما اللواء سبعين خاصة فقد أصبح علوياً خالصاً

---

(١) المرجع السابق: ٦٥ .

(٢) المرجع السابق: ٦٣ في الهامش بيروت ١٩٦٤ .

(٣) المرجع السابق: ٦٥ - ٦٦ في الهامش.

بقيادته وقواعده تقريباً.

على أثر هذه السيطرة الكاملة الطائفية، ونجاح اللجنة العسكرية بالإمساك بمفاصل الحياة في سورية -العسكرية والمدنية- ضجت قيادة الحزب من هذا السلوك الطائفي المكشوف باسم الحزب وتحت شعاره، ورفعت أصواتها بالشكوى والإنكار، لأن هذا الوضع ينسف الحزب من أساسه، ويقوض بنيانه، ويفقده المصداقية، فيما كان يدعو إليه من وحدة وطنية وقومية تتسامى على الانقسامات العنصرية والجهوية والطائفية والإقليمية، وكان في مقدمة المنكرين من القيادات التاريخية للحزب: ميشيل عفلق، وشبلي العيسمي، ومنيف الرزاز، ومطاع الصفدي، وخالد الحكيم، ونسيم السفر جلاني، وأحمد سويداني وعشرات غيرهم، وأغرب ما طفا على السطح من هذا السلوك الطائفي ما صدر عن محمد عمران الذي أسكرته هذه الانتصارات الطائفية العلوية وسيطرتها على كل مفاصل الحياة في سورية، وليس الجيش والأمن فقط، فإذا به يصرخ منتشياً: إن الفاطمية يجب أن تأخذ دورها بغية أن يلعب الضباط (العلويون والدروز والإسماعيليون) دوراً في تكتل طائفي ضد أبرز منافسيهم الرئيس السني والقائد الأعلى للقوات المسلحة أمين الحافظ[1].

أحرجت هذه التصريحات الاستفزازية الفجة والوقحة رؤوس السلطة والحزب، فانتقد أحمد سويداني وأمين الحافظ وغيرهما طائفية محمد عمران بعد انكشاف أمره وباطنه، واستعجاله في الكشف

---

(١) المرجع السابق: ٦٧ .

عن المخطط الطائفي والإمعان في تنفيذه، وسرعان ما انضم إلى المنكرين لطائفية محمد عمران، في حركة طائفية رهيبة حافظ أسد وصلاح جديد للتغطية على مخططهم الذي فضحه عمران، وأحرج شركاءه في اللجنة العسكرية السرية كما مر معنا في المجلد الثاني من هذه الأوراق.

٤- عمل صلاح جديد في صراعه مع الحافظ على كسب الضباط الدروز والضباط الإسماعيليين من أمثال عبد الكريم الجندي، وحمد عبيد، وسليم حاطوم[١]، كما كشف صلاح جديد حقيقة موقفه من الوحدة مع مصر التي لم يؤمن بها قط -وهو في الأصل من أرومة الحزب القومي السوري وكذلك إخوته- بل استغلوا شعارها، وضللوا بها الجماهير في سورية، وقضوا باسمها على الانفصاليين الذين كانوا أقرب إلى إقامة الوحدة من قادة الحكم الطائفي، فقد اتفقوا سراً مع عبد الناصر في مباحثات مكتوبة -قرأنا تفصيلاتها- لولا أن حقد عبد الناصر على النحلاوي ومجموعته أحبطها وفتح الطريق سالكاً لانقلاب ٨-٣-١٩٦٣ عندما اشترط على ضباط الانفصال حل البرلمان، وإقالة وزارة الدواليبي، واعتقال رئيس الجمهورية ناظم القدسي، فانهدم عهد الانفصال في حركة غبية سقط فيها النحلاوي ورفاقه لتدخل سورية في المجهول إلى أجل غير مسمى.

لقد حاول الحزب، عبر عدد من المؤمنين بالوحدة، أن يستأنفوا الحوار مع القاهرة، وأن يسووا جميع الخلافات العالقة، لتعود المياه

---

(١) النصيرية دراسة تحليلية: ١٧١.

إلى مجاريها ما بين القطرين الشقيقين، ولاسيما أن انقلاب ٨ آذار جاء زاعماً أنه سيعيد الوحدة بين سورية ومصر، غير أن صلاح جديد تصدى -مع أنصاره- لهذه المحاولة، وقابل أي مشروع وحدوي بالرفض القاطع، وعطل كل الجهود التي كانت ترمي إلى إعادة الوحدة بين أبناء الأمة الواحدة في كل من مصر وسورية العربيتين.

أسفرت الصراعات والتطاحن الطائفي عن تصفية الكثير من الضباط الذين ينتمون إلى الأكثرية، أي أبناء السنة، حتى ولو كانوا من البعثيين القدامى، فلم يعد لهم من تأثير على مجريات الحياة العسكرية في الجيش أو في الأجهزة الأمنية بعد أن أحكم الطائفيون سيطرتهم التامة، ليس على المواقع والوحدات والفرق والألوية وأفواج الجيش وسراياه وكتائبه وفصائله فحسب، بل على كل قطعة سلاح ثقيل من دبابة ومدفع وطائرة بحيث يكون المسؤول أو نائبه علوياً، حتى إن الضباط الكبار من أبناء الأكثرية شعروا بفقدان الوزن -وهم من القلة التي استمرت في الجيش- والتجميد حتى في المواقع التي كانوا على رأسها.

التقيت عميدين في تلك الفترة في مكة المكرمة حضرا لأداء فريضة الحج، وكان أحدهما متزوجاً من شقيقة الآخر، فسمعت منهما وهما جالسان بجوار الكعبة أنهما لا يملكان من الأمر شيئاً، وأن الحاجب لكل منهما أقوى نفوذاً وأعظم تأثيراً من العميد الذي يقف على بابه، وأن الواحد منهما يتحفظ في الحديث أمام حاجبه الذي يقوم بمهمة المراقبة عليه!

٥- في أيلول ١٩٦٥ تم توسيع المجلس العسكري -مجلس قيادة الثورة- وتسمية: المجلس الوطني لقيادة الثورة، فضم هذا المجلس أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة، مضافاً إليهم عدد من البعثيين، ممثلون عن لفيف من النقابات والمهن، ومن عناصر سياسية من ناصريين وشيوعيين ومستقلين بعيدين عن الأحزاب القديمة، وعن الإسلاميين والشخصيات الوطنية والمستقلة ذات الثقل الشعبي والتاريخي، ليكون ملكاً لهذه العصبة من الانقلابيين، يتصرفون بأقدار البلاد والعباد كما يحلو لهم، وكما يشاؤون، ثم أعيد تشكيل المجلس في مطلع عام ١٩٦٦ بعد التعديلات التي طرأت على القيادة السياسية والتغييرات في بنية السلطة، ثم جرى حل هذا المجلس العتيد!! من قبل قيادة العسكر التي جاءت بهم في انقلاب جديد قام به مجموعة من الضباط العلويين والدروز في ٢٣-٢-١٩٦٦ والذي كان البعثيون المناوئون للتسلط الطائفي يطلقون عليه ردة شباط عام ١٩٦٦[1].

كان أمين الحافظ قائداً للجيش، ورئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة، ورئيساً لمجلس الرئاسة -رئاسة الجمهورية- والأمين العام للحزب.. إلخ.. غير أنه في الحقيقة لم يكن شيئاً مذكوراً. كان رجلاً من القش حسب تعبير الذين أرخوا لهذه الفترة من الكتاب الغربيين، ولم يكن -كما قال الأسد- يستطيع أن يحرك جندياً من مكانه، وقد شعر هو وأنصاره بانعدام الوزن والمهانة، فحاولوا إصلاح

---

(١) من كتاب التطور للواء غسان حداد: ٢٩ بتصرف.

هذه الحالة الشاذة، فقرروا عبر القيادة القومية تشكيل الوزارة برئاسة البيطار، واستدعوا محمد عمران من إسبانيا وأسندوا له وزارة الدفاع للحد من التسلط الطائفي، غير أن خصومهم الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة ومفاصل الجيش، قرروا إنهاء هذا الجيب الأخير الذي يمثله في رأيهم أمين الحافظ ومن يشايعه، فلجؤوا إلى الحيلة، ورتبوا خطة يتخلصون بها وإلى الأبد من أمين الحافظ، فقالوا له:

- يا سيادة الفريق، إن خلافاً حاداً نشأ بين الجنود في الجبهة في بعض الوحدات، وهذا أمر خطير لا يقدر على حله سواك، وإن قائد الجبهة -الضابط العلوي- اتصل بقيادة الجيش مستنجداً بعد أن سحب الضباط السلاح وشهروه على بعضهم.

وسرعان ما انطلت الحيلة على الحافظ وعمران ورئيس الأركان، فهرعوا إلى الجبهة لحل الخلاف، لكنهم بعد الوصول إلى الجبهة لم يجدوا نزاعاً ولا شقاقاً بين العساكر بعد طوافهم بالوحدات واللقاء بها والاستفسار منها!!! فعادوا إلى دمشق، وأوى كل واحد منهم إلى فراشه منهكاً.

استيقظ الحافظ في الثالثة من صباح ٢٣-٢-١٩٦٦ على هدير الدبابات وزمجرة السلاح الثقيل، حيث قام عساكر الصاعقة بقيادة سليم حاطوم، وبدعم من سرايا الدفاع بقيادة رفعت الأسد، وكتيبة دبابات يقودها عزت جديد بشن هجوم على منزل الفريق أمين الحافظ، فواجههم حرسه بدفاع شجاع، ونشبت معركة بين الفريقين استمرت حتى منتصف النهار، وكانت مغاوير حاطوم يأتون موجة إثر

موجة للمشاركة في هذا القتال البطولي!! والقتال على أشده، حتى نفدت ذخيرة المدافعين، وقتل من قتل، وأسر من أسر، فاستسلم الفريق بعد أن أصيب عدد من أفراد عائلته بجروح، ونقل قائد حرسه محمود موسى إلى المستشفى، فلحق به عزت جديد ليجهز عليه، فتدخل حاطوم لإنقاذه، لأنه كان ضمن قواته في المغاوير من قبل، وهرّبه إلى بيروت، فكان حصاد هذه المعركة خمسين قتيلاً من الفريقين.

تجمهر المواطنون لينظروا بدهشة وذهول إلى المنزل المتهدم، وإلى قطع الأثاث المتناثرة من المبنى إلى الشارع والأرصفة، وإلى الماء المتدفق من الأنابيب المتكسرة، ثم وقعت صدامات في المدن الأخرى بين الموالين لأمين الحافظ في حماة وحمص وحلب واللاذقية ودير الزور، سرعان ما تم القضاء عليها والسيطرة الكاملة لانقلابيي ٢٣ شباط لعام ١٩٦٦ .

٦- اقتيد الحافظ وعمران والموالون لهما إلى سجن المزة، كما اعتقل في دار الضيافة في شارع بغداد ثلاثون من القيادة القومية لحزب البعث، من بينهم صلاح البيطار، ومنصور الأطرش، وشبلي العيسمي، وأعضاء القيادة القومية اللبنانيون والسعوديون والأردنيون، أما منيف الرزاز فظل وحده طليقاً متخفياً يتنقل من مخبأ إلى مخبأ، يصدر منها بياناته بمهاجمة الانقلاب، وأما عفلق فقد أوى إلى منزله دون أن يعتقله الانقلابيون، فاتخذ طريقه إلى لبنان، ومن ثم إلى البرازيل، وانتهى به المطاف إلى بغداد، وهذا ما سجله بإسهاب

الكاتب باتريك سيل في كتابه عن السيرة الذاتية لحافظ أسد.

سبق الانقلاب محاولة من وزير الدفاع محمد عمران في وزارة البيطار لإبعاد مؤيدي جديد، وهم اللواء أحمد سويداني، وعزت جديد، وسليم حاطوم، كما حاولت القيادة القومية فرض سيطرتها المفقودة، فقررت حل القيادة القطرية، وعودة الانضباط العسكري للجيش، لكن أمين الحافظ حال دون نقل الضباط، وأوقف إجراءات النقل، وألغى تحرك وحدة الضابط العلوي علي مصطفى ظهير القيادة القومية ومناصرها، فأمسى الطريق مفتوحاً أمام جديد لانقلاب ضد أمين الحافظ، وهكذا جنى أمين الحافظ على نفسه جراء ردود الفعل الحادة التي عُرف بها.

إن من عرف الحافظ واختلط به -ونحن منهم في بغداد- يراه ذا شهامة ونخوة، تأسره الكلمة الطيبة، وينخدع بسرعة، أما صلاح جديد فهو يتقن أساليب الخداع التي استخدمها مع عدد من الضباط، كان زياد الحريري الأول فيهم، فعندما دُعي إلى الجزائر بمناسبة جزائرية وطنية، ورآه جديد وقد أوجس خيفة من هذا السفر، ومتردداً في السفر، طمأنه جديد في حركة مسرحية (وقد وقد خلع غطاء رأسه (سيدارة) ورماه على الأرض) قائلاً: ولو يا أبا العز، لحم أكتافنا من أفضالك، فأنت الذي قمت بالانقلاب، وأعدتنا إلى الجيش، فانطلت الحيلة على الحريري وسافر مطمئناً، وعندما عاد من رحلته وجد نفسه مطوقاً ومجرداً من نفوذه كرئيس أركان الجيش، وسرعان ما أبعد ليذهب إلى بيروت وبغداد ويعيش أكثر من أربعة عقود بعيداً عن

وطنه، جراء فعلته التي سيكون حساب التاريخ عليها عسيراً.

كان أنصار جديد يخاطبون الحافظ بعبارات التزلف والمداهنة، وسرعان ما كان ينخدع بهم وبأحاديثهم، وعندما كان حراسه وأفراد حاشيته يخبرونه عما يبيت هؤلاء من مكر وغدر، يأبى أن يصدقهم، وعندما كانوا يعرضون عليه تطويق تحركهم، يجيبهم: عيب، وهذه الكلمة كثيراً ما يرددها، بل كانت محط كلامه وأحاديثه، وأكثر من ذلك: كان يسأل جماعة جديد: هل أنتم كما يقال لي عنكم؟!! وهكذا مهد بعقليته وسذاجته، بل بكثير من حماقاته للكتلة الطائفية أن تلغي من الجيش كل من لا يدور بفلكها الطائفي المقيت، وكل من يؤيد الحافظ نفسه الذي حماهم، وكذا جميع الضباط الذين ينتمون للأكثرية من المواطنين.

تبع إزالة الحافظ تطهير الجيش والحزب والحكومة من بقايا السنة وأبناء المدن السورية الكبيرة، فأبعدوا ٤٠٠ ضابط وموظف، فكانت هذه الضربة القاضية لتحويل الجيش السوري الوطني إلى جيش أقليات كما كان في ظل الانتداب الفرنسي، بل أكثر تطرفاً في سيطرة العلويين على مرافق الجيش ومفاصله.

بعض الباحثين في تاريخ سورية الحديث، ومنهم حزبيون سابقون يفسرون تصرفات صلاح جديد، بأنه كان يضمر في أعماقه كيداً دفيناً للبعث الذي قضى على أخويه غسان بالاغتيال، وفؤاد بالسجن المؤبد، فتحول وهو ضابط برتبة ملازم من الحزب القومي السوري إلى حزب البعث العربي، ليهدمه من داخله، ويثأر لذويه منه،

وبالفعل فقد بلغ مرتبة الأمين العام المساعد للحزب شكلاً، والقائد الحقيقي للحزب فعلاً، لأن الأمين العام لم يكن فاعلاً بالتنظيم، كما بلغ مرتبة رئيس الأركان في الجيش بوقت قياسي، فسرح آلاف الضباط الأكفياء، وبذلك يكون قد أمسك بتلابيب الحكم من طرفيه المدني والعسكري، فاستطاع بهذا النفوذ الواسع أن يصفي قيادة الحزب التاريخية على دفعات، كان الحوراني وأنصاره البداية، ثم جاء دور عفلق والبيطار ومن يشايعهم، فاتهموهم بالرجعية واليمين المتعفن حسب تعبيراتهم، وطاردوهم، وحكموا على مئة منهم بالإعدام غيابياً، وهكذا نجح جديد أيما نجاح في تصفية البعث من جذوره، وأبقوا فيه على التكتل الطائفي، وحكموا البلاد باسمه موهمين الخلق في داخل البلاد وخارجها، وفي المحيطين العربي والدولي أن حزب البعث هو الذي يحكم سورية والمهيمن على مقدراتها.

٧- أما رئيس اللجنة العسكرية محمد عمران وأعلى أعضائها رتبة، فقد وضعوه في مواجهة أمين الحافظ في النزاع على السلطة، وعندما اختلف مع قرنائه في اللجنة، وفضح للعيان سرها لميشيل عفلق وغيره تبرأ منه زميلاه في اللجنة العسكرية جديد والأسد واتهماه بالطائفية!! كيلا ينكشف أمرهما، وتعاونا مع الآخرين على إبعاده إلى الخارج، وعندما أعادته القيادة القومية وزيراً للدفاع، تركوه يكمل مهمته في صدامه مع أمين الحافظ، فكان مثله كمثل ذكر النحل تنتهي حياته بعد أن يكمل مهمته، وهكذا طورد محمد عمران، وتم نفيه إلى

قبرص، ومنها إلى لبنان، مقيماً في مدينة طرابلس، فعكف على كتابة مذكراته وتجربته في الحزب والحكم، وأخرج أول جزء من مذكراته تحت عنوان: تجربتي في الثورة، واعداً أنه سيكشف عن أمراض الحزب والمجتمع في الإقليمية والطائفية التي كانت تلعب أدواراً خطيرة من وراء اللافتات الثورية، في الغوغائية والسطحية والتحالفات السرية المشبوهة لتنفيذ مخططات بعيدة المدى، وفي تفشي المحسوبية والسمسرة محتمية بشعارات التقدمية حسب تعبيرات محمد عمران الذي قال: سألجأ إلى عرض آرائي علّني أستطيع أن أساهم في إيقاف هذا التدهور الشامل الذي تتعرض له مؤسساتنا الثورية في وطننا عن طريق إثارة النقاش والحوار والبحث في حلول أكثر جذرية حسبما جاء في الجزء الأول من مذكرات عمران.

شعر جديد والأسد بخطورة ما أقدم عليه عمران من فضح سياسات اللجنة العسكرية المدمرة، فعجلا بالقضاء عليه واغتياله قبل أن يكمل الجزء الثاني من مذكراته الذي أشار فيه إلى أنه سوف يتحدث عن المواقف والأحداث والأشخاص، ليُدفن معه التاريخ الخفي لأحداث الحزب والتخطيط الطائفي خلال عشرين سنة على صعيد الحكم والجيش قبيل اغتياله والقضاء عليه.

٨- وقبل مغادرة هذه الفترة من أحداث ١٩٦٣ - ١٩٦٦ أتساءل عن مصير الذين انتهكوا حرمات الله، وهدموا بيوت الله على رؤوس المصلين، ومزقوا أجساد المحتمين بالمساجد من بطش الطغاة، كما كانوا يفعلون في ظل الانتداب الفرنسي دون أن يلجأ الفرنسيون

المستعمرون إلى المس بحرماتها وقدسيتها، ماذا جرى لهم، وكيف كانت خاتمتهم؟ وهل عجل الله لهم العقاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة الأشد والأبقى؟

لقد بدأ حكم الأقلية في اقتحام جامع السلطان وقتل زهاء سبعين شهيداً من المعتصمين فيه، وقصف مئذنته التاريخية، وهدم حرمه وبنيانه بكماله وتمامه، وهذا ما فعلوه بجامع خالد بن الوليد في حمص في نفس العام ١٩٦٤، ثم فعلوا فعلتهم في الجامع الأموي أكبر معالم التاريخ الإسلامي في العالم كله، وعندما سئل أمين الحافظ في مؤتمر صحفي عن هدم المساجد أجاب دون أن يعتذر أو يداري في إجابته أو يتنصل من فعلته التي كانت تقترف باسمه:

- لقد هدم الحجاج الكعبة وكأن هدم الكعبة مثل يحتذى، دون أن يجد من يقرأ على سمعه وأسماع الناس جميعاً قوله سبحانه: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1]. وصدق الله جل وعلا، فقد عجل لهم العقوبة في الدنيا وألحق بهم الخزي جزاءً وفاقاً، إذ لم يمض عامان على هدم جامع السلطان وقتل العشرات من أبناء الدعوة وشباب الإسلام في رحابه حتى كان الذين استغلوا أمين الحافظ وجعلوا منه واجهة يقترفون جرائمهم وهدم المساجد باسمه، حتى طوقوا منزله، وقصفوه كما قصف جامع السلطان، وهدموا عليه وعلى

(١) سورة البقرة الآية ١١٤ .

آل بيته المنزل الذي يسكنه كما هدموا جامع السلطان على المحتمين فيه، وساقوه إلى السجن ذليلاً مدحوراً كما ساقوا المصلين الذين لم يقتلوا بجامع السلطان إلى السجون، فحدث له ولمنزله كالذي حدث في عهده وفي حضوره لحماة ما حدث لجامع السلطان في مدينة أبي الفداء.

وفي حمص أشرف نور الدين الأتاسي أحد واجهات الحكم الطائفي بصفته وزيراً للداخلية على اقتحام مسجد خالد بن الوليد القائد التاريخي الفذ، وكسروا أبواب حرمه واعتقلوا المصلين فيه، وساقوهم بالشاحنات تحت وطأة الضرب الشديد والمهانة الأليمة، فماذا كان مصير نور الدين؟ لقد زج به من استغله في إيذاء أبناء مدينته، واقترفوا الجرائم باسمه، ودفعوا به لارتكابها... في غياهب السجن زهاء ربع قرن، ولم يخرج منه إلا ليوارى التراب بعد أيام قليلة من مغادرته السجن في هذه الخاتمة البائسة.

أما سليم حاطوم الذي كسر بدبابة كان يركبها باب المسجد الأموي، واندفع مع المئات من عناصره في الصاعقة إلى المسجد ليطلق النار من دبابته ورشاشاته عشوائياً على المصلين، فتسيل دماؤهم وأشلاؤهم كما رأينا من قبل..إلخ.. فكانت عقوبته من شركائه في الإجرام أن ألقوا عليه القبض عندما عاد ليحارب -كما قال- بجانبهم؛ وأحرقوا أعضاءه وأعضاء رفيقه بدر جمعة قبل تنفيذ الحكم بإعدامهما.

وقد رأينا ماذا حل بعمران بعد أن بشر بالحكم الفاطمي عندما دبر رفيق دربه بالتخطيط الطائفي أمر اغتياله في طرابلس في ٤-٣-١٩٧٢

فيما بعد على يد جهاز المخابرات السورية كما دلت الآثار التي خلفها من قتلوه على الجهة التي دبرت أمر الاغتيال[1].

سادساً: تصفية الضباط الدروز

قام الأمين العام للقيادة القومية منيف الرزاز بعد نجاته من الاعتقال بعد انقلاب ٢٣/٢/١٩٦٦ بتشكيل تنظيم للحزب من أمكنة اختفائه، لإعادة تقلد القيادة القومية للسلطة، وتزعم القطاع المدني، كما تزعم فهد الشاعر -الدرزي- المكتب العسكري الذي قام بتشكيله، فضم في عضويته: فهد الشاعر أميناً عاماً، وصلاح نمور -سني- ومجلي القائد- مسيحي من حوران -وعلي سلطان، وشريف سعود، وعلي الضماد -سني من حوران- والمقدم إسماعيل هلال، كما ذكر ذلك تفصيلاً منيف الرزاز عندما التقاه فان دام في ٢٢-٤-١٩٧٤ في عمان، واستثنى الشاعر أي ضابط علوي، كيلا ينكشف مكتبه وتحركه، غير أن الرزاز أكد أنه لم يستبعد العلويين من تشكيل المكتب العسكري، بل على العكس، فقد طالب الشاعر كما طالب ميشيل عفلق عن طريق مبعوثه من بيروت بإشراك الضابط العلوي علي مصطفى في المكتب العسكري، لكن أعضاء المكتب تريثوا خشية انكشاف تنظيمهم، فوافق الرزاز على تأجيل انضمامه طالما أن الثقة كانت مفقودة، بينما كان التنظيم المدني يضم عدداً من أبناء الطائفة العلوية.

---

(١) الصراع على السلطة: ١١٥ .

١- عندما عقد انقلابيو ٢٣-٢-١٩٦٦ مؤتمراً قطرياً لمناقشة الأسباب التي أدت إلى الانقلاب، تقرر معاقبة كل من اتخذ موقفاً طائفياً أو إقليمياً أو عشائرياً، لوضع حد للمناورات الطائفية. وفي نهاية المؤتمر القطري الاستثنائي استبعد كل من حمد عبيد، وسليم حاطوم، من القيادة القطرية السورية المؤقتة التي تقلدت زمام الحكم رسمياً في ٢٣-٢-١٩٦٦ .

كان حمد عبيد يرى أن لديه الحق في استعادة مركزه السابق كوزير للدفاع، مكافأة له على دعمه لصلاح جديد ضد أمين الحافظ منذ شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٦٥، غير أنه بدا واضحاً أن وزارة الدفاع لن تسند إليه مرة أخرى، بل أسندت لحافظ أسد الذي أضحى بعد ٢٣/٢/١٩٦٦ لأول مرة وزيراً للدفاع، فحاول حمد عبيد بتحريض من جماعة أمين الحافظ القيام بانقلاب مضاد في مدينة حلب، فباءت محاولته بالفشل، وتم القبض عليه، وعلى من وقف بجانبه من قبل النظام الجديد، وجرت له محاكمة حزبية في أواخر عام ١٩٦٦، اتهم فيها بالثراء غير المشروع، وسوء استخدام السلطة، فاستشاط حاطوم غضباً، وعارض بشدة مصادرة أملاك حمد عبيد. كما أن حاطوم -الذي كان له دور رئيسي في الإطاحة بأمين الحافظ- فقد اعتباره في الحزب، وشعر أنه خدع من قبل صلاح جديد الذي أيده في الانقلاب ضد الحافظ، واستخدمه كمخلب قط في ذاك النزاع، فبدأ في بناء تنظيم عسكري خاص به، حيث كانت غالبيته من الضباط الصغار من جبل الدروز، بالإضافة إلى بعض الضباط البارزين مثل طلال أبو

عسلي، وعـدد من الضباط غيـر الدروز مثل مصطفى الـحاج علي من حوران قـائد المخـابرات العـسكرية في الجـبهـة مع إسرائيل، كـذلك اتصل حـاطوم بجمـاعة حـمود الشـوفي الذي كان قـد شغل من قـبل منصب الأمـين العام للقيـادة القطرية في الحزب مـا بين أيلول ١٩٦٣ وشـباط ١٩٦٤، وكـان له أتبـاع في جـبل الـدروز وفي المـحافـظات الأخرى، وكان توجيههم يسارياً بل وماركسياً[١].

٢- في ١٠ -٨-١٩٦٦ اكتـشفت القـيادة القطـرية بطريق الصـدفة خطط الانقـلاب المدبر مـن قبل القـيادة القومـية المـخلوعة ومن قـبل سلـيم حـاطوم، وتمـكنـت مع مـعرفـة أسـماء الـمشاركـين فـي هذا الانقلاب، الذي اختـار له فهد الشاعر يـوم ٣-٩-١٩٦٦ موعداً، لولا أن أحد أعـضاء تنـظيمه الـعسكري الـرائد محـمد نعيـمي انهـار تحت التعذيب الشديـد الذي مارسه عبد الكريم الجندي عليـه وعلى أمثاله، فاعترف بـالتحرك والاستعداد لـلانقلاب، وأعطاه أسماء عشـرة ضباط مشـتركيـن في المؤامـرة، وأعطى كل واحـد من هؤلاء العشـرة بدوره أسمـاء آخرين حتى بـلغ مجمـوع الموقوفيـن مئتيـن كان معظمـهم من الدروز، كـما أن طـلال أبو عسـلي صرح وهـو في حالـة سكر شـديد بموقـفه من الأسـد والقيادة الـجديدة، فاختـفى فـهد الشاعـر، وهرب البعـثيون المدنيـون للنجاة بأنفسـهم، وأدى تطهير الجـيش من الدروز إلى ضـجة كبـرى في جـبل العرب، فـقرر صـلاح جديد ونـور الدين الأتاسي الـسفر إلـى السويداء، ومـعهـما جمـيل شيـا العضـو الدرزي

---

(١) فان دام: ٨٨ - ٩٠ .

الوحيد في القيادة القطرية، بعد أن استلموا مذكرة من مجموعة حاطوم تضمنت وجهة نظر الغالبية من أعضاء فرع السويداء للحزب، ومنها إعادة الضباط المبعدين إلى مراكزهم السابقة، وعقد مؤتمر قطري لبحث أزمة الحزب، وإلا فإنهم سيتجاهلون أي تعليمات صادرة عن القيادة القطرية، ويقاطعون أي انتخابات حزبية إذا ما استمرت عملية تصفية الضباط الدروز الذين شاركوا في انقلاب ٢٣-٢-١٩٦٦ .

٣- انتهز حاطوم ذهاب صلاح جديد ونور الدين الأتاسي وجميل شيا، إلى جبل الدروز (السويداء) فأجرى الترتيبات المحكمة، إذ طلب من طلال أبو عسلي السيطرة على الجبهة بكتيبة دبابات، ومن مصطفى الحاج علي أن يستولي على كتيبة الكوماندوس التابعة لحاطوم نفسه، وأن يتأكد من وجود معسكر قطنا في أيد يطمئن لها، ثم توجه على جناح السرعة إلى السويداء قبل وصول صلاح جديد إليها، ومر بوحدة دبابات في حوران، وكلف آمرها إبراهيم نور الدين بقطع طريق السويداء بعد عبور جديد وأصحابه، وبعد أن جمع صلاح جديد عدداً كبيراً من الشخصيات المحلية في مكتب فرع الحزب، دخل عليه سليم حاطوم وبيده رشاشه، ووضع جديد والأتاسي تحت الحراسة في منزل أحد الحزبيين، وألقى القبض على الضباط العلويين بعد تجريدهم من سلاحهم ورتبهم، كان منهم النقيب محمد إبراهيم العلي قائد الجيش الشعبي دون أن يفطن حاطوم إلى موقف حافظ أسد من هذه الأحداث[1].

---

(١) باتريك سيل: ١٨٣ - ١٨٦ .

وضع حاطوم في مفاوضاته الهاتفية مع الأسد، ومع يوسف زعين مطالبه في هذا الصراع التي كان أهمها:

أ- عودة أنصاره الضباط إلى مناصبهم العسكرية.

ب- إطلاق سراح أتباعه المعتقلين.

ج- تطهير الجيش من أبرز أنصار صلاح جديد العسكريين.

د- إعادة مجموعة الشوفي إلى الحزب.

هـ- استقالة القيادة القطرية المشكلة في آذار ١٩٦٦، وتعيين قيادة قطرية مؤقتة، يكون فيها خمسة على الأقل من جماعة الشوفي.

رفضت قيادة الجيش التسليم بهذه المطالب، وحركت إلى السويداء قطعات عسكرية، فيها كتائب الصواريخ مهددة بقصف السويداء، كما حلقت طائرات الأسد في سماء الجبل تساند القوات البرية فأدرك حاطوم وأبو عسلي أنهما خسرا المعركة، فقررا الهرب إلى الأردن إنقاذاً لجبل الدروز من ضربة ماحقة.

٤- عقد حاطوم مؤتمراً صحفياً في عمان يوم ١٣-٩-١٩٦٦، وسرد روايته لما حدث في السويداء، وصرح بأن الوضع في سورية مهدد بوقوع حرب أهلية نتيجة لنمو الروح الطائفية والعشائرية التي يحكم من خلالها اللواء صلاح جديد واللواء حافظ أسد والفئات الموجودة حولهما، وأضاف: إن الروح الطائفية تنتشر بشكل فاضح في سورية وخاصة في الجيش، وإن الفئة الحاكمة تعمد إلى تصفية الضباط والفئات المناهضة لها، وتُحل مكانهم من أتباعها بمختلف

المناصب، فقد بلغت نسبة العلويين في الجيش خمسة مقابل واحد من جميع الطوائف الأخرى، ومضى حاطوم قائلاً: إذا ما سئل عسكري سوري عن ضباطه الأحرار، فسيكون جوابه: إنهم سرحوا وشردوا، ولم يبق سوى الضباط العلويين، إن الضباط العلويين متمسكون بعشيرتهم، وليس بعسكريتهم، وهم جماعة صلاح جديد وحافظ أسد.

تحدث في هذا المؤتمر طلال أبو عسلي مضيفاً إلى ما قاله حاطوم: إن وضع الجيش السوري دقيق جداً وخطير، إذ أن جميع أبناء الوطن هم ضد كل ما هو علوي، وهذا الانقسام قائم في الجيش لدرجة الاقتتال في كل لحظة، وإن التسلط العلوي شمل كل المستويات، لدرجة أنك ترى المرأة العلوية، تتصرف وكأنها السلطة، وفي كل المنازل التي يسكنها العلويون يرى جيرانهم بوضوح تسلطهم باسم السلطة، وباسم الحزب، وكل علوي من كبير أو صغير يعرف ماذا سيحدث من تطورات وتنقلات ومن اعتقالات قبل أن يعرف بعض كبار المسؤولين[١].

٥ً- بعد فشل انقلاب حاطوم، تم إجراء تصفيات واسعة النطاق في الجيش وفي الحزب، شملت معظم ضباط الدروز، وغالباً ما كان يتم تسليم زمام القيادة بالوحدات العسكرية التي تم تصفيتها إلى ضباط علويين، واستمرت هذه التصفيات والاعتقالات في سورية حتى عام

---

(١) فان دام: ٩٦ - ٩٧ .

١٩٦٧، وظل فرع الحزب في السويداء مشلول الحركة والنشاط لأكثر من ستة أشهر بعد فشل انقلاب حاطوم.

أثارت هذه التصفيات الطائفة الدرزية السورية، حتى إن القائد المخضرم سلطان الأطرش قائد الثورة السورية ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥، والذي لا يزال يحظى باحترام كبير، أرسل برقية مفتوحة لرئيس الأركان السوري في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦ جاء فيها: أولادنا في السجون مضربون، نحملكم النتائج، لقد اعتاد الجبل -ولا يزال- أن يقوم بالثورات لطرد الخائن والمستعمر، ولكن شهامته تأبى عليه أن يثور ضد أخيه، وأن يغدر ببني قومه.

وفي آذار ١٩٦٧ قُدّم العديد من الأشخاص المتورطين في المؤامرة الفاشلة إلى محاكمة عسكرية خاصة في دمشق، فوجهت النيابة تهمتين إلى المحاكمين هما: الاشتراك في مؤامرة أجنبية للإطاحة بنظام الحكم، والتحريض على حرب أهلية وانقسام طائفي، وطالب النائب العام بإعدام خمسة من الضباط الدروز وهم: فهد الشاعر وسليم حاطوم وطلال أبو عسلي وعبد الرحيم بطحيش وفؤاد أبو الفضل(١).

كانت الأحكام غيابية باستثناء فهد الشاعر الذي تحدى في المحكمة حكم الإعدام الذي لم ينفذ به، ولما كانت نهاية أمين الحافظ هي نهاية لوجود الضباط السنيين في الجيش، كانت نهاية

---

(١) فان دام: ٩٩ - ١٠٠ .

حاطوم نهاية للضباط الدروز في الجيش، ثم تبعهم تصفيات أبناء محافظة حوران لاحقاً، ليصفو الجو لآلاف الضباط العلويين الذين أمسكوا بمفاصل السلطة، وعلى رأسها تنظيمات الجيش الكبيرة منها والصغيرة.

لا يفوت الباحث أن يذكر أن تعبير السنيين في الجيش لا يعني أن الضباط السنيين كانوا يتمسكون بعقائد أهل السنة أو أفكارهم أو سلوكهم أو أخلاقهم، بل كانوا سنيين في المولد والنشأة والبيئة فقط، ولم يكن أي فرق في الأخلاق والسلوك بين معظم ضباط الجيش وأفراد الحزب بين سني وعلوي ودرزي وإسماعيلي ومسيحي، فالكل في معاقرة الخمرة وتعاطي الزنا و. . إلخ سواء، وهذا كله -مع ذلك- لم يشفع لهم طالما أنهم ولدوا في بيئات وأسر سنية ينتمون إلى الأكثرية من المواطنين السوريين التي تبلغ نسبتها ٨٢٪ من مجموع الشعب السوري، كما لا يفوتنا بعد أن رأينا مصير الذين قاموا بدك المساجد وهدم بنيانها في حماة وحمص أن نتساءل عن مصير حاطوم الذي حطم باب المسجد الأموي بدبابته، وقتل المصلين في ساحات الحرم، وسفك الدماء، ومزّق أجساد المحتمين ببيت الله، وساقهم في مذلة ومهانة مرت معنا تفاصيلها، فكيف كانت خاتمته؟

لقد دخل في أثناء حرب ١٩٦٧ سورية ليشارك في القتال الدائر مع إسرائيل كما رأينا، فألقت السلطات عليه القبض وحكمت عليه بالإعدام بتهمة التآمر مع الدوائر الإمبريالية الإنجلوأمريكية والألمانية الغربية للإطاحة بالنظام السوري ضمن مخطط استعماري شامل، ونفذ

فيه حكم الإعدام، وقتل شر قتلة، مع رفيق دربه وشريكه في جرائمه بدر جمعة سفاح حلب الذي كان يهوى القتل بالجملة دونما سبب يستحق كلمة لوم، فعندما أضرب عمال النسيج في حلب، وكان يحكم المدينة بقبضة من حديد، طلب من العمال أن ينتدبوا وفداً منهم، فجاءه ثمانية منهم فقال: هل يرغب أحد من المضربين بالانضمام إلى الوفد؟ فجاءه أربعة آخرون ليبلغ العدد اثني عشر نقابياً فلم يلبث أن رشهم بالرصاص، فخروا صرعى يتخبطون بدمائهم، ثم التفت إلى العمال المضربين قائلاً: هل يوجد من يريد التحدث باسم المضربين؟ ارجعوا إلى معاملكم، فعادوا خائفين مذعورين لما شاهدوه من وحشية لا تخطر على بال، ولا يتحملها ضمير إنسان مهما بلغت وحشيته وقسوته.

لقد نفذت السلطة حكم الإعدام بهذا الطاغية -بدر جمعة- مع رفيقه سليم حاطوم بأسلوب وحشي وهمجي، لا نرتضيه لأي إنسان مهما كان جنسه أو مذهبه أو معتقده أو انتماؤه، لأن الإسلام ينهى عن المثلة، ويوصي بالرفق بالدابة حين ذبحها، فما بالنا بالإنسان الذي كرمه الله، ورفعه فوق كثير من الخلائق التي خلقها الله وبثها في أكوانه.

قيل إن بدر جمعة كان من أصل جزائري، فهل تحقق الباحثون من هذا الأصل الذي يُخفي على الناس حقيقة نسبه، لأن الجزائري العربي المسلم لا يمكن أن تصدر عنه مثل هذه الوحشية التي لم نر مثيلاً لها حتى لدى بعض الأعداء من المحتلين والمستعمرين!!

نذكر هذه الخاتمة المرعبة للـذين انتهكوا محارم الله في بيوته، لا حقـداً ولا تشفـياً، فإن هذا مـما ينـهى عنه الإسلام، وتـأباه شريعـته، ويجافي أحكـامه وسننه، ويخالف منـاهج الأنبياء وسيرهـم وأخلاقهم الذين نسـير على خطاهم. فـسيدنا يوسف عـليه السلام يقـول لإخوته بعد أن فـعلوا فيه الأفـاعيل، وقد نصـره الله عليهـم ورفع قدره: ﴿لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾[1].

وسيدنـا وقدوتنا محمـد رسول الله ﷺ يقول لأهـل مكة (وقد قتلوا أصحابه وأخرجوه وأتباعـه من ديارهم): لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء[2].

نذكـر هذا ليـتعظ الـظالمـون، فيكـفوا عن ظـلمهـم، وليعـتبر المظلـومون، فيصـبروا ويثبـتوا، متأكـدين وموقنيـن بحسن الخـاتمة، وبالفرج المحتوم، والنصر مـن عند الله المبين. ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[3].

سابعاً – حالة الطوارئ

تعد حالة الطوارئ الآليـة التشريعية المركزية، والمسـوغ الكبير بيد النظـام في أسلوبه القـمعي الـمخيف، وهـي التي أعلنـها الانقلابـيون بوصـفهـا بيـاناً عـسكريـاً رقم (٢) صـدر بتاريـخ ٨-٣-١٩٦٣ أي في

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٢ .

(٢) السيرة النبوية للندوي وجميع كتب السيرة الأخرى.

(٣) سورة ق الآية ٣٧ .

الساعات الأولى التي قفز فيها العسكر على السلطة والحكم، فكانت أول قرار للضباط البعثيين وحلفائهم يصدر عن مجلس قيادة الثورة بعد الاستيلاء على مقاليد السلطة في دمشق.

لقد أوضح عدد من القضاة والقانونيين لمراقب الشرق الأوسط أن حالة الطوارئ لم تكن يوماً مشروعاً قانونياً، لأنها لا تتوافق مع أحكام المرسوم الاشتراعي ذي الرقم (٥١) أو مع الدستور ولم يقرها مجلس الوزراء الذي يرأسه رئيس الجمهورية، ولم يسبق أن عهد به إلى البرلمان السوري للتصديق عليها في أي دورة برلمانية، وكلاهما لازم استناداً إلى المادة (٢أ) من المرسوم ذي الرقم (٥)، وهذا ما لم يحصل قط في سورية، علماً بأن حالة الطوارئ حسب المرسوم رقم ٥١ مقصورة على وضع الحرب، أو ما يهدد باندلاعها، أو ما يعرض الجمهورية أو جزءاً منها إلى الخطر، أو حدوث كارثة عامة.

أ- يسوغ النظام السوري تمسكه بحالة الطوارئ أنها بسبب دوام الصراع مع إسرائيل كما يقول مندوب سورية في الأمم المتحدة، وكما يؤكد حافظ أسد قائلاً: إن حالة الحرب هي الحالة التي تعيشها سورية منذ احتلال الحركة الصهيونية جزءاً من أرضنا العربية، فنحن في حالة حرب تفرض علينا باستمرار قانون الطوارئ لعشرات السنين!! وهذا ما تضمنه خطاب حافظ أسد في المؤتمر الخامس لاتحاد شبيبة الثورة كما نقله راديو دمشق حسبما أورد تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط عن انتهاكات حقوق الإنسان في سورية[1].

---

(١) تقرير رقيب الشرق الأوسط: ٥١ .

إن حالة الطوارئ تمنح الحاكم العرفي -رئيس الوزراء ونائبه وزير الداخلية- صلاحيات مطلقة في تقييد حرية الحركة والتجمع ومراقبة البريد والاتصالات والمطبوعات، وحق المصادرة وتعليق أو إغلاق وسائل الإعلام، واستعادة أو مصادرة الممتلكات، وبالرغم من هذه الصلاحيات المرعبة والمطلقة، فإن النظام السوري خرق هذه القوانين في مجالات عديدة ومناسبات مهمة، ففي إجراءات الاعتقال التي يتضمنها قانون الطوارئ يتعين توقيع الأوامر من قبل الحاكم العرفي أو نائبه، غير أن ما كان يحدث أن أوامر الاعتقال تعطى لدوائر الأمن موقعة من دون أسماء للعمل بها كيف تشاء، وأنها تملأ بأسماء المعتقلين بعد الاعتقال.

إن دوائر الأمن تهمل المحاكم كافة، ولا تكترث مطلقاً حتى بالإجراءات الروتينية الشكلية في توجيه التهمة رسمياً في إجراء المحاكمة، فالسجناء السوريون السياسيون مرهونون بحجز وقائي تام، ليمضي بعضهم في الحجز سنوات طوالاً، ربما يصل عشر سنوات أو عشرين أو ربع قرن كما يشاء المتسلطون الأمنيون، دون مراعاة لأي اعتبار قانوني أو إنساني أو أخلاقي، ودون أن يكون للضحية حق في الاستئناف على حكم الحاكم العرفي أو مقاضاة قراراته، وبالتوسع المفرط لحدود الجرائم السياسية، وبالسماح بالحبس والحجز بغير حدود، ومن دون محاكمة، فإن حالة الطوارئ فتحت الطريق واسعاً أمام انتهاكات حقوق الإنسان الرهيبة في سورية الجريحة والمنكوبة.

٢- ومنذ الساعات الأولى للانقلاب صدرت مراسيم وقرارات

عديدة زادت في ضعف النظام القضائي السوري ووهنه، فالقانون الصادر بالمرسوم رقم (٦) في ١٧-١-١٩٦٥ أقام المحاكم العسكرية الاستثنائية الخاصة للنظر في قضايا سياسية صرفة، وهي ذات سياقات عمل أقل مما في المحاكم العسكرية المشار إليها في أصل القانون، وأبسط منها في الإجراءات ذات الضوابط القضائية، وقد جاء في الفقرة (أ) أن الأعمال التي تعد متعارضة مع تنفيذ النظام الاشتراكي سواء أكانت أفعالاً أم كلاماً أم كتابة، أو تؤدي بأي وسيلة من وسائل الاتصال أو النشر، وكذا أي معارضة لتوحيد الدول العربية، أو أي من أهداف الثورة أو إعاقة تحقيقها. . إلخ، وسرعان ما وضعت هذه البنود الشاذة موضع التطبيق منذ نيسان ١٩٦٤ عندما تحرك النظام البعثي للقضاء على الاحتجاجات على مظالم الحكم، فقضت المحاكم العسكرية الاستثنائية بإعدام العشرات، ونفذت الحكم فيهم، وفي وقت لاحق حلت محاكم أمن الدولة محل المحاكم العسكرية رقم ٤٧ الذي تم تعريفه على كونه لا يخضع للإجراءات المألوفة والمعروفة في المحاكم المدنية، فالدليل الذي يقدم إليها -لمحاكم أمن الدولة- ليس له وجود اعتباري في القانون، كما في شهادة السماع، أو اعتماد رأي الادعاء، وليس من ثم فرصة للطعن في قراراتها الإجرائية، ومع كل هذا التجاوز على كل ما عرفه الإنسان في مسيرته الحضارية في مجال القضاء، أقام المرسوم القانوني فيما بعد رقم ١٠٩ في ١٧-٨-١٩٦٨ نمطاً آخر مما سمي بمحاكم الطوارئ، أو ما سمي بالمحكمة العسكرية الميدانية، أو ما يشار إليها باسم الجبهة العسكرية التي تشكل في أي مكان، أثناء الحرب أو من خلال

العمليات العسكرية الأخرى[1].

وبهذه المحاكم التي لا تعرف دول العالم لها مثيلاً، حكم على العشرات، بل المئات بالإعدام في محاكمات تجري على الأرصفة وقارعة الطريق، وسرعان ما ينفذ حكم الإعدام كما حدث في حلب وجسر الشغور وحماة، وفي العديد من المدن والقرى السورية في ستينيات القرن الماضي.

إن هذه المحاكم تقع دائماً خارج أي نظام قضائي، بل إن الأحكام تصل مسبقاً إلى المحاكم عن طريق الأجهزة الأمنية التي نفذت الاعتقال، وفي مثل هذه المحاكم الميدانية، فإن الحكم الصوري صار منهجاً يومياً، فالنظام يتحرك من ادعاء تمسكه بالقانون إلى إغفال القانون إطلاقاً، ومن المحاكم المشروعة إلى المحاكم الصورية الاستثنائية، ثم إلى لا محاكم البتة[2].

ضجت نقابات المحامين في سورية من هذه الأنظمة التي لا تمت إلى الدساتير والقوانين والقرارات والأعراف والمعقول والأخلاق بأي صلة، وبدأت بحملة ضارية على هذه المحاكم التعسفية سبّبت حملة وحشية ودموية من أجهزة الأمن على المحامين والقضاة ورجال القانون، مما سيأتي ذكره مفصلاً في حينه، وفي أوراق لاحقة، وفي الفترات الزمنية التي حدث فيها قمع المحامين والقضاة ورجال القانون والمدافعين عن حقوق الإنسان وآدميته.

---

(١) منظمة رقيب الشرق الأوسط: ٥٤ .

(٢) المرجع السابق: ٥٧ .

٣- بادرت حكومة ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٦٦ إلى إرسال وفد سري إلى القاهرة صباح انقلابها برئاسة مصطفى الحاج علي إلى عبد الناصر -كسباً للوقت وتضليلاً للشعب- لإحراجه والمزايدة عليه لسحب قوات الأمم المتحدة من خليج العقبة ومضائق تيران، فوقع عبد الناصر في الفخ، وخدع من جديد من حكام الأقلية الجدد في سورية الذين جاء بهم انقلاب ٢٣ شباط، على تنوع أساليبهم في الخداع والمكر، لدفع العرب إلى منزلقات أودت بهم إلى نكبة الخامس من حزيران/ يونيه ١٩٦٧، وإلحاق الهزيمة المنكرة بأمتنا التي وقعت ضحية الكيد الباطني الذي تواصل وامتد من ابن العلقمي إلى اللجنة العسكرية السرية التي أنشأها في القاهرة، وفي ظل الوحدة: محمد عمران، وحافظ أسد، وصلاح جديد.

ثامناً - إرهاب السلطة الحاكمة

بقدر ما كان الدور السوري عظيماً في حركة التحرر والنهوض عربياً وعالمياً، جاء التآمر على حرية سورية واستقلالها كبيراً وخطيراً منذ أواخر الأربعينيات، وفي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي من الدول الطامعة، وفي مقدمتها أمريكا وإنكلترا، غير أن سورية الكبيرة بصمودها في مواجهة الأحلاف الاستعمارية، أحبطت ذلك كله، وخرجت من ذاك الصراع قوية ظافرة، وإذا بفئة غادرة تُحسب على أنها من أبناء سورية وليست من أعدائها، تسدد لها ضربة دامية، وتستولي على السلطة بانقلاب أدخلها في التيه المظلم لأكثر من ٤٥ سنة باسم الحرية والتقدمية والثورية والوحدة ومواجهة

الصهيونية والإمبريالية في شعارات كان الواقع على عكسها، فتسفك الدماء، وتنهب البلاد والعباد، وتستبيح القيم والمحرمات، وتزرع الخوف في النفوس، وتمعن في تجويع المواطنين وإفقارهم وقهرهم وما تزال، وبكلمة موجزة، تمارس الفئة الحاكمة وسلطة الأقليات في سورية أخطر انتهاك لحقوق الإنسان في العصر الحديث.

١- إن أخطر ما يتعرض له الإنسان من انتهاك حقوقه وحرياته، أن تتحول الدولة -بجميع طاقاتها وقدراتها المادية والمعنوية- إلى مؤسسة تمارس الإرهاب ضد أفراد المجتمع، وترتكب جرائم القتل والخطف واغتيال المعارضين ومصادرة الأموال، وسحق وقمع كل من يخالفها في الرأي، أو يعارض أو ينتقد سياساتها استناداً للقوانين الشاذة التي وضعتها وشرّعتها.

كيف تستطيع الدولة التي تحولت إلى مؤسسة إرهابية أن تصدر قوانين جائرة تمارس باسمها ومن خلالها الإرهاب والبطش ضد المواطنين؟ إن ذلك يحدث عبر الحكم الشمولي الذي استولى على السلطة بانقلاب عسكري، واغتصب حق الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه، واعتبر المواطنين قاصرين، وله حق الوصاية عليهم، فألغى دستور الشعب ووضع لنفسه دستوراً على مقاسه، نزع منه سيادة الشعب، ووضع له قائداً على الدولة والمجتمع أضفى عليه صفات العظمة والقداسة، برغم أنف الدولة والمجتمع، واحتكر لنفسه حق الترشيح لرئاسة الدولة، دون أن يملك أي مواطن هذا الحق، وعلى الشعب أن يقول لمن ترشحه السلطة الباغية: نعم، كما أوجد هذا

النظام مجلساً سماه مجلس الشعب، جعل التشريع قسمة بين هذا المجلس وبين رئيس الجمهورية، مع أن الواقع العملي أن التشريع ينحصر بيد رئيس الجمهورية، ولا يملك هذا المجلس إلا أن يقر بالإجماع ما يقترحه الرئيس من القوانين -مع التصفيق الحاد- مما سهّل إصدار القوانين القمعية بمراسيم تشريعية أو قوانين قدمها رئيس الجمهورية إلى المجلس فوافق عليها المجلس بالإجماع مهما تضمن تنفيذها من جرائم تقشعر من هولها الأجسام بحق الإنسان والوطن، ومهما أدى تطبيقها إلى سفك دماء الألوف من المواطنين والأبرياء.

من أهم هذه القوانين:

أ- قانون حماية الثورة الصادر بالمرسوم التشريعي رقم (٦) تاريخ ١٧-١-١٩٦٥ المنوه عنه سابقاً.

ب- قانون إحداث محاكم الميدان العسكرية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم (١٩) المؤرخ في ١٧-٨-١٩٦٧ .

ج- قانون إحداث محكمة أمن الدولة الصادر بالمرسوم التشريعي رقم (٣٩) المؤرخ ١٩٦٨ .

د- قانون إحداث إدارة أمن الدولة الصادر بالمرسوم التشريعي رقم (١٤) المؤرخ في ١٤-١-١٩٦٩، وقانون التنظيمات الداخلية لإدارة أمن الدولة الصادر بالمرسوم التشريعي رقم (٥٤٩) المؤرخ في ٢٥-٥-١٩٦٩ .

هـ- الدستور السوري الصادر في ١٣-٣-١٩٧٣ .

و- القانون (٤٩) الصادر في تموز ١٩٨٠ .

ز- قانون المحاماة رقم (٣٩) المؤرخ في ١٩٨١، ثم تبعه قانون المهن الحرة، كقانون الأطباء وقانون الصيدلة والمهندسين.

كل هذه القوانين والمراسيم تتيح للطغاة قتل المواطنين لأسباب تافهة، وبمحاكمات صورية مجردة من كل ما يمت إلى النظام القضائي المحلي والعالمي بصلة، وتؤله رئيس الجمهورية الذي اغتصب الحكم بالسلاح، ونصب نفسه رئيساً بصلاحيات مطلقة وغير مسبوقة، بالأنظمة الدستورية في العالم كله، مما سيأتي تفصيل عنها في مكانها ضمن الأحداث في سياقها الزمني وتسلسل الأحداث.

٢- قانون الطوارئ هو القانون الأخطر الذي يمس حقوق المواطنين جميعاً دون استثناء، وهو أداة لسلب حرياتهم والاستيلاء على أموالهم، وانتهاك الحقوق التي ضمنتها لوائح حقوق الإنسان وجميع الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، فقد أعطى قانون الطوارئ للحكومة أن تفعل أي شيء في أي مواطن دون بيان الأسباب وبلا تعليل، وبدون إعطاء أي حق لأي جهة قضائية للاعتراض على هذه الأفعال التي تشكل أبشع الجرائم الجنائية، وبكلمة موجزة، تعطي السلطة الحق في فعل أي شيء في الوطن والمواطنين.

إن قانون الطوارئ يعلن بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء المنعقد برئاسة رئيس الجمهورية، وبأكثرية ثلثي أعضائه حسب الفقرة أ من المادة الثانية من المرسوم ٥١ الصادر بتاريخ ٢٢-١٢-١٩٦٢، على أن يعرض على مجلس النواب في أول اجتماع له، وسورية لم يكن

فيها مجلس نواب حين صدر هذا المرسوم، وعندما يكون مجلس النواب منحلاً يسترد حقه بالمصادقة على إعلان الطوارئ في أول جلسة يعقدها بعد انتخابه، وتنص المادة ١٥٣ في الدستور المعمول به في سورية على أن التشريعات النافذة والصادرة قبل إعلان هذا الدستور سارية المفعول إلى أن تعدل بما يوافق أحكامه، وإذا علمنا أن حالة الطوارئ لم تعرض على مجلس الشعب، ولا على أي مجلس تشريعي منذ إعلانها وحتى كتابة هذه السطور في منتصف عام ٢٠٠٨ تبين لنا أن حالة الطوارئ في سورية غير دستورية، وأن كافة التصرفات التي تمت على أساسها باطلة، لمخالفتها الدستور والقانون، مما يتبع عدم قانونية القرارات الصادرة بالاستناد إليها، وبخاصة أوامر اعتقال الأفراد ومصادرة الأموال، لأن ما بني على باطل فهو باطل، وأن أوامر اعتقال الأفراد استناداً لحالة الطوارئ، يشكل جريمة حجز الحرية، وهي جريمة جنائية بنص المادة ٥٥٦ من قانون العقوبات السوري يعاقب عليها بالأشغال الشاقة، وقد جاء في كلمة مندوب سورية أمام اللجنة المعنية بحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة التي مقرها في جنيف: إن الحكومة السورية بفضل قاعدتها الشعبية، شعرت أنها من القوة الكافية بحيث أنها لا تلجأ إلى إعلان حالة الطوارئ، مما يعني أن حالة الطوارئ في سورية غير معلنة دستورياً، وإنما واقعياً، وهذا أدهى وأقسى.

إن إساءة استخدام حالة الطوارئ قد تعاظمت فيما بعد بصورة خطيرة، ولاسيما في الأعوام ١٩٧٩ و١٩٨٠، فشهدت أشكالاً من

انتهاكات حقوق الإنسان، وارتكاب مجازر فردية وجماعية رهيبة هزت الضمير الإنساني، وأهمها انتهاك الحق في الحياة بصورة جماعية فيما سيأتي بيانه في مرحلة لاحقة.

٣- في ظل قانون الطوارئ تنعدم ممارسة السلطة القضائية، لأية صلاحية بصدد الاعتقالات، ويحرم المواطن من حقه في الطلب من القضاء بشرعية توقفيه، ولا يحق له الطعن بقرارات الحاكم العرفي في اعتقاله أو مصادرة أمواله، أو التظلم من ذلك أمام أي مرجع قضائي، كما يمنع ذوو المعتقل من معرفة مكان اعتقاله، أو العلم بالتهم الموجهة إليه، ومن ثم عدم إمكان زيارته للتحقق مما إذا كان المعتقل حياً أو ميتاً، وقد ترتب على ذلك أن أكثر المعتقلين الذين لم يقدموا للمحاكمة هم في عداد المفقودين ومجهولو المصير، كما ترتب على هذه الإجراءات الظالمة، وهذا الاستهتار بكرامة الإنسان وآدميته: خلل في العلاقات الاجتماعية والأسرية بسبب طول مدة الاعتقال من دون محاكمة، وعدم معرفة مصير المعتقل، أو مكان وجوده، كالعلاقة الزوجية، والإرث، أو الشراكة والملكية وغيرها.

فهل واجه الإنسان في أي قطر من أقطار العالم، أو أي شعب من شعوب الأرض -يهوداً أو نصارى أو بوذيين أو وثنيين أو ملحدين- مثل هذه المآسي التي واجهها المواطن السوري في وطنه؟ وهل عومل أي عميل أو عدو في سورية، ولاسيما الصهاينة كالذي عومل به السوريون الذين عارضوا إرهاب الدولة وهمجية المتسلطين على رقاب العباد وشؤون البلاد بعد انقلاب ٨ آذار المشؤوم عام ١٩٦٣؟

هذا هو النهج الذي قال ورثة الطاغية أنه خط أحمر لا يجوز مسّه أو تجاوزه أو الاعتراض عليه.

ومما يجدر ذكره في هذا السياق أن الاعتقالات أمست مصدر نهب وابتزاز واستلاب مبالغ طائلة من ذوي المعتقلين للسماح لهم بزيارة أبنائهم أو آبائهم أو أزواجهم، إذ كانت النسوة يذهبن إلى الجبل يلتمسن من أم مدير السجن -المقدم فيصل الغانم- السماح لهن بزيارة المعتقل في سجن تدمر، ويمكنهن من رؤية المعتقل، ولو لدقائق من خلف الأسلاك الشائكة، بعد دفع ما كانت تشترطه أم المقدم فيصل الغانم وهو أخذ كل مالدى أهل المعتقل من ذهب ومصاغ، وليس بالعملة الورقية السورية التافهة.

وكذلك الأمر في سائر المعتقلات والسجون الأخرى.

تاسعاً - الصهاينة وانقلاب ٨ آذار

كانت فلسطين تشكل الجزء الجنوبي من بلاد الشام، حتى جاءت معاهدة سايكس - بيكو بعيد الحرب العالمية الأولى، فمزقت بلاد الشام، وجعلت منها أربع دول تمهيداً لتنفيذ المشروعات الاستعمارية على أرض الشام، وتقديمها لقمة سائغة للصهاينة من قبل الإنكليز الذين نكثوا عهودهم للشريف حسين وللعرب بإقامة الدولة العربية الممتدة من عدن جنوباً إلى جبال طوروس شمالاً، فشرع الإنكليز الذين غدروا بالعرب، ووعدوا اليهود بتسليمهم فلسطين، ينفذون المشروع الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين، ويفتحون باب الهجرة لهم على مصراعيه، وتم تعيين اليهودي الإنكليزي صموئيل

مفوضاً سامياً للإنكليز في فلسطين، ليقوم بتوزيع أراضي الفلسطينيين بسخاء على اليهود القادمين، والتضييق على العرب الفلسطينيين بالضرائب الفادحة على الأرض، وبالإجراءات الثقيلة على الحقول الزراعية، للضغط على السكان كي يتركوا الأرض أو يبيعوها ويهاجروا إلى خارج مناطقهم، وكذا مطاردة المعارضين، وإعدام الثائرين، لإفراغ فلسطين من أهلها.

١- كانت سورية أول الدول العربية في التصدي للهجمة الصهيونية، ولمشروع الحلفاء -فرنسا وإنكلترا- في تقسيم سورية، وتسليم فلسطين بعد سلخها من الوطن الأم إلى الصهاينة ليحلوا محل سكانها، تمهيداً لطردهم من أرضهم ووطنهم، فكانت الأحزاب السياسية والشخصيات الوطنية والجمعيات الإسلامية في ثورة عارمة في الدفاع عن عروبة فلسطين في كل مدن وقرى وبقاع سورية، وكانت الحماسة في نفوس السوريين كالبركان غيرة على المسجد الأقصى وما حوله من الأرض المقدسة، ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي والإخوان المسلمون في مصر وسورية في نشاط دائب وحركة مستمرة ضد المشروع الصهيوني وتآمر الإنكليز على فلسطين، فكان التعاون وثيقاً بين قادة الإخوان المسلمين بقيادة مرشدهم الإمام حسن البنا وإخوانه وقيادات الإخوان في سورية من جهة، وبين الزعامات الفلسطينية وفي مقدمتهم الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا في فلسطين والشيخ نمر الخطيب العالم المجاهد إمام المسجد الكبير في حيفا وغيرهما من الساسة والمجاهدين الفلسطينيين.

وعندما أقرت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ بضغط شديد من أمريكا وإنكلترا على الدول الصغيرة والضعيفة في هيئة الأمم المتحدة، هبّ الشعب السوري عن بكرة أبيه في التصدي لهذه المؤامرة الدنيئة والخيانة الكبرى بحق حاضنة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة، والأرض المباركة، وخاض الإخوان المسلمون السوريون معارك ضارية كانت أحد الأسباب التي أنقذت القدس وأبقته في أيدي العرب الفلسطينيين، كما شهد بذلك قادة فلسطين ومؤرخوها من أمثال عارف العارف، وساستها أمثال الحاج أمين الحسيني وإميل الغوري ونمر الخطيب وغيرهم، مما جاءت تفصيلاته في المجلد الأول من هذه المذكرات عن الإخوان المسلمين في سورية.

كانت المؤامرة التي حاك خيوطها المنظمات الصهيونية العالمية والدول الكبرى المهيمنة على هيئة الأمم ومجلس الأمن والسياسات العالمية: أكبر من قدرات العرب وحكوماتهم المستقلة حديثاً، والضعيفة في قدراتها العسكرية، وتخاذل الكثيرين من السادة والقادة، مما ألحق بالعرب هزيمة نكراء ما زلنا نتجرع مرارتها، وأوقعتهم في نكبة تذوب القلوب منها كمداً، وتتفطر الأفئدة من شديد الألم.

غير أن السوريين ظلوا مبعث قلق الصهاينة المغتصبين لفلسطين، بما يثيره أبناء سورية من تحرك عاصف ضد الذين اغتصبوا فلسطين، وما يقومون به من تعبئة الأمة وتوعية الجماهير، وتشكيل لجان الدعم بمختلف ألوانه، وما يفضحون للملأ من مؤامرات الأعداء وتخاذل

الأصدقاء، وما يبيتونه للشعب العربي والأمة الإسلامية من خطط مدمرة تزول منها الجبال، وقد قرأنا من قبل أن جماعة الإخوان المسلمين كانوا يضطلعون بالعبء الأكبر من سياسة التصدي للعدو في فلسطين كما رأينا وقرأنا ذلك من قبل في المجلد الأول من هذه الدراسات.

ظل الأمر هكذا حتى وقعت الواقعة، وحدث انقلاب ٨ آذار الذي قام به بعض عساكر الجبهة مع العدو حيث تركوها متوجهين إلى دمشق، مطمئنين إلى أن العدو لن يحرك ساكناً، ولن ينتهز فرصة تحرك الضباط الأشاوس، وتركهم لمواقعهم في الجبهة، متجهين إلى دمشق لهدم الحياة الدستورية والنيابية والسيطرة على مقاليد الحكم، وليزجوا بقادة البلاد -الذين قادوا شعبهم إلى الاستقلال- في غياهب السجون، فكان سكون العدو، وعدم قيامه بأي تحرك في الجبهة التي سحب العقيد زياد الحريري وأمثاله قسماً من الجيش المرابط فيها، وتركوا الجبهة مطمئنين- أول إشارة لموقف العدو من هذا الانقلاب الخسيس!!

٢- تنفس الصهاينة الصعداء، واطمأنوا إلى جبهتهم الشمالية التي كانت منذ عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٦٣ مبعث قلق ومصدر خوف من شعب سورية ومن جيشها، فساد الهدوء بين الصهاينة وبين حكام ٨ آذار لسنوات طوال تخللها مؤامرات مفضوحة بين الحكم الثوري في دمشق، وبين الصهاينة في فلسطين، شملت تسليم الجولان وعقد اتفاقات سرية بعد عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٧ مما سيأتي ذكره مفصلاً وموثقاً، وعدم السماح لأي سوري بتفجير -ولو- قنبلة صوتية قد تزعج اليهود، ولا بتحرك مقاوم واحد ضد العدو، سواء أكان سورياً

أم فلسطينياً، مما سنرى أدلته في سياقه، بل كانوا يقبضون على كل من يتحرك على الحدود، ويزجون به في أقبية المعتقلات والسجون، ويذيقونه أشد أنواع التعذيب.

استمر هذا الهدوء بين السلطة الحاكمة في دمشق وبين العدو المحتل لخمس وأربعين سنة، باستثناء الصدام عام ١٩٧٣، والذي استلم اليهود من جرائه بضعاً وثلاثين قرية من الأرض السورية، ليضيفها العدو إلى ما احتله من الجولان وما حول الجولان، وليحتلوا ذرى جبل الشيخ، لتكون دمشق في مرمى مدفعية العدو، ولتكون الأرض السورية في متناول العين المجردة!!

امتد شهر العسل بين التتار الجدد (الذين جثموا على صدور السوريين وعلى عاصمتهم ومدنهم بكلكل ثقيل أرهق الناس وأذاقهم الويلات) وبين الصهاينة عقوداً بدعوى الاستعداد للمعركة التي سيختار الطائفيون مكانها وزمانها!! تحت شعار التوازن الاستراتيجي مع العدو الذي رفعوه لأكثر من عقدين، يخادعون به السوريين والشعب العربي والأمة الإسلامية، دون أن يفطن كثيرون لما يبيت من شر مستطير للبلاد والعباد بالتنسيق الكامل أو الرضا التام مع الإسرائيليين.

خُدع كثيرون من المعنيين بشعار التوازن الاستراتيجي، ولاسيما اليساريون والعلمانيون، والعديد من الفلسطينيين، والبعض من قادة الحركات الإسلامية، حتى فاجأ العدو -فيما بعد- العالم كله جهرة وبلا تستر أو مواربة أو غطاء بأن الصهاينة -عبر وسائل إعلامهم المعلنة- لا يسمحون بأي تغيير في سورية، ومارس اللوبي الصهيوني

-في داخل فلسطين وفي خارجها، ولاسيما في الولايات المتحدة- ضغطاً شديداً محذراً من أي تغيير في هيكل الحكم في سورية، لأن البديل سوف يكون المتشددين -تعبير يطلق على الحركات الإسلامية- أو الفوضى، وهذا ليس من مصلحة إسرائيل، وسرعان ما بدلت أمريكا مواقفها قائلة: لا نرمي إلى تغيير النظام، بل نهدف إلى تغيير سلوكه!!

فاجأ السفاح الباطني ابن العلقمي الجديد حافظ أسد الأمة كلها بتغيير شعار التوازن الاستراتيجي إلى شعار: السلام الاستراتيجي بعد أن لم يعد لديه ما يخيفه أو يخفيه، فبدأت وسائل إعلامه (التي لا تسمح بأي صوت حر أو معارض على أرض الوطن) وسدنة حكمه الذين أذاقوا الناس مرارة الجوع والفاقة والعذاب بالتطبيل والتزمير للشعار الجديد قائلين: إن خيارنا الدائم والثابت هو السلام الاستراتيجي مع إسرائيل، بل صار وريث الطاغية ولده بشار -الذي جيء به من مقاعد الدراسة لتسليمه سورية تركة موروثة- يقول في وقت لاحق ستأتي تفاصيله في سياقه: فلتجرب إسرائيل الحوار معنا، لتتأكد من عزمنا وتصميمنا على إحلال السلام الدائم معنا، لأن خيارنا هو السلام الاستراتيجي الدائم فيما بين سورية وإسرائيل.

٣- دأبت سلطات انقلاب ٨ آذار على تسويق نفسها على أنها العدو اللدود لإسرائيل، وأنها رأس الحربة في التصدي للمشروع الصهيوني في حروب كلامية بلغت بالمواطنين حد القرف لتكرارها الدائم وصك الآذان بكلماتها، وأن حكومة سورية التقدمية الثورية

ستقذف الكيان الصهيوني في البحر، وأنها ستقود حرباً شعبية لتحرير فلسطين، ثم بدا لحافظ أسد أن ينادي بعدم جدوى المقاومة، فقام بسجن المنظمات الفدائية ولاسيما حركة فتح بشكل غير مسبوق، ليؤدبهم ويعقّلهم -حسب تعبيره- لأن الصراع مع اليهود يحتاج إلى جيوش نظامية، وليس إلى مقاومة تعطي العدو التبرير بالاعتداء علينا، واحتلال أرضنا -كما سيأتي في إبانه- كالذي فعله بتغيير شعاره: من التوازن الاستراتيجي إلى السلام الاستراتيجي.

استمر حافظ أسد بخداع السوريين، وخداع العرب الذين ابتزهم بدعوى التصدي لإسرائيل، وتقوية جيشه استعداداً للمواجهة معها، حتى بلغ الأمر ببعض العرب وبعض الفلسطينيين أن يعتقدوا بأن الذي سيحرر فلسطين هو حافظ أسد، بما يطرحه من شعارات رنانة وحرب كلامية بكل الوسائل الإعلامية المسموعة والمرئية والمكتوبة التي تملكها الدولة، ولا تسمح لأي مواطن أن يكون له أي وسيلة معها.

ظل الأمر هكذا طويلاً وشهر العسل يمتد بين حكومة الأقلية في دمشق وبين الصهاينة على أرض الواقع بصرف النظر عن معارك دونكيشوت الإعلامية عقداً إثر عقد حتى أتيح لليهود بناء قوة هائلة ودولة ترجح قوتها على قوات العرب مجتمعين، بالرغم من أن عدد العرب وحدهم -دون شعوب الأمة الإسلامية- يفوق عدد اليهود خمساً وخمسين مرة، أو لا يقل عن خمسين مرة على خلاف في الإحصاءات وعدد السكان.

ظل الأمر هكذا خداعاً وتضليلاً حتى شاء القدر أن يفضح هذه

الفئة الباغية التي تستبقي شعب سورية المصابر في محنته، وذلك عندما كشف الغطاء عن مؤتمر جامعة تل أبيب عام ١٩٦٤، كان موضوعه: الاتحاد السوفياتي والشرق الأوسط، تدارس فيه قرابة ثلاثين مفكراً وباحثاً من بلدان غربية ومن إسرائيل -تطورات العالم العربي من جوانبها المختلفة، طمأن فيه أحد كبار الأخصائيين الإسرائيليين الذين كانوا يخشون من المد اليساري الذي تتظاهر فيه حكومة انقلاب ٨ آذار الثورية!! بأنه لا خوف من هذه الظاهرة التي ليست سوى غطاء لما تقوم به حكومة الأقلية من علونة -تمكين العلويين من مرافق الحكم والجيش والأمن والمرافق الأخرى- السلطة الجارية على قدم وساق ولكنها موجهة ضد جمال عبد الناصر أساساً، وقد انتهت هذه الموجة اليسارية -حسب الظاهر الذي يخفي حقيقة السلطة وأهدافها- انتهت إلى انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ الذي نفذه تحالف من الأقليات العلوية والدرزية والإسماعيلية مع ضباط من أصول بدوية- انتهى إلى حكم حافظ أسد بعد أربعة أعوام، وبعد ثلاثة أعوام من هزيمة أو خيانة حزيران، مكافأة له، بعد أن حطم الجيش السوري، وجرده من معظم إن لم يكن من كل كفاءاته، وتركه دون هيئة ضباط -حسب تعبير باتريك سيل صديق الأسد وكاتب سيرته الذاتية- ليمنى بهزيمة شنعاء ستبقى أبد الدهر عاراً على حكم طائفي تسلط على رقاب العباد ومصائر البلاد في غفلة من الزمن ودعم من الأعداء، وتفريط من لفيف من الساسة في تلك الفترة الحالكة شديدة السواء[١].

---

(١) حوار حول سورية: ٧.

الفترة الثانية

الصراع على السلطة
من عام ١٩٦٦ وحتى عام ١٩٧١

شدّد حكام سورية الجدد من أبناء الأقليات قبضتهم على السلطة، وشرعوا بتطبيق سياسة التنكيل والاضطهاد، وسحق كل شرائح المجتمع السوري دونما تمييز بين فئة وأخرى، وخصوا ذوي الاتجاهات الإسلامية من العلماء والدعاة وأبناء دعوة الإخوان المسلمين بألوان من القمع والتعذيب ليس لها مثيل في تاريخ سورية القديم منه والحديث، وفرض نظام الأقلية عقائد وسلوكيات معادية ومناوئة لمفاهيم الإسلام وقيمه ومثله عبر منهج تدميري التزمت به كل الحكومات المتعاقبة التي أفرزها وجاء بها انقلاب ٨ آذار، فلم يعد غريباً على سماع المواطنين ما تستفزه بهم عصابات الحكم من الكفريات التي تلوكها ألسنتهم، وتسيل بها أقلامهم مثل:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له   وبالعروبة ديناً ماله ثاني

وشتم السفهاء منهم لصلاح الدين قائلين: يلعنك يا يوم حطين، والخائن صلاح الدين، وغير ذلك وأمثاله كثير في ظل مصادرة

الحريات، وتكميم الأفواه، وحل الأحزاب، وإغلاق الصحف والمجلات ومنابر الفكر والرأي، ومسخ المناهج التعليمية والتربوية، واحتكار وسائل الإعلام، وملاحقة ذوي الرأي المخالف، أو كل من يعترض على هذه السياسات المدمرة.

أولاً - تدمير المجتمع السوري

أمام هذا القمع الرعيب غادر كثيرون وطنهم، وأخلوا الساحة والمجتمع السوري، وتركوه يواجه هذا التنكيل والبطش، وتشويه المعتقدات، وإفساد النفوس، وأخلاق المواطنين، ولاسيما الناشئة من أبناء سورية المنكوبة الصابرة.

لم يطب لجماعة الإخوان المسلمين أن تترك الحبل على الغارب، وتقف موقف المتفرج، والمراقب على ما يحدث من ظلم وعدوان على الإسلام وعلى المواطنين، فصممت على البقاء والصمود في أرض الرباط، والمواجهة تجاه هذا البغي التتاري الجديد الذي تحالف مع أعداء الأمة من خارج الوطن وخصوصاً: الإنكليز والأمريكان والصهاينة كما سيأتي بيانه في حينه.

أ- شدد الحاقدون حملتهم على أبناء الدعوة الإسلامية وأنصارهم ومن يشابههم في إجراءات وأعمال استفزازية جارحة لكل المؤمنين، بل ولجميع المواطنين، ومن ذلك:

أ- إلغاء كلمة مسلم من البطاقة الشخصية.

ب- تحويل موارد الأوقاف المخصصة للإنفاق على بناء المساجد

وترميمها، وعلى الموظفين والعاملين فيها من أئمة وخطباء ومؤذنين وخدم.. إلخ إلى الموازنة العامة، وإلى بيع أملاكها بأسعار زهيدة، تَمَلَّكَها ذوو النفوذ في السلطة الباغية ليصبحوا من كبار الأثرياء.

ج- تشويه مادتي التربية الإسلامية والتاريخ وملؤهما بالدس والإفك والآراء الشاذة، وتشويه الحقائق الثابتة والمعروفة في تراثنا المجيد.

د- التمهيد لإلغاء المدارس والمعاهد الشرعية، مما أثار حفيظة الدعاة والعلماء لإيقاف هذا المسعى البغيض.

هـ- الاعتداء على القرآن الكريم في عدد من المحافظات السورية، ولاسيما في حماة ودمشق، وفي عدد من مساجد العاصمة.

و- التنكيل بمدرسي التربية الإسلامية، وإبعاد عدد منهم عن مدارسهم وعن دينهم، ونقلهم إلى الأماكن البعيدة النائية مثل محافظات المنطقة الشرقية في سورية، وجبل الدروز وبعض القوى التي يغلب على سكانها المواطنون المسيحيون.

ز- التطاول على الإسلام، والطعن في معتقداته، بأقلام مسمومة، وأحقاد ظاهرة ومعلومة، كالتي يتناولها زكي الأرسوزي منظر الفكر البعثي الذي تبناه الطائفيون وعلى رأسهم حافظ أسد، ومنها مقالة نشرتها مجلة جيش الشعب تحدث فيها -الأرسوزي- عما سماها بأسطورة آدم، وادعى في مقالات أخرى أن العصر الجاهلي هو العهد الذهبي للعرب وأن الانحطاط والانحراف عن العروبة وقيمها، بدأ مع

ظهور الإسلام.

ح- تناول علماء الإسلام بالاستهزاء والسخرية والاحتقار، كالذي جاء في مجلة الفجر، بنشر صورة حمار على رأسه عمامة.

ط- ما نشره الضابط العلوي إبراهيم خلاص -وهو من أفراد الجيش- من مقالة استفزازية في مجلة جيش الشعب الصادرة عن إدارة التوجيه المعنوي للجيش والقوات المسلحة، بتاريخ ٢٥-٤-١٩٦٧ دعا فيه إلى وضع الله -حاشاه سبحانه- والأديان في متاحف التاريخ، ومما جاء في هذا المقال السفيه: استنجدت أمة العرب بالإله، فتشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية، استعانت بالنظام الإقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى، فلم يُجدِ كل ذلك فتيلاً، مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها، ونظرت بعيداً بعيداً، لترى طفلها الوليد يقترب شيئاً فشيئاً، وهذا الوليد ليس إلا الإنسان العربي الاشتراكي الجديد، الإنسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه، التي ليست إلا وليدة الإقطاع والرأسمال والاستعمار، تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربي إنساناً متخاذلاً متواكلاً، إنساناً جبرياً مستسلماً للقدر، إنساناً لا يعرف إلا أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال صاحب المقال: الإنسان يعلم أن نهايته الحتمية الموت، ولن يكون هناك نعيم أو جحيم، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض[1].

---

(١) مجلة جيش الشعب ٢٥-٤-١٩٦٧ .

شعر السوريون أن دينهم في خطر، وأن العصابة الحاكمة تمعن في التهجم على الإسلام، وتصر على اغتياله، فهبت دمشق عن بكرة أبيها بمناسبة عودة الشيخ حسن حبنكه من الحج، وحملت سيارته على الأكتاف، فدب الرعب في أوساط السلطة، وحاولت أن تتنصل من المقال الذي كتبه إبراهيم خلاص وأثار حفيظة المسلمين، وأعلنت احترامها للإسلام، وزعمت أن الكاتب شريك في مؤامرة كبرى لإسقاط النظام، ومع ذلك اعتقلت تحت جنح الظلام الشيخ حنبكه، واحتلت معهد التوجيه الإسلامي التابع للشيخ، وقامت بتسريح أساتذته وموظفيه، ووضعت يدها على مزرعة له في الغوطة، وزجت بالعديد من الشباب الإسلامي والعلماء في السجون.

كان هذا السلوك والانحراف وتحدي عقيدة الأمة ودينها، وما رافقه من مجون وانتهاك للحرمات، وقتل بالشبهة، ونهب للأموال وأملاك المواطنين -مما سيأتي تفصيلاً في سياقه- شائعاً ومعلناً، وتحدياً دونما وجل أو خجل، أو مراعاة لأي معنى من معاني الحياء.

٢- لم يشف صدور الحاقدين ما فعلوه في سورية، وما ألحقوه من ضرر وأذى في شعبها، فإذا بهم يشنون حملة اعتقالات واسعة عام ١٩٦٦ ضد النخبة من زعامات سورية السياسية والفكرية، وكذا نكلوا بكبار العلماء، بدءاً من حلب الشهباء حيث ألقوا القبض على فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة -طيب الله ثراه- كبير علماء حلب والمراقب العام للجماعة سابقاً، وصاحب الصلات الوثيقة بعلماء العالم الإسلامي، ولاسيما في الهند وباكستان، كما لمست ذلك

عندما أنست بمرافقته ومرافقة الدكتور حسن هويدي المراقب العام لاحقاً، لمقابلة الجنرال ضياء الحق الرئيس الباكستاني الذي استضافنا في فندق أنتركونتتال في روالبندي، كما ألقوا القبض على الأخ الكبير عادل كنعان أحد رموز الجماعة في حلب منذ الأربعينيات، وعلى الصيدلي الداعية الخطيب أحمد بنقسلي والمحامي الناشط عبد الرحمن قرة حمود، والدكتور محمود بابللي، ثم امتدت أيديهم الأثيمة إلى جميع المدن السورية، ففي حماة حيث اعتقلوا: الحاج ياسين كعيّد، وشاهر خلوف، وعبد الغني حزواني، والحاج مصطفى دبيس، والشيخ عبد الحميد الأحدب، والأستاذ بديع عدي رئيس مركز حماة، والمهندس رامي علواني، والأستاذ سعيد مشهور، والشيخ المهندس مروان حديد، والوجيه عبد الله السفاف، والحاج علي خير الله، وفي مدينة إدلب اعتقلوا الشيخ نافع شامية رئيس مركز الإخوان وكبير علماء المحافظة، والدكتور عادل سفلو، والداعية أحمد قطيع، وفي حمص اتسع نطاق الاعتقال ليشمل أكثر من عشرين مواطناً زج بهم في سجن القلعة، كان منهم: الأستاذ عبد الإله شربك، وعبد الوكيل صافي، وفي دير الزور تم اعتقال المراقب العام السابق الدكتور حسن هويدي حفظه الله، وأعضاء مركز الإخوان فيها، ووجهاء الجماعة، مثل الأستاذ أمين شاكر رحمه الله ويوسف طه، وزكريا يحيى الجابر، ويوسف طعمة، والمهندس رمضان عبود، والصيدلي جابر طعمة، والشيخ الأديب المفكر محمود مشوح مفتي الميادين، ثم اتسعت دائرة الاعتقال في حلب لتشمل الإخوة: الشيخ فاروق بطل، وعبد القادر الخطيب، ومحب الدين أبو صالح، وعمر

الحلـواني، وسعـاد السمـان، والدكتـور فخـر الدين قبـاوة، ومحـمد الحسناوي، ومـحمـد ناشد، وعـمر شـوقي زين الـعابديـن، ورياض كمـال، والشيخ طاهر خير الله رحمـه الله والمحـامي عمر الشـماع، وقد رأينا كـيف امتدت أيديهـم الأثيمة إلى كبير علماء سوريـة الشيخ حسن حبنكه الـميداني ذي الثقل الشعبي في دمـشق وعدد من تلامذته وأنصاره.

٣- بدأ التـمهيـد واضحاً ومـلموساً لـتسليم سـورية لحافـظ أسد، والأنباء كثـيرة في هذا المضـمار، أقتصر علـى واحدة شهدتها بـنفسي فيمـا بعد، فقد حـضر ثلاثة عن النـواب إلى أبو ظبي ليشـرحوا لأبناء الجاليـة الكبيرة في الإمارات، الأوضـاع السائدة في البلاد، فـاستدعى السفـير السوري منيـب الرفاعي عدداً من الـسوريين إلى السـفارة كنت واحـداً منهـم، وكـان الأستـاذ الكـبيـر عـبـد الوهاب الأزرق الـرجل المخـضرم أحد الـحاضرين، فـالتقيـنا بالنواب الثـلاثة أذكر منهـم بعد حوالي ٣٥ سنة: تحسـين الصفدي النائب عن سوق الحـميدية وهمزة الوصل بـين التجـار والعلـماء وبين الـقصر الـجمـهوري، والمـهندس محمود تجار، وثالث لم أعد أتذكره. وبدأوا يشرحون ظروف الصراع مع اليهود من وجهة نظر حكومتهم.

سألهـم عبد الوهـاب الأزرق: لماذا تمنـع سورية تداول كـتاب أحجار على رقعة الشطرنج في سورية؟

أجابوه: لم نسمع به.

قلت لـتحسين الصـفدي: لدي نسـخة منه، وسـأحضـرها لك

قريباً، فتواعدنا على زيارته في هلتون أبو ظبي، وعندما استلم النسخة فتح حقيبته فوقعت عيني على كتاب "دلائل الخيرات" فقلت:

- كيف تجمع بين أذكارك وتأييدك لهذا النظام الفاسد؟

فقال: ليتك تعلم كيف يترامى الكبار على هذه السلطة!

وقال: عندما اشتد التضييق على التجار من قبل صلاح جديد وعبد الكريم الجندي، قيل لنا: اذهبوا إلى حافظ أسد، فقلنا: وما علاقة قائد الطيران بما يعانيه قطاع التجارة؟

قيل لنا: جربوا..

ولم نكد نراجع الأسد شاكين له ما يعانيه قطاع التجارة في التصدير والاستيراد حتى طمأننا ووعدنا، فلم نلبث بعد وقت قصير حتى لمسنا الآثار الإيجابية لما وعد به الأسد، وانتهت سراعاً الأزمات التي كنا نعاني منها!!

ثانياً- إعداد حافظ أسد

من يمعن في تاريخ سورية الحديث، ولاسيما الفترة التي أعقبت انقلاب ٨ آذار، يجد بما لا يدع مجالاً للشك أن حافظ أسد يلقى رعاية منذ تخرجه برتبة ملازم من قوى نافذة ودول خارجية، إعداداً له بالدور الذي اضطلع به فيما بعد، ليصل بسورية إلى الحالة التي تردت إليها، ومن ذلك تجميد المواجهة مع العدو الإسرائيلي لأربعة عقود ، وإلغاء المقاومة ضد الصهاينة، وتجريد السوريين من كل مناعة تؤهلهم للتحرير أو المواجهة، وتجويع الشعب كيلا يفكر إلا

بالحصول على الخبز لأفراد عائلته.

١- بعد تخرج الأسد من الكلية العسكرية في حمص، ذكر زميل له عن رحلة سرية للأسد إلى بريطانيا في عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤ لإجراء تحليلات طبية في لندن، فمضى مع مرافقين له في رحلته، ففوجئ مرافقاه أن وزير الدفاع البريطاني ينتظرهم ويستقبلهم في المطار، أما المرافقان فقد مضيا إلى أحد الفنادق، ليمكثا ثلاثة أيام فيه دون أن يعرفا عن غياب الأسد شيئاً، وأين قضى هذه الأيام الثلاثة تحت غطاء العلاج والتحليلات الطبية، وبعد ثلاثة أيام عاد إليهما، وتوجه الثلاثة إلى دمشق عائدين بوداع وزير الدفاع البريطاني.

هذه الحادثة قرأتها في الصفحة ٣٨٢ من الجزء الأول من كتاب: سورية في قرن للشيخ منير الغضبان، دون أن أجد لديه مصدراً يدعم به هذه الرواية، ولذا فإنني لا آخذها على عاتقي، بل إنني أسجلها دون أن أتحمل مسؤوليتها، علماً بأنه ليس من المألوف أن يستقبل وزير دفاع بريطاني ضابطاً برتبة ملازم، ويودعه في المطار، مع ما يعرف عن البريطانيين من مراعاة التقاليد والأعراف الدبلوماسية بدقة تامة.

غير أن سفر الأسد إلى بريطانية برحلات موثقة ومؤكدة أمر لا يعتريه ظن أو ارتياب، فقد نأى حافظ أسد بنفسه عن الصراع ظاهراً بين أمين الحافظ وصلاح جديد، فكان يمسك العصا من وسطها، ويحتفظ دائماً بخط الرجعة والانسحاب من المعارك الخاسرة، فمع اقتراب البت في الصراع بين كتلة جديد، وكتلة أمين الحافظ، حصل

الأسد على إجازة من مهماته في قيادة القوة الجوية وغيرها، وسافر إلى لندن بصحبة ناجي جميل وآمر الشرطة العسكرية حسين ملحم، والطبيب يوسف الصايغ. أقام الأربعة في شقة بمنطقة كنزانغتون، والتقى الأسد في هذه الزيارة بوزير الدولة للشؤون الخارجية جورج طومسون، وكان سبب الإجازة ظاهراً تلقي العلاج في ظهره ورقبته، إلا أن آلامه ربما كانت من نوع المرض السياسي كما يقول كاتب سيرة الأسد الذاتية باتريك سيل، وقد كان ذلك في عام ١٩٦٥[١].

كذلك حدثنا أمين الحافظ -أكثر من مرة- عن رواية مشابهة فقال: ذهب عدد من أعضاء القيادة إلى لندن، وكنت والأسد ضمن أعضاء الوفد في هذه الرحلة، فتغيب عنا حافظ أسد ثلاثة أيام دون أن نعرف أسباباً أو مكاناً لغيابه، ودون أن يكشف لنا عن ذلك قبل ذهابه وبعد إيابه، ثم علمنا بعدئذ أنه كان يعقد لقاءات مع طومسون وزير الدولة للشئون الخارجية، فهل كانت الرحلة التي تحدث لنا عنها أمين الحافظ هي نفس الرحلة التي أشار إليها باتريك سيل لتقاطع المعلومات (ثلاثة أيام غياب، لقاء مع طومسون إلخ) أم هي رحلة أخرى؟ لست أدري، وليس أمين الحافظ بقريب منا لنسأله بعد أن عاد إلى سورية وأوى إلى العيش تحت جناح السلطة الحاكمة في سورية.

٢- حاز الأسد على رتب عسكرية بسرعة البرق، فقد عاد إلى الجيش بعيد انقلاب ٨ آذار بساعات هو وثلاثون ضابطاً من أقرانه، ورفّع على الفور من رتبة نقيب إلى رتبة مقدم دون أن يمر على مرتبة

---

(١) باتريك سيل: ١٦٧ .

الرائد، وعين آمراً لقاعدة الضمير الجوية، وهي القاعدة الأساسية في سلاح الطيران السوري، فلم يمض عدة أشهر على نيله رتبة المقدم حتى انتخب عضواً في القيادة القطرية التي كان حمود الشوفي أميناً عاماً لها، والتي تشكلت من ثمانية أعضاء، ليصبح الأسد من الشخصيات الأولى في سورية، ففي القيادة القطرية هو ثامن ثمانية، وفي الجيش هو الشخصية الثالثة التي أصبحت دمشق تحت رحمته، باعتباره آمر قاعدة الضمير الجوية، وهو حامي حمى الثورة في دمشق، فكوفئ برتبة عقيد، وهكذا نال حافظ أسد رتب الرائد والمقدم والعقيد في عام واحد هو العام الأول من انقلاب ٨ آذار.

صعد حافظ أسد درجة أخرى عالية في سلّم الرتب العسكرية، إذ عيّن آمراً لسلاح الجو السوري، وأعطي رتبة لواء بنفس الفترة التي أقصي فيها محمد عمران عن مواقعه في الجيش، ولسنا نعلم أو ندري شيئاً عن الخدمات الكبيرة التي قدمها حافظ أسد للجيش أو الوطن أو الشعب حتى تغدق عليه وتعطى له هذه الرتب العسكرية بالجملة من نقيب إلى مقدم فعقيد، ثم إلى لواء عام ١٩٦٤ أي أنه قفز من نقيب إلى لواء في غضون عامين أو أقل من ذلك بعد عودته إلى الجيش إثر الانقلاب المشؤوم في ٨ آذار عام ١٩٦٣ .

٣- رأينا كيف كانت التسريحات من الجيش تترى وتتلاحق، ورأينا كيف بدأ الانقلابيون عهدهم بعد استلامهم السلطة بخمسة أيام فقط عندما صدرت نشرة عسكرية في ١٣-٣-١٩٦٣ أخرجت من الجيش ١٠٤ ضباط، هم من كبار ضباط الجيش وأكثرهم خبرة ودراية

في الشؤون والفنون العسكرية، منهم الفريق عبد الكريم زهر الدين القائد السابق للجيش في عهد الانفصال، والمقدم بسام العسلي المفكر والكاتب بالأمور الاستراتيجية وأمثالهم، وبعد ثلاثة أيام فقط، أي في ١٦-٣-١٩٦٣ صدرت نشرة ثانية أخرجت من الجيش ١٥٠ ضابطاً هم من ذوي الخبرة والقدرة الفاعلة في الجيش من قادة الألوية والكتائب والسرايا ورؤساء العمليات العسكرية، ثم تتابعت النشرات في تسريح الضباط وضباط الصف، وفي إحالة الكثيرين على التقاعد، أو تحويلهم إلى وظائف مدنية، حتى بلغ مجموع الضباط المسرحين، أو بالأصح المطرودين من جيش وطنهم (حتى قبيل حرب ١٩٦٧ بأيام) ما يزيد على ألفي ضابط، ومثلهم من ضباط الصف والجنود المتطوعين الذين يشكلون الكادر أو الملاك الحقيقي في الجيش السوري، وحتى تبلغ المأساة نهايتها، وحتى تتكامل الجريمة ضد الوطن وحماته كل أركانها، استبدلت المسرحين والمطرودين والمعتقلين والمحالين إلى التقاعد أو إلى دوائر مدنية، بأعداد هائلة من المعلمين والموظفين من البعثيين أو بالأصح في غالبيتهم من العلويين دون أن تكون لديهم خبرة عسكرية أو قتالية كفوءة، وإنما كانوا يحملون النجوم والنسور على أكتافهم، بل إن البعض لم يكن لديه شهادة ثانوية، فكانت تطبع له، ويدفع به إلى الكلية العسكرية!!

حدثني ضابط من الطيران الفني، كان مساعد الملحق العسكري في بلد أوربي، واختلف مع رئيسه الملحق العسكري في السفارة السورية، واضطر إلى الهرب بعد أن حكم عليه بالسجن خمس سنين

حكماً غيابياً، فحضر إلى الخليج، مددت له يد العون بتوصية من تاجر دمشقي كانت تربطني به علاقة صداقة، ذكر الضابط (و. ت) أنه كان ضابطاً في قاعدة الضمير، فمر بجولة عليهم صلاح جديد المسؤول عن شؤون الضباط، فقلت له: أرى الرجعيين في القاعدة وفي سلاح الطيران يسرحون ويمرحون.

فقال: ارفع لي قائمة بهم.

وكان هذا الضابط ناصرياً، فكتب قائمة تحتوي على ٣٠٠ ضابط، ثم قال لم تمض أيام قليلة حتى كان هؤلاء جميعاً من المسرحين!!

والأدهى من ذلك أن كثيرين من الضباط الأكفياء لم يسلموا من السجن أو القتل، فقد اغتالوا النقيب معروف التغلبي، والنقيب ممدوح رشيد، والملازم نصوح الجابي والملازم بدرالدين حيدر (من بلدة المعرة) والعقيد كمال مقصوصة، ومن الذين غصت بهم السجون العمداء: مصطفى الدواليبي، وموفق عصاصة، وأكرم الخطيب، وممدوح حبال، والعقيد هشام المهايني، ومحي الدين حجار، وآخرون ممن شاركوا في انقلاب ٨ آذار أمثال اللواء محمد الجراح، واللواء راشد قطيني، والفريق محمد الصوفي والحبل على الجرار.

عندما (خاض) الأسد حرب حزيران وكان قد روّج لها، وزعم أنه يملك أكبر قوة ضاربة وسلاحاً للطيران وطيارين بارعين (كل هذا على عكس الواقع) كان قد أوصل الجيش إلى حالة من الضعف والشلل في كل شيء كما سيأتي ذلك تفصيلاً، فهيأه لهزيمة نكراء، تمهيداً لتسليم الجولان -حسب اتفاقات سيأتي ذكرها- ليكون الاعتراف

بإسرائيل مسوغاً لدى المواطنين، لأنه سيكون البديل عن إعادة الجولان، وليضمن استمرار إسرائيل بدعمه لعدة عقود أخرى، وبالمقابل أعطاهم ما يريدون بدعوى أن لا قيمة للأرض إذا استمر الحكم القومي التقدمي الثوري في السلطة!!

٤- هل كان كل هذا مجرد مصادفة؟ عندما تمزق الوحدة الوطنية، باضطهاد قادة الأحزاب ورجال السياسة ورموز الوطنية وأبناء الرعيل الذي جاء بالاستقلال إلى سورية، وزجهم في سجن تدمر سيء الصيت، في عام ١٩٦٦، أي قبيل حرب حزيران بعام أو ببعض عام؟

هل كان مجرد مصادفة أن يجرد الجيش من كل قادته ذوي الرتب العالية والخبرة العسكرية والفنية والقتالية، ليصبح الجيش من دون هيئة ضباط كما يورد الكاتب الكبير باتريك سيل أكبر المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط وصديق حافظ الأسد، والذي يفسر ذلك السلوك الأسدي بأن الأسد لم يكن يدرك خطورة تلك اللحظة في أوائل صيف ١٩٦٧، ولم يكن يعلم أن إسرائيل استعملته كطعم لتوقع في فخها عدواً أكبر منه هو جمال عبد الناصر في شهر حزيران كسمكة صغيرة لاصطياد السمكة الكبيرة[1].

إن هذا التفسير الساذج لسياسة الأسد من باتريك سيل الذي تقاضى مبلغاً مجزياً مكافأة عن كتابه: الأسد، مرفوض وغير مقبول،

---

(١) باتريك سيل: ١٨٧ .

وروائح الغدر بسورية والتآمر على شعبها وجيشها تفوح في كل قرار وعمل وتصرف، منذ تمكن هذا الضابط الطائفي وحتى هلك في ١٠ حزيران عام ٢٠٠٠م.

كان الانقلابيون الطائفيون من قبل قد أنهكوا أمين الحافظ حتى أوهنوه، مع أنه كان في الظاهر وأمام الخارج رئيس مجلس الرئاسة والأمين القطري وقائد الجيش، ورئيس الوزراء، لكنه كان في الحقيقة رجلاً من قش لا يستطيع -كما قال الأسد-: أن يحرك جندياً من مكانه، وعندما استهلكوه نبذوه نبذ النواة وأودعوه السجن، ثم طردوه خارج الوطن، وهذا جزاء من يضع نفسه في خدمة الظالمين جراء منصب أو جاه زائف أو امتيازات مالية وشخصية رخيصة.

وهكذا خلا الجو لحافظ أسد بعد تصفية الناصريين والبعثيين التاريخيين والإسلاميين سياسياً وعسكرياً، وبعد التخلص من أمين الحافظ وأنصاره، وبعد اشتداد زحف العلويين وسيطرتهم على الحزب والجيش والدولة، صعد صلاح جديد ليكون الرقم الأول منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٦٥ كرئيس للأركان، فملأ القيادة ومرافق الجيش بأتباعه وأبناء عشيرته وطائفته[١].

٥ً- كل الظروف أضحت مواتية لإلحاق الهزيمة وحلول الكارثة وحدوث نكبة يذوب القلب كمداً من تذكرها، وتفرى الأكباد ألماً من سماعها، فالشعب السوري في عزلة تامة، وقادته في السجون،

---

(١) باتريك سيل: ١٧٤ .

والهوة سحيقة بين الشعب وبين السلطة الحاكمة، والجيش بلا قادة، وهيئة ضباط، بل كانت حالته قبيل معركة حزيران ١٩٦٧ بائسة ومأساوية، فقد كان الجيش غير مؤهل للحرب تماماً -بكل المقاييس- وكان سيء التدريب، تعداده ٥٠٠٠٠ رجل، خسر الكثير من قادته الأكفياء بعد التسريحات الواسعة، جرى تجهيزه بطريقة رخيصة من الاتحاد السوفياتي بأسلحة كانت قيد التنسيق في الجيش الأحمر، وكان لديه ٥٠٠ دبابة، نصفها فقط صالح للاستعمال، تدعمها ١٠٠ طيارة ميغ ١٧، دون أي قذائف للدفاع الجوي، ودون أسطول يذكر، وكان أخطر ضعف يكمن في هيئة الضباط الممزقة التي أقعدتها حملة التطهير التي نفذها الأسد نفسه في أعقاب المؤامرات العسكرية في أعقاب عام ١٩٦٦، ولم تكن القيادة موحدة بحال من الأحوال[1].

إن ما فعله الأسد وأقدم عليه في عام ١٩٦٦ من تمهيد مفضوح ومكشوف للهزيمة يشبه إلى حد كبير ما فعله ابن العلقمي حينما كان يكاتب هولاكو سراً، ويحرضه على غزو بغداد، ويطمئنه أنه قد سرح جيش الخليفة الذي كان قوامه عشرة آلاف فقط، بدل من أن يدعو إلى التعبئة العامة، وأنه أقنع الخليفة -الذكي النبيه- بصرف الجيش توفيراً لرواتب أفراده!! لتكون بغداد مفتوحة أمام هولاكو دون قتال أو مقاومة تذكر!! ولقمة سائغة أمام الزاحفين ليلحقوا بالعرب والمسلمين كارثة ما زلنا نتجرع مرارتها حتى يومنا هذا ولأمد بعيد.

هكذا يعيد التاريخ نفسه، فحافظ أسد لم يترك سبباً من أسباب

---

(٤) باتريك سيل: ١٩٥ .

الهزيمة والاندحار إلا أخذ به، فقد سرح قادة الجيش أو كل الجيش، إذ لا معنى لجيش دون قادة، ومزق وحدة الشعب، وطارد زعماء الوطن وقادة الشعب، وحارب المفكرين والكتاب والمثقفين ورجال الإعلام، ونفّر الجماهير من تطاوله على الإسلام، وتجريحه لعقيدة الأمة، كيلا يكون له أي دور أو مشاركة في حماية الوطن والدفاع عنه، وغير ذلك من سوء التدريب وعدم صلاحية السلاح، لتكون الهزيمة حتمية كما ذكر ذلك عشرات الدارسين من عسكريين وباحثين.

إنه حطم سورية جيشاً وشعباً وكياناً، وحدث الانتقام منها والتشفي بشعبها، لأنها كانت رأس الحربة في تاريخ العرب الحديث في التصدي للزحف الصهيوني، وللمشاريع الاستعمارية والأحلاف الأجنبية، واستطاعت سورية إحباطها، والحفاظ على حرية سورية واستقلالها دون أن تقع في حبائلها، فحدث الانتقام على يد إنسان يحمل حقداً دفيناً قديماً يكفي لتدمير أمتنا بكاملها، فحقق للأعداء الألداء من صهاينة ومستعمرين، ما عجزوا عن تحقيقه، وكأنه انتقم للصليبيين والمغول والفرنسيين، وأخيراً للصهاينة فيما هيأه لهم من انتصار واحتلال للأرض، وتحطيم للجيش، وإحراز ظفر أسطوري على سورية الجريح، وشعبها الصابر المنكوب، ثم لينال الجائزة بتسلم رئاسة الجمهورية، ومزاولة حكم إرهابي دموي ما عرف التاريخ مثيلاً له أو ما يقاربه في الوطن العزيز.

٦- إن الشعب في سورية لا يحتمل ولا يطيق ولا يقبل الاعتراف

بإسرائيل أو بالتعايش معها، وهي تغتصب فلسطين، وتحتل المسجد الأقصى، وتتحفز لاحتلال جزء كبير من لبنان والأردن والضفة، وقسم من الأراضي السورية، وتجرد سيناء من السلاح أو وجود جيش على أرضها؟ وإذن فما الحل الذي يجعل السوريين يرضخون للتسليم بوجود إسرائيل، والعيش معها والاعتراف بها، وفتح المدن السورية وأسواقها وفنادقها أمام الزحف الصهيوني، كما كانت تطلب وتشترط جولدا مائير قائلة: - نريد من سورية سلاماً يتيح للإسرائيلي الذهاب إلى دمشق، والتسوق من سوق الحميدية وشراء ما يريد.

لقد ظهر فيما بعد أن حافظ أسد يعتمد في سياساته على العلاقات التي يقيمها سراً مع إسرائيل، كما سيأتي لاحقاً ومفصلاً وموثقاً في سياقه الزمني، كما عمل جاهداً على تجريد السوريين من السلاح وإنزال أشد العقوبات -المؤبد أو الإعدام- بمن يحمل سلاحاً غير مرخص بعد أن كانت العقوبة على ذلك في عهد الانتداب الفرنسي وفي الحكم الوطني غرامة مالية أو السجن لمدة شهر ومن كل مناعة، تمكنهم من الصمود أمام العدو ومواجهته، وكان من أخطر ما أقدم عليه السفاح: تجويع الشعب، ووضع يده على مصدر الغذاء ولاسيما القمح والخبز والأفران، وحظر نقل الحبوب من محافظة لأخرى أو بيعه تحت طائلة العقوبات المشددة، كما هو شأن المخدرات والمتاجرة بها، فصار من العسير على المواطن أن يحصل على رغيف الخبز، وكان عليه أن يمكث ساعات أمام الأفران التي يأتيها قبل الفجر بساعة أو ساعتين أو أكثر، ليحصل على عدد من أرغفة الخبز

قوتاً لأطفاله، وحينما لا يستطيع الحصول من شدة الازدحام وزيادة الطلب على ما تنجزه الأفران، يعود إلى منزله صفر اليدين، بانتظار الغد ليرابط أمام الفرن قبل بزوغ الفجر.

كل ذلك تحت شعار التوازن الاستراتيجي مع العدو الذي يمضي معه شهر عسل يقترب من عامه الأربعين، وفي ظل أحكام الطوارئ والمحاكم العرفية والاستثنائية والاعتقالات العشوائية ومصادرة العقارات والبيوت السكنية.

عندما وصل السوريون إلى حد الإنهاك، وجردوا من ثرواتهم التي اغتصبها رجال السلطة وأعوانهم، ومن التف حولهم من المنافقين والمجردين من الأخلاق، والذين لا تزيد نسبتهم على ٢٪ -كما قال الدكتور عارف دليلة الخبير الاقتصادي والوطني الغيور وصاحب الضمير الحي- ويسيطرون على ٨٠٪ من اقتصاد سورية.

بعد أن بلغ الأسد من السوريين ما يريد من سحق وإفقار وتجويع وتخويف يملأ به قلوب المواطنين، فاجأ سورية والعرب والدنيا بأسرها بتعديل شعاره، واستبدل بكلمة التوازن الاستراتيجي، كلمة السلام، فأعلن أن السلام الاستراتيجي هو الخيار لحكمه بدلاً من التوازن الاستراتيجي الذي خدع به السوريين طويلاً، وارتكب باسمه وفي ظله كل الموبقات التي عرفتها أو سمعت بها شعوب الأرض في تاريخها القديم والحديث.

٧- وكان آخر مفردات المؤامرة التي قادت سورية إلى الهزيمة والدمار، ما روج له الأسد من تضليل إعلامي على كل الصعد، أن

جيشه سيلحق الهزيمة الماحقة بإسرائيل، وأنه -كبطل كبير- قد أدخل في حسابه الأسطول الأمريكي الذي سيتصدى له، وبما أن الأسد يعلم أن السوريين على معرفة بتصفية سلاح الجو السوري، وطرد معظم ضباطه وطياريه قال: - إن العملاء يركزون باستمرار على تسريح الضباط الطيارين أو معظمهم، غير أن الطيارين -يقول الأسد- المسرحين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد!! -ما أجرأ هذا السفاح على طمس الحقيقة التي يراها ويعلمها كل المواطنين- وكان آخر جريمة يحذر بها السوريين وغيرهم ما أعلنه في جريدة الثورة في ٢٠-٥-١٩٦٧ (قبل أسبوعين من الحرب): إن سلاح الجو تطور تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣-٢-١٩٦٦ من حيث الكمية والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي أحدث الطائرات في العالم وأفضلها تسلحاً، كما ازداد عدد الطيارين، وارتفع مستوى التدريب.

ثم أدلى بتصريح آخر -لجريدة الثورة قبيل الحرب قال فيه: إنه لابد من تنفيذ ضربة تأديبية لإسرائيل تعيدها إلى صوابها، وتجعلها تركع ذليلة مدحورة، وتعيش في جو من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان.

وقال: إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات السورية المسلحة أصبحت جاهزة ومستعدة لعملية التحرير، ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي.

ثم قال أيضاً: إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي

السادس[1].

ثم تتابعت تصريحات زمرة الأسد بما يفوق تبجحات كبيرهم الذي علمهم ودربهم على الإفك، فقد قال رئيس الوزراء يوسف زعين في كلمة ألقاها في اجتماع طارئ لاتحاد المحامين العرب عقد في دمشق: إن انحناء إسرائيل أمام الرد العربي الحاكم الآن، ليس إلا بداية الطريق لتحرير فلسطين وتدمير إسرائيل، وإن الظروف اليوم أفضل من أي وقت مضى لخوض معركة المصير، وإن المسيرة إلى فلسطين هي المسيرة لإسقاط الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية إلى الأبد.

أما قائد الجبهة أحمد المير، فقد صرح أن العرب لم ينهزموا في معركة ١٩٤٨ على أيدي الإسرائيليين، بل من قبل حكامنا الخونة، وفي هذه المرة لن نسمح لهم أن يفعلوا ذلك.

وكان إبراهيم ماخوس من أكثر المسؤولين البعثيين تبجحاً في تصريحاته العنترية بعد عودته من زيارة قام بها إلى القاهرة.

وقال نور الدين الأتاسي رئيس الجمهورية -رجل القش الثاني بعد أمين الحافظ-: لقد دقت ساعة النصر على أعداء العروبة، وقد حفر الصهاينة المتآمرون مع الاستعمار قبورهم بأيديهم عندما أغاروا على مصر بتخطيط ودعم الاستعمار العالمي[2].

---

(١) باتريك سيل: ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) سقوط الجولان: ١٣٨ - ١٤٨ .

كانت آخر فقرة في برنامج الأسد قبيل دخول الحرب في آذار ١٩٦٧، أي قبل أكثر من شهرين بقليل من حرب حزيران: محاكمة المعارضين، فمُثلت أعداد كبيرة بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم أمام محكمة عسكرية ترأسها طلاس[١] وقد مرّ معنا تفصيلات ذلك من قبل، فلا حاجة لتكراره ,

ثالثاً - حرب حزيران الكارثية

استمرت السلطة قبيل نشوب الحرب بالتنكيل بالمواطنين، واضطهاد قادتهم، فالشيخ الجليل عبد الفتاح أبو غدة لا يزال يقبع خلف القضبان في سجن تدمر، وهو الذي نال ثقة أبناء حلب في انتخابات نزيهة، وهو الذي تُسمع كلمته في أوساط العلماء، ومن ثم فهو ركيزة كبرى في تحريك الجماهير في عاصمة الشمال إذا ما نشبت الحرب واستعر القتال.

والمجاهد مروان حديد، إلى جانب الشيخ في المعتقل، وهو القادر على تعبئة شباب حماة ورجالها وأبناء عدد من المحافظات في التصدي للصهاينة في عدوانهم على أرض الوطن.

ومثلهم عشرات يمثلون الأحزاب والنقابات والفعاليات الأخرى، يقبعون في سجن تدمر الرهيب، ومعهم علماء من دمشق وحمص والدير واللاذقية وغيرها، وهذا يعني بكل وضوح: عزل الشعب عن المعركة -المؤامرة- التي مهد لها الطائفيون بكل أسباب الوهن

---

(١) باتريك سيل: ١٨٨ .

والهزيمة لشعب يحكمونه بالحديد والنار، ويثأرون منه، وينتقمون بدافع حقد دفين وعداء موروث ومستحكم.

أ- عجل رجال السلطة بإعدام كبير جواسيس إسرائيل إلياهو كوهين في ١٨-٥-١٩٦٥ قبل أن يفضح صلاته الوثيقة بعدد من قادة الحكم، وتعاونه معهم في دراما صدرت بها وعنها عشرات الكتب، فمن هو كوهين؟ التقى كوهين بالمواطن الدمشقي موفق شيخ الأرض على ظهر باخرة متجهة من إيطاليا إلى بيروت، فقدم كوهين نفسه لشيخ الأرض باسم: كامل أمين ثابت، وهو يود أن يقدم خدمة لوطنه باعتباره قومياً متحمساً، ويملك ثروة طائلة جناها في الاغتراب.

دخلا سورية من الحدود البرية المشتركة بين سورية ولبنان، وأدخلا أجهزة حساسة للتجسس بعد تقديم رشوة لموظف الجمارك حتى لا يتعرضا للتفتيش، واستأجرا داراً في ضاحية دمّر، استعملاها للمغامرات الجنسية وحياة الفسوق والانحلال، اختلط كوهين بقيادات البعث، ونال ثقتهم، وصار يحضر جلساتهم، حتى إن بعضهم رشحه لاستلام وزارة الإعلام، لولا أن رؤساءه في الموساد نهوه عن ذلك.

كان كوهين ينفق بسخاء على الرفقاء وعلى عائلاتهم، وكان يحضر جلسات القيادة التي يبث ما يدور فيها مباشرة إلى إسرائيل.

ألقي القبض على الجاسوس بعد اكتشاف أمره، وثمة روايات عدة في ذلك، أشهرها رواية مصرية وأخرى سورية، فقد زعم المصريون أن وفداً زار الجبهة السورية مع العدو، وأن صور الزيارة كشفت عن

وجود شخص بين الزائرين تعرف عليه المصريون باعتباره من أبناء مدينة الإسكندرية، فنبهوا السوريين إلى ذلك. أما الرواية السورية فقد ذكرت أن السفارة الهندية كانت تبث برقياتها ورسائلها على ذبذبة مسجلة لدى أجهزة الإرسال السورية شأن السفارات الأخرى، وفي ذات يوم التقط المعنيون في سلاح الإشارة أن السفارة الهندية تبث خارج الوقت المحدد والمسجل، فسألوا السفارة فيما إذا كانت ترتكب هذه المخالفة، فنفوا ذلك بشدة، وأنهم لم يفعلوا ذلك قط.

تحرك جهاز الرصد في سيارة شرعت تطوف الأحياء، وتقترب حسب الذبذبات رويداً رويداً من مصدر البث، حتى اقتربوا من مبنى دار المعلمات، فكان البث واضحاً وقوياً من مبنى مجاور، فباشروا بقطع الكهرباء عن الشقق، ثانية أو ثانيتين لكل شقة، حتى وجدوا البث يتوقف في إحدى الشقق، فتمت المداهمة وإلقاء القبض على الجاسوس وأجهزة البث وكل ما يتصل بذلك، وعقدوا محاكمة عسكرية سريعة قيل إن بعض أعضاء المحكمة كانوا على صلة بكوهين، يسمرون معه في جلسات الأنس والتهتك التي ألفها التقدميون الثوريون، وأمضوا أعمارهم في أجوائها، فتمت عملية الإعدام السريعة كي تبقى علاقة الجاسوس برموز الحكم مجهولة، وتدفن معه، وتطوى هذه الصفحة المخزية من تاريخ حكام ٨ آذار عام ١٩٦٣، ومن أراد المزيد فليقرأ كتاب إيليا كوهين من جديد للكاتب المصري محمد جلال كشك.

ثمة ملاحظة ربما كشفت عن سر من أسرار التجسس لدى العدو،

فقد سمعت من الطبيب محمد السعدي الكيلاني الذي درس في ألمانيا، وكان صديقاً لموفق شيخ الأرض في سنوات الحرب العالمية الثانية، وكان الكيلاني جاراً لنا في دبي، ويعمل رئيساً للبعثة الطبية التي أرسلتها الكويت إلى الإمارات قبل استقلالها وتوحيدها، قال محمد السعدي الكيلاني: كان شيخ الأرض شديد الولع بالنساء، يسهر الليالي في الملاجئ مع الغانيات، وهذا ما قطع عليه الطريق في إكمال دراسته، فهل كان لقاء كوهين به مجرد صدفة؟ أم أنه كان مرصوداً لدى العدو الذي عرف فيه نقطة الضعف في الحياة الجنسية، فكان هذا اللقاء في الباخرة بين كوهين وشيخ الأرض، وكأنه مصادفة عفوية، وسار البرنامج بينهما على النسق الذي قرأناه قبل قليل.

٢- في صباح ٥ حزيران من عام ١٩٦٧ فوجئ العالم بهجوم صاعق شنه العدو على مصر وسورية والأردن، بدءاً من مصر التي ضاعف الطيران الإسرائيلي طلعاته عليها ثلاثة أمثال طاقته، في حرب خاطفة حطم فيها سلاح الجو المصري أو معظم طائراته ومدرجات مطاراته، لتصبح القوات المصرية دونما غطاء جوي، في شبه جزيرة سيناء وعلى أرضها الصحراوية، وعلى ضفاف القناة والمراكز الحساسة في مصر، وكان ضباط السلاح الجوي المصري قد أمضوا ليلة الرابع من حزيران في حفل ساهر -زاد عدد الطيارين فيه على ٦٠٠ طيار- استمر حتى ساعة متأخرة من الليل، ليغطوا بعد ذلك في نوم عميق، ويستيقظوا في ضحى الخامس من حزيران على الكارثة التي حلت بساحتهم وبشعبهم ووطنهم.

هل كانت الحكومة المصرية في غفلة عما يُعد العدو لهم؟

لقد كانت نذر الحرب مسموعة ومرئية لكل من يعنيه الأمر، وكان عدد من القريبين من عبد الناصر ذكروا وشهدوا أن الهجوم الإسرائيلي قد كشف أمره قبل وقوعه، ومنهم د. مراد غالب في شهادته على العصر في فضائية الجزيرة، غير أن عبد الناصر لم يأخذ بهذا، وقد تجلت عبقريته التي تؤهله أن يكون زعيماً غير منازع للعرب جميعاً، تجلت عبقريته القيادية والعسكرية عندما فسر الضربة الجوية وما يتبعها من هزيمة مخزية، يقول لا فُضَّ فوه: ظننا أن الطائرات الإسرائيلية ستأتي من الشرق، وإذا بنا نفاجأ بها تأتي من الغرب، أي قامت بحركة التفاف في غاراتها، وهذا هو مصير الحكم الشمولي الذي تضع الأمة طوعاً أو كرهاً مصيرها بيد شخص كما كان الحال في مصر والعراق وعدد من البلاد العربية الثورية، فلا يسعنا إلا أن نقول والحسرة تملأ قلوبنا: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم.

إن شعوري بالمرارة الشديدة من هذا العبث والاستهتار بمصير أمتنا من قبل الظلمة والمتسلطين على مصائرها، يجعلني أمسك عن التعليق الذي أعجز عن وصفه، وتعجز الكلمات عن تشخيصه والتعبير عن فظاعته.

٣- استمر نظام الحكم في سورية بتضليل المواطنين، ونشر البلاغات الكاذبة، واستخدام اللغة العنترية، والتحدث عن معارك وهمية لا وجود لها على أرض الواقع، فالإذاعة السورية تعلن عن سيطرة سلاح الجو السوري على سماء المعركة، وعن سقوط طائرات

العدو فـي سورية والأردن ولبنان وفلـسطين، وأن عدد الطـائرات التي خسرها العدو أكثر من خمسين طائرة، وفي اليوم التالي في ٦ حزيران أعلن إبراهيم ماخـوس -مسيلمة الحكومة الثـورية- إن سورية أسقطت في الخامس من حزيران ١٥٠ طائرة[١].

أما نور الدين الأتاسي الذي نـصبه الانقلابيون رئيساً لـلجمهورية، وجعـلوا منه واجهـة وستاراً لـلجرائم الـتي يقتـرفونها، والـذي أشرف بنفسه على الهجوم على جامع خالد بن الوليد -كوزير للداخلية- فقال لا فضّ فـوه: إن الجيش الســوري وضع كل قواه الـضاربة في لهـيب المعركة، وإن نسورنا البواسل يدمرون منشآت العدو ومدنه، وهم في طريقهم لتحرير الأرض المقدسة.

استمـر العدو بتحطيم الجيـش المصري بقسـوة بالغة، فبعـد تدمير الطائرات وحرمان الـجيش من الغطاء الجوي، أمعن الـعدو في سحق الجيش وقواته البـرية وتدميره على أرض سيناء، فخـسر في أربعة أيام أكثر مـن عشرة آلاف قتـيل وثلاثة عشر ألـف أسير، ومئـات الدبابات والـمـدافع الـمـدمـرة، وعنـدمـا حـاولـت طائـرات الأردن من طـراز الهوكرهنتر أن تشارك في المعـركة، وتقصف المطارات الإسرائيلية في صبـاح ٥ حزيران، تم ضـربها وسـحقـها على الأرض، وهي تـحاول التزود بالوقـود عند الظهر، بطائرات الـميراج الإسرائيليـة، وبعد وقت قصير لقيت القوة السورية الجوية نفس المصير، ومعها سربان عراقيان

---

(١) سقوط الجولان: ١٤٨ .

كانا قد نقلا إلى قرب الحدود الأردنية، وفي ٧ حزيران تم الاستيلاء على القدس الشرقية والضفة الغربية وممرات سيناء وشرم الشيخ[١].

٤- طوال الأيام الأربعة الأولى من الحرب ظل موقف سورية سلبياً، واكتفت بقصف المستعمرات الإسرائيلية على الحدود كما كان الحال من قبل، وتحريك بعض الدوريات لمناوشات النقاط العسكرية للعدو على الحدود، ويعلق الكاتب البريطاني باتريك سيل صديق الأسد على هذا الوضع قائلاً: إن هذا الموقف السوري يثير الدهشة، في بلد كان مع إسرائيل فتيل الاشتعال في الحرب كله، فكان هذا من أسباب المرارة لدى مصر والأردن، فجلب على سورية تهمة التخلي عنهما -أي اتهماها ضمناً بالخيانة[٢].

انطلق العدو بكل طاقاته للاستيلاء على الأرض في كل الجبهات، فاحتلت شبه جزيرة سيناء كلها (وصوت العرب يصرخ أمجاد يا عرب أمجاد) وهي تساوي في المساحة أربعة أمثال الأرض التي يحتلها العدو في فلسطين والقدس الشرقية، بما فيها المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وكنيسة القيامة[٣]، أما سورية فكانت أشد الدول العربية حرباً بالإعلام والبيانات الكاذبة والادعاءات التي لا أصل لها، وإذاعة الثوريين التقدميين تقول بالأصوات الصاخبة: ميراج طيارك هرب والميج تتحدى القدر!!

---

(١) باتريك سيل: ٢٢٦ .

(٢) المرجع السابق: ٢٢٧ .

(٣) المرجع السابق: ٢٢٦ .

انتهت مرحلة التضليل والتهويل وخداع المواطنين في سورية، وجاء دور التنفيذ في تسليم أمنع جبهة مع العدو من جهاته الأربع، والفرار أمامه بشكل مخزٍ، وغير معهود في تاريخ الحروب، ففي الساعة التاسعة إلا ربعاً أذاع راديو دمشق بلاغاً من وزارة الدفاع -كان حافظ أسد وزير الدفاع- أعلن فيه أن مدينة القنيطرة قد سقطت، ومهما يكن مصدر هذا البلاغ -حسب تعبير سيل صديق الأسد- فقد كان غير صحيح، فتحول الانسحاب إلى هزيمة منكرة، وراح الجنود يفرون طلباً للنجاة بأرواحهم، فتقدمت إسرائيل على الفور، واستولت على القنيطرة، وهرب أحمد المير -قائد الجبهة وعضو اللجنة العسكرية الطائفية السرية- على ظهر دابة (حمار) إلى حوران، وعُثر على بعض الجنود الهاربين فيما بعد، وهم يرعون الأغنام في الجبال(١).

وقد جاء تفسير سيل صديق الأسد عن سقوط القنيطرة هو الفوضى، بل الذعر الذي غرق فيه القادة السوريون، وهذا التفسير لكاتب سيرة الأسد الذاتية مرفوض وغير مسلم به، بل لا يليق بكاتب كبير أن يلجأ إلى هذا التدليس إرضاءً لمن جاءت الأدلة تترى على تآمره ضد الجيش وسورية ومصر والأردن، وكل ما هو عربي لصالح العدو بشكل مكشوف ومفضوح، ليضمن بدعم من اللوبي الصهيوني بقاءه في السلطة أربعين سنة أخرى!!!

قامت إسرائيل بنهب القنيطرة، وأفرغت القرى المحيطة بها،

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٠ - ٢٣٢ .

وخلال الأشهر الستة التالية طردت إسرائيل حوالي ٩٠ ألفاً من بلداتهم وقراهم وأرضهم بعد تجريدهم من كل ما يملكون، لينضموا إلى ٣٠ ألفاً كانوا قد هربوا قبلهم، فلم يبق سوى سبعة آلاف، معظمهم من الدروز، ثم سمح العدو لأربعمئة مواطن من الدروز بالعودة إلى أماكنهم[١].

من المفيد إثبات النص العسكري عن سقوط الجولان قبل سقوطه كما ورد في كتاب سقوط الجولان للضابط خليل مصطفى بريّز الذي قال: «صدر البلاغ الكاذب من إذاعة دمشق يوم السبت العاشر من حزيران الساعة التاسعة والنصف صباحاً يعلن فيه سقوط الجولان بيد العدو، ويحمل توقيع وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد، وقد جاء في هذا البلاغ ذي الرقم ٦٦: إن القوات الإسرائيلية استولت على مدينة القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة، وكان العدو يغطي سماء المعركة بإمكانيات لا تملكها غير دولة كبرى، وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات، واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل، وإن الجيش لا يزال يخوض معركة الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد، قد أخذت مراكزها.

التوقيع وزير الدفاع، اللواء حافظ أسد[٢].

---

(١) المرجع السابق: ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) وثائق سورية: ٢٨ .

والواقع الذي شهده كثيرون، وشهد عليه كتاب ومفكرون ووزراء وعسكريون، وسوريون وغربيون: أن ما ورد في بلاغ حافظ أسد ليس له أي أصل أو أساس، وأن الأسد أمر بالانسحاب الكيفي -غير المنظم- قبل وصول العدو إلى القنيطرة بـ ١٩ ساعة أو ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة على اختلاف الروايات، وأن الأسد قد رفض من الضباط ومن دول الجوار - أي مقترح إيجابي في شأن الحرب مع العدو عام ١٩٦٧ كما سيأتي ذلك لاحقاً.

٥- وقعت الواقعة، وحلت الكارثة التي ستبقى عاراً على الذين هيؤوا الظروف والأسباب كلها لهذه الهزيمة الشنيعة، كما مر معنا من إضعاف الجيش عدداً وسلاحاً وتدريباً، وإبعاد آلاف الضباط ذوي الخبرة والمدربين عن الجيش، وتضليل الشعب في سورية في انتصار وهمي على إسرائيل، وعلى الأسطول الأمريكي السادس، وفي قدرة الجيش واستعداده لتدمير إسرائيل وتحرير فلسطين والوصول إلى تل أبيب، هذا ما أعده الثوريون التقدميون، وما هيؤوه من أسباب الهزيمة في كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧، أما الواقع كما تحدث عنه العسكريون من أمثال الفريق أمين الحافظ واللواء محمد الجراح وضابط الاستطلاع في الجولان خليل مصطفى ورئيس الأركان أحمد سويداني وعشرات غيرهم، والسياسيون من أمثال سامي الجندي القيادي البعثي، والدكتور محمد الزعبي وزير الإعلام حين وقوع الكارثة، وسعد جمعة رئيس وزراء الأردن، والسفير دريد المفتي الذي تم اغتياله، وذهب ضحية الكشف عن جانب من أسرار المعركة

والاتصالات السرية عن طريق إسبانيا وما رافقها من خيانة وتفريط، ووزير الصحة الدكتور عبد الرحمن الأكتع الذي تلقى شتائم الأسد وتهديداته إن تحدث بما سمع ورأى، وكان في زيارة للقنيطرة حين أذاع الأسد بيانه الكاذب، وكذا شهادة صائب بارودي البعثي القومي القديم، ومن خارج سورية أدرك الغرب الدور الخياني الذي يضطلع به حافظ أسد، وأن خيانة تحدث في سورية ضد الوطن من داخل السلطة الحاكمة، وقد أدلى عدد منهم بشهادته في هذه الفجيعة، كما سيأتي بعد قليل.

٦- إن أهم الوثائق التي رصدت أحداث حرب الأيام الستة هو كتاب: سقوط الجولان للضابط خليل مصطفى بريز الذي أمضى في الجولان خمس سنوات، تسلم خلالها مستويات مختلفة من المسؤولية، كان من أهمها: رئيس قسم الاستطلاع في قيادة الجبهة، وما احتواه الكتاب الوثيقة من أقوال المسؤولين الرسميين، مما أعطى الكتاب قيمة نادرة، كما استطاع المؤلف عرض المادة العلمية العسكرية والواقع المرير ممزوجين بالعاطفة الملتهبة في صراحة مذهلة كما قال أحد قادة الجولان عند تقديم الكتاب.

يقول الضابط مصطفى خليل: من أهداف هذا الكتاب أن أثبت أن الذي حدث ما كان غير مؤامرة متقنة، وجريمة مدبرة، أعدت قبل سنوات طوال[1] وإن الخطوة التي يجب أن تسبق الصلح مع إسرائيل هي إقامة ديمقراطيات اشتراكية محل الحكومات الرجعية في الدول

---

(١) سقوط الجولان: ٧.

العربية[1].

وهذا الكتاب أو هـذا التفكير يتـقاطع مع ما ذكره خـالد العظم في الجزء الثـالث من مذكراته، الـتي جاء فيهـا: طالما بقيت الـحكومات التـي تستـند في سلـطاتهـا إلى مـجلس نـيابي، وإلـى حرية الأحـزاب والصحافة، فلن تعترف بإسرائيل أي حكومة، فلابد -كما ترى أمريكا على لسان العظم- والـحالة هذه من المجيء بحكومات عـسكرية تنفذ مـا نريـد دون رقيـب أو حـسيب، وهكـذا بدأ مـسلـسل الانـقـلابات العسكرية في سورية فمصر فالعراق فالسودان فالجزائر.. إلخ.

يقـول صاحب كـتاب سقـوط الجـولان: إن الذي يجسـد فاجـعة الجـولان عما سـبقـها، أنهـا وقعت رغم الأعـداد الكثـيرة، والجـهود الكبـيرة والأموال الطائلـة التي أنفقـتها سوريـة على مدى عشـرين سنة لمنع وقوع الفجيعة، ولكنها -واأسفاه- وقعت.

لقد سـبق لي أن مارست مسـؤوليات مختـلفة، كان آخـرها رئيس قسم الاستطلاع فـي قيادة الجبهة، ثم سرحـت من الجيش عام ١٩٦٣ مع الأفواج الـهائلة من الـعسكريين الـذين سرحهـم حزب البعـث بعد تسلطه على السلطة عقب انقلاب ٨ آذار.

إن كل ما ورد من معلومات في هذا الكتاب حول الوضع الدفاعي في الجولان، وحول أحداث الحرب فيه، كان اعتماداً على ما اختزنته الذاكـرة، أو مـا نـقلـه إليّ من أثـق بصـدقـهم وإخـلاصـهـم وحـسن

---

(١) المرجع السابق: ١١.

اطلاعهم[١].

لقد بلغ مجموع ما أنفق لرفع مستوى الجيش السوري منذ الاستقلال حتى سقوط الجولان أكثر من خمسة مليارات من الدولارات، غير أن هدم الجيش على أيدي حكم الأقلية لم يتوقف منذ الثامن من آذار وحتى نكبة الجولان، فقد شملت التسريحات أكثر من ٨٥٪ من الضباط الأكفياء ذوي الخبرة العسكرية العالية[٢].

كان في مقدمة الذين مهدوا لهذه الفجيعة: اللواء أحمد سويداني الذي تسلم قيادة الجيش بعد انقلاب ٢٣-٢-١٩٦٦ وتصفية أمين الحافظ وأنصاره جميعاً، فرفعته القيادة من رتبة المقدم إلى رتبة اللواء، فأدى دوره كاملاً -حسب تعبير مصطفى خليل- في تسليم الجولان عام ١٩٦٧ .

إن حركة ٨ آذار مهدت لنكبة حزيران، وكان البعثيون يخادعون المواطنين تحت شعار الوحدة والحرية والاشتراكية، في الوحدة قامت حكومة البعث بتعميق جذور القطرية بشكل غير مسبوق، وفي الحرية لم تعرف سورية في كل تاريخها منذ أيام الصليبيين والفرنسيين قمعاً للحرية وخنقاً لها وملاحقة وتشريد أنصارها كما عرفت منذ انقلاب ٨ آذار، أما الاشتراكية فكانت هدماً للاقتصاد، ومطاردة لرؤوس الأموال التي فرت من البلاد، ونهب ثروة الوطن، وإيداعها في البنوك

(١) سقوط الجولان: ١٢ - ١٤ .

(٢) المرجع السابق: ٢١ .

الأجنبية، وتجويع المواطنين، وإفقار العاملين، وسحق الطبقة الوسطى التي هي ركيزة المجتمع في حياة السوريين[1].

بعد أن دب الرعب في نفوس الاقتصاديين من تجار وصناعيين عقب قرارات التأميم شرعوا بتهريب أموالهم، فأفاد العدو من ذلك في أمرين: تعطيل المشاريع الإنمائية، وانتقال قسم من الثروة إلى البنوك الأوربية حيث تملك اليهودية العالمية السيطرة على معظم تلك البنوك، وبذلك دمرت كل إمكانية تتيح للشعب أن يصمد في وجه العدو وغزوه العسكري المقرر منذ ما قبل قيام مؤامرة ٨ آذار[2].

كما دب الرعب في قلوب العسكريين بعد أن أمعن رجال السلطة في تسريح الضباط واعتقال بعضهم، واغتيال وقتل ثلة من خيرتهم، واعتقال المئات من كبارهم -كما مر معنا تفصيلاً بأسمائهم ورتبهم وطرد الألوف من ضباط الصف والجنود والإداريين من الجيش[3].

٧- لم يفت صاحب كتاب سقوط الجولان أن يعرج على أهمية الجولان الجغرافية والاقتصادية والعسكرية والسكانية، فذكر أن الجولان يقع في الترتيب: الأول بين المحافظات السورية من حيث الأهمية العسكرية وخصوبة الأرض وتوافر المراعي على مدار السنة، وكثرة الكنوز الأثرية، وتوفر المياه العذبة والمعدنية، وكثافة الأحراج،

---

(١) المرجع السابق ص٢٤ - ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص٣٠ - ٣١ .

وغـزارة الأمطـار، وكثـرة الـحيـوانـات وتنوعـهـا، وفـائض الـفاكـهـة والخضار، والـمنتجات الحيـوانية وعسل النحل والأسـماك، وذكر أن طول حدوده مع العـدو ثمانون كم، وأن مساحتـه ١٨٠٠كم٢، يسكنه أكثر من مئة ألف نسمة، يضـاف إليهم عشرات الألوف من العسكريين المرابطين على الجبهة وخطوطها الأمامية والخلفية[١].

بعـد أن وقف المـؤلف طويلاً عنـد حدوث هذه الـنكبـة، جزم أن العصابة الـحاكمة في دمشق سلـمت الجولان بالتمام والكـمال حسب اتفاق وكلاء البعث الطائفي مع وكلاء إسرائيل في باريس[٢].

ثم قدم صورة واضـحة عن مناعة هضبـة الجولان، مستشـهداً بما ذكرتـه مجلة الـتايم الأمـريكية الـصادرة في مطـلع شهـر أيلول ١٩٦٧ قائلة: "إن سـورية تسيطر عـلى سلسلة من التـلال الصخرية الـشديدة الانحدار، تـمتد لمسـافة أربعين مـيلاً، وتشرف علـى سهول منكشـفة للنـيران، وعلى جـوانب التلال خـطوط دفاعيـة مسـتقلة بـعضهـا فوق بعض، وكـل خط منهـا تحمـيه ثـلاث طبقـات من الألغـام، وأسلاك شائكة واستـحكامات منيعة، وللوصـول إلى الطبقة العليـا يجب عبور تسعة خطوط -ماجينو مصغرة-.

ثم أضاف المؤلـف: الجبهة محصـنة تحصيناً فريداً، كـل شبر من أرضهـا محصن بـالنيران، وكل ثـغرة بين مـوقعين دفـاعيـين، محمـية

---

(١) المرجع السابق: ٣٦ -٣٨ .

(٢) المرجع السابق: ٤٩ .

بالألغام، والألغام مضروبة بالنيران على كل محور يمكن أن يتقدم منه العدو، حضّرت الرمايات الهائلة من مختلف الأسلحة، وزرعت الأسلحة بكثافة تدعو للدهشة، وكل ذلك من أجل ساعة خطر كالتي وقعت في حزيران العار، ولكن جيش معلمي المدارس هرب ولم يقاتل(١).

ملأ الكاتب ثلاثين صفحة من كتابه عن التحصينات والاستعدادات والأسلحة المتنوعة، بما فيها السلاح الكيماوي، بحيث لا يمكن لأي إنسان لديه أبجديات العمل العسكري أن يتصور سقوط هذه الجبهة التي حصنها السوريون على مدى عشرين سنة، وأنفقوا عليها جل دخلهم القومي.

٨- في الوقت الذي كانت الطائرات الإسرائيلية تدمر السلاح الجوي المصري والمطارات والمواقع الاستراتيجية، كانت السلطة السورية تتظاهر بضرب المواقع الإسرائيلية الحدودية، أما الطيران السوري فلم يظهر في سماء المعركة باستثناء طلعات متفرقة، وطيلة أيام الحرب اختفى اسم الطيران السوري، إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يحل يوم الثامن من حزيران إلا وبدأ قسم من الضباط بالانسحاب، فقائد الجيش أحمد سويداني هرب عن طريق بلدة نوى إلى دمشق، تاركاً وحدات الجبهة دون قيادة، وقائد الجبهة أحمد المير ترك الجبهة فاراً على ظهر حمار كيلا يقود مركبة عسكرية معرضة للقصف الجوي الإسرائيلي، وعندما اتصل به ضباط الجبهة

---

(١) المرجع السابق: ٥٩- ٦٠ .

قال لهم: أنا لست قائد الجبهة، اتصلوا بوزير الدفاع، ولما فعلوا قال الوزير الأسد: أنه قد اتخذ الإجراءات اللازمة!!

لجأ بعض الضباط من وحدات اللواء ٨٠ - بعد فقدانهم الاتصال بقائد اللواء وبأي مسؤول في قيادة اللواء - إلى المقدم وجيه بدر، فبين لهم أنه لا يفقه شيئاً مما يحدث، عندئذ دب الفزع في أوساط الجيش، ولاسيما ضباطه، فاتخذوا وجهتهم دمشق للنجاة بأرواحهم، تاركين الجنود في وضع مأساوي، جرحى ومشوهين في سهول القنيطرة، وأصوات مكبرات الصوت المنبعثة من طائرات الهيلوكوبتر الإسرائيلية تنادي: أيها الجنود السوريون، ألقوا سلاحكم تنجوا بأرواحكم، فيستجيب الفارون لهذا النداء، ويلقوا بأسلحتهم للنجاة بأرواحهم من موت يحيط بهم من كل مكان في البر والجو ومن كل الجهات[١].

لقد أنهت القيادة البعثية كل شيء، وسلمت العدو الإسرائيلي مفاتيح أحصن وأمنع قطعة من أرض العرب، بل وتكاد تكون من أكثرها غنى ووفرة بالكنوز الدفينة من معادن وآثار وخصب ووفرة مياه[٢].

وهنا ينكشف لنا موقف من أخطر مواقف الخيانة التي ارتكبها البعثيون -حسب تعبير مؤلف كتاب سقوط الجولان- عندما انهزموا مع دباباتهم من وجه القوات الغازية، باتجاه دمشق بغية حماية الثورة

---

(١) سقوط الجولان: ١٠٤-١٠٥ .

(٢) المرجع السابق: ١١١.

كما أعلن أحد قادتهم المقدم رئيف العلواني، كما ينكشف لنا حقيقة الموقف السوفياتي والدوافع من تزويد سورية بالسلاح، فقد ألقى المستشار الأول للسفارة السوفياتية في تل أبيب على طلبة الجامعة العبرية كما جاء في صحيفة هاآرتس الإسرائيلية يوم الرابع من شباط عام ١٩٦٥ كلمة جاء فيها: نحن مستعدون لحظر السلاح عن المنطقة العربية، لكن حركات قوى التحرر اليسارية في العالم العربي تحتاج إلى السلاح لتكافح الرجعية العربية، وتقضي عليها، وعلى من يساعدها من قوى الاستعمار، وإن القضاء على الرجعية العربية سيزيل خطر العدوان العربي على إسرائيل[١].

٩- تتالت أحداث الحرب على الجبهات الثلاث بصورة مأساوية، وبكوارث مفجعة، جلبها على الأمة جمعاء حكام مارقون رهنوا الوطن، وباعوا البلاد لأعدى الأعداء، كي يضمنوا بقاءهم في الحكم، وحماية العدو لاستمرار نظامهم.

لقد أذاع بلاغ للعدو: إن إسرائيل أصبحت سيدة الجو في الشرق الأوسط، وإن القوة الجوية العربية قد أبيدت[٢] ومع ذلك استمر المتسلطون على دمشق بتضليل الشعب وتخديره بإعلان بيانات كاذبة لا أصل لها، بل إن واقع الأمر على عكسها، فقد تتابعت البيانات الكثيرة التي كانت تبثها الإذاعة السورية، وهي تتحدث عن انتصارات مذهلة في اليوم السابع من حزيران، وكان آخر ما قاله أحد المعلقين

---

(١) المرجع السابق: ١١٧ .

(٢) المرجع السابق: ١٥٧ .

من راديو دمشق: إن الجيش السوري بطريقه الآن إلى صفد وعكا وإلى الناصرة في الوقت الذي كانت فيه قوات الجبهة قد انفرط عقدها، وهرب قادتها، وبدأ الانسحاب الكيفي والهروب أمام العدو، تمهيداً لتسليم الجولان دون مقاومة أو قتال.

وكان مما أصاب قادة البعث السوريين من عسكريين ومدنيين، ما أعلنه متحدث رسمي للعدو في مؤتمر صحفي قائلاً: أما على الجبهة السورية، فإن معظم القوات السورية تنسحب الآن باتجاه دمشق، والطيران الإسرائيلي يقصف القوات المنسحبة باتجاه العاصمة السورية.

وبعد ظهر اليوم التاسع من شهر حزيران أذاع راديو دمشق أن سورية وافقت على وقف إطلاق النار، ثم قال: وتقديراً للظرف الراهن أبلغت سورية الأمين العام للأمم المتحدة: أن سورية قررت قبول دعوة مجلس الأمن إلى وقف إطلاق النار، شريطة التزام الجانب الآخر بذلك[١].

لم تتقيد إسرائيل بوقف إطلاق النار، بل استمرت بالزحف واحتلال المواقع الحصينة، ودك المواقع السورية بالطيران والمدفعية، أما الحكومة الثورية التقدمية، فاستمرت بإصدار البلاغات الكاذبة والمتناقضة، كالتي صدرت في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق ظهراً أن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة، وعلى مشارفها

(١) المرجع السابق: ١٦٣-١٦٤ .

بحيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على المدينة، أما التقارير التي صدرت عن تل أبيب فقالت: إن القتال على الجبهة السورية يبدو قد انتهى، وقالت: إن إسرائيل ليس لديها نية في التوجه إلى دمشق -جراء صفقة سيأتي بيانها- مكتفية باحتلال تلال الجبهة السورية وسيطرتها على الجولان[1].

انبرى أحد فحول ثورة ٨ آذار ١٩٦٣ الدكتور نور الدين الأتاسي الذي عينه الانقلابيون رئيساً للجمهورية كما عينوا من قبل أمين الحافظ ولؤي الأتاسي، ليكونوا واجهات يسترون من خلفها مخططاتهم التخريبية والخيانية، انبرى بطل الهجوم على جامع خالد ابن الوليد في مدينة حمص، ليوجه كلمة من راديو دمشق جاء فيها: إننا نواجه اليوم أكثر من مؤامرة دنيئة خسيسة في العالم الحديث، وإن خطة العدو تستهدف إلغاء مكاسب شعبنا مرة واحدة، وإعادة وطننا إلى منطقة النفوذ الاستعماري على غرار ما كان في القرن التاسع عشر!![2].

ما هذا الإفك من هذه العصابة؟

وما هذه الجرأة المكشوفة في تزييف الحقائق؟

إن قتل آلاف المواطنين وهدم اقتصادهم وسرقة ثرواتهم ومصادرة حرياتهم وحكمهم بالحديد والنار في ظل الطوارئ، ثم خيانة العباد

---

(١) المرجع السابق: ١٧٠ .

(٢) سقوط الجولان: ١٦٧ .

وبيع البلاد للعدو يسميه نور الدين -لا فض فوه- مكاسب وإنجازات، وصدق رسول الله ﷺ: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت(١).

غير أن المراسلين الحربيين فضحوا مزاعم البلاغات السورية الكاذبة، بل الوقحة في كذبها، كما فضحها ثلة من السياسيين والعسكريين، وعدد من البعثيين الذين أنكروا على السلطة الباغية انحرافها وتفريطها بحق الوطن والمواطنين، فقد كتب أندرو ويلسون المراسل الحربي لجريدة الأوبزرفر اللندنية، يصف الحرب في مقال طويل جاء فيه: إن النصر الإسرائيلي كان النصر المخطط الأكثر دقة منذ اجتياح هتلر لفرنسا عام ١٩٤٠، وقال: إن الإسرائيليين اعتمدوا في ذلك على أن القوات العربية ليست موحدة، وقال: على الجبهة الشمالية مع سورية، تحققت نبوءة المخططين الإسرائيليين، وقد كانت عمليات القوات السورية محدودة جداً، فلم يقم السوريون بأية عمليات حربية لمساعدة المصريين في الخروج من المأزق الذي وقعوا به، وانحصرت مساعيهم في هجومات محلية على مستعمرتي حدود إسرائيليتين، وأمام هذه الحال المزرية وصفت جريدتا الثورة والبعث القتال مع العدو أنه أشرف قتال عرفه التاريخ الحديث!!(٢).

وقال بارتيك بروخان مراسل جريدة التايمس البريطانية بعد زيارة قام بها إلى مرتفعات الجولان السورية بعد احتلال إسرائيل لها مع

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٤٨٣ .

(٢) سقوط الجولان: ١٧٦-١٧٧ .

مجموعة من الإسرائيليين: إن الإسرائيليين تغلبوا على خطوط الدفاع السورية التي تبدو غير قابلة للاختراق، بالدوران حولها، وأخذها من الخلف، وقال: إنهم استخدموا الطريق الذي كان الجميع يعلمون أنه لا يمكن اجتيازه، وهو الوادي الضيق الذي يمر شرقاً من مستعمرة دان الذي يمر فيه نهر بانياس، وقال: إن الوادي لم يكن محمياً، إلا من قبل لواء واحد وقليل من المدفعية، وقد اجتاحها الإسرائيليون خلال الليل، ثم استولوا على مواقع المدفعية على مهل -بسهولة-.

يعقب على ذلك صاحب كتاب سقوط الجولان بقوله: إن الملاغم الموجودة على الطريق لم تنسف، ولو نسفت لتوقفت القوات الغازية، وكذلك لم تنسف الملاغم ضد العدو الذي أخذ الطريق الرئيسية -بانياس مسعدة- ولو نسفت على هذا الطريق لوقعت الآليات المعادية في واد سحيق. هو وادي العذارى الذي يمتد من مسعدة إلى بانياس موازياً للطريق الأساسي[1].

١٠- بعد تحطم الطيران المصري لاذ المشاة بالفرار، فأسر العدو منهم ١٣ ألف من الضباط والجنود، فصار يطلق بعضهم مقابل ثمن زهيد، واحتفظ بعدد منهم اختارهم من بين الأسرى، ثم أعلن البريجادير صموئيل رئيس دائرة الأسرى في الجيش الإسرائيلي: أن إسرائيل تعمل على تبادل ٥٤٩٩ أسيراً عربياً مقابل ١٦ جندياً إسرائيلياً أسروا خلال الحرب الأخيرة، وبالرغم من أن في المعسكرات الإسرائيلية ٤٥٠٠ أسير مصري، و٤٨٧ أردنياً، و٣٣٣ سورياً،

(١) المرجع السابق: ١٧٩ .

بالإضافة إلى ١٧٩ من الأسرى الجرحى الذين يعالجون في المستشفيات الإسرائيلية.

ادعى صموئيل أن من بين الأسرى المصريين ٣٠٠ ضابط، بينهم تسعة برتبة جنرال، أما عن الأسرى الإسرائيليين فقال: إن منهم تسعة في أيدي المصريين، واثنان في كل من العراق وسورية والأردن، وواحد في لبنان، وقال: إن سورية خسرت في المعركة ٢٠ ضابطاً و١٢٥ جندياً، وقد جرح ٩٨ ضابطاً و٥٠٠ جندي بالإضافة إلى ٣٠٠ من المدنيين والعسكريين أصيبوا بحروق قنابل النابالم، كما زعم البريجادير جنرال مردخاي هود قائد سلاح الطيران الإسرائيلي أن ثلثي سلاح الطيران السوري دمر خلال ساعة واحدة، وأن الثلث الباقي ابتعد إلى مطارات تقع خارج نطاق القتال، وقد عقب على ذلك صاحب كتاب سقوط الجولان بقوله: هذا يؤكد قولنا بأن القوات لم تصمد، ولم تقاتل، بل فرت وتركت الأرض للعدو ينهبها، لأن وضع الجبهة بتحصيناتها المحكمة لن يتيح للعدو احتلالها إلا إذا تمكن من إبادة القسم الأعظم من القوات المدافعة فيها، وهذا لم يحدث جراء الهروب وترك المواقع، باعتراف البعثيين والمسؤولين الإسرائيليين على السواء[1].

وبالرغم من أن نذر الحرب كانت بادية للعيان، فإن القيادة البعثية العتيدة -المتآمرة- لم تلجأ إلى التعبئة العامة، بل دخلت الحرب بقوات هزيلة وباحتياط ضعيف، غير مهيأ ولا مدرب بما يتطلبه

---

(١) المرجع السابق: ١٧٨-١٨١ .

التدريب في الحد الأدنى من متطلبات القتال، كما أن الأسلحة والذخائر لم توزع على الألوية الاحتياط المكلفة بتنفيذ الهجوم إلا قريباً من قواعد الانطلاق(١).

١١- عند بدء الفرار والانسحاب الكيفي، تركت قيادة الجيش التقدمية كنوزاً من الأسلحة النادرة والخرائط والوثائق كاملة سالمة دون أن تمس أو يصار إلى الاحتفاظ بها أو إتلافها، ومن ذلك قاذفات اللهب الثقيلة، فقد تركت على أرضها وفي مكانها، فاستعملها العدو جاهزة، ليحولها إلى ظهور الجيش المنسحب الذي لم توجد فيه الأيدي التي كانت لديها القدرة على ضغط زنادها، لتقذف حمم النيران، فتحرق وتدمر دبابات العدو، وخاصة في القطاعين: الجنوبي والأوسط.

أما الوثائق، فياحسرتا على الجهود، والأموال التي بذلت طوال العشرين سنة قبل هذه النكبة، لتجهيزها وتحضيرها، وقد كتب على كل مكان احتوته بالخط العريض المحاط باللون الأحمر لإبرازه لكل عين: (يتلف عند تهديد المقر) لكنها تركت على أرضها غنيمة ثمينة للعدو، يستفيد منها أكثر مما أفادته أجهزة الجاسوسية التابعة له بمئات المرات(٢).

ومن أوجه الجريمة التي اقترفت بحق الجيش والوطن، ونفذتها

---

(١) المرجع السابق: ١٨٥ -١٨٦ .

(٢) المرجع السابق: ١٩٧-١٩٩ .

قيادة الجيش التقدمية أنها قامت بتجريد رجال المقاومة الشعبية من أسلحتهم، وسحب كل ما كان بحوزة السكان من سلاح وذخائر ولاسيما الأسلحة المتوسطة، أما سلاح الإشارة -كما صرح للمؤلف أحد قادة المعركة-: أن أجهزة الإشارة كانت أيام الحرب غير صالحة للعمل بنسبة لا تقل عن ٦٠ - ٧٠٪ من جراء إهمال الصيانة، وضعف التدريب لمن أسند له إدارتها، وتعيين كثير من الاحتياطيين الذين لم يسبق لهم أي معرفة بأجهزة الإشارة أو رؤيتها من قبل، ففقد القادة سيطرتهم على وحداتهم بسبب فقدان الاتصالات، ومن ثم التعاون بين الوحدات المقاتلة، ودخول شبكات العدو على شبكات القوات السورية، وتحديد مواقع القوات والقيادات وتدميرها(١).

وكذلك الشؤون الإدارية، وامتلاك العدو لصور مئات الضباط -سوريين ومصريين- عن طريق المصور الشهير في مدينة القنيطرة -المصور مزيد- من أبناء مدينة مجدل شمس صاحب استوديو العروبة!!

وأخيراً وليس آخراً ترك أشاوس الثورة البعثيون التقدميون كتيبة الدبابات البرمائية -٢٢ دبابة- ليستلمها العدو في مرابضها بعد فرار سدنتها، فحدث عن ذلك ولا حرج فالحديث عنها ذو آلام وشجون.

غير أن الذي لا يمكن توقعه أو حدوثه بل تصديقه هو موضوع الطعام، فقد كانت المطابخ الصغيرة والكبيرة والمتنقلة تزود الجيش

---

(١) المرجع السابق: ٢٠٢ - ٢٠٣ .

بالطعام المطهو، كما تزوده بالوجبات غير المطهوة كالتمور والبسكويت إلخ. . وفجأة سحبت القيادة هذه الوجبات الجافة -التي تكفي المقاتل يومين أو أكثر في حالات الضرورة والاشتباك والانقطاع عن المصدر من الوحدات العسكرية - بحجة تبديلها، فكان أن انقطع التموين، وحدثت مجاعة عندما حصل الانهيار الرهيب[1]، فكان الجندي الهارب يتضور جوعاً، ويستنجد بمن يراه لإطعامه أو إمداده ولو بكسرة خبز تنقذ حياته من الهلاك أو الموت جوعاً وإرهاقاً في حالة الفرار!!

هل حوكم حافظ أسد على ما اقترفت يداه من جرائم أودت بحياة الجيش وبمستقبل الوطن كله إلى أجل لا يعلم إلا الله مداه؟

إن الذي وقع القرار رقم ٦٦ بسقوط القنيطرة قبل أن يراها جيش العدو، والذي فعل فعلته التي أدت إلى الانسحاب الكيفي، وتسليم الجبهة الحصينة، لم يعاقب ولم يُساءل، بل رفع إلى رتبة فريق كما رفع من قبل بُعيد انقلاب ٨ آذار من نقيب إلى مقدم فعميد فلواء في فترة قياسية قصيرة، وكوفئ على سياسته التي تضمن بقاءه ومن التف حوله من الطائفيين والمنافقين في الحكم إلى أجل غير مسمى، وبدعم واضح وصريح وموثق من إسرائيل، ومن اللوبي الصهيوني في العالم، كما بدا فيما بعد جلياً، ثم مكشوفاً ومعلناً بعد أن أَمِنَ ثورة الشعب عليه، بعد أن حطمه وأوصله إلى حالة تعيسة من الضعف والعجز، وجرده من كل مناعة في السياسة والاقتصاد والسلاح

(١) المرجع السابق: ٢٨٩ .

والقيم، فلم يعد يخشى أو يحرج من إعلان إسرائيل دعمها له ولوارثيه من بعده، واعتراض إسرائيل على أمريكا وفرنسا والغرب كله في أي تفكير أو مسعى يزعزع أو يغير نظام الأقلية في دمشق، خشية -كما تقول كل أبواق الصهاينة السياسية والعسكرية والإعلامية- أن يكون البديل هو الفوضى أو المتشددين من الإسلاميين حسب التعبير الدارج عن الإخوان المسلمين والتيارات الإسلامية الأخرى التي ترفض وجود العدو الصهيوني محتلاً لفلسطين والأقصى وما حولها من الأرض المقدسة المباركة، وهذا ما سوف يأتي في حينه بوضوح وتفصيل.

نعم لقد رفع حافظ أسد إلى رتبة فريق، وفتح الطريق له أو أمامه ليكون رئيساً للجمهورية إلى الأبد -في استفتاءات شكلية كل سبع سنين- وصاحب سلطة مطلقة لم يشهد القرن العشرون ولا أنظمة الحكم في العالم لها مثيلاً في الصلاحيات المطلقة والواسعة التي ثبتها الأسد في الدستور الذي كتبه له الدكتور محمد الفاضل (عميد كلية الحقوق ورئيس الجامعة السورية الذي ينتمي للطائفة العلوية) والتي لا تشبهها سلطة للملوك أو الطغاة أو المستبدين أو السفاحين، بل زاد عليها في حكم عرفي دائم وثقيل يقتل في ظله من يشاء ويسجن من يريد، ويرهن الوطن كله لأعداء سورية نظير دعمه وبقائه في السلطة، لِيُلحِق البلاد والعباد بقريته القرداحة، كما ألحق الأمويون في عصرهم الذهبي: الدنيا كلها ببستان أحد خلفاء بني أمية: هشام بن عبد الملك بن مروان.

رابعاً - وثائق تكشف المؤامرة

سالت الأقلام، وانتشرت الوثائق وجاءت الشهادات تترى من عدد من البعثيين الذين أدركوا -بعد فوات الأوان- أنهم كانوا مخدوعين ومضللين، ومستغفلين، كما جاءت من عدد من رجال السلطة الذين كانوا يسيرون في ركاب حافظ أسد، والذين رأوا بأعينهم كيف يباع الوطن، وكذا من كتاب غربيين، وصحافة أجنبية وعسكريين شهدوا بعض فصول المأساة، ومن عدد من حكام العرب المجاورين لسورية.

كان همّ السلطة الحاكمة هو الاستمرار بالحكم، وسحق كل من ينازعهم السلطة أو يعارض سياستهم، ولذا اعتمدت هذه الفئة الباغية على مرتكزات طائفية في بسط نفوذها، وعلى تحريض الأقليات الطائفية موهمة إياها أن بقاءها رهن باستمرار هذا الحكم، وكذلك اعتماداً على قوى خارجية في مقدمتها إسرائيل وإنكلترا وأمريكا كما سيرد موضحاً في سياقه.

أما الهزيمة المخزية فلم تكن للطغاة مصدر إحراج طالما أنهم استمروا في السلطة والتسلط على مقدرات الوطن، وقد صرح كبراؤهم، أن ضياع الأرض ليس بذي قيمة طالما ظل الحكم بأيدي التقدميين الثوريين، لأن الأرض إذا احتلت فسوف نستعيدها في قابل الأيام، أما حكم الثورة فإنه إذا سقط فإن الكارثة أكبر من احتلال العدو لجزء من أرض الوطن!!

١- يقول أحد مرافقي كيسنجر (إدوار شيهان) في أسفاره وجولاته

في كتابه: كيسنجر والإسرائيليون والعرب: إن المخابرات الصهيونية كانت تتعمد عند عودة كيسنجر من دمشق إلى القدس أن تطلعه على ما دار بينه وبين حافظ أسد في دمشق، كما تطلعه على مضمون الرسائل المتبادلة بين الأسد وبين الملوك والرؤساء العرب بالرغم من أن لقاء كيسنجر والأسد كانت مغلقة، ولا يحضرها سواهما، وسوف يأتي في صفحات لاحقة عند الحديث عن دور حافظ في لبنان ودور كيسنجر في إطلاق يد الأسد في لبنان كما جاء في الجزء الثالث من مذكراته التي نقلها عبد الكريم أبو النصر، ونشرتها مجلة الوطن العربي، وكيف أقنع كيسنجر إسرائيل بإعطاء الأسد دوراً عسكرياً في لبنان، وكيف أقنع الكونغرس بذلك، لأن الأسد سيدخل لبنان، لا لضرب إسرائيل، بل ليقتل أعداءها من الفلسطينيين واللبنانيين وهذا ما حدث.

٢- أما سامي الجندي أحد قيادات البعث المخضرمين، والذي لعب دوراً كبيراً في تاريخ الحزب وفي أحداثه، والذي شغل منصب وزير الإعلام، وكان عضواً في القيادة القطرية، ورشح لتشكيل الوزارة خلال تلك المرحلة، فقد فوجئ، وفجع بما حدث لسورية، وبما رآه من تآمر، واتصال بالعدو وتسليم الأرض والتنسيق مع الصهاينة، فأصدر كتابه -كسرة خبز- وهو في باريس حيث عينته سلطة البعث سفيراً فيها، والذي جاء فيه: لم أُخْفِ أن النظام في سورية يعد لهزيمة، وليس لاسترداد فلسطين، نعم، لم تكن هناك أي بادرة للنصر، ولا أعني أن النظام يعد لهزيمة نفسه، وإنما لهزيمة العرب الآخرين، ثم يتطرق الجندي إلى سبب اختياره للمهمة التي أرسل

إليـها في باريـس فيقـول: اختـارني إبراهيـم ماخوس وزيـر الخارجـية السوري الذي لـم يعدم الوسيلة أو الأشخـاص للاتصال بإسرائيل، فقد سـرت أقاويـل في باريس نـفسـهـا عن أميـن منظـمة الـحزب التـابعـة لدمـشق. (وأنا متـأكد) من اتصـالات جرت عن طـريق أكثـر من دولة ثالثـة وفي أكـثر من عـاصمة مـع إسرائيـل، ولست بحـاجة بعـد ذلك للقول بأن إعلان سـقوط القنيطرة -قبل وصول العدو إليـهـا- أمر يحار فيـه كل تعليل يـبنى على حـسن النية. إن تـداعي الأفكار -العـفوي- يربـط بين عـدم وقف إطلاق الـنار والحـدود سلـيمـة، والإلحـاح بل الاستغاثة لوقـفه بعد أن توغل الجيش الإسرائيـلي في الجولان، إشارة إلى أن الـيـهود عـرضـوا وقـف إطلاق الـنـار قـبل توغـلهـم، فـرفض العرض، ويقول الجندي: عندما نتتبع فصول معركة الجولان نجد أن العسكريين الذين قاوموا اليهود، فعلوا ذلك من دون أوامر، أما الذين صدرت إليهم الأوامر -بالانسحاب- فقد انسحبوا بناء على خطة (وقد فات الجندي أن يذكر أن الذين قاتلوا ولم ينسحبوا عاقبهم حافظ أسد بالسجن والتسريح وخفض رتبهم العسكرية).

يقول الجـندي: ترى ما هي الخطة؟ لـقد فوجئت لمـا رأيت على شـاشة التـلفزيـون الفـرنسي منـدوب سوريـة جورج طعـمة فـي الأمم المتـحدة يعلن سـقوط القنيطـرة، وذلك من خلال البـلاغ ٦٦ الصادر عن وزير الـدفاع حـافظ أسد الذي أعـلن وصول قـوات إسرائـيل إلى مشارف دمشق، بينما المندوب الإسرائيلي في الأمم المتحدة يؤكد أن شيئـاً من ذلك لم يحصـل، فلماذا يصدر الأسـد البلاغ المشـؤوم قبل

وصول العدو إلى القنيطرة بيومين؟ ولماذا يطلب من الجيش الانسحاب الكيفي؟ ولماذا يقول اللواء أحمد سويداني قائد الجيش السوري عندما سئل عن هذا البلاغ: إنني كمسؤول عن الجيش لم أستشر في البلاغ الذي أعلن عن سقوط القنيطرة، بل سمعته من الإذاعة كغيري، وهذا ما أورده القيادي البعثي سامي الجندي في كتابه كسرة خبز، فهل يحتاج هذا الكلام من الباحثين إلى تفسير أو إلى تعليق؟!

٣- أما إبراهيم ماخوس، فقد التحق بالبعث وهو يلبس جلباباً ثورياً في ظاهره، وينطوي في باطنه على تعصب طائفي ذميم باعتباره وارثاً للقيادة الدينية الطائفية التي تلقاها عن أبيه.

تحدث الجندي عن رفيقه في الحزب وهو يطالبه بالاتصال له بإسرائيل ويقول: رأيتني بعين خيالي معلقاً في ساحة المرجة، وتساءلت بيني وبين نفسي: هل يعود الجولان على جثتي؟ وهل قضيته بهذه البساطة؟

قلت -لإبراهيم-: وما هو الثمن الذي ندفعه لاستعادة الجولان؟

قال: الاعتراف بإسرائيل (وهذا هو بيت القصيد من هذه المؤامرة).

أليس عجيباً أن يختارني أنا؟ -للاتصال بالصهاينة- الأمر على غاية البساطة، من أجل أن أسكت، وقد أكون من القليلين الذين يعرفون أشياء كثيرة، والوحيد الشاهد عليها.

يقول الجندي: الساعة الثانية وخمس دقائق صدر بلاغ عسكري يقول: إن القوات السورية ما زالت حتى الآن تقاتل داخل المدينة وعلى مشارفها جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود، بحيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة، وأن القوات السورية دمرت أعداداً كبيرة من الدبابات علماً أنه لا أصل لهذا الكلام البتة على أرض الواقع.

نعود قليلاً إلى إبراهيم ماخوس أحد رموز المتواطئين على تسليم الجولان، لنرى أنه استمر في تعصبه الطائفي حتى بعد اختلافه مع الأسد وانحيازه إلى صلاح جديد ومغادرة سورية إلى أوربا والجزائر، فقد عقد المعارضون للنظام لقاءً سرياً في باريس حضره عدد من الناصريين والبعثيين والاشتراكيين ليفاجأ الجميع بذهول أن إبراهيم ماخوس يضع فيتو على أي تفكير بتغيير تركيبة الجيش الطائفية، بل ينبغي -حسب كلام ماخوس- أن يبقى حال الجيش على ما هو عليه، ولا يجوز الاقتراب من هذا الموضوع أو التفكير فيه، هذا ما سمعته من محمد الجراح الذي حضر هذا اللقاء، ومن طه ياسين رمضان الذي شارك في اللقاء، وحضر إلى باريس متنكراً، وأرجح أنني سمعته من أكرم الحوراني دون التيقن من ذلك.

ماخوس وزير الخارجية يقول أمام عدد من المسؤولين العرب رداً على قول أحدهم: إنها لفاجعة كبيرة، ونحمد الله أن إحدى العواصم لم تسقط، فيجيب ماخوس: وهل في ذلك غرابة لو حصل؟ إن الغريب في الأمر أن العواصم لم تسقط، ونحن من جهتنا كنا عاملين

حسابنا على أن دمشق ستسقط، فأين هذا الكلام من تصريح حافظ أسد الذي كان صاحب الكلمة العليا في هذه السلطة أو التركيبة الطائفية عندما صرح قبيل المعركة: إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول السادس، وإن معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة، وسرعان ما أعلن بعد ذلك عن سقوط القنيطرة، وأمر بالانسحاب الكيفي قبل أن يصل إليها العدو كما رأينا من قبل، ولم يشعر حافظ أسد بوجل أو خجل عندما أذاع في نفس اليوم بلاغاً مناقضاً للبلاغ الأول جاء فيه: إن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل المدينة.. إلخ وهذا كان مناقضاً للبلاغ رقم ٦٦، علماً بأن كل ما أذيع عن قتال لا أصل له البتة، وأن القنيطرة سلمت دون إطلاق رصاصة واحدة، وأن كل من حاول المقاومة حوكم على مخالفته للأوامر.

نعود قليلاً إلى ما سمعه الجندي من ماخوس عندما قال له: ليس مهماً أن يحتل العدو دمشق أو حتى حمص وحلب، فهذه أرض يمكن تعويضها وإعادتها، إنما إذا قُضي على حزب البعث -الذي يتستر خلفه الحكم الطائفي- فكيف يمكن تعويضه؟ وهو أمل الأمة العربية!!

يقول الجندي: هل كان اختيار ماخوس له لمفاوضة أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في باريس توريطاً له؟

لقد رأينا أن رئيس الأركان أحمد سويداني الذي قال: إنه سمع بسقوط القنيطرة كغيره، من الراديو، استمر على المكابرة قائلاً: إن

المعركة لا تقاس بعدد الكيلومترات التي خسرناها، بل بأهدافها، فقد كان هدف إسرائيل إسقاط الحكم التقدمي، وهذا ما فشلت به، كما قال ماخوس من قبل وبنفس هذا المنطق الخياني، والذي ختمه ماخوس بقوله: كل من يطالب بتبديل حزب البعث عميل لإسرائيل[1].

٤- ذكر الأستاذ صائب بارودي البعثي القديم عن حرب ١٩٦٧ قوله: تمركزت القوات السورية بقيادة الضابط نورس طه تحت المرتفعات المطلة على بحيرة طبريا حتى مساء اليوم السابع، وكان عبد الناصر يتصل بعبد الكريم الجندي ويقول له: أنا لا أثق بالآخرين (يعني الأسد وجديد) اللعبة كبيرة وخطيرة، ومصر غير قادرة على التحرك، وصلاح جديد يرفض خوض معركة حقيقية للتخفيف عن مصر، ثم اتصل جنرال روسي بوزير الدفاع الأسد وبصلاح جديد قائلاً: إذا كنتم مصرين على الحرب، فلابد أن تضعوا خطة، وأنتم حتى الساعة لم تفعلوا شيئاً، ثم تقدم السوفيات بخطة في صباح اليوم التاسع للتحرك الجاد، قابلها حافظ أسد بالانسحاب الكيفي، وترك ترسانة حربية كبيرة لليهود مع عشرات القرى من جبل الشيخ، ثم أصدر بيانه المشؤوم ذا الرقم ٦٦.

أما جريدة النهار فقالت: لم تبدأ سورية الحرب إلا صباح ٦-٦-١٩٦٧، على شكل مناوشات، رغم أنها هي سبب الحرب،

---

(١) سقوط الجولان: ٢١٣.

وهي الداعية إليها، مقتصرة على قصف اعتيادي لمستعمرات وان، وتل دان وكرياستوف الحدودية، دون أن تأبه إسرائيل لهذه الهجمات التي لا تؤثر في الجبهة أو على ميزان القتال، بسبب انشغالها بالإجهاز على مصر والقضاء على أسطولها الجوي وقواتها في سيناء، وقالت الصحيفة: لم يدخل الإسرائيليون الحرب والمعارك الفعلية ضد سورية إلا يوم الخميس في ٨ حزيران -رابع يوم حرب حزيران- فشنوا هجوماً شاملاً على المواقع العسكرية، وبدلاً من أن يواجه السوريون الهجوم بآخر مضاد، تابعوا ضرب المستعمرات اليهودية الحدودية التي مر ذكرها قبل قليل، وعندما صدر أمر الانسحاب الكيفي تأخر بعض العسكريين عن الانسحاب، لمواجهة العدو، ومنهم آمر تل العزيزيات الذي استغرب صدور أمر الانسحاب، فثبت في مكانه ليرى الدبابات الإسرائيلية تصعد إلى التل، فحاول تفجير الألغام كهربائياً، فوجد أن الكهرباء مفصولة!! فضرب أول دبابة في الرتل، وآخر دبابة فيه، ثم دمر الباقي، وحمى قواته دون أن يفجرها، فوصل مركز القيادة في القنيطرة عند الصباح، فلم يجد أحداً من القيادة، لقد هربوا جميعاً بأمر انسحاب رسمي، ولم يجد يهودياً واحداً في القنيطرة، وعندما وصل إلى دمشق استدعي وحوكم ميدانياً، فكسرت رتبته، وسرح من الجيش عقوبة له على مقاومته، وعدم تدمير السلاح والدبابات التي كانت لديه.

٥ً- الأستاذ سعد جمعة أحد رؤساء وزراء الأردن ذو سمعة طيبة، وذكر حسن، سمعت ثناء عليه من رجال كبار في الأردن، ومن

آخرين كبار من الحركة الإسلامية مثل الأستاذ يوسف العظم رحمه الله الذي وصفه بالسياسي المعروف بالخلق الرفيع وبالاستقامة والنزاهة والنقاء الوطني.

قال سعد جمعة في كتابه الذي أصدره تحت عنوان: المؤامرة ومعركة المصير:

- اتصل سفير دولة كبرى في دمشق في الخامس من حزيران يرجح أنه السفير السوفياتي -أول أيام الحرب- بمسؤول حزبي كبير، دعاه إلى منزله لأمر هام في الحال، ونقل له في اللقاء أنه تلقى برقية عاجلة من حكومته تؤكد قضاء الطيران الإسرائيلي على سلاح الجو المصري، وأن المعركة بين العرب وإسرائيل قد اتضحت نتائجها، وأن كل مقاومة ستورث خسائر فادحة وأن إسرائيل لا تنوي مهاجمة النظام السوري بعد أن يستتب لها تأديب جمال عبد الناصر، وبانتهاء الزعيم المصري تفتح الآفاق العربية أمام الثورية البعثية، وأن إسرائيل بلد اشتراكي يعطف على التجربة الاشتراكية البعثية، وخاصة العلوية، إذ يمكنها أن تتعايش وتتفاعل معها لمصلحة الكادحين في البلدين، فاتصل الوسيط بقيادات البعث، وأعلم السفير بتجاوب كافة القيادات مع هذا التطلع، هذا ما نقله صاحب سقوط الجولان عن الأستاذ سعد جمعة، ونقل غيره عن سعد جمعة نفسه في كتابه نفسه: المؤامرة ومعركة المصير، فقال: ذكر قائد الطيران الإسرائيلي إننا قضينا ست عشرة ساعة، نستعد ونخطط لهذه الجولة، فحققنا ذلك في ثمانين دقيقة -تدمير الطيران المصري-.

وقال سعد جمعة: لقد حاول القائد العربي العام الفريق عبد المنعم رياض منذ الصباح الباكر، وسلاح الجو الإسرائيلي برمته متجه نحو الأراضي المصرية، حاول اغتنام الفرصة لتقوم سورية والأردن والعراق مجتمعة بضرب مطارات العدو قبل عودة طائراته لمنعها من الهبوط، وهي لو فعلت لتغير وجه المعركة كله، ولكن القيادات السورية تمحلت بمختلف المعاذير للتلكؤ والمماطلة بحجة أن طائراتها غير جاهزة[1].

ينقل أمين الحافظ عن الجنرال ديغول قوله: كم كان ضحايا الحرب لدى السوريين؟ فقيل له: مئة واثنان وعشرون عسكرياً، فقال: هذه ليست حرباً، هذه خيانة وهذا ما قاله المقدم محمد دوبا شقيق علي دوبا للأستاذ عبد الله الطنطاوي في أثناء خدمته العسكرية (ضابط احتياط) في الجبهة أثناء حب حزيران قال محمد دوبا: يقولون لم تكن هناك حرب حقيقية فماذا تقول؟ قال الأستاذ عبد الله: هذا صحيح وأنا أقول ذلك، لم تنشب حرب بين السوريين والإسرائيليين، بل كان بينهما شيء آخر!!

تتمة لفصول هذه التراجيديا أو هذه المآسي المروعة، روى السيد دريد المفتي الوزير المفوض السوري في مدريد: أنه جاء إلى سعد جمعة في مكتبة في لندن، وعرّفه على نفسه قائلاً: قرأت كتابك: المؤامرة ومعركة المصير عن جريمة تسليم الجولان المنيعة دون قتال

---

(١) المؤامرة ومعركة المصير لرئيس الوزراء الأردني الأسبق سعد جمعة: ١٩٢ - ١٩٣ .

والتي اقترفها جديد والأسد وماخوس، وأحب أن أزيدك بياناً: كنت يوماً وزيراً مفوضاً لسورية في مدريد، فاستدعاني وزير خارجية إسبانيا لمقابلته صباح ٢٨-٧-١٩٦٧، وأعلمني، ووجهه يطفح سروراً، أن مساعيه الطيبة أثمرت لدى أصدقائه الأمريكان، بناء على تكليف السيد إبراهيم ماخوس وزير الخارجية البعثي العلوي، ثم سلمني مذكرة تتضمن ما يلي: تهدي وزارة الخارجية الإسبانية تحياتها إلى السفارة السورية عبر وسيطها، وتعلمها أنها نقلت رغبة الخارجية السورية إلى الجهات الأمريكية المختصة بأنها ترغب بالمحافظة على الحالة الناجمة عن حرب حزيران ١٩٦٧، أي بقاء الجولان تحت الاحتلال الإسرائيلي، وأنه ينقل رأي الأمريكان بأن ذلك ممكن إذا حافظت سورية على هدوء المنطقة، وسمحت لسكان الجولان بالهجرة من موطنهم، والاستيطان في بقية أجزاء الوطن السوري، وتعهدت بعدم القيام بنشاطات تخريبية من جهتها تعكر الوضع الراهن(١).

تابعت مخابرات حافظ أسد دريد المفتي إلى لبنان، وقامت باغتياله لأنه أذاع هذا السر، ولم يرض الخيانة لوطنه، ودريد هذا ضابط بعثي سني من مدينة أريحا السورية في محافظة إدلب.

٦- كان الدكتور محمد الزعبي من قادة البعث المخضرمين، وهو

---

(١) مجتمع الكراهية لسعد جمعة: ١٣٠ .

من مواطني محافظة حوران، وقد أسند له البعثيون وزارة الإعلام، غير أنهم قبيل الحرب اتهموه بالتقصير الإعلامي، وأسندوا لنور الدين الأتاسي ولصلاح جديد الإشراف على السياسة الإعلامية، وأبقوه وزيراً منفذاً لسياسة المشرفين على الإعلام، وبعد أن حلت الكارثة بالوطن طلب الأسد من الوزير أن يعلن عن سقوط القنيطرة، فامتنع وأبى أن يكون شاهد زور على هذه السياسة التي فيها ضياع جزء غال من الوطن، وارتضى أن يكون معارضاً لحافظ أسد وسياساته التي فرطت في أرض الوطن وفي مصيره ومستقبله، ثم غادر سورية، وتابع دراساته وحمل الدكتوراه، وعمل أكاديمياً وأستاذاً في جامعة صنعاء، وكنت أزوره عندما أذهب إلى اليمن في منزله الجامعي، وقد استمرت صلاتي بالدكتور الزعبي -أبو أيهم- بعد أن التقى بالمعارضة التي كلفت أن أكون أمينها العام، ولم يندمج بها لملاحظات لديه على بعض أدائها، وعلى سياسة العراق الشمولية.

ولكنني وجدت من الأمانة أن أتصل به في مكان إقامته في ألمانيا لأستوثق من روايته التي مر عليها أكثر من أربعة عقود فهاتفته وطلبت منه توثيق روايته، فأرسل عن طريق الفاكس بخط يده حول سقوط الجولان رواية تحفظ فيها في بعض الجوانب كيلا يسبب حرجاً لعائلات من كانوا في تلك الأيام في السلطة، ونزولاً عند رغبته، وتقيداً بكتابه أنقل بعض ما تلقيته منه في ٩-٥-٢٠٠٨:

كتب الدكتور الزعبي ما يلي: «قضية البلاغ رقم (٦٦) المتعلق بإعلان سقوط القنيطرة، تنبع أهميته من التوقف الطويل والعميق عند

هذا الموضوع، والذي كنت الشاهد الرئيسي فيه، بحكم وضعي الحزبي كأمين عام مساعد للحزب، والحكومي -وزير الإعلام- من كونه يلقي ضوءاً على كثير من سلوكيات وممارسات حافظ أسد اللاحقة، ولاسيما انقلابه على قيادة ٢٣ شباط عام ١٩٧٠ وما ترتب عليها من إلغاء الدور القومي لسورية وإلحاقها في ركب كامب ديفيد في ظل ما سيبدو لي أنه دور قديم قد رسم له من قبل أمريكا وإسرائيل والرجعية العربية. . .إلخ.

لقد كانت سورية شوكة في حلق إسرائيل والقوى الرجعية، وحلق القوى الاستعمارية، وكانت تمثل سنداً أساسياً للثورة الفلسطينية ولحركة التحرر العربية، وقد نصب لهذا القطر الأبي فخ الطائفية، وتم وضعه في سجن حافظ أسد المحكم والمغلق منذ عام ١٩٧٠ .

أما قصة البلاغ ٦٦ فهي كما يلي إذا لم تخني الذاكرة: كانت البلاغات العسكرية المتعلقة بحرب حزيران ١٩٦٧ تأتي إلى مديرية الإذاعة والتلفزيون من غرفة العمليات العسكرية، فاقترحت على وزير الدفاع أن يلتحق موظف عن الإعلام ليقوم بتصحيح الأخطاء اللغوية فجاء أحمد إسكندر الأحمد الذي صار وزيراً للإعلام فيما بعد.

استمرت البلاغات تتوالى من قيادة الجيش حتى جاءني مدير الإذاعة والتلفزيون عبد الله الحوراني ليعلمني أنه استلم من غرفة العمليات بلاغاً يعلن عن سقوط مدينة القنيطرة بيد الجيش

الإسرائيلي، وأنه لو تمت إذاعة هذا البلاغ لأحدث حالة من الإحباط والفوضى بين موظفي الإذاعة والتلفزيون الذين كانوا يبشرون الناس بالنصر القريب.

أخذت منه البلاغ رقم (٦٦) ووضعته في مغلف خاص، وسلمته إلى مدير مكتبي السيد عزيز درويش، وطلبت منه أن يذهب إلى الدكتور نور الدين الأتاسي أو الدكتور يوسف زعين رئيس الوزراء، وبعد برهة قصيرة اتصل بي الدكتور يوسف زعين، وقال لي: محمد.. لقد اتصل بنا الرفيق حافظ الأسد، وأبلغنا بنبأ سقوط الجولان وعليك أن تذيع البلاغ.

عاد عزيز درويش بالبلاغ، وتمت إذاعته بعد أن أمر بذلك رئيس الوزراء.

أحدثت إذاعة البلاغ حالة من الفوضى بين موظفي هيئة الإذاعة والتلفزيون اضطرتني أن أتدخل شخصياً كي أرجوهم أن يتابعوا عملهم، ولاسيما أن المعركة ما تزال مستمرة في الجبهة -الجولان- وقد كان ذلك، أي أن العمل عاد إلى طبيعته رغم إذاعة البلاغ رقم (٦٦).

بعد حوالي نصف ساعة، اتصل بي هاتفياً وزير الدفاع حافظ أسد ليبلغني أن هناك إشكالية تتعلق بالبلاغ ٦٦، وعندما استوضحته قال: يبدو -رفيق محمد- أن القنيطرة لم تسقط بيد الجيش الإسرائيلي.

فسألته: ولماذا بعثتم إلينا بالبلاغ ٦٦؟ فقال: لقد اتصل بي ضابط من الجبهة -لم يذكر لي اسمه ولا رتبته- وأعلمني بالأمر، وأنا

صدقته، وأرسلنا البلاغ على هذا الأساس.

(ما هذا الاستخفاف بالعقول؟ وما هذا الاستهتار بمصير الوطن والأمة؟).

وأردف حافظ الأسد موضحاً: واقع الحال -رفيق محمد- أن المدينة محوّطة من الجيش الإسرائيلي، أي أنها تعتبر من الناحية العسكرية ساقطة، وكل ما هنالك أنهم لم يدخلوها بعد.

قلت له: سوف نقوم هنا بإعداد بلاغ رقم ٦٧ لتسوية هذا الخطأ، ولسوف أقرأ عليك النصّ عندما أنجزه.

قمت بالتعاون مع عبد الله الحوراني بصياغة البلاغ رقم ٦٧ الذي قال فيه: إن القتال في مدينة القنيطرة يدور من منزل إلى منزل، وكان الهدف من ذلك، بيان أن الجيش السوري قد استرجع المدينة، من أيدي الإسرائيليين الذين احتلوها بموجب البلاغ ٦٦.

قرأت نص البلاغ الترقيعي على حافظ أسد فوافق عليه، وأمر بإذاعته.

قال لي اللواء أحمد سويداني لاحقاً -وهو رئيس أركان الجيش والمشرف الميداني على العمليات- إن ضباط إدارة العمليات الذين كانوا بصحبته في الجبهة، وفي مدينة القنيطرة بالذات، قاموا بمخالفة أوامري بعد أن سمعوا البلاغ ٦٦، وغادروا الجبهة إلى دمشق، لقد بقي سويداني -كما أبلغني فترة لا أذكر طولها- لوحده في غرفة العمليات الميدانية، ثم ركب سيارته، وغادر القنيطرة نحو دمشق،

وأن أقرب دبابة إلى مدينة القنيطرة كانت تبعد حوالي أربعة كيلو مترات، وهذا بعد عدة ساعات من إذاعة البلاغ ٦٦!! وكنت مع السويداني نتجول وحدنا في سيارته، وكان يفتح الراديو -للتشويش- خوفاً من وجود تسجيل في سيارته.

إن ما دفعني إلى هذا التدخل في صياغة البلاغ ٦٧ للتغطية على تصرف الأسد في إعلان سقوط القنيطرة من قبل أن تسقط: هو أنه لم تكن لدي في تلك الفترة شكوك حول وطنية حافظ أسد، وقد صدقته فيما قاله لي من ملابسات حول إصدار البلاغ، أما الآن وبعد ذلك فإنني على شبه يقين أن البلاغ ٦٦ كان مقصوداً ومعتمداً من قبل... حافظ أسد.

٧- كان ممن حضر بعض فصول هذه المأساة الدكتور عبد الرحمن الأكتع وزير الصحة في وزارة يوسف زعين التي سلمت الجولان بلسان وزير دفاعها حافظ أسد، يقول الدكتور الأكتع: كنت في جولة تفقدية في الجبهة، وفي مدينة القنيطرة بالذات، عندما أذيع بيان سقوط القنيطرة، وظننت أن خطأ قد حدث، فاتصلت بوزير الدفاع حافظ أسد، وأخبرته أن القنيطرة لم تسقط، ولم يقترب منها جندي واحد من العدو، وأنا الآن أتحدث من القنيطرة، وكم كانت دهشتي حين راح حافظ أسد يشتمني شتائم مقذعة، ويهددني إن تحدثت بمثلها وتدخلت فيما لا يعنيني، فاعتذرت منه، وعلمت أنها مؤامرة، وعاد الدكتور الأكتع إلى دمشق في اليوم التالي، وحضر اجتماع القيادة البعثية، فواجه فيها حافظ أسد بما جرى بينهما من

الحديث الهاتفي حول سقوط القنيطرة، فشتمه وحمل كرسياً وقذفه به، فاستقال الأكتع وزير الصحة بسبب الإهانة التي لحقت به.

الكثيرون من العسكريين والسياسيين شهدوا فصول هذه المأساة وأصدروا كتباً ومؤلفات بذلك، ولو أردت تسجيل مشاهداتهم ووثائقهم وبحوثهم لاحتاج الأمر إلى مجلد خاص كبير، من هؤلاء العقيد ع. ش الذي سمع عن سقوط القنيطرة وهو مدير شرطتها، والأمن مستتب فيها، ومن الكتاب الذين فضحوا فصولاً مهمة من هذه الخيانة والتآمر على الوطن الكاتب عبد الغني النواوي وسعد جمعة رئيس وزراء الأردن السابق وغيرهم.

خامساً - شهادات من خارج سورية

رأينا عدداً من الشهادات والوثائق التي قدمها وسجلها عدد من البعثيين والمسؤولين والساسة حول تسليم الجولان، والتخلي عن السلاح، وإعلان سقوط القنيطرة قبل أن يصل إليها العدو، وإصدار الأوامر بالانسحاب الكيفي، ومعاقبة كل من قاوم، متجاهلاً أوامر الانسحاب، وهذا كله جاء من داخل سورية، ومن رجالها وضباطها وساستها السوريين في داخل الوطن وخارجه، وفيما يلي نشاهد ونقرأ ونطلع على شهادات عدد من الساسة والمفكرين الغربيين وما كتبوه واطلعوا عليه من تواطؤ القيادة الحاكمة في تسليم الجولان أمنع القلاع والتحصينات التي كانت ترعب العدو وتخيفه، باستثناء شهادة سعد جمعة التي وردت متشابكة، ومتداخلة مع شهادة الضابط السوري دريد المفتي الذي قضى اغتيالاً بعد أن فتح جانباً من فصول التواطؤ

على الوطن، وتسليم العدو قطعة غالية من أرضه المباركة.

٦- كان الملك حسين يقيم علاقات سياسية وثيقة مع الأمريكان والإنكليز وغيرهما من الدول الغربية والعالمية، ويداري العدو الصهيوني، اقتناعاً منه أن بلده لا يملك مقومات الصدام مع إسرائيل، وأن أي صدام سوف يؤدي إلى فواجع لا تحمد عقباها، ولا يعلم إلا الله وحده مداها، وكان خصومه من الثوريين والتقدميين يأخذون عليه هذه السياسة ويتهجمون عليه منتقدين ومتهمين، لكن هذا الملك الذي عرف بالدهاء وبعد النظر، أدرك أن الأمة ولاسيما منطقة بلاد الشام ومصر تمر بمرحلة حاسمة ولحظة تاريخية دقيقة للغاية، وذلك عندما سجلت رادارات الأردن أن فلسطين المحتلة أضحت خالية من الطيران الذي حشدته دولة إسرائيل بكل قدراتها لتحطيم مصر وسحق طيرانها ومطاراتها، وأنه لما يبق في كل فلسطين إلا اثنتا عشرة طائرة، وأن بإمكان الطيران السوري أن يضرب المدرجات، ويحطم المطارات، فلا يجد الطيران الصهيوني فرصة للنزول في مطاراته وعلى مدرجاته، فينقلب السحر على الساحر، وتكون نكبة في ذلك ينزلها العرب في ساحات العدو وفي كيانه، فأجرى الملك اتصالاً عاجلاً بالسوريين وهو يحضهم على اهتبال الفرصة، وتوظيف اللحظة السانحة، فجاءت الإجابة عجيبة وغريبة، إذ قال سدنة السلطة السورية: لقد فوجئنا بالمعركة -مع أنهم هم الذين أشعلوا نارها- وتكرر الاتصال والإلحاح، فكان الجواب: انتظرونا ساعة، وبعد مضي ساعة ذكر الأردنيون السوريين بمضي ساعة وساعتين، فلم يتغير

موقف القيادة السورية -ولسان حالهم: لتفرغ إسرائيل من تحطيم مصر- بل كان التماطل والتسويف حتى عاد الطيران الإسرائيلي إلى مأمنه وضاعت فرصة الدهر، واستطاع العدو أن يزود طائراته بالوقود ليتابع مهامه في تحطيم مصر، ومن ثم دول الجوار -سوريا والأردن- وفي آخر اتصال مع سوريا كما سمعت ذلك من فم اللواء محمد الجراح: أن حافظ أسد قال لمن كان يتحدث معه ويلح عليه بتحريك الطيران السوري وهو آمر الطيران ووزير الدفاع: كَلْ.... فسجل الملك حسين هذا الموقف وهذه الخيانة المكشوفة والمفضوحة في كتاب أصدره باللغة الفرنسية بعنوان Maguerre avec Israil، فيا للعار ويا للشنار، ويا للمصيبة والكارثة المفجعة، فكيف يسجل المؤرخون هذه الأحداث، كيف تستطيع الأقلام أن تصور مثل هذه الكوارث والمآسي، وكيف إذا كان الذي جلب هذه الطامات على الوطن قد كوفئ ليكون رئيس الجمهورية بصلاحيات غير مسبوقة لدى الأباطرة والطغاة، يستطيع بها أن يبيد عشرات بل مئات الألوف قتلاً وذبحاً وشنقاً واغتيالاً وتشريداً وانتهاكاً غير مسبوق بنوعه وحجمه دون أن يجد على ظهر الأرض من يعارضه أو ينكر عيه؟!!!

٢- في رواية أخرى في ذات الموضوع تتضمن بعض التفصيلات المفيدة جاء فيها: وقبل الحرب بأيام عقدت سوريا مع مصر معاهدة دفاع مشترك انضم إليها الأردن بعد ذلك بوقت قصير، أصبح بموجبها الفريق عبد المنعم رياض قائداً للجبهة الأردنية السورية، والفريق محمد فوزي رئيساً لأركان القيادة الموحدة، وانطلاقاً من هذه المهمة

طلب عبد المنعم رياض من سورية إمداد الأردن ببعض الألوية، لأن سوريا تستطيع حماية جبهتها بثلث قواتها، كما أنه كرر فيما بعد ما كان طلبه الملك حسين من الطيران السوري لينزل بالعدو كارثة لا يصحو بعدها ولا تقوم له قائمة إثرها، فكان الموقف السوري كالذي قرأناه قبل قليل ليدلل بإشارة واضحة عن تواطئه مع إسرائيل ضد العرب قاطبة، كما قال سامي الجندي في كتابه الذي قرأنا بعض فقراته بعنوان: كسرة خبز.

٣- في إحدى الزيارات للعاصمة البريطانية أخذ بيدي أحد أعضاء الجماعة إلى شقة قريبة من مسجد لندن الكبير في منطقة ريجنت لينأى بي عن الفنادق طلباً للأمن بعد أن لمسنا ما ينبغي التنبه إليه، وكانت الشقة لرجل أعمال كبير يعمل في تجارة العقار، وكان الأخ مديراً لأعماله، فرأيت في الشقة أكثر من عشرين نسخة من كتاب أصدره كمال جنبلاط بعنوان: هذه وصيتي، وبعد قراءتي له وقعت على معلومات ذات أهمية بالغة جديرة بالاطلاع، ذكر فيه عن عقيدة الدروز الذين كان جنبلاط من أبرز قادتهم: أن الطائفة لا تنتمي لأي دين من الأديان السماوية الثلاثة، وإنما هي وريثة فلسفة قديمة وعريقة تمتد في جذور التاريخ إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، تمر بسقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم، ثم تحدث عن الإسلام حديثاً إيجابياً قال فيه: إن للإسلام قدرة كبيرة في تحريك الشعوب، وتعبئتها وتحريرها، غير أن ما في هذا الكتاب من الشيء المدهش والمفاجئ حديثه عن النظام السوري الذي كان مخدوعاً بما يظهره ويدعيه من

غيرة قومية وانتماء وطني، وصموده أمام الأطماع الأجنبية فإذا به يفاجأ بموقف النظام السوري الذي سبب له صدمة فوق قدرته على احتمالها، حينما اطلع على مفاوضات سرية بين السوريين والأمريكان، عبر لقاءات وجلسات سورية إسرائيلية في روما وغيرها.

أسهب كمال جنبلاط بالحديث عن باطنية النظام، وكيف يظهر عكس ما يبطنه الأمر الذي كلف جنبلاط حياته ثمناً لصراحته وصدقه في مواقفه السياسية.

الأمانة العلمية والتاريخية تقتضي أن نذكر لجنبلاط (مع اختلافنا معه في أمور عدة) مزايا كثيرة انفرد بها عن كثير من ساسة لبنان، منها: أنه كان جاداً في مواجهة المشروعات والأحلاف الاستعمارية ولاسيما الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه ترأس جبهة وطنية عريضة ضمت اللبنانيين من كل الطوائف بمن فيهم شريحة من أبناء السنة والجماعة، وهي الجبهة التي اتفق كيسنجر مع حافظ أسد على القضاء عليها وعلى منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، كما جاء ذلك في الجزء الثالث من مذكرات كيسنجر التي سيأتي بيانها في سياقها وفي موضعها من هذه الأوراق، وكذلك عن كمال جنبلاط في نزاهته المالية وتعففه عن هذا المرض الذي أصاب الكثير من الساسة في لبنان الشقيق، وأنه كان صارماً في محاربة الرذيلة عندما استلم وزارة الداخلية، بل إنه كان أفضل وزير داخلية لبناني في محاربته وتصديه للانحلال الخلقي وتفشي الفاحشة، وأخيراً

هو الذي أعطى الترخيص -كوزير للداخلية- للجماعة الإسلامية في لبنان بعد امتناع دوائر لبنانية معينة عن منح الجماعة الإسلامية ترخيصاً بالعمل السياسي، كما سمعت ذلك من الأخ الفاضل إبراهيم المصري أمين سر الجماعة ونائب الأمين العام، وصاحب النشاط الأوفر في تاريخ الجماعة الإسلامية في لبنان.

سادساً - طغيان السياسة الطائفية

بعد أن أحكم حافظ أسد قبضته على السلطة في سوريا، وحظي بدعم الغرب، ولاسيما أمريكا، وكذا إسرائيل في اتفاقيات سرية جاء ذكر قليل منها، وسيأتي تفصيل الكثير مما افتضح أمره وذاعت أنباؤه لدى الساسة والباحثين والمؤرخين، ولم يعد وجود أي منافس قوي في التصدي لهذه السياسة الطائفية بعد تصفية ضباط الأكثرية الذين كان أمين الحافظ في مقدمتهم لقد اشتد زحف الأقلية العلوية نحو الحزب والجيش والأمن وسائر مؤسسات الدولة، فعمدت سلطة الأقلية إلى تصفية ضباط الطائفة الدرزية الذين استخدموهم في الصدام مع الآخرين، فكان سليم حاطوم وحمد عبيد آخر وأهم مجموعات الضباط الدروز الذين أبعدوا عن الجيش، كما أبعد قبلهم من الحزبيين -من أبناء الطائفة الدرزية- الأستاذ حمود الشوفي اليساري النزعة، وفهد الشاعر الذي استخدموه في حرب الأكراد في شمال العراق، كما لم يعد لأبناء محافظة حوران تمثيل في القيادة القطرية منذ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٨بعد إقالة أحمد سويداني في ١٥-٢-١٩٦٨ الذي استخدموه في كارثة الجولان واجهة وبوقاً يدافع عن انحرافات السلطة

وتواطئها مع العدو في حرب ١٩٦٧، فكان كذكر النحل الذي تنتهي حياته بانتهاء مهمته الموكولة إليه!!

١- لم يعد في الجيش السوري من يناقش التكتل العلوي الذي سيطر على كل مرافق الحياة العسكرية والأمنية ومعظم دوائر الدولة، بعد تصفية الجيش من السنة بدعاوى اليمينية والرجعية والبرجوازية والناصرية وأبناء المدن. . .إلخ.

وكذا تصفية الدروز ولاسيما بعد محاولة حاطوم القيام بانقلاب مضاد، وكان الإسماعيليون آخر من تمت تصفيتهم بعد انتحار أو نحر عبد الكريم الجندي مدير المخابرات في آذار عام ١٩٦٩ .

لقد قرر بعض الضباط السنة الذين التقيناهم أو التقاهم عدد من إخواننا أن عدد الضباط العلويين في الجيش تجاوز سبعين ألفاً في الجيش السوري -أي معظم ضباطه- فلم يعد الجيش السوري جيشاً وطنياً يمثل شرائح المجتمع السوري وفئاته ومكوناته العرقية والمذهبية والمحافظات السورية كما كان الحال بعد أن نالت سوريا استقلالها عام ١٩٤٦، بل أضحى جيشاً طائفياً مقتصراً بكل مفاصله وقياداته الأساسية على أبناء الطائفة العلوية أو على جزء منها، دفع باسمها حافظ أسد معظم أبناء جبل العلويين للسيطرة شبه الكاملة على الجيش في مواجهة أبناء سوريا جميعاً.

٢- جدير بالذكر في هذا السياق التنويه بالعلاقة التي أقامها الحكم الطائفي في سورية مع إيران في عهدي الشاه والخميني هذه الصلة قد

توثقت أثنا الحرب العراقية الإيرانية، فقد عمد حكم الأقلية في سورية منذ بدء تسلم السلطة إلى تمتين العلاقات بين البلدين على أكثر من صعيد، فلقد أرسلت السلطة مفتي سورية الشيخ أحمد كفتارو إلى طهران يحمل هدية للشاه، نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بماء الذهب يمثل تحفة تاريخية نادرة، وكان الشيخ كفتارو يتحدث عبر محطة الأحواز الناطقة بالعربية، وتستمر كل يوم بالبث حتى منتصف كل ليلة، وقد سمعته وهو يشيد بشاه إيران بصوته عبر إذاعة الأحواز، وبعد حرب حزيران أرسل حافظ أسد جرحى سوريين لمداواتهم في مستشفيات إيران، ثم قدم الشاه ٣٠٠ مليون دولار إلى حكومة الأقلية في دمشق، وكانت الإمبراطورة فرح تزور سورية وتطوف بعض مدنها مع زوجة حافظ أسد وتشتري المجوهرات من أسواقها.

لقد كان الدافع خلف هذه العلاقات روح طائفية مقيتة بعيدة عن توجهات الشعب العربي السوري، ومنافية للتضامن العربي الذي حطمت السلطة المتسلطة في سورية أسسه من القواعد، وأشعلت نار الصراع بينها وبين الدول العربية القريبة منها والبعيدة مثل العراق والأردن واليمن والمغرب، وغذت فيها النزاع الداخلي -اليمن- أو الحدودي- بين الجزائر والمغرب -أو الحزبي- العراق- كما كانت في نزاع مع تركيا وعدد من دول الخليج والشمال الأفريقي.

عندما سيطرت حكومة الخميني ذات التوجه الطائفي الحاد، وتبنّيها لسياسة التشيع -أو ما كانت تسميه تصدير الثورة- أو بالأصح الغلو في التشيع، تعمقت العلاقة بين دمشق وطهران إلى أبعد

حدودها، لتصير علاقة استراتيجية تشمل السلاح والثقافة والاقتصاد والأمن والتدريب، وعقد صفقات من السلاح لصالح إيران في حربها مع العراق باسم الحكومة السورية مع الدول الغربية مثل إسبانيا وتشيكوسلوفاكيا، وتوريده لإيران التي كان من الصعب عليها عقد مثل هذه الصفقات بموجب قرار مجلس الأمن الذي قرر منع السلاح عن الدولتين المتحاربتين. وكانت الصواريخ التي دكت بها إيران بغداد لأول مرة قد استلمتها إيران من ليبيا، ومن سورية التي أرسلت معها الخبراء لتشغيلها في قصف الأحياء السكنية في العاصمة العراقية (لم تكن إيران قد بلغت ما وصلت إليه الآن في استعمال السلاح المتطور).

هكذا اكتشفت سلطات الأقلية في سورية قوميتها العربية (باعتبارها تحكم باسم البعث العربي الوحدوي وأيديولوجيتها ومبادئها التقدمية الثورية في طهران، وفي ظل حكومة الشاه، ومن ثم في ظل حكومة الخميني ذات ولاية الفقيه الأشد تعصباً في تاريخ إيران القديم والحديث.

٣- بعد أن فرغ الأسد من إبعاد السنيين والدروز والإسماعيليين عن الجيش، التفت إلى الضباط والتكتلات العلوية في الحزب والجيش والأمن الذين ينافسونه على السلطة أو يناوئونه أو يعترضون على تصرفاته وسياساته، فاتسعت الهوة بينه وبين صلاح جديد، وباتت الخلافات جلية في المؤتمرات القطرية والقومية التي عقدت في دمشق، في شهري أيلول وتشرين الأول عام ١٩٦٨، فصلاح جديد

وأنصاره يؤيدون التحول الاشتراكي، ويرون الاعتماد على السوفيات، أما الأسد فقد أعطى الأولوية القصوى للكفاح المسلح ضد إسرائيل (هذا في الظاهر، أما الحقيقة فقد سحق فيما بعد من صمم على مواجهة إسرائيل عسكرياً بالجيش أو المقاومة) ليكون ذريعة لا علاقة لها بالواقع، فهزمت آراء الأسد التي كشف حقيقتها وزيفها معظم المؤتمرين، وفاز جديد بالأغلبية الحزبية، ليأتي الرد السريع والحاسم من الأسد وطلاس والعسكريين على جديد وأعوانه، وإقصائهم عن قيادة الحزب المدنية[١].

وكان جديد ومجموعته يرون أن السلام سيمكن العدو من إضفاء الشرعية على اغتصاب فلسطين، في تموز عقد اجتماع مشترك للقيادتين القطرية والقومية، تقرر فيه رفض أفكار روجرز وزير خارجية أمريكا، ورفض قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

يقول الأسد تعقيباً على هذه المواقف: كان زملائي يرفضون أي شيء يقوله عبد الناصر عن السلام، ويرى -الأسد- أن هذا غير معقول، -يغازل الصهاينة والأمريكان- أما جريدة الحزب فقد تحدثت ساخرة عن سلام القبور -رأي جديد ومجموعته-.

كذلك اشتد الخلاف حول موضوع الفدائيين، وازداد اتساعاً، فالأسد الذي كان يشيد بالقوات الشعبية في قتالها العدو في حرب حزيران بجانب الجيش النظامي، صار ينكر على المقاومة وجودها

---

(١) فان دام: ١٠٥-١٠٧ .

ونشاطها، ويرى أنها تعطي إسرائيل ذريعة لضرب العرب، كما يرى أن الصراع مع إسرائيل هو صراع جيوش، حيث يسبب رجال المقاومة غير النظاميين إزعاجاً خطيراً، وعليهم أن يمتنعوا عن التدخل في الشؤون الداخلية، والوقوف خلف استراتيجيات الدول العربية، الأمر الذي أدى إلى حدوث خلاف حاد بينه وبين عرفات، وفي نفس الوقت الذي أنكر الأسد على الفدائيين تحركهم أقام باسم الحزب منظمة خاصة باسم الصاعقة!![1].

إن ما قاله الأسد، أو ما نفذه من منع الفدائيين من أي تحرك ضد إسرائيل، كان تمهيداً لقتلهم والقضاء عليهم كجزء من الصفقة التي عقدها سراً مع الأمريكان كما سيأتي موثقاً، كي تستريح إسرائيل من حربهم معها، وتنغيص استقرارها، كما أورد ذلك كيسنجر في الجزء الثالث من مذكراته المطبوعة إذ أقنع إسرائيل بالموافقة على إطلاق يد الأسد عسكرياً في لبنان قائلاً لإسرائيل وللكونغرس: إن أسد سيدخل لبنان، لا ليحاربكم، بل ليقضي على أعدائكم، وهذا ما حدث بالفعل.

٤- وعندما وقع الصدام المسلح بين الملك حسين وبين الفدائيين بدءاً من عام ١٩٦٩، وامتد حتى ١٥-٩-١٩٧٠، قام الأسد بتدخل محدود لدعم الفدائيين، سرعان ما انتهى إلى سحب قواته من الأردن، وإعادتها إلى سورية، تاركاً ظهر المقاومة مكشوفاً، الأمر

---

(١) باتريك سيل: ٢٥٥ - ٧٢٥ .

الذي مكّن الجيش الأردني من سحقها والقضاء عليها، كما أن القوات العراقية التي كان قوامها خمسة عشر ألف جندي، والتي كان يقودها وزير الدفاع العراقي حردان التكريتي وقفت موقف المتفرج من هذا الصراع بين الملك حسين وبين الفدائيين الفلسطينيين[1].

كانت الفرحة عارمة والشماتة بيّنة لدى الإسرائيليين والأمريكيين جميعاً تجاه هذا الصراع الداخلي بين الأردنيين والفلسطينيين، ولذا أعربت واشنطن عن فرحتها، واستقبلت الانسحاب السوري من شمالي الأردن، وعودة الجيش السوري إلى سورية بالابتهاج والتهليل[2].

وفي هذا السياق أنوه إلى أن المقاومة الفلسطينية ارتكبت أخطاء كانت أحد أسباب هذا الصراع مع الأردن، مضافاً إلى أسباب أخرى كانت القوى المعادية وراءها، وفي مقدمتها أمريكا وإسرائيل.

كنت حضرت إلى عمان في صيف ١٩٦٩، وقبل أن أغادرها جرى إحراق منبر صلاح الدين في المسجد الأقصى في بيت المقدس، فلمست التوتر الشديد السائد في أحياء عمان وضواحيها، ورأيت عربدة بعض عناصر المقاومة ذات النزعة اليسارية وتحرشها ببعض المواطنين، وجمعها للأموال من رواد المطاعم في صناديق يفرضونها في ممرات الدخول والخروج، وعندما فكرت بالامتناع عن التبرع ، سرعان ما نصحني من كان معي قائلاً: إياك أن تفعل ذلك،

---

(١) باتريك سيل: ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق: ٢٦٢ .

فالدفع أياً كان مقداره خير لك من التعرض لما لا يحمد عقباه، كما كنت أرى المظاهر المسلحة في مجموعات الفدائيين التي تجوب الشوارع، وفي العربات الممتلئة بالمسلحين، وكنا نقرأ على جدران القصور الملكية وبعض الدوائر الرسمية بالخط العريض مثل هذه العبارة: السلطة كلها للمقاومة.

٥- بطلب من القيادة القطرية لحل النزاع بين حافظ أسد وصلاح جديد، انعقد المؤتمر القطري، ثم أعقبه انعقاد المؤتمر القومي الاستثنائي العاشر لحزب البعث في ١٨-١١-١٩٧٠، لإيجاد مخرج من الخلاف بين الأسد وجديد، فقرر المؤتمر القومي إعفاء أسد وطلاس من منصبيهما، فأمر حافظ الأسد عساكره في ١٨-١١-١٩٧٠ باحتلال مكاتب الحزب ومنظماته، واعتقال قادة الحزب -جديد والأتاسي وزعين ومناصريهم- فهرب كثيرون، لتصبح السلطة حكراً على كتلة الأسد الذي أضحى في شباط ١٩٧١ أول رئيس جمهورية علوي في تاريخ سورية، منهياً الفعالية السنية في الجمهورية السورية.

كان جديد يسارياً، وكذا فريقه -زعين وماخوس والطويل- وقد أثبتت حكومة زعين أنها أكثر الحكومات تطرفاً، وأنها كانت متهورة في سياستها الداخلية، وأنها حاولت إعادة تركيب المجتمع (بشكل مغاير لمألوف السوريين) من السقف إلى القاع، وأنها أدخلت البلاد في حرب فاشلة -بالمشاركة مع الأسد قبل أن يدب الخلاف بينهما- وكانت تعمد إلى قمع كل من يعارضها والتخلص منه بوحشية لم يكن للسوريين عهد بمثلها من قبل[١].

---

(١) باتريك سيل: ١٧٣ - ١٧٥ .

سيطر الأسد في شباط ١٩٦٩ على فرع اللاذقية، واعتقل قيادة الفرع المؤيد لصلاح جديد، وعيّن أنصاره بدلاً منهم، وفرض الإقامة الجبرية على محافظ اللاذقية، وكرر الشيء نفسه على محافظ طرطوس(١).

اعتمد الأسد بعد ١٣-١١-١٩٧٠ على مجموعات الضباط الموالية له في الاحتفاظ بالسلطة، أما غير العلويين من الضباط الذين تقلدوا من حيث الشكل مناصب عليا، فلم يكونوا في وضع يشكل أي تهديد للرئيس العلوي، من أمثال ناجي جميل رئيس السلاح الجوي الذي استمر في قيادته من تشرين الأول ١٩٧٠ وحتى آذار ١٩٧٨ دون أن يكون في استطاعته استخدام السلاح الجوي، لأن أنصار الأسد كانوا يمسكون بالقواعد الجوية الرئيسة، وهذا الأمر نفسه ينطبق على مصطفى طلاس وزير الدفاع، وعلى يوسف شكور رئيس الأركان.

لقد وضع الأسد ثقته في أفراد عائلته وعشيرته وأبناء قريته، ولاسيما في إخوته الذين شغلوا مناصب بارزة في الجيش، وفي مؤسسات الحزب، و في المؤسسات العسكرية والمدنية(٢).

٦- إن أفضل من وضح هذا الأمر الذي صبغ فيه الحكم والمجتمع بطابعه الطائفي: الأستاذ توفيق دنيا أحد أبناء الطائفة العلوية

---

(١) فان دام: ١١٠ .

(٢) المرجع السابق: ١١٤ - ١١٦ .

المخلصين والمنتمين إلى الوطن قبل انتمائهم لطائفتهم، في مذكرة ضافية أقتطف منها فقرات مهمة خشية التطويل إن سجلتها كاملة.

يقول السيد توفيق دنيا المقيم في كندا، والذي التقيته مرات يحثني فيها على القيام بواجبي، والتعاون مع المعارضة التي هو منها لتخليص سورية من أخطر كارثة حلت بها في تاريخها الحديث.

يقول الأستاذ توفيق دنيا: «تتركز معظم النقاشات الخافتة، التي يملؤها الخوف منذ زمن طويل وحتى الآن حول الأزمة الطائفية في سورية ومن عمقها، وما تركته من احتقانات داخل المجتمع، ومدى مساهمتها في شق مجتمعنا السوري عمودياً، مما أمّن مصالح النظام واستمراريته ومصالح القوى التي على شاكلته ممن تعتاش على الطائفية من هاجس رهيب لجميع أبنائه، خوفاً من وقوع كارثة عند التفكير في أي مشروع تغيير يتناول شكل نظام الحكم، هذا الخوف الذي حرص النظام على أن يوصل الشعب إليه، ومن هنا استطاع أن يضع المجتمع في مواجهة بعضه بعضاً، معتمداً في تنفيذ مخططه على مجموعات من المتعطشين للسلطة والمال، ووظّفه في استقطاب فقراء الناس وأقلهم وعياً، وشحنهم بأفكار ومفاهيم لا تخدم من حيث النتيجة سوى المتسلطين واللصوص من أركان الفساد، فكان تركيبة الأجهزة الأمنية التي سلطها النظام -حافظ أسد- على الشعب من حيث إن غالبية عناصرها من أصول ريفية أقلياتية، وأغلب ضباطها من أصول علوية، مما شجّع وسهّل على الفئات الطائفية من الجهة المقابلة مهمة التحريض والتعصب الطائفي، انطلاقاً من ذات الأرضية

التي ارتكز عليها النظام.

بدأت هذه الأطراف اللعب على الطائفية، وإحياء بُنى التخلف الأخرى من عائلية وعشائرية ومناطقية في زرع الأحقاد بعد أن تراجعت في العقود الأخيرة قبل وصول الأسد إلى السلطة، إضافة إلى أن النظام حرك لاحقاً عملاءه لقتل معارضي النظام، أو أفراد محايدين من أبناء الطائفة العلوية، أو القتل على الهوية في حالات أخرى، في محاولة لحشر الطائفية العلوية التي تشكل مقتلاً له فيما إذا استمرت في معارضتها، نظراً لتمركز أعداد كبيرة من أبنائها في صفوف الجيش والأمن.

لم تكن لعبة القتل والتصفيات الطائفية، ووضع الناس في مواجهة بعضها آمنة لحافظ أسد، فقد كادت الأوراق تفلت من يديه لحظة من لحظات تنفيذها، ومن ثم تتحول اللعبة إلى كارثة تحيط به وبنظامه، إذ بدأت علائم ترنح النظام تظهر بشكل جليّ، وأخذت مساحة المعارضة الشعبية تتسع في صفوف أبناء المدن عموماً، ثم تنتقل إلى أبناء الأقليات الأخرى حيث باتوا يشعرون أن النظام يشكل عبئاً عليهم، وأنه يدفع بهم لتقديم ثمن كبير، ثم بدأت العدوى تنتقل إلى صفوف مناصريه من العلويين.

توجه الأسد بخطاب مهادن حاول فيه أن يؤكد من خلاله بعده عن الطائفية، وأنه رجل مسلم، كما خاطب أنصاره من العلويين ممن رأوا في سياسته توريطاً لهم وللوطن في مشكلة سيغرق الجميع في أوحالها، وفي انتظار اللحظة الحاسمة لتوجيه ضربة قاصمة للقوى

الوطنية المعارضة، وللإسلاميين خاصة، بعد أن استفحل أمرهم من وجهة نظره، وقد أعطيت له الفرصة التي كان يبحث عنها في مدينة حماة عام ١٩٨٢، فاستغل أقصى ما توافر بين يديه من العنف في محاولة تأديب -إرعاب- الشعب السوري من خلال تأديب مدينة حماة، وعندما شنّ إسلاميو الطليعة المقاتلة في شهر شباط ١٩٨٢ هجومهم في مدينة حماة، وقتلوا بعض موظفي الدولة وبعض الحزبيين، اقتنص حافظ أسد الفرصة، ووجه ضربته إلى أبناء مدينة حماة وللشعب كله فيها، وخصوصاً الإسلاميين والقوى الوطنية الأخرى المعارضة، وقتل عشرات الألوف من المواطنين دون تمييز، واستباح المدينة، وبعد أن هدم جزءاً كبيراً منها كي تكون عبرة لغيرها، أتبع جريمته هذه بتصفيات سياسية منظمة طالت عشرات الألوف الأخرى من كافة الاتجاهات السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

من راقب مسيرة حافظ أسد خلال فترته الطويلة منذ عام ١٩٦٤ يكتشف أن ما سعى إليه، ويسعى إليه هو بقاؤه في السلطة، واستمرار صعوده الدائم، وطموحه الذي لا حدود له، لا يهمه من ذلك حزب أو طائفة أو نظام أو أي نوع من العلاقات الإنسانية.

لقد ساهم في تشجيع سليم حاطوم وبدر جمعة على التحرك، ثم تخلى عنهما، وانحاز إلى غريمه صلاح جديد قبيل وبعد ٢٣-٢-١٩٦٦، وفي عام ١٩٦٩ دبر اغتيال عبد الكريم الجندي أحد أشد أعداء حافظ أسد فأزال عقبة كان يحسب حسابها، وبات الحديث

عن انقلاب قادم بقيادته متداولاً في الأوساط السياسية، وبدأ يركز نشاطه عقب ذلك على محاور كان يعتقد أنه بحاجة إلى تحييدها، أو كسب موافقتها أو التحالف معها، كان من أهمها أنصار اللواء محمد عمران في الجيش، وهي كتلة من الضباط، غالبيتهم من الطائفة العلوية، ثم سوّق نفسه في أوساط الحزب بعد انقلاب ١٩٦٦ على أنه مناصر لوحدة الحزب، وأنه مؤيد لقيادة ميشيل عفلق، وكلف شريكه في الانقلاب وحليفه الدائم مصطفى طلاس بالترويج له بين كبار التجار وبعض السياسيين التقليديين وأبناء الطبقة الغنية ذات الصبغة الدينية من الغالبية السنّية، فقدمه على أنه الليبرالي والمخلّص من حكم صلاح جديد البعثي الاشتراكي العلوي ابن الريف المتعصب لريفيته وطائفته، كذلك تحدث الأسد بلكنة عروبية وحدوية، كان المقصود منها إيصال رسالة إلى التيار الناصري، حتى يضمن قبول التيار له عند وصوله إلى قمة السلطة، وهذا ما يفسر استقبال الناصريين له، خصوصاً أنهم عانوا من الاعتقال والملاحقة في أثناء حكم صلاح جديد - الأتاسي.

إن فتح النافذة على الطبقة الغنية المدينية -التجار والرأسماليين- أعطاه هدنة طويلة مع الذين اعتبروا انقلابه مرحلة أولى في التخلص من حكم الأقليات الطائفية -كالمستجير من الرمضاء بالنار- وهذا ما فسّر استقبالاتهم الحارة له في كل المدن السورية بعد نجاح الانقلاب.

لقد لعب حافظ أسد أوراقه بدهاء -بغدر- حتى أنجز ما يسمى

بنصر تشـرين ١٩٧٣، وتوقيع اتفاقـية الجولان، وبذلك حقق نـقطتين هامتـين لمصلحتـه، الأولى: إنجازه لنصر تـشرين الذي اعتبـره غسلاً لعار عام ١٩٦٧، ليبدو بصورة المحرر، أما الثانية: فهي عقده لصفقة اتفاقـية الجولان التـي مكنته من تـكييف واستـخدام الجيش فـي حسم الصـراعات الـداخليـة بمـا يخـدم نظامـه، فصـفى الـجيـش من بقـايا التنظيمات السياسية الأخرى التـي تحد من حريته في التصرف بالسلطة أو بالوطن، لـيبقى حـوله أزلامه والمـصفقـون له، ولم تسلـم أحزاب جبهة النظام، فعمل على تفتيتها إلى مجموعات صغيرة، أفقدها القدرة على أي تحرك أو عمل مؤثر.

نعود إلى تحالـفه مع التجار والأثرياء، وتحويلـه الوطن إلى شركة مـجـهـولة الاسم، وضـمـانـه ولاء الأزلام ورموز الـنظـام من خـلال الرشاوى والنـهب والفساد المـالي والإداري، وهكذا أقام حـافظ أسد سلطته على جناحين، ريفي أقلياتي للجيش والأمن، ومديني اقتصادي مشارك في الحكـومة والإدارة تربطهم علاقات الفسـاد والنهب المنظم للدولة وللمجتمع.

لكي يضمـن حافظ أسد استمـرارية نظامه لجأ إلـى وسائل أخرى كان من أهمها: إيجاد زعامـات جديدة من أبناء الأقليات تدين له في وجودهـا واستمـرار نفوذها، كـما أوجد تـوازنات عشائـرية ومناطقـية وطائفيـة على مستوى كل طائـفة أو منطقة أو أقليـة، وكان أخطر هذه الوسائل وأشدهـا تعصباً وعنتاً، تركـيزه على أبناء العشيرة الـتي ينتمي إليهـا بصورة خاصة -عـشيرة الكلـبية- إذ فوضـهم كقيادات عـسكرية

وأمنية، وسلمهم مفاتيح ومفاصل وحدات الجيش الرئيسية وأجهزة الأمن، مما أعطى انطباعاً بأن الطائفة العلوية تحكم سورية.

إن من يراقب أسماء عناصر النظام الرئيسيين في الجيش والأمن يجد أنهم في غالبيتهم العظمى ينتمون إلى أبناء المنطقة الممتدة بين نبع نهر السين، ومفرق قرية القرداحة، وتمتد صعوداً حتى القرى التي تقع في قمة سلاسل هذه الجبال، والتي لا يزيد عدد سكانها عن ٢٤٠ - ٢٧٠ ألفاً في أقصى تقديرات عام ١٩٩٦ بمن فيهم سكان جبلة التي لا يزيد عددهم في تلك الفترة على سبعين ألفاً، أي أن سكان ريف جبلة نصف هذا العدد، وهي المنطقة التي ينتمي إليها أبناء عائلة أسد، ومخلوف، وعلي أصلان، وعلي دوبا، ومحمد الخولي، وغازي كنعان، وعلي حيدر، وتوفيق جلول، وشفيق فياض، وحسن خليل، وهاشم معلا، وأحمد عبود، والعشرات الآخرين من كوادر النظام الأمنية والعسكرية.. إلخ على سبيل المثال لا الحصر، يتبعهم الألوف من الضباط من المرتبة الثانية فالثالثة فالرابعة.

في إحصائية جرت عام ١٩٦٧ لإحدى قرى تلك المنطقة، تبين منها أن عدد سكانها آنذاك ٦٩٤ نسمة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكان عدد الضباط وطلاب الضباط في الكليات العسكرية المختلفة من أبنائها ٣١ شخصاً، وفي ذات الوقت كان عدد سكان إحدى قرى العلويين في محافظة حماة يتراوح ما بين تسعة وعشرة آلاف شخص، كان منهم ثلاثة ضباط، اثنان منهم ضباط احتياط ثُبتوا في الجيش،

وثالث خريج الكلية الحربية، كما كان منهم طالبان في الكلية العسكرية، فكان عدد ضباط الجيش من أبناء منطقة حافظ أسد وعشيرته ٤٠٧٠ ضابطاً في وقت مبكر عام ١٩٦٧، وبمرور الوقت عبّأ أسد كل أبناء المنطقة التي ينتمي إليها ضباطاً في الجيش والأمن (ودوائر الدولة الأخرى ذات الأهمية البالغة) بالرغم من أن نسبة أبناء منطقة أسد، بمن فيهم أبناء عشيرته، لا تزيد على ٨ر٣٪ من مجموع العلويين في سورية.

إن ادعاء حافظ أسد بأن العلويين يساندون نظامه مجرد إيهام كان يقصد به جر ما أمكن من العلويين إليه، وإن تركيز أبناء منطقته وعشيرته كان يتم على حساب أبناء المناطق والعشائر العلوية الأخرى، غير أنه استفاد من بسطاء العلويين، وحشرهم في خدمته مستفيداً من التعبئة الطائفية (بعد عزل النخبة المعارضة من العلويين وقمعها) وهذا ما عمق الانطباع بأن العلويين كطائفة يمسكون بتلابيب النظام، ويحكمون البلاد، الأمر الذي وسّع القطيعة بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة.

من هنا أستطيع أن أقدر توزع أبناء العلويين، وأصنف انتماءاتهم على الشكل التالي: ٢٠ - ٢٥٪ من غوغاء العلويين -حسب تعبير صاحب المذكرة- إضافة إلى بعض النخبة المستفيدة، كانوا جزءاً من آلية النظام وفي خدمته، استطاع أن يستقطبهم ويجندهم في صفه، إما طائفياً وإما حزبياً، إضافة إلى إغراءات النظام لهم، و٢٠-٢٥٪ من أبناء الطائفة استساغ اللعبة، واستفاد منها دون أن يساهم في إيجادها

أو رفضها، أما البقية فكانت ترفض السلوك الطائفي بأشكال ووسائل مختلفة ومتدرجة، تبدأ على طريقة أضعف الإيمان، وتنتهي بالنضال السياسي والذهاب إلى السجون والمنافي، إذ واجهت شريحة من أبناء الطائفة التي عارضت سلوك النظام الطائفي قمعاً وضغطاً مزدوجاً، فهم معارضون لنظام يطلب منهم الموالاة، ويفترضها فيهم، نتيجة تركيبته الطائفية، ولذا فهم بالنسبة إليه خوارج متمردون، يستحقون العذاب الشديد.

وأخيراً فقد بدأت دائرة المعارضة للنظام وطائفيته تتسع في صفوف العلويين، وتزداد إدانة لسياساته، وترتفع الأصوات احتجاجاً على الطريقة التي يتعامل بها النظام مع بقية المواطنين، غير أن رفضهم هو أقل من المطلوب، ودون المستوى اللازم لإسقاط النظام، ذلك أن الكثيرين من المعارضين العلويين مسكونون بالخوف من دفع الثمن مرتين، كما أن النظام قد أوجد واقعاً أساسه وجود عشرات الألوف من العسكريين والموظفين في دوائر الأمن والدولة يعتاشون من وظائفهم، فأضحت لهم مواطن استقرار جديدة منذ أكثر من أربعين عاماً، يخشون في حال سقوط النظام من أن يفقدوا كل موارد حياتهم واستقرارهم، وقد حرص النظام على تضخيم هذا الخوف في نفوسهم.

إن اشتراك المعارضين من أبناء الطائفة العلوية في صياغة مشروع التغيير الديمقراطي للحكم ومساهمتهم في تنفيذه تحمل الاطمئنان لهم، ولأبناء الطائفة -وللشعب أجمع في سورية- وإشعارهم بعدم مسؤوليتهم عن أفعاله، وهذا يسهل فك الارتباط بينهم وبين نظام

عصابة الشر والوبال على السوريين بكل فئاتهم وأطيافهم وطوائفهم وأعراقهم، ودفع بالوطن من موقع المتقدم عربياً ودولياً إلى آخر القافلة في مسيرة الشعوب الحضارية والإنسانية».

هذه المقتطفات من المذكرة التي كتبها المواطن السوري توفيق دنيا من أبناء الطائفة العلوية، والتي آثر فيها انتماءه الوطني على الانتماءات العشائرية والطائفية والمناطقية والعائلية، وشجب فيها ما آلت إليه سياسات حافظ أسد من تمزيق الوحدة الوطنية، وإحياء النعرات الطائفية والعشائرية، وضرب بعض المواطنين ببعض، وبث الذعر في قلوب العلويين، موهماً لهم أن بقاءهم رهن بدعم حكمه الطائفي، وأغرق الكثير منهم بالمكاسب المادية، وأطلق أيديهم في جني المال الحرام من الخوّة والرشوة والسرقات.

وأهم ما يلفت النظر إليه في هذه المذكرة المهمة أن لا يعمم الباحثون الحكم على جميع أبناء الطائفة في دعم هذا النظام، فإن ذلك يدفعهم دفعاً إلى خانة نظام الأسد، بل ينبغي تطمينهم، وهم الذين يتعرضون لقمع النظام، والتعاون معهم على أساس الثقة والمواطنة، ليكون دورهم رائداً في التغيير وإنقاذ سورية من شرور هذه الطغمة الحاكمة والسلطة الباغية، لتستأنف دورها الحضاري الرائد الذي عرفت به على مدار التاريخ، وتتخلص من هذا الحكم الطائفي المنتن إلى الأبد بإذن الله، وهذا المنطق الذي يطرحه ويجهر به الأستاذ توفيق يتطابق كلياً مع رأينا ووجهة نظرنا، ويشكل مناخاً صالحاً لوحدة وطنية حقيقية خالية من الزيف والنفاق، تضم

المخلصين لوطنهم من كل أطياف المجتمع ومن كل الطوائف، ومن أبناء الطائفة العلوية المخلصين من أمثال الدكتور عارف دليلة الذي تعرض للاعتقال والاضطهاد والسجن الطويل، لأنه قال الحقيقة وفضح ممارسات النظام وفساده ونهبه لثروة الأمة، وسطوه على أكثر من ٨٠٪ من أموال المواطنين، ونهبه للقطاع العام، وإدخاله الشعب في نفق من الفقر والخوف غير مسبوق في تاريخ سورية الحديث، ومن أمثال الدكتور محمود حسين صارم المواطن الحر، والشجاع الجريء الذي واجه السلطة بكل سطوتها وجميع مفاسدها، ساعياً بكل ما لديه من منطق وإقدام إلى إصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية في الوطن الغالي، ليعود المواطنون في بلدهم كالجسد الواحد والبنيان المرصوص، تماسكاً وتعاوناً، في وحدة وطنية استطاعت في يوم من أيام الأربعينيات في القرن الماضي أن تهزم دولة كبرى كفرنسا، وتحقق استقلالاً ناجزاً، ومكانة دولية، ودوراً رائداً في التضامن العربي كخطوة على طريق الوحدة الكبرى المنشودة.

سابعاً - الحكم البوليسي الرعيب

بعد أن خلت الساحة الداخلية من المنافسين والمعارضين، إثر انقلاب ٢٣-٢-١٩٦٦، وبعد أن رتب النظام علاقاته مع دول الخارج، ولاسيما أمريكا وإسرائيل، عاثت حكومة أسد من جديد في الوطن فساداً، ومارس الأمنيون استبداداً رهيباً غير مسبوق ولا مألوف، فحكموا البلاد حكماً بوليسياً ستالينياً مرعباً، لم يعد فيه

المواطن آمناً على دمه أو ماله أو عرضه أو كرامته أو على ابنه أو ابنته، وكان عبد الكريم الجندي الذي تولى الجهاز الأمني يثير الخوف والذعر لدى الجميع، بمن فيهم بعض أنصار النظام، وكان يأخذ الناس بالشبهة والظنّة والدس الرخيص والوشايات الكيدية، فإذا علم أن مجموعة من الناس تنتقد أو تلوم، سرعان ما يلقي عليها القبض، ويمارس عليها التعذيب الوحشي، وقد خسرت سورية رجالاً كباراً وشخصيات لامعة من أمثال بدوي الجبل شاعر العرب الكبير عندما علم الجندي أن الشاعر نظم قصيدة في الحالة المأساوية التي يعيشها المواطنون في ظل حكم البعث المقيت، فلم يخرج من السجن إلا ركاماً، وقل مثل ذلك في المئات بل الألوف من المواطنين الأبرياء المقهورين.

استمر الحال على هذه الشاكلة في سورية بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٦٩، عندما ضعف جناح صلاح جديد، بمقتل أقوى عناصره وركائزه في الحكم: عبد الكريم الجندي، فكانت نقطة تنفس فيها السوريون الصعداء لفترة قصيرة جداً، كان الأسد يمهد فيها لاستلام رئاسة الجمهورية، وتضحي سورية ملكاً له يفعل بها ما يشاء، أو مزرعة له ولإخوته وأفراد عائلته وأحمائه وعشيرته، بل ويرهن الوطن كله في صفقات سياسية مشبوهة، سوف يأتي ذكرها في سياقها بعد ظهور الدكتاتورية الأسدية في أقبح صورها وأقسى ممارساتها.

٦- وحتى يكون الحكم على هذه الفترة دقيقاً وموضوعياً وموثقاً،

لابد من إعطاء صورة عن التسلط البـوليسي أو الأمني الذي لا يخضع لقانون أو نظام أو محاسبة أو مـراجعة أو شكوى، بل هو قوة باطشة، لا تُسأل عما تفعله بالمواطن الذي تستبيح جسده ودمه وماله وعرضه ومصيـر عائلته وكل من يمت لـه بصلة القرابة أو الصـداقة أو الجوار، كان يمثل هذه السياسة الهمجية عبد الكريم الجندي الذي وصفه بعض المراقبين والدارسين بأنه مولع بالقسوة والوحشية كما ذكر ذلك باتريك سيل في كتابه: الصراع على سورية.

فمثلاً عندما استمع الجندي إلى خبر يقول: إن عدداً من المحامين والمهنيين قـد تناولوا اسمه في تجمع خاص، تحرك فـوراً لاعتقالهم، مجبراً عدداً منهم على الفرار حفـاة مشياً على الأقدام إلى لبنان، حيث أمضوا حياتهم هناك بعيداً عن الأذى حتى سقوط الجندي[١].

وبعد أن تمت الـسيطرة للأسد بعـد انتحار الجندي أو قـتله توسع حافظ أسـد كثيـراً في الأجهـزة الأمنية، وحـشد لها أعـداداً كبيـرة من طائفـته أو الـمناصـرين له فـيها، ورصـد لهـا المليـارات من اللـيرات السـورية ليـغدقهـا عليـها أو ليـجعـلها فـي تصرف الأجـهزة الأمنـية، وبوصف الأسد عـسكرياً، فإنه كـان يفضل الأجهـزة الأمنية العـسكرية التي أعطاها الهيـمنة على الأجهزة الأمنية الخمسة عـشر الأخرى، كما أسس جهـازاً عسكرياً جـديداً عام ١٩٧١ أسمـاه سرايا الدفـاع، جعل قيـادته بيـد شقـيقه رفـعت، وأعطاه صـلاحيـات واسعـة في الاعتـقال

---

(١) الرقيب: ٨٢ -٨٣ .

والسجن والمحاكمة والقتل، كما حدث لاحقاً في حماة وتدمر وغيرهما، وفي تشكيل فرع مخابراتي خاص بها، وما زال يوسع بها حتى بلغ عددها في السبعينيات أكثر من ٢٥ ألفاً، ثم تضاعفت أعداد السرايا وعناصرها فيما بعد.

كان أفراد سرايا الدفاع مدججين بأحدث أنواع السلاح، وكانوا يدربون على العمل الفدائي -كومندوس- حتى غدت هذه السرايا اسماً ممقوتاً يثير الرعب أكثر من أي قوات أمن أخرى في نظام حافظ أسد الأمني، ثم أسس الأسد فيما بعد حرساً إمبراطورياً آخر جعله بقيادة أحد أنسابه: عدنان مخلوف، عُرف فيما بعد بالحرس الرئاسي، وتنحصر مسؤوليته بسلامة أسد وأمنه الشخصي، وما زال هذا الحرس ينمو حتى صار عدده عشرة آلاف عنصر على الأقل.

عندما صدر كتاب تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط عن انتهاكات حقوق الإنسان في سورية عام ١٩٩٠ كان عدد أجهزة المخابرات قد بلغت خمس عشرة مؤسسة أمنية تمارس مهامها في سورية، وكانت كل واحدة منها مستقلة عن الأجهزة الأخرى، لها أقسامها الإدارية الخاصة، ورؤساؤها المباشرون الذين يرفعون التقارير إلى الرئيس مباشرة، فالكل يجمعون المعلومات، ويمارسون الرقابة والمراقبة والاعتقال، ويستجوبون السجناء، ويشرفون على عملية الحجز والحبس، ولكل منها ركائز في أعلى المستويات في الوسط الإعلامي، وفي المنظمات الجماهيرية والجامعات، فضلاً عن وزارات الدولة، ولم يكن لهذه الأجهزة حدود لسلطتها إزاء الاعتقالات

والتفتيش والاستجواب والحجز، إذ لم يعرض أي سجين من بين ألوف المحبوسين لأسباب سياسية على محكمة ما للنظر في أمره[1].

لقد كانت هذه الأجهزة تنتمي إلى دائرة النظام المغلقة التي كان يقودها ضباط عسكريون من عائلة الأسد وعشيرته وأبناء منطقته، مثل علي حيدر -آمر القوات الخاصة من عام ١٩٦٨ وحتى العام ١٩٨٨- وعلي دوبا رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية، ومحمد الخولي، رئيس مخابرات القوات الجوية، وحتى عام ١٩٩٠ كان عدد موظفي هذه الأجهزة قد ربا على ١٥٠-٢٠٠ ألف، حتى أثقلت هذه الأجهزة برواتب موظفيها المضاعفة، وبنفقاتها غير المحدودة، كاهل ميزانية الدولة، تستهلك ثلث الميزانية العامة، وقد كتب كثير من الباحثين عن الأجهزة الأمنية وأعدادها ونفقاتها وسلطاتها غير المحدودة، من أمثال باتريك سيل وميشيل سوربو وحنا بتوتو الأمريكي من أصل لبناني المتخصص بدراسة حزب البعث وشؤون الشرق الأوسط.

٢ً- لا يأتي حجم الكلفة العالي في أجهزة الأمن والمخابرات من كبر حجمها فحسب، بل من المكرمات والعطاءات السخية التي تنهال عليها من النظام في مناسبات كثيرة، فمثلاً عندما عادت طائرات الهيلوكابتر الإحدى عشرة من مهمة قتل الإخوان في سجن تدمر الذين زادت أعدادهم عن ١١٠٠ شهيد حسب الإحصاءات المتفاوتة،

---

(١) الرقيب: ٨٤ -٨٥ .

ومعظهم رهائن، برئاسة الرائد معين ناصيف صهر رفعت أسد، وزعت عليهم المكافآت بعد أن قاموا بعمل نضالي رائع حسبما قيل لهم، وهم يستلمون المبالغ المالية السخية، كذلك يتقاضى موظفو المخابرات مبالغ طائلة عندما يعبر أحد الموسرين عن حاجته إلى خدمة ما، مثل الحصول على إجازات الاستيراد، وقد طرق سمع مراقب الشرق الأوسط شكاوى من قيام ضباط الأمن بالاستيلاء على شقق المسافرين والهاربين، وعلى منازلهم وعقاراتهم[1]، ونعرف أسماء كثيرة من دمشق والمدن الأخرى ممن صودرت بيوتهم وسكنها أبطال الأجهزة الأمنية في هذا النظام القمعي الذي لم نسمع ولم نقرأ عن مثل ممارساته في أي دولة من دول العالم، بما في ذلك ذات الحكم الشمولي والسلطات المطلقة.

في هذا السياق لابد من إلمامة سريعة عن هذه الأجهزة الأمنية وما ألحقته من إيذاءات وأضرار وكوارث في المواطنين السوريين، فالقوات الخاصة بقيادة علي حيدر تشكل مع سرايا الدفاع والحرس الجمهوري والفرقة العسكرية الثالثة: الدعامة الكبيرة والعمود الفقري لنظام حافظ أسد الأمني، وهي التي تقوم بقمع المعارضين، وتخويف المواطنين وترويع الآمنين بإرهاب تقشعر منه جلود بني الإنسان.

تقع مقرات الوحدات الخاصة أو مقرها الرئيسي في القابون القريب من دمشق وقد أسست، كما رأينا، عام ١٩٦٨ أي بعد تسليم

---

(١) الرقيب: ٨٩ .

الجولان بعام واحد فقط، فترأسها العميد علي حيدر، واستمر على رأسها عشرين عاماً حتى انتهى دوره، واستلم الوحدات منه علي دوبا، كما استلم من علي دوبا ابن أخي علي دوبا في رئاسة المخابرات العسكرية.

الوحدات الخاصة هي وحدات عسكرية منتخبة، فبالدروع التي في حوزتها، والطائرات السمتية -الهليوكبتر- وبتسلحها المميز، توصف بالحرس الإمبراطوري الصارم لنظام حافظ أسد، وقد لجأ الأسد إلى تسخير هذه القوات في تحطيم المعارضة في مناسبات حرجة وعديدة، فهي المسؤولة عن مذبحة جسر الشغور، وهي التي مارست دوراً مهماً في عملية احتلال حلب، وهي التي قامت بمذبحة حماة، وأسهمت مع القوات الأخرى في إخماد انتفاضة المدينة في عام لاحق.

أما الحرس الرئاسي أو ما يطلق عليه الحرس الجمهوري، فقد أُسس في العام ١٩٧٦ بعد الاجتياح السوري للبنان بغية حماية الرئيس الذي تتزايد كراهية الجماهير له، وقد ترأس هذا الجهاز عدنان مخلوف ابن أخي زوجة أسد، غير أن البعض يزعم أن رئيسها الفعلي هو باسل ابن حافظ أسد الذي كان ولياً للعهد، ثم قتل في ظروف غامضة!!

يأتي ذكر الفرقة العسكرية الثالثة التي يقودها اللواء شفيق فياض التي تعسكر في القطيفة قرب دمشق، وهي فرقة مدرعة منتخبة، تتألف من عشرين ألف رجل، ومن مئات الدبابات والعجلات

المدرعة الأخرى، ويتميز دورها بين قطعات الجيش الأخرى بفعاليات الأمن الداخلي، وهي التي احتلت حلب، وساعدت في قمع انتفاضة حماة والقضاء عليها، وقامت بضرب القرى التي كان يعتقد أنها تؤوي المعارضين والمطاردين.

أما سرايا الدفاع فكانت المزة في خاصرة دمشق مقرها، وقد أسست في أول عهد أسد بعد استلامه منصب رئيس الجمهورية في مطلع عام ١٩٧١، ثم شهدت توسعاً كبيراً حتى بلغ عدد أفرادها حوالي ٢٥ ألفاً من الضباط والجنود، وذكرت بعض المصادر أنها بلغت فيما بعد خمسين ألفاً.

٣- هذه الأجهزة والوحدات العسكرية المختصة بحماية النظام وقمع أي معارضة مهما كان حجمها أو شكلها، ولو بالكلام الهادئ، هذه القوات التي زودها النظام بأفضل ما لديه من سلاح وعتاد وآليات حديثة، تشمل المدافع والدبابات والطائرات السمتية، وهذه االأعداد الضخمة التي تزيد على مئة ألف والتي تتقاضى رواتب مضاعفة، وتأخذ الناس بالشبهة، وتطارد المواطن في عمله ومنزله وبين أفراد عائلته، هذه العصابات ماذا تركت لمشروعات التنمية، وللخدمات الصحية التي تراجعت كثيراً وتخلفت، فصار المريض يذهب إلى البلاد المجاورة لتلقي العلاج في عمان وبيروت في الأمراض الصعبة، هذه العصابات التي تشكلت بعد تسليم الجولان، ودخول لبنان لذبح المقاومة الفلسطينية، وصار لديها عشرات المعتقلات وأحدث أدوات التعذيب، والتصرف المطلق في جسد

الضحية وفي ماله ودمه وعرضه، ألم تسمع هذه الألوف المؤلفة من سرايا الدفاع والحرس الجمهوري والأجهزة الأمنية الخمسة عشر والوحدات الخاصة، ألم تسمع باحتلال العدو لهضبة الجولان؟ أم أنها في الهزيمة كالأرانب المذعورة، وأبطال ضد المواطن الأعزل، فهي كما قال الشاعر:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

نشكو هذه العصابات إلى القوي الجبار، ونسأله بقدرته أن ينتقم منها في الدنيا قبل الآخرة، ويُري أبناء سورية فيها يوماً أسود يُعز فيه أولياءه ويّذل فيه أعداءه من الظالمين والمعتدين، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ذكرت منظمة رقيب الشرق في تقريرها الذي أصدرته عام ١٩٩٠: أن هذه القوات الأمنية والعسكرية المكلفة بالأمن الداخلي مثل الفرقة الثالثة بقيادة شفيق فياض، كانت تملك أحدث الأسلحة فتكاً مما ليس موجوداً في وحدات الجيش النظامي، وأن معظم أفرادها من الطائفة العلوية، وأنها مارست الفتك والقتل والهدم بعدد من المدن السورية الكبيرة مثل حلب وحماة، والصغيرة كجسر الشغور وسرمدا وجبل الزاوية، كما بطشت بكل معارض في المدن الأخرى كاللاذقية ومدن الساحل والمنطقة الشرقية، وفي حمص ودمشق وحوران، وبكلمة موجزة، في كل المدن والبلدات والقرى السورية، التي لم تسلم جميعاً من بطشها وشرها، ولم تنج من عمليات القتل والخطف

والنهب في أرجائها[1].

٤ً- من أجهزة الأمن الخمسة عشر التي جاء ذكرها: الأمن الخارجي، والأمن الداخلي، وأمن الدولة، والمخابرات العامة، والأمن السياسي، ومخابرات القوى الجوية... وغيرها، ولكل منها فروعها وسجونها وميزانيتها، وصلاحياتها غير المحدودة بالاعتقال والسجن والتحقيق والتعذيب والقتل.

ومن أخطر هذه الفروع فرع فلسطين المتخصص بملاحقة الفلسطينيين والحالات السورية المتداخلة معهم، وفرع التحقيق العسكري الذي يمر به جميع معتقلي الأمن العسكري، ليعاد التحقيق معهم، وكان يرأسه الضابط المسيحي كمال يوسف من بانياس، وهذا الفرع مصنع للقتل والتعذيب، يعمل ليلاً ونهاراً وبلا توقف، كما يوجد في كل محافظة وقضاء فروع لأجهزة الأمن التي جاء ذكرها، حتى قدر بعض المعنيين عدد أفراد هذه الأجهزة بـ٣٠٠ ألف يستهلك، كما مر معنا، معظم ميزانية الدولة[2]، وقد سمعت من اقتصادي مخضرم كبير، غادر سورية وأقام في باريس مثل غيره من العلماء والمفكرين والاقتصاديين وغيرهم: سمعت الأستاذ عبد الرحمن العظم يقول: إن الإصلاح الاقتصادي في هذا العهد غير ممكن، وأي محاولة في هذا الشأن ستكون فاشلة، لأن الأجهزة العسكرية والأمنية تستهلك معظم الميزانية ولا تبقي منها إلا النزر اليسير.

---

(١) الرقيب: ١٠٧-١٠٩ .

(٢) حوار حول سورية: ١٢٨-١٢٩ .

كانت هذه الأجهزة تراقب العمال والفلاحين والطلاب والموظفين العسكريين، وبكلمة موجزة: كل أفراد الشعب في تحركاتهم وارتيادهم دور العبادة، وعدد المرات التي يؤمون فيها المساجد، والأصحاب الذين يزورونهم، ويؤخذ بالشبهة من يحلو لهم اعتقاله، ليزج في المعتقلات التي لا يحتمل أي مخلوق -ولو كان من غير البشر- الصبر على حالتها في القذارة والتجويع والتعذيب وامتهان المعتقل في كرامته وآدميته، وفي الغالب يترك المعتقل دونما سؤال أو تحقيق لسنوات، ربما تبلغ عشر سنين أو عشرين سنة أو ربع قرن، ثم يخلى سبيله دون أن يعتذر له أحد المتسلطين عما أصابه من تدمير جسده وعائلته ومن يلوذ به.

وبالرغم من أن دمشق وحمص لم تشهدا أعمال عنف، أو صدامات كالتي حدثت في المدن الأخرى، فإن هاتين المدينتين لم تنجوا من القمع والتنكيل. في ذات يوم أفاقت مدينة حمص على الوحدات الخاصة وعناصر الأمن وهم يقتحمون المدينة الصناعية، ويعتقلون كل من فيها من أهل المدينة، ويقتادوهم بسيارات كبيرة إلى خارج المدينة حيث أقاموا لهم معسكراً في أرض وعرة محاطة بأسلاك شائكة، وخندق مليء بالماء على غرار ما فعلوه من قبل في حلب، تكدس فيه الأشخاص داخل معسكرات تفتقر إلى كل شيء سوى السياط وأجهزة التعذيب.

نزل الناس من السيارات لا يدرون لماذا اعتقلوا، فانهال عليهم مئات الجنود وعناصر الأمن بالسياط والعصي وعذبوهم من الصباح

إلى المساء، ثم أطلقوا سراحهم دون أن يحقق معهم أحد أو أن يطرح عليهم أي سؤال، وهذا ما حدث في دمشق التي كانت بمنأى عن العنف والصدام مع السلطة، ومع ذلك لم تنج بيوتها ومساجدها من الاقتحامات والاعتقالات وخطف المواطنين.

إن أقبية المخابرات التي بلغ عددها ٧٦ قبواً، كانت تعمل دونما ملل أو توقف حيث استقبلت مئات ألوف المواطنين من كل الفئات والاتجاهات، علماً بأن ما أصاب الإخوان المسلمين كان أشد مما وقع على الآخرين، ولاسيما تنفيذ أحكام الإعدام بالعشرات والمئات، ثم الآلاف فيما بعد طبقاً للقانون ٤٩ الذي يقضي بحكم الموت على كل من انتسب إلى الإخوان، حتى بلغ عدد الذين رفعوا على أعواد المشانق بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٨٢ اثني عشر ألفاً من الشهداء عدا عن الذين قضوا تحت التعذيب، وعدا النساء والأطفال الذين امتلأت بهم أقبية الاعتقال والتعذيب[1].

٥- كثيراً ما يحدث الموت في أثناء الحجز بسبب التعذيب، فتدعي السلطات أن السجناء قتلوا أنفسهم -انتحروا- بينما هم قُتلوا تحت التعذيب، ولقد وثّقت لجنة حقوق الإنسان ما يقرب من عشر حالات موت في الحجز والحبس داخل سورية، كما جاء في تقرير منظمة العفو الدولية، فيما بعد عام ١٩٨٣ ص ١٦-١٨، وقد لقي عدد آخر من المساجين والمطاردين حتفهم في أثناء القمع الوحشي والمداهمات التي تلقتها المعارضة في الفترة ما بين ١٩٧٩- ١٩٨٢،

---

(١) حوار حول سورية: ١٧٠-١٧١ .

وبقيت حالات كثيرة طي الكتمان بسبب خوف العائلات من الثأر والانتقام، وهنالك حالات عديدة حدثت في الجزء الذي سيطرت عليه السلطات السورية في لبنان[١].

لقد عبّر الجميع من المنظمات التي تعنى بحقوق الإنسان عن قلقهم الشديد إزاء الموت تحت التعذيب، فلجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، ومنظمة العفو الدولية، والمنظمة العربية لحقوق الإنسان، ذكرت في تقاريرها أنها تشعر بالقلق المتزايد عما يصيب المواطن السوري من انتهاكات خطيرة تقشعر من هولها الأبدان.

ثامناً- تدمير الاقتصاد السوري

أضاف الذين سلموا الجولان دون قتال يذكر إلى ما فعلوه بالجيش من تجريده من القادة وذوي الخبرة في القتال والأعمال العسكرية ومجابهة العدو قبل المواجهة مع العدو، أضافوا إلى إنجازاتهم هذه تلك مأثرة أخرى في التخريب والهدم، إذ التفتوا إلى الاقتصاد الذي هو عمدة المجتمع في تقوية الجيش، وتغذية الصناعة والتجارة والنشاط الزراعي، وتنشيط المؤسسات كافة، فعملوا على هدمه وتحطيمه بدعوى التحول الاشتراكي، والقضاء على البورجوازية والرأسمالية، وما إلى ذلك من هذه الشعارات والدعاوى الممجوجة، والتي أضحت تثير قرف المثقفين وعلماء المال والاقتصاد.

---

(١) التقرير: ١٢٢-١٢٣.

١- انقضوا في مطلع الشهر الأول من عام ١٩٦٥ على المصانع والمؤسسات المنتجة، وأمموا حوالي مئة شركة، يعمل فيها اثنا عشر ألف عامل، أصبحوا دون دخول ينفقونها على أنفسهم وعائلاتهم، وقد استغرب البعض تأميم بعض الورشات التي لا تقدم ولا تؤخر في التأثير على مجريات الاقتصاد الوطني، مما جعل المنتقدين لهذه السياسة الخرقاء يذكرون أن بعض الشركات التي تم الاستيلاء عليها أخذت من دليل الهاتف. ثم سرعان ما امتدت ملكية الدولة إلى توليد الكهرباء وتوزيع النفط والمحروقات وحلج الأقطان، وحوالي ٧٠٪ من تجارة التصدير والاستيراد، وسلموها إلى معلمين وموظفين ليس لديهم أي خبرة في إدارتها وتشغيلها، أو أي معرفة بشؤونها التخصصية والفنية، الأمر الذي أدى بها إلى التوقف أو الخراب أو الضعف في الإنتاج، وعندما احتج التجار ورجال الأعمال على هذه السياسة التخريبية، وأعلنوا الإضراب، تحرك الحرس الوطني وكتائب العمال المسلحة ومجموعات من أعضاء الحزب الحاكم، وشرعوا في تكسير واجهات المخازن والدكاكين المغلقة، كإجراء غير مسبوق، لم تقدم عليه أي حكومة أو سلطة في العهد الوطني أو في ظل الانتداب الفرنسي، عندما كان الإضراب يستمر أربعين يوماً أو أكثر دون أن تجرؤ الدولة المحتلة على الاعتداء على مخازن ومحلات المواطنين[١].

٢- بالرغم من أن قرارات التأميم والمصادرة التي أصدرتها السلطة

(١) باتريك سيل: ١٦١.

البعثية لم تحقق شيئاً واقعاً أو ملموساً في أي تقدم يزعمونه في حياة العمال والكادحين، لأن قيمة هذه المؤسسات المصادرة والمؤممة لا تتجاوز في القيمة ٣٠٠ مليون ليرة سورية من مجموع الثروة النقدية المتداولة في البلاد والتي تقدر بمليار وثلاثمئة مليون ليرة سورية.

لقد دب الرعب في أوساط الاقتصاديين، وفي نفوس رجال الأعمال والتجار وأصحاب المصانع الذين باشروا بتهريب أموالهم إلى خارج البلاد، فأصيبت المؤسسات الاقتصادية بما يشبه الشلل، وأدت هذه السياسة إلى أمرين خطيرين:

أ- تعطيل المشروعات الإنمائية، وقتل روح المبادرة -المبادأة- لدى المواطن السوري الذي يتميز بها عن غيره، وإيقاف النمو الاقتصادي الذي كان قادراً -لو استمر الصعود- على مد الجيش بكل احتياجاته للوصول به إلى مرحلة التفوق التكنولوجي والعددي على العدو الإسرائيلي، وهذا -في حالة تحقيقه- يشكل أحد مواضع الإصابة القاتلة في الكيان الإسرائيلي الدخيل.

ب- إن قسماً كبيراً من الثروات التي تم تهريبها، وصلت إلى البنوك التي تملك الصهيونية العالمية السيطرة الغالبة عليها وبذلك دمرت كل إمكانية -سياسية أو عسكرية أو اقتصادية- تتيح للشعب أن يصمد في وجه الغزو العسكري تمهيداً للهزيمة النكراء التي مني بها شعبنا بمسعى وتخطيط مدروس من حكومة انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣.

٣- أما الذي جرى في سورية من نهب وسرقة وسلب الثروات، والتسلط على التجار ومحاصرتهم، واستلام معظم دخولهم وأرباحهم مما لا يمكن تصديقه لولا المصادر والوثائق والشهود والأحداث المفصلة، حتى نشأت طبقة من الأثرياء -معظمهم من أبناء الطائفة العلوية وأقارب الأسد- تملك المليارات من الليرات ومئات الملايين من الدولارات، والقصور في دمشق وفي ريف اللاذقية وجبل العلويين، والأرصدة الكبيرة في البنوك الأوروبية والأمريكية والعقارات في باريس وجنيف وماربيا في جنوبي إسبانيا، وبلدان كثيرة، مما سيأتي مفصلاً بأمثلته وشخصياته وأرقامه مكتفياً في هذا السياق بمثال واحد يدلل على أن سورية قد سلبت منها كل أسباب المناعة المادية والمعنوية، لتكون صيداً سهلاً أمام العدو الذي ما كان ليجرؤ على الدخول في حرب لولا أن ضمن الانتصار على وطن حطمه أعداؤه في الداخل، وهم يتظاهرون بأنهم أبناؤه وحماته!!

لقد تناهى إلى أسماع المواطنين الكثير من القصص حول انهماك كبار ضباط الجيش والأمن في نهب البلاد والعباد، ومنها رواية نذير هدايا التاجر الدمشقي الكبير وشريك رفعت أسد، الذي قال في الجلسات الخاصة: إن ما يصل إليه من أرباحه لا يتعدى الـ ٣٪ بينما يذهب ٩٧٪ من الأرباح إلى ضباط الجيش والأمن، وبهذا السطو المنظم من (حماة الديار) بلغت ثروة رفعت الأسد ١٧ مليار دولار حسب رواية الدكتور الشاعر أحمد سليمان الأحمد حليف رفعت سابقاً وأقرب المقربين منه قبل أن يفترقا، ويلتحق أحمد سليمان

بالمعارضة، وقد التقيناه في بغداد وأوروبا.

إن البعض ينفون عن رفعت هذه الثروة الأسطورية التي مكنته من الاشتراك في القناة البحرية تحت مياه المانش التي ربطت بريطانيا بأوروبا، البعض يقولون إن ثروته لا تتعدى، أو تتراوح بين ٣ إلى ٤ مليارات دولار فقط.

لقد قدر عبد الله الأحمد، عضو القيادة القطرية للبعث، والأمين العام المساعد للحزب في عام ١٩٨٠ عدد المليونيرات في سورية الاشتراكية التقدمية!! بـ ٢١ ألف مليونير!![١].

تاسعاً - الديكتاتورية وإرهاب الدولة

في الستينيات والسبعينيات من القرن الفائت، عمت سورية موجات من الرعب والذعر، وساد الخوف جميع المواطنين، فلم يعد المواطن آمناً على دمه وماله وعرضه، وليس له أن يسأل عن ولده الذي اختطف أو على ابنته التي اعتقلت، ولم يعد للدستور أو القانون أو القضاء من أهمية أو سلطان، بل إن القضاء الذي هو آخر الحصون التي يحتمي بها المواطن، فسد ولم يعد نزيهاً، وقد أسندت مناصب القضاء إلى حزبيين فاسدين مرتشين، فضاعت الحقوق، وهدرت القيم، وعاش كل مواطن مسكوناً بالخوف مما تفاجئه به عصابات السلطة البوليسية والأمنية والعسكرية من تهم لا تخطر له على بال، وليس لديه أي فرصة في ردها أو مناقشتها أو إنكارها.

---

(١) حوار حول سورية: ١٧٦-١٧٧ .

إن هذا الفساد في القضاء وفي الدوائر المعنية أمور طارئة ودخيلة وغريبة عن المجتمع السوري، وعن المواطنين السوريين، عندما كانت سورية مثالاً يحتذى في الحرية والنهوض السياسي والاقتصادي والتقدم على كل الصعد.

وبقدر ما كان الدور السوري كبيراً في حركة التحرر عربياً ودولياً جاء التآمر على حرية سورية واستقلالها خطيراً في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من الدول الكبرى الطامعة، وفي مقدمتها إنكلترا ثم أمريكا، غير أن قطرنا الصغير بمساحته وعدد سكانه كان كبيراً بصلابته وصموده والتصدي لأعدائه، فأحبط ذلك كله، ليخرج سورية من كل ما يبيت لها، قوة ظافرة. وإذا بفئة غادرة تحسب على أنها من أبنائها، وليست من أعدائها -تسدد لها ضربة دامية- ومن مأمنه يؤتى الحذر- وتستولي على السلطة بانقلاب عسكري هدم الحياة الدستورية، وعطل القوانين، وألغى دور القضاء النزيه وأدخل الوطن كله في التيه المظلم منذ أكثر من أربعة عقود، فسفك الدماء، ونهب البلاد، وطارد العباد، واستباح القيم والحرمات، وزرع الخوف في القلوب، وأمعن في تجويع المواطنين وإفقارهم وقهرهم وما يزال، والخلاصة: أن السلطة الحاكمة في سورية ما فتئت تمارس أخطر انتهاك لحقوق الإنسان في العصر الحديث.

أ- مر معنا في الفترة الأولى من هذا المجلد أن سورية أصدرت عدداً من القوانين التي قننت بها قتل المواطن وسفك دمه ومصادرة ماله والاعتداء على حرماته، وذكرنا عدداً منها، وأمثلة صارخة عن

ظلمها وقسوتها وأحكامها الشاذة، مثل: قانون حالة الطوارئ، وقانون حماية الثورة، وقانون إحداث محاكم الميدان العسكري، وقانون إحداث محكمة أمن الدولة، وقانون إحداث إدارة أمن الدولة، ورأينا أن حالة الطورائ لم تعرض على أي مجلس تشريعي منذ إعلانها قبل ٤٥ سنة، ومن ثم فإن كل ما بني عليها هو باطل ومخالف للدستور والقانون.

إن قانون الطوارئ حوّل إدارة الحكم العرفي إلى مؤسسة تشريعية تأمر وتنهى خلافاً لأي تشريع أو حكم قضائي، ورغم أن المادة الرابعة من قانون الطوارئ تجعل أوامر التوقيف محصورة في الحاكم العرفي أو نائبه، فإن التطبيق العملي جعل كل جهاز من أجهزة الأمن الخمسة عشر أو السبعة عشر -حسب المصادر- مخولاً بإصدار الأوامر باعتقال أي مواطن دون بيان الأسباب، فكل جهاز من هذه الأجهزة لديه أوراق مطبوعة بالأوامر العرفية، فيها فراغ مكان الاسم المطلوب وتاريخ اعتقاله موقعة من قبل وزير الداخلية بصفته نائباً للحاكم العرفي، فإذا تم اعتقال الضحية، فلن يصدر الأمر العرفي باعتقاله إلا بعد التحقيق، فإذا مات تحت التعذيب تقوم الجهة الأمنية التي حققت معه بدفنه سراً، منكرة أنها اعتقلته، أو أنها على علم به أو بمكان وجوده، أما إذا انتهى التحقيق، وبقي المواطن حياً، فإما أن تطلق سراحه، وإما أن ترسله إلى سجن تدمر، فإذا أفرجت عنه فإنها تصدر أمرين عرفيين، الأول باعتقاله، يحمل تاريخ الاعتقال الحقيقي، والثاني بالإفراج عنه، يحمل تاريخاً حديثاً هو يوم الإفراج

عنه، وإذا قررت إرساله إلى تدمر، أو أي سجن آخر، ملأت اسمه والتاريخ الحقيقي ليوم اعتقاله، وعندما يكون الشخص المطلوب متوارياً تصدر الأجهزة الأمنية أمراً عرفياً باعتقاله، يوزع على جميع الأجهزة، وعلى مراكز الحدود، دون أن تتضمن الأوامر مدة معينة لاعتقاله، وهذا يفسر وجود أشخاص مضى على اعتقالهم أكثر من عشرين سنة أو خمس وعشرين سنة دون محاكمة.

واستناداً إلى حالة الطوارئ تنعدم ممارسة السلطة القضائية لأي صلاحية بصدد هذه الاعتقالات، ويحرم المواطن الضحية من حقه في الطلب من القضاء البت بشرعية توقيفه، ولا يحق له الطعن بقرارات الحاكم العرفي في اعتقاله أو مصادرة ماله أو التظلم من ذلك أمام أي مصدر قضائي، كما يمنع ذوو المعتقل من معرفة مكان اعتقاله أو التهم الموجهة إليه، ومن إمكان زيارته للتحقق مما إذا كان المعتقل حياً أو ميتاً، وقد ترتب على ذلك أن معظم المعتقلين الذين لم يقدموا للمحاكمة هم في عداد المفقودين ومجهولي المصير، كما ترتب على هذه الإجراءات الوحشية الظالمة، وعلى هذا الاستهتار بكرامة الإنسان وآدميته وقوع خلل كبير في العلاقات الاجتماعية والقانونية بسبب طول فترة الاعتقال دون محاكمة، وعدم معرفة المصير للمعتقل أو مكان وجوده، كالعلاقة الزوجية والإرث أو الشراكة أو الملكية وغيرها، كما رأينا ذلك سابقاً.

فهل واجه الإنسان في قطر من أقطار العالم كله مثل هذه الكوارث والمآسي التي لاقاها المواطن في سورية؟

وهل عومل أي عميل أو عدو، ولاسيما الصهاينة بمثل ما واجه المواطن السوري جراء اختلافه مع السلطة الباغية التي مارستها ضد المواطنين في سورية؟

هذا هو المنهج الذي أكد عليه وريث الأسد في خطبه وقال: لا يجوز مسه أو تجاوزه أو الخروج عليه!!

٢ً- من المفيد أن تعرف الأجيال الصاعدة، والمواطنون جميعاً نموذجاً عن هذه القوانين التي لا عهد للبشرية (ولاسيما العالم المتحضر) بها في أي دولة من دوله أو مجتمع من مجتمعاته.

لقد أحدثت السلطة في سورية قانون إدارة أمن الدولة الذي جاء ذكره من قبل بالمرسوم التشريعي رقم ١٤ بتاريخ ١٥-١-١٩٦٩، وقانون التنظيمات الداخلية لإدارة أمن الدولة الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٥٤٩ بتاريخ ١٤ -٥-١٩٦٩، والذي جاء التنويه عنه كذلك. وهذان القانونان ينتهكان حق المواطن السوري، ويحرمانه من حق اللجوء إلى القضاء للادعاء على أي رجل ارتكب جريمة بحقه، إذا كانت هذه الجريمة قد ارتكبت بسبب ممارسة رجل الأمن لوظيفته، أو في أثناء ممارسته لها، وبالرغم من أن سيطرة الأنظمة على وسائل الإعلام داخل الدولة قد فقدت مبرراتها غالباً، فإن نظام القمع في سورية يحتفظ لديه بقوانين سرية غير منشورة في الجريدة الرسمية، خشية الفضيحة أمام الرأي العام داخلياً وخارجياً، لأن هذه القوانين تحجب حق السلطة القضائية من معاقبة العاملين في دوائر الأمن على الجرائم التي ارتكبوها في وظائفهم عن تعذيب المواطنين

وحجز حريتهم، وإزهاق أرواحهم ومصادرة أموالهم، وتسلب حق المواطن من اللجوء إلى القضاء لوقف الاعتداء عليه، ومعاقبة المعتدي إذا كان المتهم من رجال الأمن، فالمادة (١٦) من المرسوم التشريعي تنص على ما يلي: لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في الإدارة -إدارة أمن الدولة- عن الجرائم التي يرتكبونها أثناء تنفيذ المهمات الموكولة إليهم، أو في معرض قيامهم بها، وتؤكد المادة ٧٤ من المرسوم على ما ورد في المادة ١٦ أنه لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة أو المنتدبين أو المعارين إليها، أو المتعاقدين معها مباشرة أمام القضاء في الجرائم الناشئة عن الوظيفة، كما تنص المادة ١٠١ على عدم نشر هذا المرسوم بالجريدة الرسمية!!!

إن هذين القانونين يمنعان النيابة من إقامة الدعوى على أفراد قوات الأمن، ولو أقام المتضرر نفسه مدعياً شخصياً، وبذلك يكون قد أعطى هذان القانونان امتيازات لرجال الأمن هدمت مبدأ المساواة أمام القانون، وهو المبدأ الذي جاهدت البشرية منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث للحصول عليه.

٣- إن وجود امتيازات قضائية خاصة ممنوحة لفئة من الناس أو المواطنين يتنافى مع مبدأ المساواة في الحماية القانونية، وهذا نذير بهدم المجتمع وتمزيقه كما أنذر بذلك سيدنا محمد ﷺ: إنما أهلك من كان قبلكم، إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة

بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها[1].

إن أهم المواثيق الحديثة التي أكدت على المساواة بين الناس: ميثاق الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٥، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠-١٢-١٩٤٨، والعهدان الدوليان لحقوق الشعوب والإنسان الصادران عام ١٩٦٦ .

نتيجة الحصانة التي يتمتع بها رجال الأمن -حسب القوانين التي عرضنا لها قبل قليل- ازدادت حالات الاعتقال التعسفي، وإلغاء حقوق المعتقلين، من غير تحديد الجهة التي تأمر باعتقال المواطن بعد أن تضخمت هذه الأجهزة، وبلغ عددها سبعة عشر جهازاً أمنياً، ولكل جهاز منها عشرات الفروع، وكل جهاز مخول بإصدار أوامر الاعتقال دون بيان الأسباب والدوافع، ومن غير أن يعلم ذوو المعتقل الجهة التي قامت باعتقاله أو مكان اعتقاله، كما قرأنا سابقاً، وكل هذه الإجراءات مخالفة للمعاهدات الدولية، وانتهاك صارخ لحقوق الإنسان، وعدوان سافر على الدستور والقوانين السورية، بالرغم من كل العيوب والنقائص التي تعتريها، وبكلمة موجزة، تنص هذه القوانين على أن لرجل الأمن أن يستبيح جسد الضحية ودمه وماله وعرضه وعرض محارمه دون أن يكون مسؤولاً بنص القانون -الهمجي- الذي أباح لهؤلاء المجرمين أن يفعلوا ما يشاؤون دون رقيب أو حسيب أو مساءلة أو حق في تظلم أو شكوى أمام أي مرجع

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢١٦ ومسلم رقم ٣١٩٦ والترمذي رقم ١٣٥٠ .

قضائي أو برلماني أو وزاري، أو أي مسؤول، ولو كان رئيساً للبلاد والعباد!!

٤- وقبل مغادرة هذا الموضوع الذي تقشعر الأبدان من ذكر معانيه أو تفاصيله، نقف قليلاً عند قانون حالة الطوارئ الذي يقترب من يوبيله الذهبي!!، بعد أن مضى على إعلانه قريباً من نصف قرن (٤٧ سنة) دون أن تسمع صوتاً مدوياً بالاستنكار من مجلس الأمن أو الأمم المتحدة أو لجان حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة التي تقبع على ضفاف بحيرة جنيف، أو من الدول العربية العتيدة أو من منظمة المؤتمر الإسلامي، أو الوحدة الإفريقية، أو الدول الآسيوية، أو المنظمات المعنية في الدفاع عن حقوق الإنسان في أوروبا وأمريكا ومصر إلا استنكارات خجولة لا تكاد تسمع، فلماذا يحدث هذا تجاه السوريين دون غيرهم من بلاد العالم أجمع؟

إن العالم أو دوله التي زادت عن المئتين، لا تتحمل الإعلان عن حالة الطوارئ وتعليق العمل بالدستور في أي بلد من بلدان الكرة الأرضية، بل تشجبه وتستنكره أشد الاستنكار، وتقف من الحكومة التي تعلنه موقفاً حازماً، مهددة بمقاطعتها، أو توقيع العقوبات عليها.

عندما أعلنت جورجيا حالة الطوارئ، وكذا باكستان في مطلع العام ٢٠٠٨ ضج العالم ضد هذا الإجراء، وأنكر على كلتا الدولتين تعطيل الدستور، وإعلان الحكم العرفي، مما اضطر الدولتين إلى التراجع عن حالة الطوارئ تحت ضغط الرأي العام الدولي، فسارعت جورجيا إلى إلغاء حالة الطوارئ (والعودة إلى الدستور) بعد أسبوعين

من إعلانها، وكذا فعلت باكستان، فألغت قانون إعلان الطوارئ بعد حوالي شهر من العمل به، أما سورية ذات الإرث الحضاري والإنساني الذي علم الشعوب والأمم أول أبجدية في الكتابة، أما سورية رائدة العالم الثالث في نيل الحرية والاستقلال مع نهاية الحرب العالمية الثانية، أما سورية هذه فلا بواكي لها، وكأن شعبها قد حكم عليه بالحرمان من حقوقه المدنية، أو أن الحقوق المدنية قد سقطت عنه، فلم يعد جديراً بها، أما سورية فإنها لا تجد لها نصيراً ينكر تسلط حكم الأقلية عليها في ظل حكم عرفي دائم، يقترب في عمره المشؤوم من خمسة عقود، نعم لا يجد السوريون من يتوجع لهم أو يرثي لنكبتهم بمن فيه أشقاؤهم العرب الأمجاد، حسب مناداة صوت العرب لهم: أمجاد يا عرب أمجاد.

وأخيراً، وليس آخراً يتحمل السوريون المسؤولية الكبرى والأولى في صبرهم على هذا الهوان، واستكانتهم لذاك البطش، وسكوتهم على أسوأ عدوان، ولهذا لا أجد ما أخاطبهم به سوى قصيدة أحمد مطر: (أيها الشعب لماذا خلق الله يديك) والتتمة مؤلمة، فاقرؤوها على شاشة الإنترنت لأن خاتمتها جارحة، وليس في منهاج هذه الكتابة إيراد أي كلمة جارحة.

عاشراً - التناحر على السلطة

لم يتوقف التناحر على السلطة، والصراع الدموي على الحكم منذ الأيام الأولى للانقلاب، ولكنه كان يأتي مبرمجاً حسب الأولويات المرسومة، فيصفى الأبعد فالبعيد، والقريب فالأقرب.

٦- بدأ الصراع جلياً بين أجنحة السلطة الحاكمة منذ الساعات الأولى من حركة الانقلاب، عندما شرع الانقلابيون بتصفية القيادات التاريخية للحزب، بالاعتقالات والإبعاد، وإصدار الأحكام الغيابية في الإعدام، أو بالاغتيال، كما حدث للأستاذ صلاح البيطار في باريس، أو بالتسريحات من الجيش بالمئات والألوف، وإبعاد خيرة ضباط الجيش وإقصائهم كما رأينا، ثم استعر الخلاف مع حلفاء الأمس الناصريين، انتهى بصدام مسلح دموي، راح ضحيته مئات العسكريين، وبعد أن عمت الاضطرابات في عدد من المدن السورية في عامي ١٩٦٤ و١٩٦٥، قامت السلطات باعتقالات واسعة في جميع أنحاء سورية، شملت اليسار واليمين، والإسلاميين والعلمانيين، والوطنيين والقوميين، والعمال والنقابيين، وزجت بهم جميعاً في سجن تدمر الصحراوي، ثم استأنفت التسريحات من الجيش، فشملت كتلاً عسكرية كبيرة، تنتمي إلى المدن السورية، كالدير ودرعا وجبل العرب وحماة وحلب ودمشق، وفي هذا العام -١٩٦٥- تم إبعاد وتصفية مجموعة كبيرة من الضباط الموالين للقيادة القومية أو الموالية لها، وعلى رأسها وفي مقدمتها أمين الحافظ بعد معركة دامية قرأنا تفصيلاتها، وأودع عدد كبير منهم في السجون لم يخرجوا منها إلا بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، ثم بدأت بعد ذلك تصفيات في داخل الكتلة المسيطرة والمنتمية إلى الطائفة العلوية، لتبعد عن الجيش كتلة صلاح جديد، ومجموعة محمد عمران، ليبقى الحكم خالصاً لحافظ أسد وأقربائه وأبناء عشيرته ومنطقته، ومن يواليه من العسكريين كما قرأنا من قبل، الذين استلموا زمام الحكم وكل

مفاصل السلطة في الجيش والأمن والإدارات والوزارات وجميع المرافق الحساسة في الدولة والمجتمع، ففرض حافظ أسد نفسه رئيساً للجمهورية وقائداً للجيش وأميناً عاماً للحزب وللجبهة، وسنّ دستوراً كرّس فيه الاستبداد والديكتاتورية والحكم الشمولي المطلق، وأخيراً وليس آخراً، أقصى أخاه رفعت الذي جعل منه رأس حربة طوال عشرين سنة وخنجراً غرزه في قلوب المعارضين من كرام السوريين، وأباد عن طريقه ألوف المواطنين المناوئين كما حدث في تدمر وحماة ومناطق سورية عديدة.

٢- هكذا سخر حافظ أسد الشعب لصالح الطائفة، وسخر الطائفة لصالح العشيرة، وسخر العشيرة لصالح العائلة، ثم اختزل ذلك كله في ولده باسل الذي كان يهيئه لخلافته، ويورثه الوطن بأجمعه قبل أن يقتل في ظروف غامضة، عندما أعلن والده عن موته يوم الجمعة، مع أن المقيمين في باريس ومنهم الأستاذ مطاع صفدي ذكر أن موته قد شاع في باريس والجزائر قبل ذلك بثلاثة أيام -يوم الثلاثاء- مما جعل بعض المعنيين يرجحون قتله في صراع عائلي عندما طارد باسل زراعة المخدرات لتحسين صورته بين يدي تهيئته لخلافة والده في رئاسة الجمهورية، والذي يرجح لديهم هذه الرواية أن الإعلام السوري لم يَعْرِضْ أو يُظهر صورة للسيارة التي اصطدمت بعمود كهرباء سبب قتل باسل الذي كان يقودها في طريقه إلى المطار، ومن ثم للسفر إلى الخارج حسب الرواية الرسمية.

جاء الأسد بعد ذلك بولده بشار من مقاعد الدراسة في لندن قبل

أن يكمل دراسته في طب العيون، فأحضره على عجل، ومهد له في حكم سورية دون سابق تجربة أو ممارسة، ثم شرع حافظ أسد يجس النبض في أوساط بطانته في موضوع الوراثة، فمن أيده وصفق له، وداهنه أدناه وقربه، ومن اعترض عليه، أو تحفظ، أبعده وأقصاه، وقد سمعنا قصصاً وتفسيرات كثيرة عن انتحار الزعبي أو مقتله، وعن إبعاد علي حيدر، وآخرين، بسبب مواقفهم من توريث الأسد لولده الطالب بشار حكم سورية.

سلّ الأسد سيف محاربة الفساد الذي يشهره بالمناسبات يوم كان يمهد لولده باسل، ليظهره في صورة النزيه والمستقيم، وكذلك كان شأنه يوم قدّم ولده بشار، حتى تمت عملية التوريث بسلاسة حسب تعبير الرئيس الأمريكي كلينتون الذي أعطى موافقته لهذه الوراثة يوم التقى الأسد في جنيف، وأرسل وزيرة خارجيته أولبرايت إلى دمشق، لتفرض بشاراً رئيساً لسورية المنكوبة بأمريكا وبالنظام الأسدي الطائفي، معاً. فانهالت التبريكات على الأسد من العرب وغيرهم الذين يدورون في الفلك الأمريكي حيث دار.

٣- ثم جاء موضوع الشهابي وخدام وعدد من الوزراء وأعضاء وفروع الحزب يثير إشارات تعجب كثيرة، فقد أوشك سيف محاربة الفساد أن يلامس عنقي الشهابي وخدام -على مسؤولية مجلة :لوطن العربي- فترامى الأخير على الأسد لينجو بنفسه وبأبنائه، أما الشهابي فشد الرحال على عجل إلى أمريكا عن طريق بيروت، ومعه ملفاته ووثائقه، وكان أخطر ما أذيع عن رحلته أنه حضر اجتماعاً في فيللا

بولاية فرجينيا، تقع ما بين مبنى السي آي إيه، وبين البنتاغون، حضره مسؤول الشرق الأوسط في المخابرات، وشخصية من الخارجية، وكان لدى الشهابي حقيبة تحتوي أخطر المعلومات عن الأوضاع في عهد حافظ أسد، وآفاق العهد الجديد بقيادة ولده بشار، وعن اتصالات سرية جرت مع بعض التنظيمات العربية والأجنبية، ثم جرى حوار عن مدى قدرة بشار على الإمساك بزمام الأمور، وعن مستقبل الجيش في العهد الجديد، وقد طرح الأمريكان أسئلة عن الوجوه الجديدة، وعن علي دوبا ومحمد الخولي، وسئل الشهابي عن الإخوان المسلمين، ودورهم في المستقبل، فكان الجواب أن الإخوان هم الأضعف حالياً، وأن جماعات إسلامية جديدة هي التي تتحرك، وذكر بعض أسماء قياداتها، وحذر من أن تستفيد الجماعات الإسلامية من الأوضاع الاقتصادية لتأكيد قدرتها، وبذلك انتهت هذه الجولة من مباحثات العماد الشهابي رئيس الأركان السابق مع مندوبي المخابرات الأمريكية ووزارة الخارجية.

استؤنفت المباحثات بين الشهابي والأمريكان، واستمرت أكثر من أربع ساعات، ثم وعد مسؤول الشرق الأوسط في المخابرات الشهابي بترتيب لقاء مع مستشار الأمن القومي صاندي بيرغر، وبعد أسبوع اتصل مدير المخابرات جورج تينت بالشهابي وأبلغه بأن ضابطاً من المخابرات في لوس أنجلوس سيزوره حاملاً رسالة سرية من القيادة المركزية للسي آي إيه، والرسالة حسبما كشفت الأنباء، حملت تمنيات من جهات عليا في الحكومة الأمريكية بأن لا يقوم الشهابي

بأي تحرك أو عمل يسبب إزعاجاً للقيادة الجديدة في سورية، ويسبب إحراجاً للحكومة الأمريكية، وتمنت الرسالة أيضاً على العماد الشهابي أن لا يقطع كل الخيوط مع دمشق، بل أن يقوم بإجراء حوارات معينة إذا أمكن، فهذا أفضل، ووجهت الرسالة الشكر من واشنطن على ثقة الشهابي بها، وأن هناك توجهاً لدى الحكومة الأمريكية اتخذ بعد مشاورات مع دول عربية ذات وزن بأنه ينبغي في الظروف الراهنة مساندة الرئيس الجديد لسورية ودعمه، لتمكينه من تحقيق الإنجازات التي تهم المنطقة ككل، وقال حامل الرسالة: إننا نبلغك بهذا، كما أبلغناه إلى جماعات لبنانية في واشنطن، وطلبنا منهم التريث والتعامل مع الحالة الجديدة في دمشق.

هذا بعض ما نشرته مجلة الوطن العربي -على عهدتها- في العدد ١٢٢٠ يوم الجمعة المؤرخ في ٢١-٧-٢٠٠٠، وأيا كانت درجة التوثيق والصحة في هذا النشر، فإن الشيء الذي لا مرية فيه أن الشهابي لم يعد هدفاً للطغمة التي تشرع سيوفها بدعوى محاربة الفساد في سورية، والشيء المؤكد كذلك، أن الشهابي عاد إلى دمشق آمناً مطمئناً، وكأن شيئاً لم يكن بين اللوبي الذي يحكم سورية وبين الشهابي، الأمر الذي يقوي صحة الرواية التي نشرتها المجلة، عن تعاون الشهابي مع المخابرات الأمريكية في واشنطن.

٤- في منحى آخر عن مظاهر الصراع على السلطة، جاء إبعاد عدد من القياديين وإنهاء دورهم بدعوى التجديد والتطهير ومحاربة الفساد، لتشمل التغييرات ٢٢ وزيراً، و١٢ عضواً في القيادة القطرية،

وتنقلات في المراكز الإعلامية، وفي وكالة الأنباء ورؤساء الصحف، فمنذ العاشر من مايس عام ٢٠٠٠ بدأت عملية المحاسبة والتصفية التي قضت بطرد الزعبي، وإحالته على القضاء، وحجز أمواله وأموال أسرته المنقولة وغير المنقولة، مما أفضى به إلى النحر أو الانتحار، كما اعتقل وزير النقل مفيد عبد الكريم، وأحيل على التحقيق، وتم الحجز على أموال الدكتور سليم ياسين نائب رئيس الوزراء بتهمة تورطه في صفقة طائرات الإيرباص، وتم طرح أموال منقولة وغير منقولة للواء محمد بشير النجار ولزوجته ابتسام الدباس، ولأولاده الأربعة: عزت ولونا وهالة وباسمة في مزاد علني، ومن ضمنها أربعة عقارات مساحتها ٢٤٣١٢٣م٢، وثمنها مليون ونصف مليون دولار، علماً بأن النجار شغل مركز مدير مخابرات من عام ١٩٩٤ إلى عام ١٩٩٨ إذ تم عزله، والحكم عليه بالسجن ١٢ سنة، وبغرامة مالية، قدرها مليار ليرة سورية.

والسؤال الذي يفرض نفسه، هل اتخذت السلطة هذه الإجراءات محاربة للفساد كما زعمت، أم أن ذلك يدخل في دائرة الصراع على مراكز النفوذ وموضوع الوراثة للحكم؟

وإذا كان الهدف محاربة الفساد، فهل هؤلاء هم المفسدون في الأرض -الحكم- فقط؟

وإلا فأين الذين نهبوا المليارات وهربوها، وتسلطوا على المواطنين، وجمعوا ثروات أسطورية نلمس آثارها في إسبانيا وفرنسا وسويسرا وغيرها.

أم أن للفساد سقفاً لا يجوز تجاوزه؟

وأن ثمة رموزاً لا يجوز مسها أو الاقتراب منها، إلا إذا عارضت في توريث الحكم، وجعل الجمهورية نظاماً ملكياً وراثياً.

ومن هو من رؤوس العلويين مسته إجراءات محاربة الفساد؟

لقد اشتط القلم أو تمادى في بحث أمور لم يئن أوانها حسب التسلسل التاريخي، وذلك لارتباطها بأحداث وجرائم جرت في أواسط وأواخر الستينيات من القرن الماضي إذ كانت تلك السنوات مسرحاً لها.

٥- بعد أسبوع من مغادرة دبابات الأسد للأردن مات جمال عبد الناصر في ٢٨-٩-١٩٧٠، حينذاك كان الأسد مدعوماً من الجيش، أو متمكناً من السيطرة عليه، أما صلاح جديد فكان لا يزال مسيطراً على الجهاز الحزبي، فكانت آخر محاولات صلاح جديد لاستعادة زمام الأمور، إذ دعا إلى انعقاد مؤتمر استثنائي للقيادة القومية في ٣٠-١-١٩٧٠، فطلب المؤتمر من وزير الدفاع حافظ الأسد أن يتوقف عن إجراء أي تنقلات في الجيش طيلة فترة انعقاد المؤتمر، فرفض الأسد هذا الطلب بشكل قاطع، كما رأينا ذلك من قبل، فاتهم أنصار جديد حافظ أسد بقبوله للتسويات الاستسلامية وخضوعه للإمبرياليين، ومكنت سيطرة جديد على مؤتمر الحزب الاستثنائي للقيادة القومية من تجريد حافظ أسد ومصطفى طلاس من مناصبهما القيادية في الجيش والحكومة، إلا أن الأسد كان قد اتخذ احتياطاته

بنشـر قوات حول قاعـة المؤتمـر، لتظل قرارات المـؤتمر مجـرد كلام صدر عن رجـال أدركوا أنهم قد دُحروا، بل إن رئـيس الوزراء يوسف زعين كان يخشى النوم في منزله، فلجأ إلى بيت مدير مكتبه الصحفي أسعد كامل إلياس.

انتهى المؤتمر في ١٢-١١-١٩٧٠ في خضم من الفوضى العارمة، فلم يُضع حافظ أسد أي لحظة، بل أقدم على اعتقال خصومه، وأرسل صلاح جديد، ونور الـدين الأتاسي، إلى سجن المزة، فـهرب إبراهيم ماخـوس إلى الجـزائر، كمـا هرب يوسف زعيّـن إلى مدينـة البوكـمال الحـدودية مع العراق، وهـي مسقط رأسـه قبل أن يعـتقل ويمـكث في السجن عـشرين سنة، ثم يطـلق سراحه بعد أن سـاءت حالته الصـحية لدرجة أن الذين سجنوه حسبوا أن حالته ميؤوس منها، ثم احتل الأسد مكاتب الحزب، والمنظمات الشعبية وسيطر عليها[١].

٦- حاول أنصـار جديد قـبل مطاردتهم واعـتقالـهم السيطـرة على منظمة الصاعقة الفلسطينية في عام ١٩٦٩-١٩٧٠ التي كانت جزءاً من الحزب الحاكم الذي أقامـها ليواجه بها المنظمات الفلـسطينية المناوئة لسـياسة البـعث السـورية، وفي مقـدمتهـا حركة فـتح، فأصـدر الأسد توجـيهاً فـي أيار ١٩٦٩ يشتـرط السمـاح لمجـموعـات محدودة فـقط بالدخول إلى القطر، وعدم حمل السلاح علناً، وعدم إقامة معسكرات التدريب وسـاحات الرمي إلا في منـاطق محددة، وعدم الإغـارة على المناطق المـحتلة انطلاقاً مـن سورية من دون موافقـة خطية من وزارة

---

(١) باتريك سيل: ٢٥٦-٢٦٧ .

الدفاع[1] فكانت هذه الإجراءات أفضل ما قدم الأسد لإسرائيل (في اتفاقات سرية انكشف أمرها فيما بعد كما سوف نرى) لتبقى حدود سورية مع العدو آمنة لم تطلق فيها رصاصة واحدة منذ سيطر الأسد على الحكم سيطرة تامة وحتى اليوم -أربعة عقود منها ثلاثة في عهد الأسد الأب - باستثناء حرب تشرين التحريكية- كما سماها السادات- تلك التي احتلت فيها إسرائيل حوالي ثلاثين قرية سورية لتضمها إلى الأرضي التي احتلتها في حرب حزيران ١٩٦٧ .

أغلق حافظ أسد مكاتب الصاعقة، وأرسل دباباته لتطويق معسكراتها، فأنهى بذلك القوة المسلحة الوحيدة التي كان جديد يمسك بها، كما أنهى من قبل من تبقّى في الجيش والأمن من أنصار جديد، من أمثال أحمد سويداني، وأحمد المير، وعبد الكريم الجندي، ومن لف لفهم من الأتباع والأعوان لجناح جديد -الأتاسي- زعين- ماخوس، لينهي دورهم إلى الأبد، ولسان حاله يقول: هل من مبارز؟ بل إنه سخر من منتقديه المتطرفين، وأفهمهم بطريقة ساخرة أو قاسية أنهم بموت جمال عبد الناصر لم يعد بإمكانهم الاختباء وراءه، وإطلاق تهديداتهم الجوفاء ضد إسرائيل، والتي تجرنا إلى معركة مع الإسرائيليين ليس الجيش مؤهلاً لخوضها، ناهيك عن قدرته لكسبها على حد تعبير حافظ أسد.

٧- سارع الأسد إلى إحكام سيطرته على المؤسسات الحزبية والمدنية، كما أحكم سيطرته من قبل على المؤسسات العسكرية

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٦-٢٥٧ .

والأمنية، فقام بتعيين قيادة قطرية مؤقتة جديدة، كان عددها ١٤ عضواً، لم يلبث أن أضاف إليها عدداً آخر لتبلغ واحداً وعشرين عضواً[١].

في مطلع عام ١٩٧٠ كان أول ما قامت به القيادة القطرية المؤقتة ترشيح ١٧٣ عضواً لمجلس نيابي معين، أطلق عليه اسم: (مجلس الشعب) اختيروا من أطياف سياسية متنوعة، ثم شرع الأسد في إجراء انتخابات حزبية في جميع أنحاء القطر، انبثقت عنها قيادة قطرية، وأخرى قومية، فعزز سيطرته على الحزب الذي أضحى سلماً للتسلق لسلالة جديدة من المنتفعين -حسب تعبير باتريك سيل صديق الأسد-[٢].

شرع الأسد بتدمير ما بقي من جاذبية لعفلق ولأمين الحافظ، بإقامة محاكمة بتهمة الخيانة لعفلق ومئة من أتباعه، وكان معظمهم غائباً، ثم عمد إلى تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية حسب تسمية الأسد لها، والتي تم تدشينها فيما بعد بتاريخ ٧-٣-١٩٧٢، كان يديرها في كل محافظة ويحكمها ثلاثة عناصر، هم: أمين فرع الحزب، والمحافظ، ومدير الأمن السياسي الذي كان في الغالب عقيداً علوياً يؤدي تسلسله القيادي في نهاية المطاف إلى حافظ أسد[٣].

كان الأسد يستشير وينصت، ويقلب الأمور على وجوهها، غير

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٨ - ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق: ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) المرجع السابق: ٢٨٤ .

أنه في النهاية كان وحده صاحب القرار، وبالرغم من التركيبات الجديدة، فإن حكمه كان شخصياً، وكانت دولته قد فرضت على المجتمع من الخارج، ولم تكن نابعة من الداخل أو مشتقة منه حسب ما أورده باتريك سيل[1].

* * *

(١) المرجع السابق: ٢٨٧ .

الفترة الثالثة

الأسد رئيس للجمهورية
من عام ١٩٧١ - وحتى عام ١٩٧٧

أعطى الأسد في البرلمان الذي عينته القيادة القطرية التي عيّنها أسد بعد سيطرته، ٨٧ مقعداً للبعثيين -الموالين له- و١١ مقعداً للاتحاد الاشتراكي الناصري، و٨ مقاعد للشيوعيين، و٧ مقاعد للمستقلين التقدميين، و٤ مقاعد للاشتراكيين العرب -جماعة أكرم الحوراني- و٣ مقاعد للزعماء الدينيين، ومقعدين للناصريين المستقلين[١].

عندما لم يبق أمامه معاند أو معارض بعد انتحار الجندي أو نحره، أجرى اقتراعاً شعبياً لرئاسة الجمهورية كان فيها المرشح الوحيد، فنال في استفتاء نزيه جداً!! في ١٢-٣-١٩٧١ ما يزيد عن ٩٩٪ كأول رئيس جمهورية في تاريخ سورية ينتمي إلى الأقلية العلوية[٢].

---

(١) باتريك سيل: ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق: ٢٧٨ - ٢٧٩ .

أولاً- فتاوى بإسلام الأسد

وكيلا يثير الأسد في نفوس الأكثرية ردود فعل على انتخابه رئيساً للجمهورية باعتباره من أبناء الطائفة العلوية، سعى إلى عقد مؤتمر ديني ضم لفيفاً من رجال الدين العلويين وهم: عبد اللطيف إبراهيم مرهج، وعبد الكريم الخير، وحيدر محمد، ومحمود صالح عمران، وحسين سعود، وسليمان العيسى، وكامل حاتم، وعبد الكريم علي حسين.

١- أصدر هؤلاء الشيوخ العلويون في مطلع تشرين الأول/ أكتوبر بياناً أكدوا فيه على انتمائهم للإسلام، وبإقرارهم بالشهادتين، والتزامهم بأحكام الدين الإسلامي من أصول وفروع، وأن أصول الدين خمسة هي: التوحيد والعدل والقرآن والسنة والإمامة والمعاد، ثم دعم الأسد هذا البيان بفتوى من موسى الصدر، نصت على أن العلويين طائفة من المسلمين الشيعة، وبهذا أكد الأسد على انتمائه للإسلام بفتوى موسى الصدر الذي ذهب إلى ليبيا ولم يعد، وبالبيان الذي أصدره شيوخ الطائفة العلوية، ليصبح الأسد رئيساً للجمهورية السورية عام ١٩٧١[١].

٢- تحدث الأسد عن الحريات -بعد أن نصب نفسه رئيساً للجمهورية السورية- فانخدع الشعب لبرهة من الزمن، واندفع وراءه، أملاً في الانفراج، وإنهاءً لسيطرة الحزب البغيضة والمتسلطة على حياة السوريين، ثم حدث تطور آخر، أو بالأحرى خدعة أخرى،

---

(١) باتريك سيل: ٢٩٧ .

وهي تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية التي ضمت تجمعات سياسية صغيرة من غير البعث، لكنها كانت ممنوعة من النشاط السياسي في صفوف الجيش والطلاب، وبالرغم من ضعفها وقيامها بوظيفة الديكور التي تستر بها النظام على جرائمه، فإن النظام عمل على شق هذه التنظيمات إلى شراذم صغيرة، كالذي حدث للحزب الشيوعي، وللاتحاد الاشتراكي الناصري، وظلت هذه الجبهة لا تعني أكثر من اشتراك وزير يمثل حزبه في الوزارة، مقابل أن تقوم أحزاب الجبهة -العتيدة- بوظيفة شاهد زور على الجرائم التي ارتكبتها السلطة في المجالين السياسي والاجتماعي، لتساهم في سحق جماهير الشعب باسم الجبهة الوطنية التقدمية.

٣- ما هي السيرة الذاتية أو موجز عنها لهذا الضابط الذي بلغ منصب رئيس الجمهورية، وصار الحاكم الفرد المطلق لسورية، وزرع الرعب في قلوب السوريين واللبنانيين والفلسطينيين، وخرج على المحيط العربي كله بتعاونه الوثيق مع الإيرانيين، وفعل بسورية مالم يفعله استعمار أو انتداب أو أي حاكم في العهود الماضية.

ينتسب حافظ أسد إلى الطائفة العلوية من عشيرة لم تكن بشهرة العشائر العلوية القوية، وكان والده يعمل سائساً للخيل في أحد المخافر -خدمة خيل الدرك- وقد ذاق طعم الفقر إذ لم تكن عائلته ميسورة الحال.

كان جده سليمان قويّ البنية، اشتهر بالمصارعة والقدرة على التحمل، فأطلق عليه أهل قريته اسم الوحش، لكن هذا الوحش كان

أحد الموقعين على العريضة التي رفعها بعض أعوان الفرنسيين من العلويين عام ١٩٣٦، يطالبون فيها فرنسا أن تبقى في احتلالها أو انتدابها على سورية، خوفاً من تسلط أهل السنة عليهم كما جاء في المذكرة[١]، وكان عمر حافظ أسد إذ ذاك ست سنوات.

٤ً- يفسر بعض الكتاب الباحثين تحرك العلويين السياسي وتقلبهم في الأحزاب العلمانية (منذ دخل الفرنسيون إلى سورية، مثل القومي السوري والعربي الاشتراكي، ثم البعث العربي الاشتراكي، والحزب الشيوعي، والأحزاب التقليدية كحزب الشعب والحزب الوطني) تفسيرات دينية باطنية، تبشرهم بظهور الأقنوم الإلهي على أسد، كما يشير بذلك شاعرهم:

وسوف يظهر مولانا على أسد من عين شمس له بالأنفس الرَّهبُ

ظهور كشف به يصفو لشيعتنا ولا ينالهم من بعده نصب

لقد ذكر ذلك الأستاذ محمد المجذوب رحمه الله في كتابه: الإسلام في مواجهة الباطنية، ونقله عنه عدد من الباحثين، غير أني لا أميل لهذه التفسيرات في سيرة الأسد السياسية، ولا آخذ بها، بل أرجح عليها ما أقامه الأسد من علاقات سياسية خارجية سرية وثيقة (انكشف الكثير منها، وما زال بعضها مستوراً لم يكشف) ارتبط بها بدول كبرى كما سيأتي تفصيلها في سياقها الزمني بعد فترة ليست بالبعيدة.

---

(١) العلويون النصيريون لأبي موسى الحريري: ٢٢٨ - ٢٣١ .

إن ما أراه صواباً، أو هو إلى الصواب أقرب، ذلك الطرح الجنوني غير العادي لهذا المواطن السوري العلوي كي يصل إلى ما يطمح إليه عن أي الطرق، وبجميع الوسائل، وبكل الأساليب والتقلبات، وركوب الموجات، واللعب على ما يتاح له من الحبال، وعندما وجد أن طريق الجيش والانتساب إليه هو أقرب السبل إلى بلوغ ما يطمح إليه، التحق حافظ أسد بالكلية العسكرية في حمص عام ١٩٥١، وقبل ذلك التحق بحزب البعث وهو طالب في المرحلة الثانوية بعد مغادرته قريته القرداحة، ونزوحه إلى اللاذقية، وأبدى نشاطاً ملحوظاً في الوسط الطلابي، ليقود مجموعة البعثيين من رفقاء دراسته، ويكون مسؤولاً عنهم، ثم انتقل بعد حصوله على الشهادة الثانوية إلى الكلية العسكرية في حمص، ومنها إلى مدرسة الطيران في حلب، مع عدد من طلاب الكلية، بعد نجاحه بالفحص الطبي، والتي سرعان ما تحولت مدرسة الطيران في نفس العام إلى كلية للطيران[١].

٥- بعد أن تخرج في كلية الطيران، وحمل نجمة الملازم على كتفه، ذهب ضمن بعثة إلى إنكلترا للتدريب على الطيران، وفي لندن أقام علاقة مع الإنكليز تحدث عنها عدد من أعضاء حزبه وممن رافقه، إذ لفت انتباههم اختفاؤه لثلاثة أيام بدعوى إجراء فحوص طبية، قبل عودتهم إلى دمشق، وكثيراً ما كنا نسمع من الفريق أمين الحافظ عن هذه العلاقة التي شهد بعض فصولها في إحدى الرحلات التي كان أمين الحافظ أحد أعضائها، وبعضهم تكلم على لسان أحد

---

(١) باتريك سيل: ٦٩ .

زمـلائه عن صـلات للأسد مـع وزير الدفـاع البـريطاني، أو مـع وزير الدولة للشـؤون الخارجية طومسـون كما يزعم أمين الـحافظ، ثم وقع الاختيار على حافظ أسد عـام ١٩٥٥ للذهاب إلى مصر من أجل مزيد من التدريب على الطيران الحربي.

أ- تزوج الـملازم حـافظ أسـد عام ١٩٥٨ مـن آل مخـلوف ذوي المال والجـاه، وكانت أنيسة مخلـوف التي اقترن بها إحـدى خريجات دير راهبات القلب الأقدس الفرنسي، ثم لـم يلبث أن تركها في سورية عندما أوفده سلاح الـطيران إلى الاتحاد السوفياتي عـلى طائرات الميغ ١٥ و١٧ التي كـان السـوفيـات قد زودوا بهـا سوريـة، ثم نقل ضـمن السرب الذي كان واحـداً من ضباطه إلى القاهرة فـي ظل الوحدة التي قامت بين سورية ومصر للتدريب على الطيران الليلي عام ١٩٥٩[١].

عندما بلغ الثلاثين من عمره، بدأ خطواته العملية في تعبئة الطائفة العلـوية للقـيام بـالدور الذي كان يـخطط له، أو يـتطلع إلـيه، فـسلط الأضواء مـن خلال نشاطـه الحزبي والعـسكري على زكـي الأرسوزي لإبرازه قـائداً كبـيراً وفـيلسـوفاً عـبقـرياً يحـجب به عـفلق والحـوراني والبيـطار، ويدفع به إلى مـنزلة القيـادة الفكرية لحـزب البعث الـعربي الاشتراكي، بـدعم من اللجنة العسـكرية السرية التي ضـمت عدداً من أبناء الأقليات العلوية والإسماعيلية والدرزية.

بعـد انفصـام عرى الوحدة، دخـل حافظ الأسـد السجن، لأربـعة

---

(١) باتريك سيل: ١٠٣ .

وأربعين يوماً في القاهرة، ثم عاد إلى دمشق، ليقوم بحركة نشطة ما بين القرداحة ودمشق، وما بين مقر قيادة القوة الجوية والتنظيمات الحزبية، فصرفته حكومة الانفصال ضمن ثلاثة وستين ضابطاً من الجيش إلى وظائف أخرى، ثم شارك بانقلاب جاسم علوان الناصري، لكن الأسد سرعان ما خلع ثيابه العسكرية، وتخلى عن سلاحه، ثم هرب إلى لبنان الذي أعاده إلى سورية، فمكث في السجن بضعة أيام، ليخرج سليماً معافى من هذه المغامرة،

ثانياً - اختراق الجيش وتمزيقه

في اليوم الأول من انقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣، كان الأسد واحداً من قائمة تضم ثلاثين ضابطاً، أعيدوا إلى الجيش، ومعه جميع أعضاء اللجنة العسكرية السرية، فنال رتبة المقدم، إذ رفع من نقيب متجاوزاً رتبة الرائد، وعين آمراً لقاعدة الضمير الجوية أهم وأخطر قواعد سلاح الطيران في سورية، وسرعان ما انتخب عضواً في القيادة القطرية للحزب الحاكم، لتضاف إليه رتبة عقيد في أيلول ١٩٦٣، وهكذا قفز خلال ستة أشهر فقط -من آذار إلى أيلول- من نقيب إلى مقدم إلى عقيد، ليحقق قفزات أخرى تسرع به إلى قيادة سورية، وكأنه يطير إليها بإحدى طائرات الميغ التي كان يتدرب عليها.

لم يأت شهر كانون الأول ١٩٦٤ أي بعد ٢٢ شهراً من انقلاب ٨ آذار حتى رفع حافظ أسد إلى رتبة لواء، وعين آمراً للسلاح الجوي السوري، فاختصر ربع قرن من الزمن كان عليه أن يقضيها لينتقل من نقيب إلى لواء، دون أن يقوم بأي عمل استثنائي، عسكري أو سياسي

يقدمه لوطنه!

٦- وعندما بدأ الصراع بين الرؤوس، وقف الأسد على مسافة واحدة من الجميع، وحينما احتدم الصراع بين عمران وجديد، انحاز إلى جديد، وتخلص من منافس كبير هو اللواء محمد عمران، بإبعاده عن الجيش، ثم القيام بتصفيته وقتله في وقت لاحق، وعندما احتدم الصراع بين صلاح جديد وأمين الحافظ، ترك الأسد لهما الساحة يتنازعان فيها، ويتشابكان كالذي يحصل بين الديكة في صراعها، وذهب إلى لندن، وهو قائد الطيران السوري، في رحلة استجمام أو علاج أو ترتيب المستقبل السياسي لسورية في عاصمة الضباب، وكان بصحبته ناجي جميل أحد كبار الطيارين السوريين، وحسين ملحم آمر الشرطة العسكرية، والطبيب يوسف الصايغ -الذي اغتيل فيما بعد، متهماً بأنه كان ضابط الاتصال بين الأسد والأمريكان- واتصل الأسد خلال هذه الرحلة بوزير الدولة للشؤون الخارجية في بريطانيا: طومسون، دون أن يعرف أي تفسير لاتصال رئيس الطيران السوري بوزير الخارجية؟

لقد شاعت أنباء هذا الاتصال، وبدأ الهمس بين حزبيين كبار متسائلين عن دوافع هذه الاتصالات وهذا ما حمل باتريك سيل على وصف هذه الزيارة بالغامضة، والمليئة بالأسرار التي لم يحن أوان الكشف عنها، لأن الحكومة البريطانية لا تفرج عن الوثائق السرية إلا بعد مضي ثلاثين سنة باستثناء بعضها ذات الخطورة، وأرجح أن هذه من ضمنها، بدليل استمرار التكتم عليها رغم مضي حوالي ٤٠ سنة،

وما زالت في خزائن الأسرار.

عاد الأسد من هذه الرحلة الغامضة إلى دمشق لتكون وزارة الدفاع بانتظاره.

٢- استلم وزارة الدفاع، ليقفز منها إلى سدة الرئاسة بعد فترة لم تكن بعيدة، وليحكم سورية حكماً استبدادياً قمعياً (شغل شعبها عن الصراع مع إسرائيل، وعن النهوض بالوطن، وعن الاستمرار بالتنمية التي بدأها بعد الاستقلال) بدعم بريطاني أمريكي إسرائيلي، جلب للعدو الراحة والأمن والاستقرار والازدهار والطمأنينة، ومكنه من بناء قوات يواجه بها العالم العربي، فكانت إسرائيل سعيدة، ومطمئنة لجارتها سورية بعد أن وقعت فريسة بيد هذا الطاغية حافظ أسد، وسوف يأتي ذلك في حينه.

أما الجرائم التي ارتكبها هذا النظام ما بين ١٩٦٦ -١٩٧٠ من انقلابات وصراعات، وسفك للدماء، فحدث عنها ولا حرج، فالأسد يتهم (حاطوم) تارة و(عمران) تارة، و(صلاح جديد) تارة، وأخطرها حدث وهو بعيد في لندن، وعندما عاد تظاهر بعدم مشاركته، وأنه لم يوافق على الأساليب التي استخدمت في حسم الصراع، بل ذهب إلى السجون، وأمكنة الإقامة الجبرية ليكسب ود الذين أبعدوا عن السلطة، وزج بهم في المعتقلات.

إن أخطر أشكال الباطنية هي التي تمتزج فيها الباطنية الدينية بالباطنية السياسية، فتأتي بأخطر النتائج والكوارث، وتنتهي بالبلاد

والعباد إلى الخراب والدمار والمصائب الكبرى في حياة الشعوب، واقتناعي كبير كما درست واطلعت أن الأسد نموذج لهذه الباطنية المزدوجة التي كانت سوريا ضحيتها ونكبت بها.

ثالثاً - التآمر على الشعب والأرض

قبل الخروج من هذه الفترة المظلمة ١٩٦٦ -١٩٧١، والتي تعتبر لطخة عار في تاريخ سورية الحديث، أو بالأصح بتاريخ هذه السلطة التي سرقت الحكم من يد صاحبه الحقيقي -وهو شعب سورية- نقف قليلاً ونتساءل: لماذا سلمت الجولان أمنع جبهات القتال العربية من دون قتال؟

ولماذا أمر وزير الدفاع الطائفي الجيش بالانسحاب الكيفي؟

ولماذا لم توزع الذخيرة على الوحدات إلا قبيل نشوب الحرب بقليل؟

ولماذا سحبت وزارة الدفاع (طعام الطوارئ) الجاف من العساكر قبل بدء المعركة بدعوى استبدال التموين دون أن يستبدل؟ ولماذا سلمت أسلحة بكاملها للعدو دون أن تستخدم، كالذي جرى لسلاح الآليات البرمائية وقاذفات اللهب؟ ولماذا قطعت الكهرباء عن خطوط الدفاع وعن الألغام، ليفاجأ بذلك المدافعون؟ ولماذا وقف الجيش السوري أربعة أيام متفرجاً على المصريين، والعدو يدمر طائراتهم ومطاراتهم ودباباتهم ومدافعهم ومشاتهم دون مشاركتهم في القتال، وفتح الجبهة السورية الشمالية على العدو، ليخففوا من حمم الحرب وهي تنصب على رؤوسهم؟

ولماذا وألف لماذا عن هذه الكارثة أو النكبة التي حلت بالوطن المغدور؟

١- ولرب قائل يقول: هل من المعقول أن يخون الإنسان وطنه وشعبه؟ ويسجل على نفسه وأمته هزيمة مخزية نكراء؟

إذا عدنا بالذاكرة قليلاً إلى الوراء، لعلمنا أن حافظ أسد، بطموحه غير المحدود، لتحقيق أهدافه المعلنة والمستبطنة، وهذه الأخيرة مهمة جداً، ما كان له أن يبلغ ما يريد دون مخادعة الداخل، والاعتماد على قوى نافذة في الخارج، ففي الداخل خادع البعثيين والقوميين والناصريين واليساريين وغيرهم، وركب جميع الموجات حتى لم يبق من ينافسه على طموحه وتحقيق أغراضه، وفي الخارج اعتمد على صلاته بالإنكليز والأمريكان وإسرائيل، وكانت هذه الصلات سرية لا يعرفها أي من رفاقه أو من المراقبين والباحثين، بل كانت تستخلص من سياسة حافظ أسد وسلوكياته ومراوغته وتكتمه، ويستنتجها المحللون من تصرفاته وأساليبه، فيتساءلون: لماذا قتل من الفلسطينيين أكثر من عشرة أضعاف ما قتله الصهاينة بدعوى أنه يريد أن يُعَقّلهم؟

ولماذا راهن عليهم في أول صعوده، ثم أصر على إيقافهم وإلغاء دورهم بدعوى أن المعركة مع العدو تتطلب جيوشاً نظامية وليس ميليشيات ومنظمات تحرجنا، وتجرنا إلى حرب لسنا لها مستعدين!

ولماذا امتد شهر العسل بين هذه السلطة الباغية المتآمرة وبين العدو الصهيوني (المتربص بسوريا المعروفة عند العرب جميعاً وعند

الغرب كذلك أنها رأس الحربة في مواجهة العدو) لأكثر من أربعة عقود، بدعوى استكمال التوازن الستراتيجي؟ باستثناء الصدام مع العدو عام ١٩٧٣ الذي خسرت فيه سوريا ٢٩ قرية، ووصل فيه العدو إلى سفوح وقمم جبل الشيخ فصارت دمشق بمتناول العين أو أعين الأعداء المجردة ومرمى مدفعيتهم الموجهة بفوهاتها إلى عاصمة الأمويين التي يحمل لها الطائفيون حقداً قديماً يرجع بأزمنة سحيقة إلى عصور الإسلام الزاهية.

لماذا سرح (بطل الجولان) آلاف الضباط من ذوي الخبرة في القتال وفنون الحرب؟

كل هذا وأمثاله كان لدى الدارسين والباحثين مبعث قلق وتساؤل دون أن يكون لديهم أدلة ساطعة ووثائق قاطعة على ما يبيته هذا الدخيل، للوطن وأهله، حتى بلغ الأسد في سياساته مع السوريين أن حطم معنوياتهم وأذاقهم طعم الجوع والقمع والاستبداد، ومزق وحدة الشعب الوطنية التي مكنتهم من قبل في التغلب على انتداب دولة كبيرة مثل فرنسا، وهم شعب صغير العدد، انتزع حريته واستقلاله غير المشروط بتلك الوحدة الوطنية العتيدة، والتي عمل الأسد على تحطيمها وتمزيقها شر ممزق بالنعرات الطائفية والعنصرية والجهوية وأمثالها.

لم يعد الأسد يخشى من كشف المستور، وفضح الصفقات التي رهن بها الوطن (والتي كانت وراء سياساته التي بث فيها الرعب في قلوب المواطنين) لدى الدول الاستعمارية والأطماع الإمبريالية، وأقدم

على بيع أفضل بقعة استراتيجية وأغناها في سوريا.

فما السر في هذا التفريط بالوطن العزيز على أهله؟

إن حكم الأقلية اعتمد على الدعم الخارجي كما رأينا فتغاضى الغرب عن كل جرائمه ضد الإنسانية التي اقترفتها يده الآثمة ضد المواطنين، وقام بتغطية النظام سياسياً وإعلامياً، فسكتت أمريكا وأوروبا ومن يدور في فلكهما من العرب على حالة الطوارئ التي امتدت أكثر من أربعة عقود، بالرغم من أن الغرب لا يسكت على أي حكم عرفي يعلن في بلد أوروبي أو آسيوي إلا أياماً، وسكتوا على جميع الجرائم التي ارتكبها، وأباد فيها عشرات الألوف، وهدم بها قرى وأحياء وأجزاء من مدن كبيرة في سوريا ولبنان، مثل حماة وطرابلس.

إن هذا الحكم القمعي بحاجة إلى استمرار الدعم من دول الغرب ومن العدو الصهيوني، وبالوقت نفسه فإسرائيل قلقة من جبهة الجولان التي حصنتها الحكومات الوطنية السورية السابقة على انقلاب ٨ آذار، إسرائيل تخشى من مجيء حكومة وطنية جادة في التصدي للعدو، فتكون الجولان المشرفة على شمالي فلسطين خطراً مرعباً للعدو، كما حدث في أيام الانفصال يوم رصد الجيش السوري تحركات العدو في شمالي فلسطين، وفي الأرض منزوعة السلاح بين الجانبين، فكمن للعدو بخطة محكمة قضت فيها على مئات الجنود الصهاينة وكبدتهم أكبر الخسائر في معركة تل النيرب التي كانت وساماً للجيش وخزياً للعدو، أو رداً على تحرشاته المستمرة بعد أن كان

الجيش السوري في ظل الوحدة ممنوعاً من أي رد على عدوان العدو[1] الأمر الذي أقلق الأمريكان والإسرائيليين فعجلوا بالقضاء على فترة الانفصال في تفصيلات وردت في المجلد الثاني من هذه الصفحات، وكي تضمن إسرائيل بقاء شهر العسل الطويل مع الأقلية المتسلطة على حكم سورية، واستمرار هذا التعايش الدائم بين الجانبين في شمالي فلسطين، وتطمئن على مصيرها مما تشكله هضبة الجولان من خطر عليها، وخشية أن تقع الهضبة في أيدي حكومة وطنية، طالبوا سراً بهضبة الجولان والاعتراف بإسرائيل نظير الدعم المستمر لنظام حكم الأقلية في دمشق.

٢- كثيرون لا يصدقون حدوث هذا التفريط بالوطن وأهله، ومنهم شخصيات وهيئات إسلامية، كانت مخدوعة بالحرب الإعلامية التي كانت السلطة السورية تشنها على العدو دون النظر بعمق إلى سياسات النظام حيال العدو الصهيوني حتى وقعت أحداث سياسية كبيرة، كشفت ما كان مستوراً من دعم إسرائيل لنظام الأقلية في سورية.

كانت أمريكا تتغاضى عن جرائم النظام السوري، وتسكت عن حالة الطوارئ الدائمة في سوريا، وتطلق يده في لبنان، لمطاردة المقاومة الفلسطينية والجبهة الوطنية، وفي كل فترة تستنكر أمريكا تصرفات النظام من قبيل ذر الرماد في العيون، وكانت سلطة دمشق

---

(١) من أراد المزيد من التفصيل فليقرأ مذكرات عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش السوري في عهد الانفصال.

تدرك هذا وترد بتصريحات عنترية ضد أمريكا وإسرائيل إدراكاً منها لموقف أمريكا الحقيقي المتفق سراً عليه.

حدث تبدل في السياسة الأمريكية بعد أزمتها في العراق وأضحت بحاجة إلى أوروبا لتقف بجانبها، لكن أوروبا بقيادة فرنسا كانت شامتة بأمريكا إذ قال شيراك: لقد فتحت أمريكا على نفسها أبواب جهنم.

قادت فرنسا حملة ضد النظام السوري بعد اغتيال الحريري ومن سبقه ومن لحق به في لبنان، وطالبت بإسقاط النظام أو محاكمته، واستصدرت قراراً من مجلس الأمن بسحب الجيش السوري من لبنان، واضطرت أمريكا لموافقة فرنسا وأوروبا على ذلك، أملاً في دعم أوروبا لأمريكا في أزمتها بالعراق، وصرحت بوجوب تنفيذ قرار مجلس الأمن بسحب جيشها من لبنان، فظنت سوريا أن التصريح الأمريكي لا يعدو كونه مناورة كما كان شأن التصريحات الأمريكية التي سبقته، فصرح عماد فوزي الشعيبي أن سوريا لا يستغنى عنها في لبنان وإن أي قوة أخرى لا تستطيع ضبط الأمن اللبناني، ولاسيما في الجنوب، وصرح فاروق الشرع: أن سوريا ستنسحب من لبنان بعد عامين، فأصرت أمريكا تضامناً مع فرنسا على وجوب الانسحاب، فلما أدركت سوريا أن موقف أمريكا جاد هذه المرة، وليس تصريحها للاستهلاك شأن ما سبقه من تصريحات، حزمت أمرها، وأصدرت أوامر للجيش بالانسحاب قبل التاريخ المحدد، وصار يسمع تصريحات الأوروبيين والأمريكان عن محاكمة المسؤولين في النظام

السوري، وعن تغيير في دمشق، وهنا اضطرت إسرائيل لتكشف عن حقيقة موقفها من نظام حافظ أسد، ومساندتها له، وحمايته من أي خطر يتهدده، ومارست حكومة العدو، وعبر اللوبي الصهيوني في أمريكا، ضغطاً شديداً وحازماً ومعلناً محذرة من أي تفكير في تغيير النظام الذي هو -كما قال العدو- أفضل نظام لإسرائيل، وقال عبر سياسييها ووسائل إعلامها: إن البديل سيكون الفوضى أو وصول متشددين -تعني الإسلاميين- إلى السلطة، فاضطرت أمريكا للتراجع عن سياستها الجديدة، واستبدلت بتصريحاتها موقفاً جديداً قالت فيه: إن أمريكا لا ترمي إلى تغيير النظام السوري، بل تهدف إلى تغيير سلوكه!! وهكذا لم يبق أمام الحائرين في السياسة السورية والمتشككين ما يقولونه في تفسير أو تبرير ما يدافعون به عن دولة الممانعة والصمود، بعد انكشاف الحقيقة لكل ذي عينين، بل لكل ذي أذنين إذا أراد ألا يبقى عقله معطلاً ومشلولاً.

دأب الإعلام الإسرائيلي منذ حوالي ثلاث سنوات يحذر الأمريكان بأي مس في النظام السوري يرمي إلى تغييره، ودأبت الصحافة الإسرائيلية تدافع عن النظام السوري ومبررات استمراره، ثم جاء دور القادة السياسيين الإسرائيليين في الدفاع المعلن عن النظام، وتذكير آل الأسد بما قدموه لهم من حماية من أي عدوان عليهم، فرئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت قال لماهر الأسد عبر مبعوثه ألون لنيل: بأن إسرائيل أوقفت عدة عمليات كان الأمريكان سينفذونها من العراق ضد مواقع سيادية في سورية، مثل قصر المهاجرين في دمشق، وقصر

الرئاسة في اللاذقية، ورئاسة الأركان السورية، ومقر الفرقة الرابعة التي يقودها ماهر الأسد، هذا ما نشر في شهر أيار عام ٢٠٠٨[١].
وقبل ذلك بشهر أي في نيسان صرح أولمرت رئيس وزراء إسرائيل: أن إسرائيل لا تزال ترفض إسقاط النظام السوري وأنها لا تزال تتمسك بالفيتو الذي وضعته على الإدارة الأمريكية في شأن أي عمل عسكري من شأنه إسقاط النظام الحالي في سورية[٢].

إن هذه الأحداث والمواقف الإسرائيلية تجاه نظام الأقلية في دمشق، (وفي دعم إسرائيل لسورية، واتفاقهم معها منذ فترة طويلة، لم يعد سراً كما كان منذ حوالي أربعين سنة) يفسر كثيراً من السياسات التي ظل المراقبون في حيرة من أمرها، ومنها حرب حزيران عام ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ومنع أي عمل للمقاومة السورية والفلسطينية ضد إسرائيل، وسحق المنظمات الفلسطينية في لبنان... وغير ذلك كي يدرك كل سوري أن بلده يباع في سوق النخاسة لصالح تمكين الأقليات الطائفية أو من يقودها ويتحدث باسمها ويورطها في صراعات مدمرة مع الأكثرية ومع أتباع المذاهب الأخرى مما سيأتي مفصلاً بوثائقه ومراجعه، إذ وقع خارج هذه الفترة السادسة التي حكم فيها حافظ أسد من عام ١٩٧١ وحتى ٢٠٠٠ عام وفاته، وكانت أحداثه في المرحلة السابقة التي سلمت فيه سوريا لوريثه بشار أسد، كرئيس للجمهورية السورية في شهر حزيران عام ٢٠٠٠ لتتوارثها عائلة

(١) جريدة الشراع ٥/٥/٢٠٠٨ .

(٢) الرأي الكويتية في ٢٣-٤-٢٠٠٨ .

حافظ أسد في نظام جديد في عالم السياسة هو الجمهورية الوراثية في بلدنا الجريح.

٣- رأينا وقرأنا لسامي الجندي ما طلبه منه وزير خارجية حافظ أسد إبراهيم ماخوس للاتصال بمندوب إسرائيل وتساؤله عن سبب اختياره لهذه المهمة لإسكاته عن أشياء كثيرة كان فيها شاهداً، وأن اتصالات جرت حسب اقتناع الجندي عن طريق أكثر من دولة ثالثة، وفي أكثر من عاصمة كما نقل عنه باتريك سيل في كتابه عن الأسد ص٢٢٩-٢٣٠ .

وضمن النقاط المهمة التي عرض لها الجندي في كتابه (كسرة خبز) عن تسليم الجولان والإعلان عن سقوطها قبل وصول العدو إليها، قال لي ماخوس: أنها -أي الإعلان عن سقوط القنيطرة- كانت خطة ماهرة لإرعاب العالم من أجل إنقاذ دمشق!!

يقول الجندي: قلت لماخوس: وما الثمن الذي ندفعه لاستعادة الجولان؟

قال: الاعتراف بإسرائيل.

وهذا هو بيت القصيد، وهذا ما مررنا به سريعاً من قبل.

يقول صاحب كتاب (سقوط الجولان): تتحدث أوساط السوريين عن أمر لا يقل خطورة عن هذا الذي صرح به سامي الجندي. يقول الملازم الأول عضو الوفد السوري إلى لجنة الهدنة المشتركة: لقد استدعيت إلى مكتب رئيس الوزراء الدكتور يوسف زعين بتاريخ ٩

حزيران ١٩٦٧ في الساعة العاشرة ليلاً، فوجدت عدداً من أفراد لجنة الرقابة الدولية في مكتب زعين، برفقة السفير -....- في دمشق، وأرجح أنه الأمريكي في سوريا، فقام الضابط الملازم الأول بالترجمة بين رئيس الوزراء ومخاطبيه، قال السفير: إذا لم تسحب القيادة السورية قواتها من الجولان فإن القوات الإسرائيلية لن ترضى هدفاً يتوقف زحفها عنده إلا دمشق.

فسأله زعين: وما هي الحدود التي تريد إسرائيل الوقوف عندها؟

قال السفير: هل عندكم خريطة؟ فأبرز الملازم الأول خريطة... وضع السفير عليها عدداً من النقاط التي يجب أن يمر بها خط الحدود الجديد، وتتوقف عنده القوات الإسرائيلية، إذا قامت السلطات البعثية بسحب قواتها خارجاً عنه.

يقول الملازم الأول المترجم: وافق الدكتور زعين، ووعد السفير بتحقيق ما طلب، وغادر الجميع مكتب رئاسة الوزراء على هذا الأمل، وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي صدر بلاغ سقوط القنيطرة بالتفصيل الذي مر معنا وقرأناه. ثم أُدخل الضابط المترجم سجن المزة بعد تسريحه من الجيش، لأنه باح بالسر، وشرع يتحدث به أمام عسكريين[1].

هل أحرج هذا المصاب -هزيمة حرب الجولان- يوسف زعين، وحافظ أسد، وإبراهيم ماخوس، ونور الدين الأتاسي، ومن لف

---

(١) سقوط الجولان: ٣٠٦-٣٠٧.

لفهم؟

كلا، بل رفع هؤلاء التقدميون الثوريون رؤوسهم عالية كمنتصرين على العدو، فقد قال إبراهيم ماخوس كبير الباطنيين في هذه الزمرة في أحد الاجتماعات الحزبية: أيها الرفاق: لا تنسوا أن الهدف الأول من الهجوم الإسرائيلي هو إسقاط النظام أو الحكم التقدمي في سورية، وكل من يطالب بتبديل النظام وتغيير حزب البعث هو عميل لإسرائيل.

وقال أحد أبطال حرب الجولان أو بالأصح تسليم الجولان قائد الجيش البعثي:

- أنا، كمسؤول لم أستشر في البلاغ رقم ٦٦ الذي أعلن عن سقوط القنيطرة، وكمواطن سمعته من الإذاعة كغيري[١].

ومع ذلك شهد أحمد سويداني وإبراهيم ماخوس وغيرهما: أن لا أهمية لسقوط جزء من الأرض، ولو وصل العدو إلى دمشق وحمص وحلب، طالما أن التقدميين استمروا بالسلطة، فالأرض يمكن تعويضها، أما الحكم التقدمي، إذا سقط فلا يمكن تعويضه، ولا أهمية لمدينة القنيطرة عاصمة الجولان التي نهبها العدو، وأفرغ منها ومن القرى المحيطة بها ١٢٠ ألفاً من سكانها، طالما أن الأقلية الطائفية استمرت في حكم سوريا[١].

---

(١) سقوط الجولان: ٣٠٨ .

٤- ظهر الخامس من حزيران اتصل سفير دولة كبرى في دمشق -...- يرجح أنه السفير السوفياتي بمسؤول سوري كبير، ودعاه إلى منزله لأمر عاجل وهام، فتم الاجتماع في الحال، نقل السفير للمسؤول السوري نص برقية عاجلة تلقاها من حكومته تؤكد أن سلاح الجو الإسرائيلي قد سحق سلاح الجو المصري، وقضى عليه قضاءً مبرماً، وأن المعركة بين العرب وإسرائيل قد اتضحت نتائجها منذ الساعة التاسعة من ذلك الصباح، وأن كل مقاومة أرضية ستلحق خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات لامبرر لها، وأن إسرائيل لا تنوي مهاجمة النظام السوري بعد أن يتم لها تأديب جمال عبد الناصر. وبانتهاء الزعيم المصري تتفتح الآفاق العربية أمام الثورية البعثية من المحيط إلى الخليج، وإن إسرائيل -من قبل ومن بعد- هي بلد اشتراكي يعطف على التجربة البعثية الاشتراكية، وخاصة البعثية العلوية، ويمكنها أن تتعايش وتتفاعل معها لمصلحة الكادحين في البلدين، وقد يكون ذلك منطلقاً نحو تسوية نهائية على أسس الأخوة الاشتراكية -كان حزب العمل إذ ذاك يحكم إسرائيل- ولذا فمن مصلحة سورية ومصلحة الحزب ومكاسب الثورة أن تكتفي بمناوشات بسيطة، لتكفل لنفسها السلامة.. أو التزاماً بما سبق الاتفاق عليه سراً.

عاد المسؤول السوري ليبلغ السفير استجابة الحزب والحكومة والقيادة لمضمون البرقية العاجلة، وهكذا كان (وهذا هو سر امتناع

---

(١) باتريك سيل: ٢٣١-٢٣٢ .

السلطة السورية عن دخول المعركة جدياً لأربعة أيام، والاكتفاء بمناوشات حدودية كما رأينا من قبل) غير أن إسرائيل التي ضمنت بقاء حكم الأقلية واستمراره في سورية، لا تسمح بأن يكون هذا الجار قوياً، بل ينبغي أن يكون حكماً هزيلاً ضعيفاً لا يقوى على مجابهة أو مواجهة، وهذا لا يكون إلا بقمع شعبه واضطهاد مواطنيه العزل، وحسبه البقاء في السلطة، وأن يمسك بتلابيب الحكم، لهذا لم تكد إسرائيل تنتهي من عملياتها العسكرية في الجبهتين الجنوبية والشرقية، وتفرغ من سحق القوات المصرية، تدميراً وقتلاً وأسراً، وتعسكر على ضفاف القنال الشرقية (لأن بطل القومية العربية جمال عبد الناصر قال: ظننا أن العدو سيأتينا من الشرق، فإذا به يأتي من الغرب!!) وكذلك من الجبهة الشرقية بعد ضرب الطيران الأردني والقضاء عليه، حتى انتقلت بثقلها إلى الجبهة الشمالية مع سورية، وسرعان ما سقط خط ماجينو السوري دون قتال كما رأينا من قبل، وانسحبت فلول الجيش السوري المغوار إلى دمشق لحماية مكاسب الثورة من أعدائها الداخليين، وتثبيت الحكم التقدمي الثوري الاشتراكي.

سحقت إسرائيل سلاح الطيران السوري الذي لم يكن مستعداً للمعركة، ولا مؤهلاً لها، لأن معظم الطيارين السوريين الأكفياء الذين تدربوا في أمريكا وإنكلترا والاتحاد السوفياتي، ومهروا في القتال الليلي، وأثبتوا كفاءات عالية في المناورات القتالية الجوية، قد سُرِّحوا من الجيش وشُرِّدوا، فلم تجد إسرائيل من يحدّ من قدرتها على تدمير

الطيران السوري، وإلحاق الهزيمة بالجيش واحتلال الأرض التي لم تعد تجد من يحميها ويدافع عنها[1].

كانت وسائل الإعلام الغربية تدرك الكثير من بواطن الأمور قبل أن يحيط بها المواطنون السوريون، وأكتفي بما قالته مجلة التايم الأمريكية ذات الشهرة الواسعة في ٢٣-٦-١٩٦٧: أنقذ الهجوم الإسرائيلي على سورية خلال حرب حزيران، النظام البعثي المتطرف فيها.

٥- مذ ذاك اليوم الذي فاحت فيه رائحة الخيانة والتفريط والغدر بالوطن والشعب، ساد هدوء عجيب على الجبهة، وحرّم النظام على السوريين والفلسطينيين أي نشاط يعكر العلاقة ما بين النظام الأسدي وإسرائيل، وأغلقت الحدود الجديدة في وجه التنظيمات الفدائية، بما فيها الصاعقة التي أنشأها النظام في سورية كجزء من كيانه وقواته وحزبه، ومن يعكر هذا الهدوء، ويتحدث عن أرض الجولان أو أي عمل فدائي فيها، يلقى مصيره الأسود، ويزج به في غياهب السجون لعشرٍ أو عشرين أو ثلاثين سنة كما حدث لعدد من أبناء فلسطين المقاومين والفدائيين، فكان في ذلك شهر عسل طويل الأمد بين الحكم الطائفي في دمشق، وبين العدو الذي احتل فلسطين كلها، وابتلع الجولان، وصار قريباً من دمشق، واعتلى جبل الشيخ المطل من بعيد على عاصمة الأمويين، ليستمر شهر العسل -المسموم- أكثر من أربعة عقود، ورجال السلطة المتسترون بالبعث والجبهة التقدمية

(١) سقوط الجولان: ٣١٢ .

زوراً، سادرون في غيهم، يزدادون كل يوم عنفاً وقمعاً للمواطن السوري، وينهبون ثروته، ويستبيحون قيمه وحرمته، وهم في الوقت ذاته، يحظون بالحماية الإسرائيلية التي ترفع الفيتو في وجه أي دولة تفكر في النيل من النظام السوري القمعي الذي يحكم في ظل قانون عرفي دائم، ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي أمسى معروفاً ومعلناً في السنوات الخمس الأخيرة للخاصة والعامة على حد سواء.



الفترة الرابعة

الحكم الاستبدادي المطلق
من عام ١٩٧١ وحتى ١٩٧٧

منذ تمت السيطرة الكاملة لحافظ أسد على مقدرات سورية وعلى كل مرافقها، وبعد أن أقصى جميع المنافسين والمعارضين، شرع بصياغة المجتمع السوري صياغة جديدة مغايرة ومنافية لثوابت الأمة في العقيدة والفكر والتوجهات الفطرية، ودفع الطاغية جماهير الشعب باتجاه الفساد والانحراف والابتعاد عن الإسلام في المجالات التربوية والتعليمية والأخلاقية والإعلامية، مسخراً كل أجهزة الدولة والحزب في تكريس هذه السياسة المعادية والمناوئة لمعتقدات الشعب وقيمه ومثله الراسخة:

أولاً- برنامج الأسد في الحكم

بدأ الأسد في طرح دستور جديد، وقوانين جديدة، وتنظيمات إدارية، ومؤسسات اقتصادية. . .إلخ في ظل أحكام الطوارئ، إذ لا يستطيع مواطن أن يرفض أو يعترض أو ينتقد أي شيء صادر عن الديكتاتور، وإلا واجه السجن والتعذيب والموت.

١- في منتصف شهر نيسان ١٩٧١ أصدر الأسد دستوراً علمانياً يعطي لحافظ أسد صلاحيات واسعة جداً وغير مسبوقة في تاريخ الحقوق الدستورية، في أي دستور سوري سابق وحتى في عهد الانتداب، فالرئيس يستطيع أن يصدر مراسيم تشريعية في غياب البرلمان، وحتى في حال انعقاده، والبعث في هذا الدستور -الذي فرضه الديكتاتور- النشاز هو قائد الدولة والمجتمع حسبما جاء في المادة الثامنة منه، وهذا يعني أن المواطنين جميعاً خارج حزب السلطة، هم مواطنون من الدرجة الثانية.

ثارت ثائرة الجماهير السورية، وعلى رأسهم العلماء والإخوان المسلمون، والجمعيات الإسلامية، والمنظمات النقابية والعمالية والطلابية معارضين لهذا الدستور الاستبدادي الذي يكرس الطائفية والدكتاتورية وطبائع الاستبداد، تحرك هؤلاء جميعاً بما يشبه الانتفاضة في ٣١-١-١٩٧٣، قابلتها السلطة الغاشمة بحملة ظالمة، وقمع وحشي أدى إلى سقوط قتلى وجرحى، وإلى اعتقال أعداد كبيرة من القادة والناشطين من الإخوان، وزجت بهم في غياهب المعتقلات، وكان منهم الشيخ سعيد حوّى رحمه الله من حماة، والشيخ محمد علي مشعل من حمص، والأستاذ فاروق بطل، والأستاذ علي البيانوني من حلب، والدكتور حسن هويدي من دير الزور، وغيرهم.

مكث هؤلاء الإخوان في السجن سنوات متباينة، فمنهم من خرج بعد فترة وجيزة كالدكتور حسن هويدي، ومنهم من مكث في السجن

خمس سنين مثل الشيخ سعيد حوّى وسنتين مثل الشيخ محمد علي مشعل، وعند خروج الشيخ سعيد من معتقله عام ١٩٧٨ كان الإخوان قد كلفوني بمهمة المراقب العام، فدخلتُ سورية في حين غفلة من بغاتها حذراً مترقباً، والتقيت مع الشيخ سعيد في مساء اليوم الذي دخلت فيه لساعتين أو يزيد، ثم التقيته في اليوم التالي من الصباح إلى ما بعد العصر، لأسمع منه كل تفاصيل الاعتقال والتحقيق، ومباحثات رجال السلطة والأمن مع المعتقلين، والضغوط التي مورست عليهم، لقراءة أفكار رجال السلطة بعمق وفهم شامل.

٢- استمر الأسد في تضليل السوريين بانتخابات زائفة، واستفتاءات مزورة، وحريات غائبة ومصادرة، ومن ذلك ما أجراه من انتخابات الإدارة المحلية، ليشغل المواطنين بقضايا جزئية وأمور صغيرة يعاونون فيها المحافظ في صلاحياته التنفيذية، كي يصرفهم عن القضايا الكبرى ذات الصلة بمصير الوطن ومستقبله وسياساته الخارجية والأمنية والاقتصادية.

أعطى المواطنين هامشاً من الحرية في الترشيح لانتخابات أعضاء الإدارات المحلية في المدن الكبيرة، فإذا به يفاجأ بانصراف الناخبين عن مرشحي الحزب الممقوت لدى المواطنين السوريين الذين عبروا عن ذلك في أول فرصة واتتهم في انتخابات الإدارة المحلية.

وبالرغم من أن الإخوان المسلمين قد اتخذوا قراراً بعدم المشاركة في انتخابات الإدارية المحلية، بل قاطعوها، اقتناعاً منهم بأنها مهزلة وتضليل، وشغل للمواطنين بأمور صغيرة وثانوية، وصرفهم عن قضايا

التخطيط والتشريع والقوانين والدستور التي هي محتكرة لدى السلطة والحزب والعسكر ورجال الأمن، دون جماهير الشعب التي تعامل كما يعامل القاصرون الموضوعون تحت الوصاية.

إن القضايا التنفيذية محصورة بأمين فرع الحزب بالمحافظة، وبالمحافظ البعثي، وضابط للأمن برتبة عقيد يكون بعثياً وعلوياً كما يقول صديق الأسد باتريك سيل.

شارك الناصريون والمستقلون في انتخابات الإدارة المحلية، وتلقوا دعماً من أعضاء الإخوان ضد مرشحي حزب البعث، فظهر بشكل جلي الحضور القوي لتنظيم الإخوان في الشارع السوري، فكشفت هذه الانتخابات لحافظ أسد مواقف المواطنين من سلطته، ليقتص منهم في الوقت المناسب كما فعل ذلك في مناسبات كثيرة مع رفاقه في الحزب، وفي اللجنة العسكرية، ومع عدد من أبناء طائفته، والمعروف عن الأسد أنه لا ينسى حقده ضد من يختلف معه ولو بعد حين.

٣- مرت جماعة الإخوان المسلمين في هذه الفترة بمحنتين كبيرتين، واحدة فيما بينها من انشقاق وانقسام شطرها إلى نصفين متقاربين في الحجم ومتنازعين، وثانية تمثلت في هجوم السلطات عليها، وزج قيادتها في السجن، لمعارضتها الدستور الذي وضعه حافظ أسد، أو وضعه له الدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق، ورئيس الجامعة فيما بعد.

أ- اشتد المرض بالشيخ الكبير والقائد التاريخي لجماعة الإخوان

المسلمين الدكتور مصطفى السباعي، وأقعده عن الحركة الدؤوبة التي عُرف بها، فأسند المهمة إلى الأستاذ الكبير عصام العطار أمد الله في عمره في أواخر الخمسينيات، فلم يرق هذا الأمر إلى لفيف من الإخوان في عدد من المراكز، فحاولوا إبعاد الأستاذ عصام، والإتيان بمراقب آخر، فأغاظ هذا التصرف عدداً من أنصار الأخ عصام ومحبيه، فجاء رد الفعل لدى فريق منهم -كان الأستاذ زهير الشاويش عضو مكتب دمشق والنائب عن دمشق فيما بعد- على رأسهم، فطالبوا بالبيعة للشيخ عصام، ولم تكن فكرة البيعة مطروحة في تنظيم الجماعة في سورية قبل ذلك، لأن وظيفة المراقب العام الذي ينتخبه مجلس الشورى لأربع سنوات مهمة إدارية، تنتهي بانقضاء السنوات الأربع، ليجدد له مجلس الشورى، أو يأتي بمراقب آخر، وكانت مجموعة عصام قد طالبت أن يستكمل الشيخ عصام مدة المراقب العام، ثم يصار إلى تثبيته أو انتخاب بديل عنه، جاء رد الفعل على ذلك بالرفض، وحصل جدل طويل بين الفريقين: المؤيد والمعارض، فأدى ذلك إلى انقسام كبير، كان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة -رحمه الله- على رأس أحدهما، وكان يضم مركز حلب واللاذقية وبعض الإخوان في المراكز الأخرى، وضمّ الفريق المؤيد للشيخ عصام: مركز دمشق وحمص وبعض الإخوان في المراكز الأخرى، ثم ظهرت كتلة ثالثة ضمن مراكز الدير وإدلب وحماة، أعلنت حيادها ريثما ينجلي الموقف والخلاف عن حل يقدمه مكتب الإرشاد لهذا الانشقاق النكد في تنظيم جماعة الإخوان المسلمين في سورية، وبعد أن تمخضت الوساطة التي طال أمدها والجدل حولها عن اختيار كاتب

هذه الأحرف مراقباً عاماً، رفض إخوان دمشق هذا الحل، وأعلنوا عدم التزامهم به، فتكرس الخلاف، وانضم مركز دير الزور برئاسة الدكتور حسن هويدي إلى فريق دمشق، وانضم مركز حماة إلى فريق حلب، وكان الشيخ سعيد حوّى رحمه الله ناشطاً في قرار مركز حماة، أما مركز إدلب فقد تريث حتى أقر مكتب الإرشاد فيما بعد انتخاب الفقير إلى رحمة ربه، فانضم إلى التنظيم الذي أقره مكتب الإرشاد، كما انحازت أكثرية مركز حمص برئاسة الشهيد الشيخ محمود سويد إلى التنظيم الذي حظي بموافقة مكتب الإرشاد، غير أن قسماً كبيراً برئاسة الشيخ محمد علي مشعل ظل موالياً للإخوة في دمشق، وبعد انتهاء كتلة الحياد صار معظم الإخوان في حلب وحماة واللاذقية وجزء كبير من حمص ودرعا، وشطر من التنظيم الفلسطيني الإخواني في سورية، وبعض فروع الفرات والجزيرة مع التنظيم الدولي المدعوم من مكتب الإرشاد، وذهب الفقير إلى عفو ربه إلى القاهرة لإعطاء البيعة للمرشد العام الذي كان انتخابه سرياً، لا يعلم به إلا رؤساء الإخوان المصريين في المحافظات، والمراقبون العامون في الأقطار العربية الأخرى، فأديت البيعة وعدت أدراجي إلى سورية التي ظللت أدخلها سراً لمدة ثلاث سنوات (١٩٧٦ و١٩٧٧ و١٩٧٨) وأقوم بواجبي في ربوعها مما سيأتي فيما بعد مفصلاً.

استمر مركز دمشق ومعه إخوة من حمص برئاسة الشيخ محمد علي مشعل حفظه الله، ومعظم مركز درعا، وشطر راجح من التنظيم الفلسطيني ومركز دير الزور، وأعداد قليلة من المراكز الأخرى خارج

هذا التنظيم لفترة طويلة، عاد البعض إلى التنظيم واستمر البعض لولائهم للشيخ عصام الذي اتخذ من ألمانيا مقراً دائماً له بعد أن حرمته سلطات البعث الطائفي من دخول سورية، والعودة إلى بلده إثر أدائه فريضة الحج منذ وقت مبكر في عام ١٩٦٤ .

ب- قامت السلطات الباغية باعتقال كبار العلماء في سورية، وكبار الشخصيات الإخوانية بعد عقدهم اجتماعات في مدن سورية الكبرى، في دمشق وحلب وحمص وحماة، مطالبين بتثبيت الهوية الإسلامية في الدستور السوري كما كان شأن الدساتير السابقة في سورية، فتم خطف الشيخ سعيد حوّى رحمه الله من بلدة المعرة التي كان مدرساً في ثانويتها، ويذكر الشيخ محمد علي مشعل أنه فوجئ ببيان موزع باسمه يدعو الناس إلى حضور الصلاة في مسجد حمص الكبير، وإلقاء محاضرة بعد صلاة الجمعة حول الدستور، ولم يكن يعلم عن هذا المنشور المفترى عليه، والذي ربما كان الذريعة لاعتقاله، وبعد أدائه صلاة الجمعة في مسجد آخر، وتوجهه إلى منزل مفتي حمص الشيخ طيب الأتاسي، بدعوة منه لتناول طعام الغداء، مع عدد من المسؤولين الحكوميين، أوقفته سيارة المخابرات، ودعته لمرافقتهم لدقائق ثم يعود، فلم يرجع إلى بيته إلا بعد سنتين من ٢/ ٥/ ١٩٦٥ إلى ٥/ ٦/ ١٩٦٧م، ثم تتالت حركة الاعتقالات في حلب وحماة ودمشق ودير الزور، لتشمل عدداً من مشاهير العلماء، ولاسيما قيادات الإخوان المسلمين، ليمكثوا في السجن مدداً متفاوتة، ويلاقوا ألواناً من التعذيب والاضطهاد على أيدي الجلادين

في سجون الطاغية، لأنهم أدلوا بآرائهم بصورة سلمية بعيدة عن الإثارة والعنف وتحريض المواطنين.

لقد أدت هذه الاعتقالات إلى كشف التنظيمات الإخوانية أو شطر كبير منها، فحلت بالجماعة كارثة أعاقت المسيرة الإخوانية لفترة طويلة، فلم يعد أمام أعضاء التنظيم الإخواني إلا الصمت أو الاعتقال أو الإعدام، محرومين من حقوقهم المدنية، في معتقداتهم وآرائهم والتعبير عن أفكارهم ومشاركتهم في شؤون بلدهم ومستقبل وطنهم.

ج- في هذه الفترة التي استتب فيها الأمر في سورية لحافظ أسد، ونال فيها تأييد عدد كبير من الدول العربية والغربية، تطلع إلى دول البترول، وإلى الثروات الأسطورية التي درها عليها الذهب الأسود، وشرع بإرسال المندوبين والوفود السورية إلى دول الخليج، وفي مغازلة الأمراء والمسؤولين، وتمتين العلاقات الدبلوماسية معهم، وفتح السفارات السورية في عواصمهم، ولاسيما في دولة الإمارات الغنية، ومع رئيسها الشيخ زايد بن سلطان الذي كان يستجيب لأي دعوة في التضامن العربي.

في ذات يوم حضر وفد كبير إلى أبو ظبي عاصمة الإمارات، وعقد عدد من أعضاء الوفد لقاءً لأعضاء الجالية في القاعة الكبرى بفندق هيلتون حضره حوالي سبعين سورياً، فتكلم فيه مصطفى طلاس بكلام لا يُصدّق لو لم نسمع كلماته بأذاننا، قال لأعضاء الجالية:

- ماذا فعلتم بالعيد الوطني للإمارات، وكيف كانت مشاركتكم

فيه قال بعضهم: شاركنا بسيارة سارت مع موكب الاحتفال بعد تزيينها ورفع لافتات التأييد والتهاني عليها.

فقال طلاس: ليس هذا كافياً.

وأشار بحركة في رأسه علامة على الرفض، ثم قال هذا الرجل الذي كان منشغلاً بإصدار كتب عن الطبخ الشامي والورد الجوري -الأحمر- والحسناوات السبع عشرة، قال -فُضَّ فوه-:

- سنأتي في العيد المقبل بطائرة خاصة -شارتر- مليئة بالبنات ليشاركن باحتفالات العيد الوطني لدولة الإمارات.

تحمست للرد عليه أو مناقشته ومطالبته بالإفراج عن المعتقلين من العلماء وقادة الإخوان، وكان بجانبي التاجر الدمشقي ع. ص، فقال بإلحاح:

- أعزم عليك أن لا تحرج الجالسين، وتحرج نفسك.

فلذت بالصمت، ولدى انفضاض اللقاء خرجت إلى الطابق الثامن حيث ينزل طلاس في غرفة -سويت- فدخلت إليها فلم أجد أحداً فيها، فجلست بالصالون، ليدخل بعد لأيٍ طلاس وضابطان، يحمل كل منهما رتبة عقيد على كتفه، وبعد أن جلسوا جميعاً قلت لمصطفى طلاس:

- لماذا لا تطلقون سراح الشيخين سعيد حوى ومحمد علي مشعل ومن معهما من الاعتقال؟

قال: هؤلاء يتدخلون في السياسة.

قلت: ألم تصدر أنت كتاباً بعنوان: الرسول القائد؟ أليس هذا عملاً سياسياً؟

فانعطف في حديثه إلى منحى آخر قائلاً بحدة وشدة:

- لن يخرج هؤلاء من السجن ونحن في السلطة، لا نريد أن نكرر خطأنا يوم أخرجنا من السجن خصومنا (لم يسمهم ولم يذكر أسماءهم، ولم يشر إلى الفترة التي عناها) ثم قال: لو أن أحد حلفائنا في الجبهة الوطنية عارضنا أو نازعنا مثل خالد بكداش لكسرنا رأسه -حسب تعبيره-.

كان طلاس يتحدث بهذا الحزم وهو ينظر إلى وجهي العقيدين اللذين لم أكن أعرف من هما، لينال بنظراتهما الموافقة والاستحسان، فخرجت مودعاً ومتسائلاً عن العقيدين، فعلمت أن أحدهما كان علي دوبا، وأن الآخر كان علي حماد، فعرفت سر موقفه المتشدد تقرباً إلى اثنين من أقطاب الأقلية الحاكمة.

٤- بعد أن استلم الأسد سورية من بابها إلى محرابها، وأضحى الحاكم الفرد في شؤونها ومصيرها وجميع سياساتها الداخلية والخارجية، قرر تلميع صورته، وإظهار شخصه كبطل لتحرير الأرض التي سلمها للعدو في حرب حزيران ١٩٦٧، عسى أن يسترد بعض اعتباره الضائع، فقرر دخول حرب جزئية مع إسرائيل في تشرين الأول عام ١٩٧٣ بالاشتراك مع مصر، في ظل وضع داخلي متأزم، وبجيش لم يُبق فيه ضابطاً عريقاً ذا خبرة فنية أو عسكرية قتالية، وبأسلحة قديمة مهترئة أكل الدهر عليها وشرب، كانت قيد التنسيق

في الجيش السوفياتي قبل بيعها وتصديرها إلى سورية، فضاع في هذه الحرب عام ١٩٧٣ جراء هذه الرعونة السياسية والجهل العسكري لضابط ترفع من نقيب إلى لواء خلال فترة قصيرة، كما عرفنا ذلك من قبل، ليخسر الوطن مجدداً ٣٦ قرية كما جاء في بعض المصادر، لم يدخلها العدو في حرب ١٩٦٧، وليضمها إلى ما احتله من أرضٍ سوريةٍ كان قد استولى عليها من قبل إثر هزيمة الجيش السوري، وتسليم الجولان والتفريط به دون مقاومة أو قتال.

كان العراق قد قرر خوض المعركة بجانب أشقائه السوريين في حرب ١٩٧٣، وقد كلفه هذا الموقف وذاك القرار ثمناً باهظاً إذ فتح عليه الغرب -أوربا وأمريكا- جبهة في الشمال عندما حركوا الأكراد في ثورة عارمة في المناطق الجبلية الوعرة ضد بغداد(١).

أرسل العراق قوات عسكرية إلى الجبهة السورية الإسرائيلية لحماية دمشق، ولدعم الجيش السوري، دخل العراقيون من شمالي سورية وهم يهتفون: الجيش السوري لعيونك، وجيناك لنشيل همومك، واستقبلهم المواطنون بالترحيب والهتافات وتبجيل الأخوة والنخوة العربية.

كانت القوات العراقية تضم ١٨ ألف مقاتل، و١٠٠ طائرة، وأكثر من ٣٠٠ دبابة وآلية بقيادة نائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان، لتخوض المعركة مع الجيش السوري ضد العدو الإسرائيلي، وطالما

---

(١) باتريك سيل: ٤٢٤.

سمعنا من فم الأستاذ طه تفصيل هذه المشاركة، وما تلقاه العراقيون من غدر السلطة السورية، قال طه رمضان (الذي شغل منصب القائد العام للجيش الشعبي طيلة حرب السنوات الثمانية بين العراق وإيران): زحفت قواتنا على عجل لتشارك في المعركة، فأخذت مواقعها في الجبهة كسند للقوات السورية، وكانت إسرائيل قد شرعت باحتلال أجزاء من الأرض السورية، واسترجعت ما كان السوريون قد احتلوه في بداية الحرب، فكانت كفة العدو راجحة وزحفه متواصلاً، فعقدنا اجتماعاً مشتركاً ضم القيادات العسكرية السورية والعراقية، ووضعنا خطة للقيام بهجوم معاكس، وحددنا ساعة الصفر، وذهب الجميع إلى مواقعهم متحفزين ومتلهفين لمعركة الثأر ضد العدو الذي كان يعربد ويصول في ساحة المعركة، ولم تمض ساعات قليلة، وقبيل أن تحين ساعة الصفر بقليل، إذا بي أسمع من الإذاعة في منتصف الليل أن حافظ أسد قد وافق على وقف إطلاق النار مع العدو الذي احتل ذرى جبل الشيخ، واحتفظ بالقرى التي احتلها، وصار الطريق أمامه إلى دمشق مفتوحاً، فقد صار جنود العدو يرونها من فوق جبل الشيخ بالعين المجردة.

فعل الأسد ذلك وأقدم عليه دون تشاور معنا، بل ودون إخطارنا عما كان يبيته من وراء ظهورنا بعد أن اتفق معنا في وضع خطة الهجوم المعاكس.

كان موقفنا صعباً ومعقّداً، بل وخطيراً جداً، لأن وقف إطلاق النار الذي قبله السوريون لا يشملنا، ولا يحمي قواتنا من أي هجوم

مباغت بعد أن أضحت في حالة حرب مع الصهاينة، فكان علينا أن نحمي وحداتنا العسكرية من أي مفاجأة مدمرة، فعملنا على لمّ شتاتها وسحبها من مواقعها إلى أمكنة مأمونة نوعاً ما، بعد أن فوجئنا بهذا التصرف حيال قوات جاءت لخدمتهم، فإذا هم يكشفون ظهرها، ويدعونها (دون تفاهم معها) لقدرها، وهكذا انطوت هذه الصفحة المأساة من الغدر والنكث والانحراف.

٥- أدى هذا الموقف أو هذه السياسة الأسدية تجاه العراق الذي هبَّ لنجدة أشقائه في سورية، إلى جفاء كبير بين البلدين، وإلى أزمة ثقة حادة بين دمشق وبغداد، انتهت إلى صراع مكشوف، وكيد متبادل بين بعث سورية وبعث العراق، ولاسيما بعد أن لجأت المعارضة السورية إلى بغداد، لتلقى لديها تسهيلات كبيرة في البث الإذاعي، والتدريب في معسكر التاجي الشهير، وقبول مئات في الجامعات والمعاهد العراقية، ومنح السوريين المعارضين جوازات سفر عراقية بلغ عددها في فترة من الفترات حوالي ألف ومئتي جواز تقلصت فيما بعد إلى عشر جوازات يحملها قياديون من تنظيم الإخوان المسلمين السوريين.

تبادل الفريقان الاتهامات والتراشق الإعلامي، واتهم العراقيون النظام السوري بالغدر وعدم الوفاء، وكان التسلل الحدودي بين الفريقين على قدم وساق حتى اضطرت السلطات السورية إلى إقامة ساتر ترابي بارتفاع خمسة أمتار على طول الحدود بين البلدين.

والذي أؤكده على مسؤوليتي، وأسجله في هذا السياق أن العراقيين لم يكرهوا المعارضة أو يساوموها، أو يطلبوا منها ولو بصورة غير مباشرة تأييد حزبهم أو مواقفهم أو سياساتهم طيلة مكث المعارضة في العراق التي امتدت زهاء ربع قرن أو يزيد منذ أواخر السبعينيات وحتى العام ٢٠٠٣ عندما اجتاحت جحافل الجيوش الغربية وبعض الدول العربية بقيادة أمريكا، العراق، ودخلت بغداد، وأسقطت نظام الحكم فيه، بعد حصار قاس استمر بضعة عشر عاماً، مهد للاحتلال، وهدم العراق، والتبشير بإعادة البناء من قبل الهدم، كي تتسابق الشركات الأمريكية وغيرها لابتزاز المليارات، وأحياناً لنهبها باسم إعادة البناء، كما شهد بذلك عراقيون رسميون وغير رسميين من لجان النزاهة، واللجان البرلمانية، بعد استباحة العراق، واقتراف جرائم ضد الإنسانية على أرضه، وانتشار الصهاينة كمستشارين في الوزارات، وعاملين في الشركات في طول العراق وعرضه. واأسفاه.

غير أن المقاومة ضد الاحتلال جاءت أكبر مما توقعه الأمريكان ومن يسير في ركابهم، فلجأ المحتلون إلى شراء الذمم باسم مكافحة الإرهاب، وبسط الأمن، فوجدوا من يبيع دينه وضميره وانتماءه الوطني، ويتسابق إلى قبض الدولارات، الأمر الذي أضعف المقاومة، وضيق عليها، دون أن يستطيع المحتلون وعملاؤهم القضاء عليها، لأن المعركة طويلة، ولربما امتدت سنوات وسنوات، وقد أحرجت المقاومة الوطنية المنظمة -وليست الفوضوية والطائشة- الأمريكان في العراق وفي داخل أمريكا، وفي المحيط الدولي في

العالم كله.

٦- أصاب المسخ كل معالم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والفكرية السورية في ظل حكم الأقلية النشاز، وفي مقدمة ذلك مجلس النواب الذي كان، من قبل، يهيمن على شؤون البلاد، ويحاسب الحكومات ويغيرها، ويسن القوانين، ويضع الميزانية، فإذا به في ظل الطوارئ، وفي عهد الطاغية يتحول إلى تمثيلية أو إلى -حزورة- حسب تعبير آلن جورج في كتابه الوثائقي -سورية لا خبز ولا حرية- يبصم للطاغية على كل جرائمه، ويصدق عليها، بعد أن يصدرها على شكل لوائح وقوانين.

كان الأسد يحدد حصة كل حزب من أحزاب الجبهة التقدمية (التي تشكل غطاء لكل جرائم النظام ومواقفه المخزية وانحرافاته وقراراته الخطيرة، مثل توقيع الاتفاقات مع الصهاينة، وإعدام المعارضين في انتماءاتهم الحزبية) قبل إجراء الانتخابات، ليوافق المجلس بالإجماع على المواقف المخجلة، أو إن شئت المخزية، مثل انتخاب بشار أسد الذي كان عمره يوم وفاة أبيه ٣٤ عاماً، والدستور يشترط على المرشح أن يكون قد بلغ الأربعين من عمره، فما كان من المجلس العتيد إلا أن يعقد جلسة لم تستغرق أكثر من نصف ساعة لتعديل الدستور، ليجعل عمر المرشح ٣٤ سنة بدلاً من أربعين -على مقاس المرشح الذي جيء به من مقاعد الدراسة في لندن- في اليوم الذي توفي فيه حافظ أسد في ١٠-٦-٢٠٠٠، ليبايع -بإجماع من هكذا مجلس- قائداً لسورية، ورئيساً لجمهوريتها إلى

الأبد، في تجديد مستمر وسريع كل سبع سنوات دون أي اعتراض أو عائق.

وعندما عرض القانون ٤٩ لعام ١٩٨٠ على المجلس العتيد الذي أضحى موضع التندر والسخرية في جميع الأوساط السياسية والدستورية في العالم، والذي يقضي بإعدام كل من ينتسب إلى تنظيم الإخوان المسلمين، ولو كان داخل السجن قبل صدور ما يسمى بالقانون ٤٩، تبارى نواب مجلس نواب حافظ أسد في خطبهم، وهم يحثون على إعدام أعضاء الإخوان بخطب قرأتها في الجريدة الرسمية، وهي تشكل مصدر خزي لهذا العهد، ووثيقة على إمعانه في الإجرام وسفك الدماء، لا أظن أن السوريين يغفلون عنها، لأنها من النوع الذي يستعصي على التقادم أو النسيان.

لقد حدثني شخص من حماة أرسلته السلطات إلى مكة ثلاث مرات في عام واحد بفيزا عمرة، وهذه لا تعطى إلا مرة واحدة في العام، ولكن الدوائر النافذة تستطيع تجاوز ذلك بما لديها من صلاحيات وعلاقات، وكانت المهمة التي كلف بها الرجل هي الاستدراج إلى ريب المنون، وعندما التقيته صارحني بما كان بيننا من ود سابق، وشرح لي أن رئيس الشعبة السياسية استدعاه، وطلب منه السفر إلى دمشق بطلب من رئيس الاستخبارات العسكرية، وزعم أن الأخير كان يتصل بين الفينة والفينة مع رئيس له يرجح أنه حافظ أسد، وذلك من أسلوب مخاطبته لمسؤول كبير، وبعد أن كلفه بالمهمة وعده بدفع مبلغ مجزٍ ذكر أمامي رقمه، ومنحه سيارة،

ومقابلة يشرف بها بلقاء الطاغية، وليس هذا بعجيب أو غريب على نظام ينفق معظم الدخل العام على أجهزة الظلم والبطش والتنكيل بالمواطنين، لكن الذي فوجئت به هو الوعد الذي تلقاه بأن ينتخب عضواً في برلمان السلطة في انتخابات نزيهة للغاية، وهكذا كان النظر إلى البرلمان وإلى أعضائه، ومهماتهم الجليلة للوصول إليه، رحم الله المواطن أبو محمد أحمد. ج الذي وافته المنية، ولولا ذلك لما أبحت لنفسي أن أشير إلى هذه الواقعة التي تكشف عن القيمة الحقيقية لمجلس النواب في ظل الحكم الشمولي، وعن نظرة المتسلطين إليه واستخدامه أو استخدام العضوية فيه في الأغراض الأمنية الوضيعة!!

ومع ازدراء البغاة لهكذا برلمان، لا يخجل الطاغية أن يقول في خطاب افتتح فيه البرلمان في مطلع ١٩٧٣:

من حَرَم المجلس المقدس يشع نور الحرية، ليملأ أرجاء الوطن كله، ومن خلال هذا المجلس تضمن ممارسة الحرية بمعناها الحق والصحيح[1].

في كل ما قرأته عن الفراعين والأكاسرة والقياصرة والطغاة والبغاة في السابق واللاحق، وفي القديم والحديث ما رأيت مثل حافظ أسد في التضليل والتدليس وتشويه الحقائق والجرأة على الشعب كله، على الأمم كلها في إشاعة الكذب والأباطيل المكشوفة كالشمس،

---

(١) سورية: لا خبز ولا حرية: ١٩ .

وهو يصر على أنها الحقيقة الناصعة دون أن يرف له جفن أو يشعر بأي حرج، بل يجمع حوله من يصفق له على ذلك، وهو يرفع يديه مفاخراً ومباهياً، وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت، صدق رسول الله ﷺ(١).

٧- كلما ازداد المتسلطون على الحكم في سورية ثراءً وغنى ازدادوا طمعاً وشرهاً وتعطشاً لجمع الثروات بكل سبيل متاح، وكما قال السجين الدكتور عارف دليلة في كلمة ألقاها في أجواء ربيع دمشق، وهو الخبير الاقتصادي الكبير:

«لا أمل من أي إصلاح سياسي، لأن المتسلطين لا يشبعون، وكلما نهبوا وسلبوا وجمعوا الثروات الطائلة، يقولون: هل من مزيد؟ ثم قال: أنا أقول هذا اليوم، ما قد قلته من فوق مدرج جامعة دمشق عام ١٩٨٠ يوم كانت الكلمة تورد صاحبها موارد الهلكة».

وفي هذا السياق وجد رؤوس الفساد الإداري والمالي في زراعة المخدرات والمتاجرة بها أقرب السبل لجني الثروات الأسطورية، فاتخذوا من سهل البقاع وغيره في لبنان مزارع واسعة (بحماية القوات السورية) ومهابط لطائرات الهيلوكبتر، لشحنها إلى تركيا عبر الأراضي السورية، وإلى قبرص عبر الطائرات، لتدر عليهم مليارات الدولارات.

إن أفراد عائلة الأسد هم المسيطرون على زراعة وتجارة

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢٢٤ وأبو داود رقم ٤١٦٤ .

المخدرات، وعلى رأسهم رفعت أسد، وأبناء جميل أسد، ومحمد ابن توفيق أسد، وقد حددت بعض المصادر أرباح كل منهم بأرقام خيالية.

أ- كان محمد بن توفيق الأسد يقود عصابة من العصابات العديدة التي يقودها أبناء عائلة أسد، فقتلت في اصطدام مع المخابرات العسكرية رجلين أو عنصرين، أحدهما برتبة مساعد، والآخر برتبة رقيب، عندما حاول حاجز للمخابرات اعتراض سيارات تنقل مخدرات من طرابلس بلبنان إلى منطقة الحدود التركية، فاتصل جميل أسد برئيس فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية، يأمره بإرسال من يستلم جثة الكلبين -على حد تعبيره- اللذين نصبا كميناً لمواطنين آمنين.

ومن اللافت أنه لم يجر أي تحقيق رسمي في مقتل رجلي الأمن اللذين قتلهما مجرمون مهربون للمخدرات بقيادة محمد بن توفيق الأسد شقيق حافظ الأسد(١).

ب- كان الدخل الأكبر من زراعة المخدرات من نصيب رفعت أسد، رئيس القوة النافذة في سورية ولبنان، وهي سرايا الدفاع التي بدأ تشكيلها بقوة متواضعة عام ١٩٧١ ثم استفحل أمرها حتى بلغت ٥٥ ألفاً، جلهم من أبناء الطائفة العلوية، يملكون أحدث الأسلحة، وأكثرها تطوراً، وأشدها فتكاً للقيام بالمهمة الموكولة لها، وهي حماية الثورة والسلطة ورئيسها حافظ أسد.

---

(١) حوار حول سورية: ٨٢ .

لقد قرر البعض دخل رفعت من المخدرات التي كانت تزرعها وتسوّقها بثلاثة مليارات دولار، يقوم بتهريبها إلى أوربا وغيرها براً وجواً، حتى ضج الأوربيون المختصون بمكافحة المخدرات، فلاحقوه، وتحركوا ضده عبر اللجان المختصة والقضاء لولا الحصانة الدبلوماسية والعلاقات السياسية والمصالح الاقتصادية، والصفقات المتبادلة التي تعقد خلف الكواليس، لقد سمعت من الشاعر الدكتور أحمد سليمان الأحمد أحد أعوان رفعت ومناصريه، ورئيس رابطة الخريجين التي كان يمسك بها رفعت قبل أن يتحول أحمد سليمان إلى المعارضة، فقد ذكر أن ثروة رفعت بلغت ١٧ مليار دولار موزعة ما بين الدول الأوربية -فرنسا وسويسرا وإسبانيا وغيرها- وبين القارة الأمريكية، ولاسيما الولايات المتحدة.

أما ثروة باسل أسد، فجرى لغط كبير حولها، لأن البنوك السويسرية لها نظام خاص بالمودعين لديها، فإذا مات المودع يفقد حقه في مبلغه إذا كان عزباً، أما إذا كان متزوجاً فله شطر يسلم إلى عائلته، وهذا ما أحدث أزمة بعد مقتل باسل الأسد، فعمل والده على إصدار أوراق يثبت بها زواجه -شكلياً- حتى استطاع استرجاع شطر من ثروته، وليس لدي وثائق بهذا الموضوع، غير أن الشيء المؤكد أن عائلة الأسد كما ذكرت بعض المصادر الغربية التي تحدثت عن أغنياء العالم، أضحت من العائلات ذات الثراء العريض.

٨- وضح لنا في صفحات سابقة أن الجبهة الوطنية التقدمية لم تكن أكثر من ستار أو شاهد زور للتستر على سياسات الأسد القمعية

والأمنية، والداخلية والخارجية، والعلاقات في المحادثات مع العدو الإسرائيلي، غير أن ما نضيفه في تسجيل أحداث هذه الفترة ما قاله حافظ أسد عن هذه الجبهة، ومدى ازدرائه لها ونظرته الدونية إليها.

في عام ١٩٧٠ عقد الأسد اجتماعاً للقيادة القطرية تحدث فيه عن رؤيته السياسية فقال: إن أحزاب سورية تطلعت طيلة تاريخها نحو هدف واحد، هو الالتحاق بالجهاز الإداري للسلطة، رغم أنها كانت تغطي رغبتها هذه بصراخ مسعور حول عزمها القيام بثورة تقلب فيها الأوضاع رأساً على عقب، بل إن هذه الأحزاب تحدثت عن الثورة بسبب عجزها عن الالتحاق بجهاز السلطة الإداري، واعتقادها أن صراخها سيخيف الحكام، وسيقنعهم بإلحاقها بهم، نحن -قال الأسد- سلنحقهم بجهازنا الإداري، وسنفيد منهم في احتواء الحياة السياسية داخل السلطة ولصالحها وفق رؤاها، مقابل إلحاقهم بسلطة لا تقدم شيئاً في سياسة الدولة ولا تؤخر، وبالمقابل سيبقى هناك على الدوام بضع مئات من أصحاب الأوهام الذين يعتقدون أن الدنيا تسير بالمبادئ والمثل العليا، هؤلاء سنحاول شراءهم بالمال أو السيارات أو بالبيوت، أو سنورطهم سياسياً، فإن نحن أخفقنا في تحييدهم، أدخلناهم إلى السجون ليموتوا فيها[١].

ثانياً - اغتيال الفكر والكلمة

يرفع البعث شعاراته الثلاثة، ومنها الحرية، غير أن أحداً في

---

(١) حوار حول سورية: ١٥٣ .

تاريخ المنطقة في العصر الحديث، لم يذبح الحرية من الوريد إلى الوريد كما فعل هذا الحزب، في أي مكان حل فيه، أو تحكم بأهله، فمنذ تسلم البعثيون للسلطة عام ١٩٦٣، باشروا رقابة شديدة على المطبوعات في ظل الأحكام العرفية وقانون الطوارئ الذي تنص الفقرة ب من المادة الرابعة منه، أن للدولة حق الإشراف على الصحف والكتب والإعلان والفنون الجميلة، وبكلمة أخرى، جميع صيغ التعبير والإعلان قبل النشر والطبع، ولها أن توقف أو تصادر أو تدمر أي عمل تراه يهدد أمن الدولة(١).

كذلك للمخابرات دورها في الرقابة على المطبوعات، فهم أحياناً يحتجزون المفكرين المثقفين مدة محددة، ومن ثم يكون حصولهم على عمل أمراً عسيراً. أما السجن والتعذيب فهما مخصصان بصورة رئيسة للمفكرين والمثقفين، حتى ولو كانوا يدافعون عن حرية الكلام والتحول السلمي إلى الديمقراطية، وهذا ما أوصل بعض المعارضين إلى حالة اليأس، والبعض الآخر إلى اختيار المنفى، مما ألحق بالثقافة السورية أسوأ الضربات في أثناء حكم حافظ أسد(٢).

إن اللجنة العسكرية البعثية عندما أمسكت بتلابيب السلطة عام ١٩٦٣ سحقت كثيراً من المثقفين، واستدرجتهم بوسائل الترغيب والترهيب إلى صفوفها، فالمؤيدون يحصلون على وظيفة جيدة وعيش رغيد، أما من يمارس حرية النقد فإنهم لا يستطيعون الحصول على

---

(١) تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط وانتهاكات حقوق الإنسان في سورية: ٢٢٧ .

(٢) المرجع السابق: ٢٢٨ .

عمل، أو أنهم يعاملون بقسوة، ويهددون في حياتهم على أنهم عملاء للاستعمار، وحتى أنصار السلطة أذاقهم البعث -عندما ينتقدون- مرارة العلقم(١).

٦- عندما اشتد صراع الأسد مع جديد، أرسل الأسد دباباته في ٢٥-٢-١٩٦٩ إلى مكاتب جريدتي البعث والثورة في دمشق، فأزاح رؤساء التحرير، وكبار المحررين، وعيّن بدلهم محررين موالين له، من بينهم غسان رفاعي رئيس تحرير جريدة الجيش، أما الذين جاملوا وداهنوا الأسد مثل محمود كامل، فقد استمروا محتفظين بمناصبهم.

في منتصف آذار عام ١٩٧٨ طرد الأسد: علي سليمان رئيس تحرير جريدة الثورة لفشله في وصف اجتياح إسرائيل لجنوبي لبنان بالطريقة المناسبة.

وفي ١٩-٦-١٩٧٨ عزلت سلطة الأسد رئيس تحرير جريدة البعث عدنان بغاجاتي متهمة إياه بالميول الشيوعية.

وفي نفس الشهر منعت السلطة عشرة من الصحفيين من العمل الصحفي، متهمة إياهم بالتعاطف مع المعارضة.

وكذلك فعل الأسد بإعلاميي الإذاعة، ولم تنته سبعينيات القرن الماضي حتى لم يبق لأي إعلامي أو صحفي موقف شخصي أو رأي خاص. بل سبق لمدير أمن دمشق أن استدعى عدداً من الكتاب رفعوا

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٠ .

مذكرة إلى الوزارة، وإلى اتحاد الكتاب طالبوا فيها بوضع حدّ للقوائم السوداء، فهددهم بأوخم العواقب إن استمروا في الحديث عن ذلك، وكان من هؤلاء الكتّاب: زكريا تامر، وسعد الله ونوس، وغيرهما[1].

على الصحفي الذي يريد أن يحافظ على وظيفته أن يتبع بدقة الخطوط العريضة اليومية التي تحددها وتصدرها وزارة الإعلام، ومكتب الإعلام التابع لنائب الرئيس خدام والمكتب الصحفي الرئاسي.

تمادت السلطات في رقابتها على المفكرين والكتاب والصحفيين والإعلاميين بما يشبه محاكم التفتيش، ليحاسبوهم على خواطرهم ومشاعرهم وكل ما ينطقون به أو ما يصدر عنهم، وإن لم يكن معارضاً أو منتقداً، لقد استجوبوا صحفياً محرراً لطبعه صورة لحافظ أسد، بدا فيها قصيراً وبديناً، بالرغم من أن الصورة جاءته من المكتب الصحفي الرئاسي، واستجوبوا محرراً آخر، وقع في خطأ مطبعي، وردت فيه كلمة طبل بدلاً من كلمة بطل، فاتهم المسكين بقدح الرئيس، واستمر استجوابه لمدة أسبوع كامل في مخابرات القوى الجوية، وفقد محرر وظيفته عندما أعاد نشر نص من القرن التاسع عشر، يدعو الناس إلى معارضة الحكم الاستبدادي المطلق، فأخبره مكتب الرقابة في حزب البعث أنه لا يوجد له ولمثله من الكتاب مكان في سورية، فلاذ بالسفر وغادر وطنه إلى الخارج، واعتقلت

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٦ .

المخابرات في عام ١٩٧٥ مروان حموي رئيس وكالة الأنباء السورية، متهمة إياه بمناصرة العراق والتعاطف معه، وسجنته على إثر ذلك في سجن المزة، وقد مضى على سجنه خمس عشرة سنة وما يزال بالسجن حين صدر تقرير المنظمة عام ١٩٩٠، وعاقبت رئيس تحرير جريدة تشرين عميد الخولي -الماروني- بسبب زلة تحريرية بسيطة أشارت إلى الرقابة السورية بكثير من التوجس، فعدته السلطة مسؤولاً عن غلطة في فقرة معزولة.

وفي وقت لاحق صدر بيان عن مؤتمر عمان أيد العراق في حربه مع إيران، وبالرغم من أن الأسد وقّعه، وأن عبد الحليم خدام وافق على نشره، ثارت ثائرة الأسد متهماً عميد الخولي بعدم الموالاة، وجرده من كل مسؤولياته على الفور[١].

والخلاصة ليس لأي محرر أن يكتب ما يشاء فيما يخص حافظ أسد، كما لا يسمح للمحرر بالإشارة مهما كانت محدودة إلى دور العلويين في النظام، أما الإشارات النقدية للمنظومة العسكرية، فهي خارج أي تصور أو إجراء، وإن أي مناقشة عن أجهزة الأمن وعناصره، فمحرمة أطلاقاً، والنقد الموجه لحزب البعث يعد خطراً داهماً، ولو جاء بصيغة صادقة بريئة[٢].

٢- بعد أن دخلت القوات السورية إلى لبنان في مطلع ١٩٧٦،

---

(١) تقرير الشرق الأوسط: ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق: ٢٤٢.

صارت الصحافة اللبنانية هدفاً لها، ففي ٣١-١-١٩٧٧ هاجم جنود الصاعقة صحيفتين انتقدتا سورية، وهما صحيفة المحرر المؤيدة للفلسطينيين، وجريدة بيروت المناصرة للعراق، وبعد ضرب الجريدتين بالصواريخ أشعل جنود الصاعقة النار فيهما بالنفط، وقتلوا سبعة أشخاص، وجرحوا عدداً أكبر، كان من بينهم الكاتب الصحفي المصري المعروف إبراهيم عمر، كما احتلوا جريدتي النهار والسفير، وفي ذات الوقت طالب الأسد الرئيس اللبناني إلياس سركيس فرض رقابة صارمة على الصحافة اللبنانية، وفي وقت لاحق من هذا العام، احتل الجيش السوري مواقع سبع صحف ومجلات وأغلقها.

في السنوات اللاحقة على هذه الإجراءات القمعية القاسية، هاجرت مجلتا الحوادث والدستور من لبنان، لتستقرا في لندن، ولم يبق إلا الصحف التي خضعت للسلطات العسكرية السورية[1].

كما أقدمت عناصر الأمن على طرد الصحفيين الذين يتطرقون إلى موضوعات لا ترضي الرسميين إلى خارج البلاد بأسلوب فظ ومعاملة غير لائقة، ففي شهر كانون الثاني من عام ١٩٨٦ حضر رجال المخابرات إلى فندق شيراتون في دمشق، واقتادوا مراسلة نيويورك تايمز إلى المطار قبل وقت قصير من موعد مقابلة لها مع وزير الخارجية فاروق الشرع، ومن دون أن يقدموا لها أي سبب أو إيضاح، فقد نقلوها على عجل إلى المطار، ثم إلى خارج البلاد.

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٨ .

يتعامل النظام السوري بقسوة أكبر مع الصحفيين العرب الذين يتوجهون بالنقد، سواء أكانوا يعملون في الخليج أم في أوربا، وقد قال بعضهم، ومنهم الصحفي السوري المبعد محي الدين اللاذقاني الذي كان يمارس مهنته في جريدة الوحدة في أبو ظبي، قال: إن الناشرين تعرضوا لضغوط كثيرة بهدف طردهم من أعمالهم، وقال آخرون: إنهم تعرضوا لمعاملة وحشية عدوانية، أو تلقوا تهديدات مختلفة.

٣- الكتاب الذي هو عنوان عريض من عناوين التقدم والرقي والتحضر، عدو بغيض للتتار الجدد الذين استولوا على دمشق، وانتهكوا حرمتها، ودفعوا بها إلى عهود التخلف والجهل والانحطاط، فالنظام الثوري التقدمي يراقب الكتب بشدة وغلظة، وكذا المسرحيات وقصائد الشعر والمحاضرات أو أي تعبير عام أو خاص عن الأفكار والآراء وأي فن قولي، غير أن أشد ألوان الرقابة تصب كل ثقلها على التحليل السياسي والعقائدي والديني والاجتماعي، وبشكل خاص ما يتعلق بالمناقشات عن سورية والشرق الأوسط، فالكتاب في نظر النظام التقدمي ينبغي أن يعكس وجهة النظر الرسمية قليلاً أو كثيراً. لقد ضيّقت السلطة على استيراد الكتاب من القاهرة لمدة طويلة، ومن بيروت التي دُمّرت بوصفها مركز النشر بسبب الحرب الأهلية، واحتلال مخابرات النظام السوري لها، مما أدى إلى قطع استيرادات الكتاب منها[1].

---

(١) التقرير: ٢٥٦ .

يعمل أكثر من رقيب على كل كتاب، يقرأ الخبير الأول الكتاب، ويُعدّ تقريراً عنه، ثم يرسل لاحقاً إلى رقيب آخر أعلى مسؤولية وصلاحية، حتى يصل إلى أعلى المستويات تسلسلاً خلال العديد من المكاتب والدوائر، وأخيراً تصل المواد الأكثر حساسية إلى مكتب الوزير!!

يبلغ الرعب بين الرقباء درجة قصوى عندما يأتي الاعتراض على عمل ما، سبق أن ووفق على نشره من جهات عليا، وربما تحصل الموافقة على توزيع عمل ما، إلا أن مستقبل من راقبه يبقى غير مضمون، إذ قد يقرر المسؤول الأعلى أن الرقباء أنفسهم وقعوا في خطأ، لذا يتجه النظام نحو منع العمل، ومعاقبة الرقباء.

تلاحق وصمة الأخطاء كتب التدريس في الجامعات، ومؤلفات أساتذتها بعد مدة من استعمالها وتداولها أحياناً، فتهدم حياة الأساتذة العائلية، لهذا يبذل الأساتذة جهوداً خاصة وحذراً إلى أقصى ما يمكن في أثناء التأليف كيلا تتورط أقلامهم بكلمة غير مرضية تودي بهم إلى أسوأ مصير!![1].

يعتبر الأستاذ علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب من المقربين للنظام السوري، بل والمتعاونين معه، ومع ذلك لم ينج من الاعتقال، ومنعه من حضوره مؤتمر يعقد في بغداد، إمعاناً في إذلال كاتب يعد من أصدقاء النظام، قبل أن يسمح له فيما بعد في ظل

---

(١) التقرير: ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦١ .

ظروف أخرى.

وقع الشاعر المعروف شوقي بغدادي في ورطة بعد إلقائه قصيدة في مؤتمر الاتحاد العام لكتاب فلسطين في تونس، وعندما عاد إلى الوطن استدعته المخابرات واستجوبته لثلاثة أيام، ثم أنذرته بالتخلي عن التمتع بمثل هذه الحرية مستقبلاً، وعلى مر السنين تعرض بعض الكتاب إلى الضرب المبرح، يذكر محي الدين اللاذقاني الذي جاء الحديث عنه قبل قليل أنه سجن بسبب قراءته لأحد أعماله الشعرية عندما كان طالباً في حلب عام ١٩٧١، ثم فصل في وقت لاحق من الجامعة، وحُرّم عليه العمل في الصحافة، فقرر بعد ذلك الهجرة إلى خارج الوطن.

أكثر الكتاب أضحوا نزلاء السجون، من بينهم الشاعر جمال سعيد في سجن تدمر، وكتاب القصة القصيرة: وائل السواح، ومصطفى حسين، ووديع اسمندر، وهيثم الخوجة الذي يعتقد أنه مات تحت التعذيب.

وكذلك الكاتب القصصي والاجتماعي إبراهيم عاصي الذي اعتقل في نيسان ١٩٧٩ ولا يعرف أهله عنه شيئاً، وكذلك كاتب الأطفال والروائي عبد الودود يوسف الذي اعتقل من منزله في دمشق في ٣١/ ٣/ ١٩٨٠ ولا يعرف أهله عنه شيئاً، والراجح أنهما قتلا تحت التعذيب.

يُحرّم الرقباء أي كتاب يشير إلى التمايزات الطائفية، ولهذا استبعدوا كل الدراسات الغربية عن سورية المعاصرة، ومن بين هذه

الكتب كتاب باتريك سيل عن سيرة أسد الذي أدرج على قائمة المنع بالرغم من أن حافظ الأسد نفسه كان قد منح سيل ساعات طويلة من وقته، واستضافه في أثناء زيارته لدمشق، واستقبله بحفاوة كبيرة، وخصص له مبلغاً مجزياً، إلا أن الأسد منع توزيع الكتاب بعد فترة من توزيعه، لأنه رأى فيه هامشاً من الحرية في معالجة الطائفية، وانتشار الفساد، وجمع الثروات الأسطورية من المال الحرام.

بيد أن أكثر الأعمال والمقالات والتسجيلات حساسية هي الكتب الإسلامية السورية والمصرية وما إليها، فقد صدرت قائمة بحوالي خمس مئة كتاب بالمنع لأنها تحمل اسم كاتب إسلامي أو مفكر، أو قائد أو داعية بدءاً من كتب الإمام الشهيد حسن البنا، وسيد قطب، وعبد القادر عودة، ومحمد الغزالي، والبهي الخولي، وسيد سابق، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، وسعيد حوّى، ولو كانت الكتب فقهية عن العبادة، أو تربوية عن التوجيه والتزكية والسلوك، أو تاريخية، أو قصصاً إسلامية، أو كتب سيرة أو تفسير... إلخ، وكذلك منعت كتب أدبية لكتاب مشهورين من أمثال الروائي المصري نجيب محفوظ، بالرغم من الحاجة إليها في برامج الدراسات الأدبية في جامعة دمشق.

وما ورد ذكره عن الإعلام والصحافة والكتاب، ينطبق على السينما، ولأقتصر على نبذة قصيرة عن محنة السينمائيين، فقد كان

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٢ - ٢٦٦ .

أشهر مـن عُرف من منتجـي الأفلام في تلك الفـترة: عمر عـامر علاء الذي أنهى أول فـيلم روائي طويل -الـحياة اليومـية في قريـة سورية- سنة ١٩٧٤، رسم الـفيلم صورة لإخـفاق برنامج الإصـلاح الزراعي، فلم يلق قـبولاً لدى الحزبيين، فاقترحـوا إجراء تعديل عليـه، وعندما رفض عمر عـامر علاء ذلك، حجـزوا النسخ، ومنعوا عرض الـفيلم، فغادر علاء إلى فرنسا عام ١٩٨١ حيـث تابع عمله الناجح مع تلفزيون فرنسا، فـاشتهرت أعمـاله في ألمانيا الغربـية واليونان وليبـيا والكويت والولايات الـمتـحدة الأمـريكيـة، ثم ظهـرت نخبـة من السـينمـائيـين السوريين مـوهوبة، من بينهم محـمد ملص الذي حصل على الـتتويج العالي بفـلمه الطويل -أحلام المديـنة- ثم أكمل فلمه -نجـوم النهار- في وقت لاحـق، إذ فاز بالجـائزة الأولى بمـهرجان فـينيـسيا، ثـم فاز بالجائزة الأولى في مـهرجان الرباط الدولي، ثم احتل الـفيلم الصدارة في مـهرجان أفـلام كان، ثم نال فـرصة الـتـوزيع التجـاري في إسبانـيا وألمانيا وسويـسرا وفرنسا، وعندما عرض في دمشق عـرضاً خاصاً لم يحظ بمـوافقة المسؤولـين، ولذا لم ير النور، ولـم يعـرض في سورية مطلقاً، فغادر كبار السينمائيـين الوطن الغالي إلى المنفى آيسين بائسين من مستقبل السينما في سورية[١].

٤- تعرضت الجامـعات منذ البداية في ظل هذا العهـد لما ابتليت به جميع المـؤسسات الثقافيـة والفكرية والتعليميـة، ومن ضمن ذلك: الجـامـعات، إذ اسـتـقطب الـنظام شبكـة واسعـة من عـناصـر الأمن

(١) الرقيب: ٢٦٩ - ٢٧١ .

والمخبرين لإحكام القبضة على فعاليات الوسط الطلابي الجامعي، وفرض السيطرة العقدية والفكرية على الجامعات.

يستذكر أحد أعضاء مجلس الأساتذة فيقول: في سنة ١٩٦٣ استدعاه العميد عبد الرؤوف الكسم -الذي أمسى رئيس جهاز الأمن فيما بعد- مستفسراً منه عن الحركة الطلابية، وكان الأمر في البداية سهلاً، أما الآن -كما يقول عضو المجلس- فإنهم لن يغفروا لك، ولا يدعونك وشأنك إذا أنت لم تتعاون معهم.

في عام ١٩٦٨ كانت الحركة الطلابية تغلي كالمرجل، وكان طلبة جامعة دمشق أول من احتج على استيلاء حافظ أسد على السلطة، تحت شعار: تسقط الديكتاتورية، يسقط النظام العسكري، ولكي يقضي الأسد على هذه المعارضة جاء بأخيه رفعت، وأطلق عليه في المؤتمر القطري السادس للحزب اسم رئيس مكتب التعليم العالي في القيادة القطرية، متمتعاً بصلاحيات تشمل كل الجامعات، وتهيمن عليها، وكان رفعت ما يزال قائداً لسرايا الدفاع، وأحد أقطاب الأمن في القطر السوري، فقام رفعت على الفور بتوسيع قاعدة المخابرات في الجامعات، مجنداً المئات من المخبرين، بهدف تشخيص أعضاء حركة المعارضة الطلابية، حتى طرد الكثير من الطلبة دون أن يكون لهم حق الاستئناف أو التماس العودة.

استعمل رفعت سياسة الترغيب والترهيب، فكان يقدم للمدرسين الحميمين فرص السفر والأمان والمال، ويقدم لطلبة المدارس الثانوية الذين ينضوون أو يلتحقون في تدريبات المظليين الخاصة، علاوات

تضاف إلى مجموع درجـاتهم، مما يسهل اجتياز اختـبارات القبول في الجامـعة، فيـحصلون بهـذه المساعـدة على مقـاعد دراسية فـي أفضل الكليات الجامـعية -مثل الطب والهندسة والصيدلـة- ويحجبون بذلك الطلاب المتفوقين الذين حصـلوا على أعلى الدرجات التي تقترب من الكمال، وكذلك كان شأن البعث في العـراق فيما يتصل بالالتحاق في الجامعات، وعندما نمت الحركة الطلابيـة، سحقها النظام بقسوة بالغة ودموية رهـيبة، فعـندما توجـه طلبة جامـعة حلب بمـسيرة فـي خريف ١٩٧٩ إلى إدارة المـخابرات في منطـقة السبـيل، فتحـت قوات الأمن النار عليهم، فقتلت ثلاثة منهم، وجرحت كثيرين غيرهم، ثم اعتقلت أكثر من مئة طالب.

وفي شهـر آذار عام ١٩٨٠ احتل الـجيش جامـعة حلب، واعـتقل المئات من طلبتها، كما اعتقل المئات من جامعات دمشق واللاذقية.

وفي بدء خريف ١٩٧٩ طـردت السلطة أربعة أساتذة يـساريين من جامـعة دمشـق، واعتقل تـسعة آخـرون، يظن بوجـود انتماء لـهم إلى حـركة الإخـوان المـسلـمين، وبأقل مـن سنة واحـدة ١٩٧٩-١٩٨٠ طردت السـلطة أو نقلت إلـى وظائف كتـابية في الوزارة أكـثر من مـئة أستاذ جـامعي، واعتقـلت عشرات آخريـن، فتعطل البـرنامج الدراسي كاملاً فـي كلية الطب وحـدها لأكثر من سنـتين، إذ لم يبق في الـكلية أساتذة في قسم التشريح، مع توافر الجثث على وجه التحديد!!

حل أحمـد دياب محل رفعت فـي مسؤولية التـعليم العالـي، ليقع منصـب أعلى رتبـة في التـعليم الـجامـعي والعالـي في أحضـان دائرة

المخابرات ورجال الأمن!! الذين يواصلون تدخلهم في قبول الطلبة والنجاح والترقية.

وطبقاً لما أورده باتريك سيل: صعدت ابنة أحد قادة الأمن لأداء الامتحان مع مجموعة من الحرس الخاص، فأصرت أن يتولى الأستاذ مساعدتها في كتابة إجاباتها!!

أما الأساتذة الذين يعينون في الجامعة، فإنهم يجبرون على الانتماء للحزب، وإذا ما أرادوا إلقاء محاضرات عامة، حتى ولو في الفيزياء النووية يتعين عليهم أخذ موافقة المخابرات.

في ختام هذه المأساة عن أعلى الصروح الثقافية والتعليمية التي أخضعت لأجهزة المخابرات كشأن مرافق الحياة كلها في سورية، نشير إلى أستاذ الأدب الإنكليزي هاني الراهب الكاتب المعروف، والذي انتدب إلى جامعة صنعاء، فعندما ألقى محاضرة في دمشق ودعا فيها إلى حرية الصحافة، استدعاه المسؤول البعثي القيادي واتهمه بتأييد كامب ديفيد، ثم اعتقلته عناصر الأمن عندما كان وعائلته يهمون بالمغادرة على متن طائرة عائدين إلى صنعاء حيث يعمل مدرساً في جامعتها، وتم سحب جواز سفره، وسرّح من وظيفته كأستاذ في جامعة دمشق، وظل عامين محروماً من المغادرة، حتى أذن له بعد ذلك في الخروج إلى العمل بجامعة الكويت[1].

فمن الذي كان أشد عداءً للكلمة، وحرية التعبير، والتفكير، وآدمية البشر، وكرامة الإنسان، وحقه في التملك والتعليم والحياة؟

---

(١) التقرير: ٢٧٢ - ٢٧٩ .

الأوربيون في القرون الوسطى يوم كانوا ينفذون حكم الإعدام حرقاً وقتلاً بالمقصلة وبالوسائل الأخرى بالعلماء العباقرة الذين يبدعون في مجالات الفيزياء والكيمياء والطب والفلك؟ أم المتوحشون الذين غلبوا المواطن السوري على أمره، فاستباحوا ماله ودمه وشرفه، وكمموا أفواه الناس، وحاكموهم على معتقداتهم وانتماءاتهم وكلماتهم التي انتقدوا بها الظلم، أو نصحوا الظالمين، أو اقترحوا أمراً مفيداً للوطن والمواطن مثل حرية الصحافة وحرية العقيدة، والتوقف عن ملاحقة أرحامهم وأفراد عائلاتهم وأقربائهم، وأخذهم رهائن!! وتغييب شبابهم وبناتهم في ظلام السجون سنين طويلة دون أن يعرف المواطنون شيئاً عن مصير أبنائهم وبناتهم!

نترك ذلك للتاريخ ليقول كلمته في هكذا حكم، وللمؤرخين ليسجلوا عن تلكم الفترات المظلمة في تاريخ الإنسانية، وأيها كانت أقسى على البشرية وبني آدم؟ هل هي محاكم التفتيش في إسبانيا؟ أم عصور الظلام في أوربا يوم قتلوا غاليله العالم العبقري؟ أم فترة الغزو الصليبي يوم قتلوا في القدس وحدها مئات الألوف، منهم سبعون ألفاً داخل المسجد الأقصى؟ أم العهد الستاليني يوم أباد تسعة عشر مليوناً، ونفى إلى مجاهل سيبريا ملايين البائسين؟ أم فترة الغزو الصهيوني بدعم الإنكيز والأمريكان لفلسطين وطرد أهلها بعد المجازر التي اقترفتها أيديهم الأثيمة بحق الآمنين الوادعين المسالمين من شعب فلسطين. أم عهد التسلط الأسدي الوحشي على السوريين،

وإبادة عشرات الألوف -في حماة وفي إحدى المجازر عام ١٩٨٢ زهاء أربعين ألفاً- في حماة، وحلب، وسرمدا، وجسر الشغور، وجبل الزاوية، والمنطقة الشرقية، ومدن الساحل، وفي أقبية السجون التي بلغ عددها حوالي ٨٠ قبواً مخصصة للتعذيب والقتل والاغتصاب، وفي سجن تدمر سيء الصيت الذي شهد ذبح ما يقارب عشرين ألفاً (كما جاء في كثير من المراجع العربية والأجنبية) من الصفوة والخيرة من أبناء سورية الصابرة.

أعود متسائلاً: أي الفترات في التاريخ كانت أشد قسوة وهمجية ووحشية على الإنسان؟

هل هي الفترة التي مررت على ذكرها، أم هو عهد هذه الفئة الباغية التي لم تشهد سورية قبلها من يحمل حقداً كحقدها ضد الوطن وأهله، وكأنهم يثأرون من أبناء سورية للتتار والمغول والصليبيين والفرنسيين وجميع الغزاة والمستعمرين والمعتدين على سورية في القديم والحديث.

ومع ذلك نادى لفيف من المحسوبين على الدعوة الإسلامية من السوريين وغيرهم بعقد اتفاق وتفاهم مع الفئة الباغية تشمل تشكيل جبهة داخلية متماسكة، ووحدة وطنية عتيدة، وأن يكونوا معها في خندق واحد ضد العدو المشترك، وكأنهم يشهدون لهم زوراً بأنهم ضد العدو الصهيوني، متجاهلين تعاونهم مع العدو ضد الوطن والمواطنين في هذه المرحلة البائسة الظلماء.

ثالثاً - سحق الإسلاميين وتصفيتهم

لم يعد النظام في سورية بعد أن فرض حافظ أسد نفسه رئيساً للجمهورية، وبعد أن فرض دستوراً يعطيه صلاحيات مطلقة أن يفعل ما يشاء دون رقيب أو حسيب أو مساءلة من أي سلطة كانت، تشريعية أو تنفيذية أو قضائية.

لم يعد النظام يخشى أحداً في داخل سورية، أو من خارجها، بعد أن أسكت الأصوات كلها، وأبعد شركاءه في الانقلاب والحكم، ونال رضى القوى الكبرى والنافذة في المحيط الدولي، فشرع يطبق سياساته التي كان يكتمها، وينفذ أهدافه التي لم يكن يجرؤ على الإعلان عنها.

١- ابتدأ بتصفية شباب الإخوان المسلمين، ومطاردتهم والتنكيل بهم بعد أن زج شيوخهم وقادتهم في السجون لاعتراضهم على الدستور ورفضه في ٣١-١-١٩٧٣، فطارد الشباب في البيوت والشوارع والبساتين التي فروا إليها، ومارس عليهم التعذيب حتى الموت، والاغتيال في أثناء مطاردتهم.

من ذلك على سبيل المثال، أن المخابرات ألقت القبض على الشاب المؤمن التقي حسن عصفور في الدائرة التي يعمل بها في حماة، واقتادوه إلى السجن عام ١٩٧٤، ومارسوا عليه تعذيباً وحشياً فوق طاقة البشر، أفضى به إلى الموت، ليلحق بركب الشهداء، والشهيد حسن عصفور كان من رواد المساجد، ومن المداومين على الجامع النوري -نسبة إلى نور الدين الشهيد الزنكي الخليفة الراشد

السادس- والتلقي فيه عن الوعاظ والدعاة: الفقه والتربية والتوجيه السديد، ولاسيما مفتي حماة المصلح الأكبر الشيخ سعيد النعسان الوردي الذي خرج أجيالاً من هذا المسجد ومن غيره من جند الإسلام.

لقد كان من أبرز صفات الشهيد حسن عصفور أنه كان مهذباً يغلب عليه الحياء في لقائه مع شيوخه وأساتذته ومن يكبره سناً، فإذا ما تحدثنا معه احمرّ وجهه أدباً وخجلاً.

كما اغتالت عناصر المخابرات الشاب الصالح أحمد زلف من حماة، بعد مطاردته في أحد بساتين حماة، فأردوه قتيلاً.

وقتلوا قائد الشباب، ورمز الفدائيين المجاهدين، وعنوان الصابرين الصامدين الصادقين، سيد شهداء حماة وسورية: مروان حديد الذي كان عنواناً في الإقدام والجرأة وقول الحق، دون أن تأخذه في الحق لومة لائم. فقد طارده البغاة في مدينة دمشق من حي إلى حي، ومن عمارة إلى أخرى، حتى ألقوا عليه القبض في عام ١٩٧٦، بعد معركة حشدوا لها قوة كبيرة من عناصر الأمن والمخابرات، لم يلبثوا أن قتلوه في إبرة حقنوه بها في عنقه كما أشار هو بيده إلى مكان ضربها في رقبته قبل أن يغادر الحياة، ويلحق بجوار ربه راضياً مرضياً مع الشهداء والصديقين والصالحين، كما قتلوا المؤمنة الشهيدة غفران أنيس عام ١٩٧٦، وآخرين من أبناء الجماعة وشبابها ودعاتها الصالحين.

قدر بعض الإخوة القادة -والفقير إلى الله في عدادهم- أن من

أسباب هذه الحملة الشرسة على الجماعة: نجاحها في استقطاب المواطنين من مختلف الشرائح الاجتماعية -رغم الحظر المفروض عليها، ومراقبة ومطاردة أعضائها- ولاسيما النخب المثقفة، وأبناء الطبقة الوسطى، وأعضاء النقابات العلمية، مع إصرار الجماعة بقرارات مسجلة، وفي الخطة التي التزموها وصادقوا عليها، والتي سنعمد بإذن الله في هذا المجلد إلى نشرها، أن لا تنجر الجماعة إلى الصدام مع السلطة تحت وطأة أي ظرف، ومهما فعلت السلطة من استفزازات لدفع الإخوان إلى صدام لا تحمد عقباه، بل على الجماعة أن تتجنب الصدام مع النظام المتعطش لسفك الدماء.

٢- تزامنت هذه الحملة الشرسة ضد الإخوان المسلمين ورجال العمل الإسلامي، وأبناء الدعوة الإسلامية وما رافقها من مطاردة واعتقال واغتيال وقتل في السجون، تزامنت هذه السياسة الاستئصالية بالانفراج مع اليهود، والتعاون مع الإسرائيليين على أكثر من صعيد، كان من أبرزها:

أ- القبول بقرار مجلس الأمن الدولي ذي الرقم ٣٣٨ المؤرخ في ٢٢-١٠-١٩٧٣ الذي ينص على وقف إطلاق النار في البر والبحر والجو، والامتناع عن كل الأعمال العسكرية بين سورية وإسرائيل، والتوقيع على فك الارتباط مع الصهاينة في ٣٠-٥-١٩٧٤، والذي جاءت تفاصيله مهينة لسورية، إذ شعر الضباط السوريون وهم يقرؤون نصوصه بالهوان، حتى إن العميد عدنان طيارة رئيس الفريق السوري، طلب إخراج جميع المصورين والمراسلين من مقر الأمم المتحدة في

جنيف أثناء التوقيع، شعوراً منه بأنه يوقع وثيقة ذل ومهانة، بينما كان كيسنجر وجولدا مائير يتبادلان القبلات، وذكرت وكالة الأنباء الإسرائيلية أن القيادة العسكرية الإسرائيلية أصدرت أوامرها بفتح زجاجات الويسكي والشمبانيا مجاناً لجميع الجنود على طول خطوط المواجهة مع سورية، أما حزب البعث الحاكم -حكم الأقلية الطائفية- في دمشق، فقد وافق بالإجماع على هذه الاتفاقية، وذكرت صحيفة البعث الرسمية أن الاتفاق انتصار لسورية على إسرائيل.

لقد فقدت هذه القيادة أو بالأصح هذه الزمرة الحياء، أو بالأصح لم يكن لديها أو بها وازع أو حياء، فكل هزيمة تُمنى بها تسميها انتصاراً، وضياع ١٠٠٠٠ عشرة آلاف كم٢ من أراضيها في حرب حزيران عام ١٩٦٧ تسميه انتصاراً طالما أن الحزب استمر في السلطة، وضياع أكثر من ٣٠ قرية في حرب ١٩٧٣ تسميه انتصاراً، والتوقيع على وثيقة الذل والمهانة في فك الارتباط تسميه انتصاراً وهكذا.. إلخ.

ذكر أحد مرافقي كيسنجر: أن الطرفين -السوري والإسرائيلي- اتفقا على حل مسألة تسلل الفدائيين إلى إسرائيل، على أن يظل الاتفاق وتفاصيله سرية، وأكدت الصحف الإسرائيلية: أن الزعماء السوريين أخبروا وزير خارجية الولايات المتحدة أنهم سيعارضون عمليات تسلل الفدائيين من أراضيهم، لكنهم لا يستطيعون إعلان ذلك، أو أن ينصوا عليها في اتفاق فصل القوات.

أ- أصدر الأسد المرسوم رقم ٣٨٥ بخصوص العفو عن ٢٣

جاسوساً إسرائيلياً محكومين بالأشغال الشاقة المؤبدة، إذ نصت المادة (١) بمنح المحكومين عفواً خاصاً عن المدة المتبقية، المحكومين بها من قبل المحكمة العسكرية بقراراتها رقم ١١٣٢/ ١١٥٤، ٢١٤/ ٢٠، كما نصت المادة (٢) أن لا ينشر هذا المرسوم بالجريدة الرسمية، ويبلغ من يلزم لتنفيذه.

نسخة إلى المحامي العام، دمشق الرقم ٢٢٠٤

رئيس الجمهورية: حافظ أسد

وزير العدل: محمد أديب النحوي

ب- ثم سمح للمسجونين من جواسيس اليهود الذين شملهم العفو الخاص الصادر عن رئيس الجمهورية بالسفر إلى فلسطين المحتلة، بعد أن تم الإفراج عنهم، مع أنهم سوريون من الطائفة اليهودية، وكأن الأسد بهذا العمل يبيح للعدو أعمال التجسس على الأرض السورية، ويعتذر عما فعلته الحكومات السابقة على انقلاب ٨ آذار بحقهم، باعتبارها حكومات رجعية وليست ثورية تقدمية.

إن شعباً مسكوناً بالخوف والرعب (يخشى صفير الصافر) ليس مؤهلاً لخوض المعارك والدفاع عن أرضه وعرضه، والتصدي للغزاة والمعتدين، وإن شعباً فقد مقومات شخصيته الاعتبارية العريقة، وتخلى عن مثله العليا -طوعاً أو كرهاً- أو انتزعت منه قيمه الأصيلة الرفيعة، ليس مؤهلاً كذلك لخوض معارك الشرف والفداء، ليبلغ إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

ج- لقد عمل النظام بتخطيط وقيادة حافظ الأسد على تمزيق الروابط الأسرية عبر منظمة الاتحاد النسائي، وباسم حرية المرأة، وإطلاق العنان لمجرميه في ممارسة كل أنواع الفجور والإفساد الخلقي، ونهش الأعراض سراً وعلانية، لدرجة اختطاف بعض الحرائر من الشوارع والمدارس والجامعات.

وقد جاء الحديث عن هذه الفقرة الأخيرة الموجزة خارج السياق، ليسهل على القارئ أن يقارن بين هاتين الصورتين المتضادتين في الصلة مع جواسيس إسرائيل وجنود العدو، وفي معاملته للفئة المؤمنة والمواطنين المخلصين، وكل ذنبهم ومصدر النقمة عليهم، ما قاله جل شأنه: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد[1]﴾ ولكن القول الفصل إنما هو في الخاتمة التي تنتظر المؤمنين الصابرين والطغاة الفاجرين، في هذه الدنيا الفانية، وفي دار الثواب والعقاب، فانتظروا أيها البغاة، وإننا -نحن المؤمنين الموقنين بنصر الله- لمنتظرون.

ومن ذلك ما فعله فواز بن جميل الأسد من اقتحام المقاهي، وترويع روادها، بتوجيه الأوامر الصارمة لهم أن ينبطحوا على الأرض تحت الطاولات، وما فعله من دخوله إلى فندق هيلتون وغيره مطلقاً النار من مسدسه أو معتدياً على النزلاء، فكثرت في هذا الجو وفي هذه الفترة اعتداءات العصابات من عائلة الأسد ومن يدور في فلكهم على النساء، وقد ذاعت هذه الاعتداءات المرعبة، ومن ذلك ما شاع

(١) سورة البروج الآية ٩.

عن مأساة الفتاة ن. ع -التي ذكرها كتاب: حوار حول سورية بالاسم- التي خطفت من أحد شوارع المدينة، واغتصبت طيلة ثلاثة أيام قبل أن يطلقوا النار على ثديها الأيسر، ويلقوا بجثتها في أحد شوارع اللاذقية، وعندما نعاها ذووها هددهم ضابط الأمن باعتقال شقيقتها، إن لم تستبدل بأوراق النعي هذه، أوراقاً تخلو من ذكر أسباب الوفاة، كما ضجت اللاذقية بموت الشاب الطالب الجامعي صفوان الأعسر الذي ضربه أحد أبناء الأسد فرد عليه، فما كان من ابن توفيق الأسد، إلا أن أسرع إلى مسلحيه، فتتبعوا سيارة الباص التي ركبها الأعسر، ثم أوقفوها، وصعدوا إلى داخلها، وطعنوا الشاب بالسكاكين إلى أن مات على مرأى من جميع الركاب في باص النقل العام، وقد مر معنا كيف قتل محمد بن توفيق الأسد رجلين من المخابرات اعترضا سيارات له تنقل مخدرات من طرابلس إلى تركيا عبر الأراضي السورية[1].

كذلك شرعت السلطة بتنفيذ برنامجها في الضلال والانحلال في المناهج التعليمية والدراسية، وتشويه مبادئ التربية الإسلامية، وتمجيد الحركات الهدامة كحركة الزنج -التي هدمت البصرة وقتلت كثيراً من فقهائها وصلحائها- وحركة القرامطة الإباحية التي روعت العالم الإسلامي، وقتلت الحجاج في مكة، ورمت جثثهم في بئر زمزم، واقتلعت الحجر الأسود من مكانه، وأخفته فترة زادت على عشرين عاماً، ونشرت الرعب بين المسلمين في كل مكان، ولاسيما

---

(١) حوار حول سورية: ٧٩-٨٠ .

في الجزيرة العربية، فإذا بنظام الأقلية الطائفي، يشيد بهذه الحركات -ولاسيما القرامطة- ويعتبرها حركات تقدمية تحررية ثورية، يثني عليها في المجلات الحزبية مثل مجلة العمال، وكان لوزيرة المغتربين الحالية بثينة شعبان مساهمات بقلمها في هذا التشويه الصارخ لتاريخنا المجيد.

كما أمعنت السلطة الغاشمة في سورية في عمليات الإفساد الواسعة للأجيال الصاعدة، إذ فرضت نظام الطلائع البعثية في المدارس الابتدائية، ونظام الشبيبة في المدارس الإعدادية والثانوية، وأكرهت الطلبة على الالتحاق بهذه المنظمات، والمشاركة بمعسكراتها الفاسدة، وشجعت التلاميذ على التجسس ضد أساتذتهم ومربيهم!!

رافق ذلك حملة تطهير تعليمي في المدارس الثانوية، وكذا في الجامعات في كل سورية، وإبعاد مئات المعلمين والمدرسين عن وظائفهم، وتحويلهم إلى أعمال لا تمت إلى التعليم بصلة، مثل التموين والبلديات والأشغال العامة والمواصلات كما سيأتي تفصيل ذلك في سياقه وفي إبانه، لأن هؤلاء متهمون بالنزعة الإيمانية، سواء أكانوا من الإخوان المسلمين أم من غيرهم من ذوي الميول الإسلامية، وهذا دليل واضح على أن حربهم قد أعلنوها على الإسلام، وشنوها على كل ما يمت إليه بصلة، ليسلموا الأجيال الصاعدة إلى المنحرفين الضالين والمفسدين المعروفين في أوساطهم بالمجون والانحلال وسوء الأخلاق ومن هم على شاكلتهم.

٤- اندفع المتنفذون المتسلطون في الحكومة كالمسعورين إلى جمع الثروات الطائلة والمال الملوث، وصار هم ضباط الجيش -أبطال الجولان- وضباط الأمن: عقد الصفقات مع التجار ورجال الأعمال واستلام العمولات، والمشاركة في الأرباح ليكون لهم نصيب الأسد، وعمليات التهريب الواسعة من لبنان، حتى إن أي تاجر من الكبار أو متوسطي الحال لا يستطيع مزاولة العمل التجاري أو الصناعي، في الاستيراد والتصدير أو الحصول على رخص بإنشاء المصانع، إلا بحماية أحد المتنفذين من رجال الجيش أو الأمن العلويين، ومعظمهم من عائلة الأسد وأقربائه وأبناء قريته ومنطقته والمقربين إليه، وقد كان علي حيدر نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية، ذا شهرة واسعة بالسطو على استلام الرشاوى والعمولات، ومشاركة رجال الأعمال، واستلام ٢٠٪ أو خمس وعشرين بالمئة على اختلاف الروايات حتى صار مضرب المثل في سورية، ليحذو حذوه المتنفذون من أبناء طائفته في السلطة، تاركين الجبهة مع العدو في أيد أمينة، وتعاون وتنسيق مع العدو منذ مجيئهم للسلطة بعد عام ١٩٦٣ .

وعندما استلمت حكومة السفاح مليارات الدولارات من السعودية والعراق ودول الخليج باسم الصمود والتصدي ومواجهة إسرائيل، سرعان ما تبخرت هذه الثروات العريضة، وذهبت إلى جيوب الذين لا يشبعون ولا يرتوون، فظهرت طبقة المليارديرات في أواخر السبعينيات من القادة الثوريين التقدميين، والضباط الشجعان أبطال

الجولان، حتى إن عبد الله الأحمد عضو القيادة القطرية للبعث قدر عدد المليونيرات في نهاية السبعينيات بواحد وعشرين ألف مليونير، والشعب يتضور من الجوع[1].

لم تأت الثمانينيات حتى أضحت سورية قطراً منهوباً، وثرواته ومقدراته مستباحة بصورة رهيبة وغير مسبوقة، لم يواجه السوريون مثلها في تاريخهم القديم والحديث، مما سيأتي تفصيلاً ومحيراً للعقول في هذه الفترة البائسة.

أما ميزانية الدولة، فكان سلبها سهلاً وميسوراً، لأنها في قبضة اللصوص والمفسدين، وكذا القطاع العام الذي استلمه المرتزقة والمختصون بالسلب والنهب والسرقة والرشوة، الأمر الذي أدى إلى خرابه وإفلاسه، شأن الميزانية العامة للدولة.

رابعاً- هدم الصرح القضائي

كان القضاء في سورية من أرقى الأنظمة القضائية، ليس في العالم العربي فحسب، بل في العالم أجمع، كان القضاء نزيهاً وصارماً ولا يجامل أحداً، ولا تأخذه في الحق والعدل لومة لائم، وكان المواطنون يطمئنون إلى الأقضية والأحكام، سواء أكانت لهم أم عليهم. وكان المجلس الأعلى للقضاء يحاكم الدوائر والمؤسسات والوزراء ورئيس الجمهورية، لصيانة الدستور وحفظ القوانين، وانتزاع الحقوق وردّها لأصحابها المواطنين العاديين، فكان للقضاء السوري

(١) حوار حول سورية: ١٧٦ .

سطوة رهيبة في نفوس السوريين كباراً وصغاراً، وفي مقدمتهم رئيس الجمهورية، يحسبون حساب المجلس وسلطته القضائية ويهابونه.

كان عبد القادر الأسود رئيس المجلس قاضياً كبيراً ذا سمعة عطرة، ونزاهة مشهود لها في طول البلاد وعرضها، وقد عرفت سورية شخصيات قضائية كبيرة من أمثال محمد آقبيق، وعلي الطنطاوي، وأخيه ناجي، والشيخ الأسطواني، وعشرات غيرهم في دمشق، وكذا عبد القادر الأسود، ومصطفى برمدا، ومحمد علي سيرجية، وكثيرين في حلب، ومصطفى الحداد في حماة، وأنيس الملوحي في حمص، وأعداداً كثيرة يصعب عدها وحصرها علينا، عرفوا جميعاً بالاستقامة والعدالة وتحري الحقوق، والترفع والسلوك العاطر في ابتعادهم عن الشبهات، وعن الاختلاط الواسع بالناس أو إجابة الدعوات أو قبول الهدايا ليظلوا فوق الشبهات في الواقع، وفي نظر المواطنين.

٦- استمر حال القضاء السوري هكذا حتى حكمت الأقلية الطائفية الحاقدة على كل شيء، فأُقصِيَ خيرة القضاة عن منصات القضاء، وعن مناصبهم، وجاءت السلطة بقضاة جهلة فاسدين مرتشين، أضاعوا حقوق الناس وأموالهم، ودماءهم، وأعراضهم وأرواحهم، وعُطّل القضاء المدني تعطيلاً شبه كامل، وصار ينظر في القضايا الصغيرة، أما القضايا الخطيرة والكبيرة فصارت تُعرض على محاكم عسكرية واستثنائية يحكم فيها السفلة في الوطن المنكوب.

ذكر المؤلف البريطاني آلن جورج نبذة عما آل إليه القضاء في

سورية بعد زيارة قام بها إلى قصر العدل، أو قصر الظلم كما يسميه المواطنون حسب تعبير المؤلف، فشاهد في إحدى القاعات قاضية تدعى فيحاء الأسد من مدينة اللاذقية، تتربع على منصة القضاء، وتنظر في قضية رجل متهم بالعمل دون رخصة رسمية، فسمع القاضية تقول: إنها تستطيع سماع حوالي ثلاثين دعوى من هذه الدعاوي في يوم واحد!! وفي الطابق الثاني شاهد المؤلف قاضية أخرى تنظر في دعوى رجل افتتح حانوتاً دون الرخصة الرسمية اللازمة[١].

تركت حكومة الأقلية مثل هذه الأمور الصغيرة للقضاء الذي لم يعد يحظى باحترام أحد، وشكلت السلطة المحاكم الاستثنائية منذ وقت مبكر بعد انقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣، وفي آذار ١٩٦٨ جاء المرسوم ٤٧ باستبدال المحاكم العسكرية الاستثنائية بمحكمة أمن الدولة لمحاكمة القضايا السياسية والأمنية، ومحكمة الأمن الاقتصادي، للتعامل مع الجرائم الاقتصادية، وقد لاحظت لجنة مراقبة الشرق الأوسط أن شواهد الإثبات فيها ليس لها أساس قانوني -مثل الإشاعات- أو آراء المدعي العام، كما لا يمكن الاستئناف أبداً، وثمة نوع آخر من المحاكم الاستثنائية، هي المحاكم الميدانية التي يمكن إقامتها حسب مرسوم إنشائها في أي مكان خلال المواجهات المسلحة، غير أن هذه المحاكم استعملت للتخلص من معارضي النظام، ثم جاء تعليق لجنة مراقبة الشرق الأوسط على هذه

---

(١) سورية لا خبز ولا حرية: ٢٢٧-٢٢٨ .

المحاكم الاستثنائية كما يلي: المحاكم مغلقة -سرية- وقراراتها قطعية، وفي أحسن الأحوال تعين المحكمة نفسُها ممثلاً قانونياً للدفاع عن المتهم، وبعد صدور الحكم يوافق عليه رئيس الجمهورية، وهو أمر محسوم، والرئيس أو وزير الدفاع في حالة المحاكم الميدانية هو الذي يعين القضاة، وليس مطلوباً في هؤلاء القضاة أن يكونوا من رجال القانون، بل هم، في أغلب الأحيان، من الضباط العسكريين، أو من قيادات حزب البعث، وإذن فالمحاكم هي خارج النظام القضائي تماماً، وأما قراراتها فتبدو أنها متخذة مقدماً من أجهزة الأمن التي قامت باعتقال وسجن المتهمين ضحايا النظام، ويسجل التقرير: أن النظام قتل على الأقل عشرة آلاف من مواطنيه خلال السنوات العشرين الماضية، وهو مستمر في القتل بالمحاكمات الميدانية الجماعية والعنف المطبق في السجون، التي يُعذب فيها المعتقلون بصورة روتينية، ويوقف الآلاف دون تهمة، أو محاكمة لعقد أو عقدين أو ثلاثة عقود[1].

٢- يعقب صاحب كتاب: سورية لا خبز ولا حرية بقوله: كان القضاء السوري قبل فترة الوحدة مع مصر، الأنظف والأدق والأكثر موضوعية في الشرق الأوسط، وهو ما صرّح به البروفيسور محمد عزيز شكري (رئيس دائرة القانون الدولي في جامعة دمشق، وأحد الخبراء القانونيين الأكثر تقديراً واعتباراً في سورية) قائلاً: الآن أضحى القضاء السوري من أوسخها وأقلها كفاءة ومهارة، وهو بالتحديد

(١) المرجع السابق: ٢٤٤- ٢٤٥ .

فاسد، فاليـوم يمكنك الوصول إلى القضاة عن طريق العـلاقات العامة أو الصداقـات وشرب الخـمر والنسـاء -على حد تعـبير مـحمد عـزيز شكري- أو عن طريق المال.

ثم يتـابع شكـري قائلاً: أنـا أعرف عن بعـض المحـاميـن أنهم لا يفهمـون شيئاً في القانـون، ولكنهم يربحون كل القـضايا، وأعرف أن هؤلاء المـحامين يـتسلمـون مليون ليـرة كدفعـة أولى، ويتعـاملون مع مهربي الحشيش، ومع القتلة، وفي القضايا الكبيرة والثقيلة.

إن الفساد -ما زال الكلام لشكري- موجود في كل المحاكم حتى التي تسمى عـسكرية، أما القضاة الـجيدون، فهم إما في التـقاعد، أو أنهم سُرِّحوا من وظائفهم، ثم يـقول: ذكر لي مصدر سري من داخل النظام الـقضائي أن في الـمحاكم الجـنائية ومـحاكم الأمن الاقتـصادي تنتـشر الرشوة، وتؤثـر على ٨٠٪ إلى ١٠٠٪ من القـضايا المرفـوعة، وكلـما كـان المـتـهم أغنـى أو أكثـر نفـوذاً، ازداد احـتمـال الرشـوة، والأسعار مـحدودة إلى حد ما، وثمـة سلّم للاتهامات والمـدفوعات، فممارسة البغاء (٥٠٠) دولار، والتهـريب ٢٠٪ من قيمة المسروقات، والقضاة يستعملون وسطاء، ولكل قاض وسيطه[1].

٣- جاء هـذا التشـخيـص عام ١٩٩٠، فـهل تغير شيء مـن هذا القـضاء الفـاسد بعـد تسعة عـشر عـاماً، إذ تكتـب هذه الكلمـات في منتصف عام ٢٠٠٨؟ الجواب: نعم ولكن للأسوأ.

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٦-٢٥٧ .

لقد استشرى الفساد في كل مرافق الحياة في سورية، ولم يكن في عام ٢٠٠٢ أية إشارة لتحرك جاد لإصلاح الجهاز القضائي لتبرير غياب كلي تقريباً للعملية القانونية[١].

هكذا دمر الفساد أعتى وآخر حصوننا التي كان يلجأ إليها المواطن إذا ألمت به كارثة، أو وقع عليه اعتداء، أو نزلت بساحته مصيبة، فلم يعد له ملجأ إلا الله، ولم يعد يملك حتى الشكوى من ظلم هذه الشرذمة المتسلطة على المواطنين في أموالهم وحرماتهم وحرياتهم وكل مرافق حياتهم، بانتظار حدوث فرج قريب، وتخليص البلاد والعباد من بغي النظام وشره، ويسألونك متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً، فالمؤمن لا ييأس من رحمة الله وعدله، ومن انتقامه من الظالمين، ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[٢].

خامساً - سحق الفلسطينيين واللبنانيين

استفحل أمر المقاومة الفلسطينية في جهات عدة، ولاسيما على الأرض اللبنانية، وصارت تملك قوة ضاربة، وآلاف المقاتلين، وكميات هائلة من الأسلحة والذخيرة، وتقيم علاقات واسعة ومتينة في المحيط الدولي، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ومنظمة الدول الاشتراكية في أوربا وآسيا، فشعرت إسرائيل بشدة بأس المقاومة وخطرها عليها، وأنها أمست مصدر تهديد للكيان الصهيوني الذي

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٨ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٢ .

يسيطر بدعم دولي على كل الأراضي الفلسطينية، أما الشعب اللبناني فقد وقف مع المقاومة الفلسطينية التي مكنها اتفاق القاهرة من أن تصبح دولة داخل دولة، بل وأقوى من الدولة اللبنانية نفسها، وشكل اللبنانيون جبهة عريضة تضم معظم الفئات والطوائف اللبنانية، برئاسة كمال جنبلاط لمساندة المقاومة الفلسطينية.

٦- حصل تحرش بالفلسطينيين في فرن الشباك من بيروت، وقتل ركاب باص فلسطينيين، لتفجير أزمة حادة بين اليمين اللبناني المسلح، وبين الفلسطينيين وحلفائهم، واشتعلت نار حرب أهلية في كل أصقاع لبنان راح ضحيتها عشرات الألوف من الفريقين، وانخرطت فيها كل فئات الشعب اللبناني وطوائفه، فكان الانقسام حاداً في كل المحافظات الشمالية والجنوبية وفي الوسط.

استمر هذا الصراع مدة طويلة، سيطر فيه الفلسطينيون والجبهة الوطنية المساندة لهم على أكثر من ٨٠٪ من الأراضي اللبنانية، وبدأت كفتهم بالرجحان، وبدت ملامح الهزيمة على خصومهم الذين حوصروا في بيروت الشرقية، وفي شطر من جبال لبنان، ومن الساحل حوالي جونيه، تحصن فيه اليمين اللبناني، ومن كان يسميهم خصومهم بالانعزاليين من الكتائب والقوات اللبنانية ونمور الأحرار والمردة وحراس الأرز وحلفائهم.

من أبرز الدوافع لهذه الحرب الأهلية المدمرة خشية المسيحيين من ترجيح كفة المسلمين إذا انضم إليهم الفلسطينيون الذين هم من السنة في أكثريتهم العددية، وعندما شعر اليمين أنه على أبواب هزيمة

مؤكدة لجؤوا إلى القوى الخارجية، وفي مقدمتها أمريكا وإسرائيل.

كان حافظ أسد يتطلع إلى دور إقليمي في المنطقة، مدركاً أن السيطرة عليه مهم في إقناع الدول الكبرى في الاعتماد عليه، والتعاون معه، فكان شرط نجاح هذه الاستراتيجية هو سحق الداخل السوري، أو فئات الشعب السوري المعارضة أو المناوئة له -ولو من داخل حزبه- بلا رحمة أو شفقة بطريقة فظة لا عهد للسوريين بها من قبل، كمدخل للتفاهم مع القوى الخارجية، بعد أن ضمن الهدوء الدائم على الجبهة السورية الإسرائيلية إثر تسليم الجولان في اتفاقيات عقدها سراً مع العدو، انكشف بعضها لدى المراقبين والباحثين كما رأينا ذلك من قبل.

قرر الأمريكان القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها في لبنان، وسحقها دعماً لليمين اللبناني وللأمن الإسرائيلي، غير أن هزيمتهم في فيتنام شكلت لديهم عقدة ليس من السهل تجاوزها، وكان المدخل الذي قرر الأسد أن يوصله إلى الاندماج ضمن الاستراتيجية الأمريكية والغربية وإسرائيل، أن يضع سورية في مواجهة العرب، وفي مقدمتهم العراق والفلسطينيون، ووضع حد للصراع العربي -الإسرائيلي، وفتح باب الصراعات والحروب العربية -العربية، التي تنقل إسرائيل من طرف في الصراعات مع العرب إلى حَكَمٍ فيها أو مُتَحكّم بها، وقيام الإسرائيليين بالدور الأهم فيها، بعد أن جمّد الصراع مع سورية على الحدود المشتركة بينهما، كما لعبت

أمريكا في الوقت نفسه دوراً خطيراً في خروج مصر من ساحة الصراع على حدودها الجنوبية[1].

٢- شرع الأسد بالعمل السريع للقيام بدوره الإقليمي في منطقة بلاد الشام التي تشمل سورية ولبنان والأردن وفلسطين، وأن يكون شرطي المنطقة بالتنسيق المكشوف بدعاوى عديدة وحجج واهية، وتحرش بالآخرين، ولاسيما الفلسطينيون دونما وازع أو ضمير.

لقد كتب جنبلاط في كتابه الأخير -هذه وصيتي- أن الأسد قال لياسر عرفات في شهر نيسان ١٩٧٦: إنكم لا تمثلون فلسطين بأكثر مما نمثلها نحن، ولا تنسوا أنه ليس هناك شعب فلسطيني، وليس هناك كيان فلسطيني، فأنتم جزء لا يتجزأ من الشعب السوري، وفلسطين جزء من سورية، وإذن فإننا نحن المسؤولين السوريين، الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني[2].

كان الأسد يزايد على صلاح جديد في صراعه معه قائلاً: إن الأولوية التي تقدم على التحول الاشتراكي هي للتحرير، والتعبئة العسكرية، بما في ذلك المقاومة الشعبية، وفي هذا السياق أنشأت السلطة منظمة الصاعقة الفلسطينية كجزء من حزب البعث الحاكم، لكنه غير هذا الموقف بمعدل مئة وثمانين درجة قائلاً فيما بعد: -وفي زمن قصير- "إن الصراع مع إسرائيل يتطلب حرب جيوش، وليس

---

(١) حوار حول سورية: ١٩١، ١٩٣ .

(٢) هذه وصيتي كمال جنبلاط: ١٠٥ .

منظمات مقاومة، وأن هذه المنظمات تـحرجنا وتجرنا إلى معركة لسنا مستعدين لها" وبهذا الطرح الجديد شرع بشن الحملات على منظمات المقاومة الفلسـطينية، وفي مقدمتها فتح، ومـطاردتها، بل وإبادتها في لبنان وسـورية، وكان قد اتفـق مع إسرائيل -بواسـطة كيسنجـر- على منع الفدائـيين من أي نشاط على الحـدود الإسرائيلية السـورية في بند طلب عدم تسـجيله في اتفاقيـة فك الارتباط بعيد حـرب ١٩٧٣ -كما رأينـا- وأمر ثـالث صـرح به الأسـد مـبرراً تـدخله فـي لبـنان وسـحق الفـلسطيـنييـن بقولـه في خطبـة ألقـاها في ٨ آذار ١٩٧٥ قـائلاً: "إن الفلسطينـيين يريدون ذبح المسيـحيين الذين لا يمكنـه أن يسمح لأحد بذلك، لكونهم أمـانة في أعناقنا" -مع أن الأسد ليس بين العرب من قتل من الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين عدداً مماثلاً لما فعله فيهم- كما كـان يبرر قتل الفلـسطينيين باتـهامه إياهم أنهم عـملاء للصهيـونية والإمبريالـية، وقد فعل هذا كله مع الـفلسطينيين، بالـرغم من أنهم لم يكونـوا في عراك أو شـقاق مـعه، ولـم يفعـلوا أي شيء ضـده، ولم يكونوا على أرض خاضعة لسلطته(١).

٣- أطلق الأمريكـيون يد الأسد في لبنان يفـعل فيها ما يشـاء قتلاً وهدماً ونـهباً، واعتـداء على الحرمـات بصورة رهيبـة، مقابل القـضاء على المقاومة الفلسطينية والجبهة الوطنية التي تساند المقاومة، بعد أن أحكمت السـيطرة على معظم الأراضـي اللبنانية، وكـان لابد من غطاء في هذا التفويض الشاذ المطلـق، فكان مؤتمر الرياض الذي شكل قوة

(١) حوار حول سورية: ١٩٨ .

للردع من ست دول عربية تقوم بفرض الأمن على المتحاربين في لبنان، وتكفل مؤتمر الرياض بتغطية التكاليف، ولكن سرعان ما انسحبت هذه القوى، ليبقى لبنان خالصاً للقوة السورية التي بلغ عددها ٤٠ ألفاً، بسطت سيطرتها على لبنان، باسم قوة الردع، وبالاستئثار بالتكاليف التي قررها مؤتمر الرياض لقوة الردع.

بسطت القوات السورية سيطرتها على لبنان، فأحدثت هذه القوات من الجرائم مالم يكن متوقعاً أو متصوراً، فقد هدمت في زحلة وبيروت الشرقية وغيرها أكثر مما فعلته في سورية، ولاسيما في طرابلس، ما أذكر العرب بما فعلوه من هدم وقتل وإبادة في حماة، وكانت طرابلس كبش الفداء أكثر من غيرها، فقد رأيت فيديو حمله أحد أبناء المدينة إلى باريس يظهر حجم الهدم الذي طال أبنية كبيرة ومؤسسات وأحياء حتى بلغ عدد الوحدات السكنية التي هدمها السوريون ٢٥ ألف وحدة من ٥٧ ألف هي مجموع دور السكن في طرابلس.

استمرت قوات سلطة الأقلية الحاكمة في سورية في الذبح والإبادة والأسر لأعداد كبيرة، واستخدام أساليب من التعذيب ولاسيما لأفراد فتح والمقاومة وللنساء كذلك تقشعر من سماعها الأبدان، مع وصفهم لهم بالخيانة والعمالة لإسرائيل وأنهم يتلقون مساعدات منها!! وكل من تعاطف مع الفلسطينيين في مأساتهم وما يقع عليهم من ظلم فادح، كان نصيبه القتل والاغتيال، مهما كان مركزه وحجمه، فقد طاردوا ريمون إده، وصائب سلام، وقتلوا كمال جنبلاط، وبشير

جميل، ورينيه معوض، وصبحي الصالح الشيخ الجليل، ومفتي لبنان الشيخ حسن خالد، ورياض طه، نقيب الصحفيين، وداني شمعون وغيرهم.

كيف جاء هذا التفويض لحافظ أسد في لبنان على هذه الصورة المفجعة، دون اعتراض عربي أو غربي أو أممي، ودون أن يستمع أحد إلى شكاوى اللبنانيين وصرخاتهم وهم يذبحون ويستباحون وتدمر حياتهم؟ جاءت الإجابة الشافية في الجزء الثالث من مذكرات كيسنجر مهندس السياسة الأمريكية في لبنان والتي نقلها الكاتب الصحفي عبد الكريم أبو النصر في مجلة الوطن العربي. قال كيسنجر: إن إسرائيل والكونغرس اعترضا كلاهما على تسليم لبنان لحافظ أسد قائلين: لقد أعطيتم للأسد دوراً سياسياً في لبنان، غير أن الدور العسكري أمر لا نراه ولا نطمئن إليه، قال كيسنجر: لقد أقنعت الكونغرس أن أمريكا ليست مستعدة لتكرار تجربتها الفيتنامية في لبنان، فأمريكا ما تزال تعاني مما منيت به من خسائر عسكرية وسياسية وسمعة دولية واضطراب داخلي في فيتنام، وإن اليساريين والوطنيين والفلسطينيين أطبقوا على لبنان، وأوشكوا على سحق خصومهم، وإلحاق هزيمة منكرة في كل لبنان، والأسد وحده مؤهل للقيام بدور ينهي فيه رجحان كفة الفلسطينيين وحلفائهم، كما أقنعت فيه الإسرائيليين بأن القوات السورية ستدخل لبنان للقضاء على أعدائكم، وليس لقتالكم، ووضع لهم خطاً أحمر يكون السوريون في شماله، والإسرائيليون في جنوبه، يفصل بينهم نهر الليطاني.

٤- اطمأنت إسرائيل إلى دخول الجيش السوري إلى لبنان، وأعربت عن ارتياحها واقتناعها بالدور الأسدي في لبنان لمطاردة الفلسطينيين وحلفائهم الوطنيين، فقد صرح وزير الدفاع الإسرائيلي شمعون بيريز لصحيفة معاريف الإسرائيلية يوم ٨-١-١٩٧٦ : أن إسرائيل لن تبقى مكتوفة الأيدي في حال تدخل سورية في لبنان، وذلك قبل دخول الجيش السوري بعشرة أيام فقط، ثم سرعان ما غير بيريس موقفه بعد الوساطة الأمريكية، وتفاهمها مع الأسد على دوره في لبنان، وكذا بعد تصريح الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض: إن الرئيس فورد تخلى عن معارضته لتدخل عسكري خارجي في لبنان، وأن الولايات المتحدة عليها أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة المآرب السورية ونواياها.

في ٢٩-١-١٩٧٦ نقلت وكالات الأنباء، ومنها الوكالة الفرنسية عن متحدث باسم الخارجية الأمريكية: أن الولايات المتحدة تعترف بالدور الذي تقوم به سورية لتسوية الأزمة اللبنانية، واعترفت أمريكا بأنها قامت بدور الوساطة بين أسد وإسرائيل، كما نقلت وكالة اليونايتدبرس من واشنطن يوم ٢٧-١-١٩٧٦ : أن الخارجية الأمريكية أكدت أنها تقوم بنقل الرسائل بين الكيان الصهيوني إلى سورية حول الوضع في جنوبي لبنان، واعترفت الصحافة الإسرائيلية بأن سورية أكدت لمسؤولين أمريكيين أن وجود قواتها في الجنوب إنما يستهدف المقاومة واليساريين اللبنانيين، ولاسيما في صيدا.

جرت إثر ذلك زيارات متبادلة بين أمريكا وسورية، إذ قام وزير

خارجية سورية عبد الحليم خدام بزيارة للبيت الأبيض، وقام أمريكيون بزيارة دمشق، أسفرت عن ترتيب اجتماع حافظ أسد لجيمي كارتر في جنيف بسويسرا فيما بين ٧-٨ / ٢/ ١٩٧٧ ليؤكد كارتر للأسد أن له مكانة خاصة عند الزعماء الإسرائيليين، وكشفت جريدة الشرق الأوسط أن إخضاع المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية كان جزءاً من هذا اللقاء، ومع هذا استمرت سورية عبر صحفها وإذاعتها في انتقاد السياسة الأمريكية (وكم ذا بالسياسة من مهازل ومضحكات).

لم تعد إسرائيل تتحفظ على دور الأسد في لبنان، فقال دايان: إن غزو سورية للبنان ليس عملاً موجهاً ضد أمن إسرائيل.

وقال شلومو افنيري المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية في ٩-٨-١٩٧٦: إن سورية لم تتعد الخط الأحمر الذي حددته إسرائيل للتدخل في لبنان. وقال شمعون بيريز في ٢-٦-١٩٧٧ الذي كان قد عارض التدخل السوري لفترة وجيزة: التدخل السوري موجه ضد ياسر عرفات وحلفائه، والقوات السورية دخلت الشمال والوسط وليس الجنوب.

وقال شمعون بيريز كذلك في ٢٩-٩-١٩٧٦ إن هدف اليهود هو نفس هدف دمشق بالنسبة للمسألة اللبنانية، ويجب أن نمنع وقوع لبنان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية، كما ذكر ذلك السيد عبد الغني النواوي في مؤلفه: رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي.

٥- سحقت القوات السورية بأسلحتها الثقيلة القوات الفلسطينية من الفدائيين وحلفائهم في البقاع وعكار وجبل لبنان، وفي صوفر وبحمدون.. إلخ دونما شفقة أو رحمة -بناء على طموحات العدو الصهيوني- وضربت حصاراً على الفلسطينيين في البحر والبر والجو، ومنعت عنهم وصول الأسلحة والمؤن والذخيرة التي وصلتهم من الجزائر عن طريق اللاذقية، كما روى لنا ذلك أحد أعضاء اللجنة المركزية في حزب جبهة التحرير الجزائرية عندما التقيناه في إحدى دورات منظمة التحرير الفلسطينية -حضرنا دورتي ١٧ و١٨ في عمان والجزائر بدعوة من رئيس المنظمة بياسر عرفات- بالوقت الذي كان خصوم الفلسطينيين يستلمون ما يريدون من غذاء وسلاح وذخيرة عن طريق ميناء جونيه بحرية تامة، وبمعرفة السفن السورية، كما كان السفر ناشطاً ومستمراً من جونيه وإليها لخصوم الفلسطينيين وحلفائهم، وقد أتاح ذلك للوفود الإسرائيلية الدخول إلى لبنان بسهولة ويسر، فقد حضر بيريز ومرافقه رابين إلى لبنان، وعقد جلسات عدة مع اليمين اللبناني بحضور عدد من أركان النظام السوري كما ذكرت مجلة التايم الأمريكية ذلك بتاريخ ٨-٩-١٩٧٦، إذ قالت: إن إسرائيل تشارك سراً في حرب لبنان، حسب التفاهم غير المعلن بين إسرائيل والنظام السوري بسحب قواته من الجبهة السورية الإسرائيلية، ونقلها تدريجياً إلى لبنان وإلى الحدود مع العراق.

استمرت عمليات الإبادة للمخيمات الفلسطينية وفصائل المقاومة بالتعاون ما بين القوات السورية والموارنة وإسرائيل، فبعد سقوط

مخيم جسر الباشا، ومخيم عين الحلوة، وبرج حمود، حوصر مخيم تل الزعتر، بعد أن طالب بيير الجميل في جلسة مجلس النواب اللبناني في ٢٢-٥-١٩٧٥ بنقل المخيم من بيروت الشرقية -أي إزالته- وسرعان ما شرعت قوات حافظ الأسد في حصار مخيم تل الزعتر في أواخر حزيران ١٩٧٥، واستمر الحصار ٥٢ يوماً بقيادة قائد الشرطة العسكرية علي المدني في نظام الأسد، ليسقط في ١٤-٨-١٩٧٦ بأيدي قوات الأسد والكتائب بعد أن منعت عنه الطعام والشراب. والسلاح، كما فعلت بسائر المخيمات الفلسطينية، فذاق الفلسطينيون من الجوع والعطش وجرحى الحصار والقصف، وهتك الأعراض مالم يخطر على بال.

تفرقت القوات السورية والإسرائيلية بعد إخراج المقاومة من بيروت إلى مخيمات البداوي ونهر البارد في طرابلس، وكان قد لجأ إليها بعض الفارين من الوسط والجنوب، فتم حصارهما فيما بعد بالتعاون مع سلاح البحرية والطيران الإسرائيلي من البحر والجو، وحصار القوات السورية لها من البر، ودكها بالمدفعية الثقيلة، ولولا أن بعض ضباط الجيش السوري أبوا أن يصوبوا فوهات المدافع إلى سكان المخيمات، بل كانوا يرمونها في عرض البحر، لأبيد الفلسطينيون عن آخرهم، أو معظمهم، أما حركة أمل فلم تتردد في ذبح الفلسطينيين في الجنوب بالسلاح السوري الذي يزودهم به الأسد، وجنودها يرددون وهم يقتلون: يا لثارات الحسين!!!

٦- كان تسليم لبنان إلى نظام حافظ أسد بطلب أمريكي وغطاء

عربي كارثة على لبنان واللبنانيين، إذ دخل الجيش السوري إلى لبنان بما يشبه زحف التتار على بغداد، أو ما يماثل هجمات الجراد التي لا توفر شيئاً، بل تأتي على الأخضر واليابس. دخل الجيش ودخل معه أفراد منظمة الصاعقة إحدى مفردات النظام في سورية، فنهبوا المصارف في بيروت وغيرها، ونسفوا الآبار الارتوازية في البقاع، وصادروا الفيلات والفنادق الشهيرة التي راقت لهم، والشقق الفاخرة في بيروت وطرابلس وغيرهما، وسرقوا مستودعات السجاد من المخازن ومن المنازل، كما سرقوا المفروشات والسيارات، فكان الجندي السوري يتطلع إلى انتدابه ضمن القطعة العسكرية التي يعمل ضمنها، ليعود إلى سورية بهد انتهاء فترة انتدابه، وقد ملأ جيوبه وأضحى ثرياً، وكان أثاث البيوت والتحف الثمينة والأدوات الكهربائية تباع بالأسواق السورية، ولاسيما في مدن الساحل السوري، وقد جاء في كتاب حوار حول سورية أن الحرب الأهلية اللبنانية لعبت دوراً أساسياً في إنقاذ النظام السوري اقتصادياً كمصدر لا ينضب للنهب، من قبل قياداته وأجهزته ومؤسساته.

لقد كانت موارد لبنان تحت تصرف محتليه من أمراء العسكر الأسديين، وكانت تجارته ومطاراته ومنافذه البحرية ومصارفه ومصانعه ومزارعه وبيوته وسياراته ومطابعه وسلعه تحت تصرفهم، يفعلون بها ما يريدون، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض عليهم، أو يفكر بحماية ممتلكاته منهم، فأخذوا ينهبون ما تقع أيديهم عليه، وينقلونه إلى سورية حيث يبيعونه بالأسعار التي تحلو لهم، وبهذه الأخلاق

التقدمية الثورية حملت كنوز وموجودات تبلغ أثمانها عشرات مليارات الدولارات من لبنان إلى الفئة المتسلطة وأزلامها في سورية، ولاسيما في المناطق العلوية، حيث تراكمت ثروات هائلة، وهكذا تعاملت العسكرتاريا الأسدية مع لبنان كمزرعة يعمل فيها عبيد لا حقوق لهم، هم الشعب اللبناني الشقيق.

لقد كان قائد اللواء الخامس السابق العقيد علي زيود محافظ ريف دمشق فيما بعد يهرب الحشيش بسيارته الرانج روفر العسكرية من لبنان إلى حلب تمهيداً لإرساله إلى تركيا، وكان يحذو حذوه العقيد تامر جوني، ومثلهما يفعل اللواء غازي كنعان مسؤول المخابرات العسكرية في لبنان، وزعيم الشبكات الواسعة والمنظمة لممارسة جميع التجارات المحظورة كالهدروجين التي انتشر تصنيعها في حلب وطرطوس وغيرهما[1].

بعد انسحاب الجيش السوري من لبنان -في وقت لاحق- كتبت الصحافة اللبنانية، بعد أن استعادت حريتها، صفحات مطولة عن النهب والسلب والسرقة والرشوة واستلاب المواطنين على الحواجز، وذكرت -الصحافة- أرقاماً فلكية استلبها الجيش ومنظمة الصاعقة التابعة له، وجهاز المخابرات العسكرية، الأمر الذي أحدث جرحاً غائراً في الجسد اللبناني ليس من اليسير اندماله، وأوجد هوة سحيقة بين شعبين جارين شقيقين تحتاج إلى فترة زمنية طويلة حتى تملأ، وحتى تعود المياه إلى مجاريها والأمور إلى ما كانت عليه قبل أن

---

(١) حوار حول سورية: ٢٠٢ - ٢٠٣ .

تسلم أمريكا لبنان إلى نظام الأقلية في سورية لقمة سائغة.

ومن الطريف أن رئيس منظمة الصاعقة زهير محسن كان يسمى زهير العجمي لكثرة ما نهب من السجاد العجمي في لبنان، وما هو أظرف من ذلك أن أحد أعوان سورية في لبنان قام بزيارة إلى دمشق، وتوجه إلى القصر الجمهوري ليقابل حافظ الأسد، فإذا به يرى سيارته التي سرقت منه في لبنان في ساحة القصر، فدهش، وذكر ذلك للأسد، فأبدى الأسد دهشته وأرسل معه أحد المرافقين ليدله عليها، فلم يكد يصل إلى مكانها حتى اختفت، ولم يعد لها وجود، وعندما رجع إلى الأسد، بدا وكأنه كان مخطئاً أو واهماً.

٧- عندما وصل جيمي كارتر إلى دمشق في تلك الفترة، والتقى أساتذة جامعة دمشق بطلب منه، ذكر لهم أنه رأى في الأسد ذلك الصديق القديم والمعتدل، والذي لم تتغير مواقفه من القضايا المطروحة في المنطقة أو من أمريكا، وأنه -أي كارتر- طرح عليه سؤالين هما على حد تعبير كارتر:

- هل ترغب سيادة الرئيس في اتخاذ قرارات تمس التفوق الأمريكي في المنطقة.

وهل ترغب سيادة الرئيس في اتخاذ قرارات تدفع المنطقة إلى مجابهة قد تمس التوازنات والعلاقات القائمة فيها؟

فكانت إجابات الأسد -كما أخبر كارتر- سلبية في الحالتين، وأخبر كارتر السامعين من أساتذة الجامعة أن الرئيس السوري عاتب

فقط على أمريكا لأنـها قابلت بالعداء يده الممدودة لهـا بالصداقة، مع أنه حيّـد هناك واحدة من أكثر الـحركات عداءً لأمريكـا وإسرائيل، ألا وهي المقاومة الفلـسطينية، فكان بعض أساتذة الجامعـة يستمعون إلى أقوال كارتـر بذهول، عندما كان كـارتر يعرض دون توقف مـا قاله له الأسد، مـعتـقداً أن جمـيع الأساتـذة من رجال السـلطة أو من جـهاز الأمن.

بعد زيارة كـارتر أرسل الرئيس ريجان رسالـة ودية إلى الأسد، ثم أتبـعتهـا إبريل جـلاسبي السـفيرة الأمـريكيـة ذات الحظوة عنـد الأسد (والتـي لعـبت دوراً كـبيـراً في نصـب فخ الكـويت للـعراق) بـزيارات متعـددة إلى دمشق، قابلت خلالـها الأسد مرات عدة، ووصلت فـيها علاقات المودة إلى درجة أن الأسد أعطـاها رقم هاتفه الخاص، طالباً منها الاتصال به في أي وقت تشاء.

بعد سـنوات من هذه الفتـرة جددت أمريكا حـبها القلبـي الصادق للأسد، فأرسـلت، حين سقط مريضـاً، طائرة خاصة محـملة بأحدث التجـهيزات الطـبية إلى دمـشق، وأقامت غرفـة عمليات طـبية في بيـته الخاص، كـما أرسلت أطباء أمريـكان، كان بعضهـم من أصل سوري كي يشرفوا على علاجه[١].

سادساً- النفوذ الصهيوني في المنطقة

رأينا أن الـعراق كـان الدولة العـربيـة الوحيـدة التي قـدمت دعـماً

(١) حوار حول سورية: ٢٠٥ - ٢٠٦ .

عسكرياً لسورية في حرب تشرين الأول ١٩٧٣، وكيف أن كيسنجر صمم على معاقبة العراق، ومنعه من تكرار ذلك مرة أخرى، فتواطأ مع شاه إيران، ومع الإسرائيليين في ربيع عام ١٩٧٤ على إشعال نار الحرب بين الأكراد والعراق، لشغل الجيش العراقي في مواجهة التمرد الكردي في شمال العراق.

٦- تشير الأحداث أن التعاون الكردي مع الإسرائيليين بدأ منذ وقت مبكر في منتصف الخمسينيات، إذ وصلت أول مجموعة من الأكراد إلى قاعدة إسرائيلية قرب الرملة للتدريب على العمليات التخريبية، ثم قام رافائيل إيتان -الذي صار فيما بعد رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي- وهو من أكبر ضباط الصهاينة، بزيارة إلى كردستان العراق خلسة، ولم تمض سنوات حتى أصبحت إسرائيل في منتصف الستينيات من الدعامات الرئيسية للأكراد، وصار الزعيم الكردي مصطفى البرزاني مقتنعاً أن الولايات المتحدة تسانده وتقف إلى جانبه في تطلعاته القومية، فأرسل هدية من السجاد إلى كيسنجر، أعقبها بإرساله قلادة من الذهب واللؤلؤ بمناسبة زفافه عام ١٩٧٤[١].

إن ما أشار إليه باتريك سيل حول تعاون الأكراد مع إسرائيل ليس إلا نزراً يسيراً مما أشار إليه عدد من الكتاب العرب والغربيين والإسرائيليين في عدد من مؤلفاتهم مثل: الاختراق الصهيوني للعراق، وتدمير التراث الحضاري للعراق، وكلاهما لخالد الناشف، والتغلغل الإسرائيلي في العراق المحتل للسيد مأمون كيوان، والكرد

(١) باتريك سيل: ٣٩٢ - ٣٩٣ .

والمسألة الكردية لشاكر خصباك، وأمة في شقاق لجوناثان واندل ترجمة فادي حمود وعشرات الكتب لمؤلفين آخرين.

لقد ذهب بعض الأكراد بعيداً في العداء للعرب والإسلام وليس للمسلمين فحسب (على عكس جمهور الأكراد وكبار قادتهم في القديم والحديث) فقد جاء في ندوة -الكرد والعراق الجديد- المنعقدة في ١٦-٤-٢٠٠٥ عن ملا بختيار عضو المكتب السياسي للاتحاد الوطني الكردستاني قوله: صلاح الدين الأيوبي خدم الدين الإسلامي، ولم يخدم القومية الكردية، لذا فهو بالنسبة لنا لا يشكل قيمة معنوية، وقال آخر في ندوة ثقافية: إن الفتح الإسلامي لكردستان هو الإرهاب، ثم طالب بعدم حب الصحابة، وبمنع الحج لأنه يخدم دولة عربية[١].

لعل أول من كشف حقيقة العلاقات الكردية الصهيونية عام ١٩٦٨ جان لارتكي في بحث بعنوان: إسرائيل الأخرى، قال: لم تقتصر المساعدات الإسرائيلية للبرزاني وأعوانه على الأسلحة والمعدات، بل شملت خبراء عسكريين ومدربين، وأن عدداً من الضباط المظليين من جيش الدفاع الإسرائيلي عملوا مع البرازاني ، وأنهم أسسوا له شبكة مواصلاته، ودربوا مقاتليه على أعمال التفجير والتخريب، وأن البرازاني قام بتأسيس جهاز خاص للمخابرات يدعى -البارستن- برئاسة نجله مسعود البرازاني، بهدف تعزيز العلاقات مع الموساد والمخابرات المركزية ومخابرات الشاه -السافاك- بمعونة وإشراف

(١) التغلغل الصهيوني في العراق لمحمد الحوراني: ١٠ .

ضباط في الموساد استمروا في إدارته وتنظيم نشاطه حتى انهيار البرازاني عام ١٩٧٥ .

لكن هذا التعاون الإسرائيلي الكردي استمر إلى ما بعد الاحتلال الأمريكي لبغداد، الأمر الذي فتح الباب واسعاً لزيارات مسؤولين عراقيين إلى إسرائيل بصورة علنية كما هو حال مثال الألوسي، أو سرية كما هو حال الكثيرين من أمثال أحمد الجلبي وجلال الطالباني وغيرهما[١].

٢- وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء نجد أن البرازاني بعد هزيمة عام ١٩٧٤ فرّ مع ٥٠٠ من أعوانه إلى إيران ليقضي فيها ٤٦ يوماً، ثم يتابع رحلته إلى الاتحاد السوفياتي، وكان البرازاني يأتي بين فترة وأخرى إلى سورية، كما أنه قابل جمال عبد الناصر عبر مؤتمر الدول الآسيوية الإفريقية عامي ١٩٥٥ و١٩٥٧، وحصل من المؤتمر على تأييد حق الأكراد في مطالبهم الوطنية.

بعد انقلاب ١٤-٧-١٩٥٨ أصدر عبد الكريم قاسم عفواً خاصاً عن الملا مصطفى البرازاني فعاد من براغ[٢] إلى بغداد، ولم يكن أكراد العراق وحدهم على علاقة وثيقة بالإسرائيليين، بل إن بعض أكراد سورية قاموا بالشيء نفسه. لقد أسس الموساد علاقة قوية مع رئيس هيئة الأركان العامة في سورية الكردي الأصل حسني الزعيم.

---

(١) المرجع السابق: ٢٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٨ .

لقد فكر حسني الزعيم بالإطاحة بالرئيس القوتلي ورئيس حكومته جميل مردم، وأنه بالتنسيق مع بدرخان (ممثل البرازاني في أوربا) طلب حسني الزعيم أن يقوم الإسرائيليون بدورهم في هذه العملية، وأن يقوم الجيش الإسرائيلي بإثارة التوتر على الحدود لجذب قوات الجيش السوري نحو الحدود بعيداً عن العاصمة دمشق، وبالتالي إتاحة الفرصة له بدخول المدينة بكتيبة دبابات والاستيلاء على السلطة بسهولة، ووعده بأنه سيعمل على التوصل إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل، وترسيم الحدود الدولية إذا ما نجحت الفكرة، وإن لديه شركاء في الانقلاب بين الأقليات(١).

، كتب إسحاق بن حورين بتاريخ ١١-٩-١٩٨٧ مقالاً مطولاً في ملحق صحيفة معاريف الإسرائيلية تحدث فيها عن العلاقة القوية التي كانت تربط الملا مصطفى البرازاني بالإسرائيليين منذ وصوله إلى مطار اللد عام ١٩٦٨ بطائرة إلعال الإسرائيلية عن طريق طهران، وحتى وفاته بمرض السرطان عام ١٩٧٩ .

٣- نعود مرة أخرى إلى الوراء، إذ قام رئيس الموساد بزيارته الأولى إلى إيران في أيار ١٩٦٣، والتقى رئيس السافاك فتيرفون، واقترح عليه تعاوناً ثلاثياً بين الموساد والسافاك والأكراد، وتم الاتفاق بين السافاك والموساد على تأمين الدعم للأكراد.

كانت ثمة شخصيتان كرديتان تتجولان في العواصم الغربية،

---

(١) المرجع السابق: ٣٤ .

وتلتقيان مسؤولي الحكومات والمخابرات لطلب الدعم للحركة الكردية بتوجيه من البرازاني، وهما جلال الطالباني وإبراهيم أحمد -قبل أن يتمردا عليه- ومن تلك اللقاءات، لقاؤهما مع مراسل جريدة حيروت في باريس أهارون أفيغدور في ٢٣-٦-١٩٦٣ .

وفي صيف ١٩٦٣ التقى رئيس الموساد مائير عاميت نظيره الإيراني مرة أخرى واقترح عليه خطة وبرنامجاً للدعم العسكري للأكراد عن طريق إيران، فقبل السافاك هذا المقترح.

وفي تشرين الثاني عام ١٩٦٥ تم تنظيم دورة خاصة في طهران لمقاتلين من الأكراد العراقيين بينهم ثلاثة ضباط برتبة نقيب، وكان يشرف على هذه الدورة ضابط صهيوني اسمه تسوري، وفي آذار عام ١٩٦٦ عاد المتدربون الأكراد من إسرائيل إلى العراق، وتوجهوا إلى ساحات القتال لمحاربة الجيش العراقي.

على مدى اثنتي عشرة سنة عمل إلى جانب مصطفى البرازاني وفد استشاري من إسرائيل، كان يتم تغييره كل ثلاثة أشهر.

وفي ٢٤-٥-١٩٦٦ طار وايزمان إلى طهران للاجتماع بالشاه في طائرة نقل عسكرية كانت تحمل على متنها خمسة أطنان من التجهيزات العسكرية للأكراد تم إيصالها يوم ١٠-٦-١٩٦٦ عن طريق السافاك الإيراني(١).

يقول شلومو نكديمون صاحب كتاب: الموساد في العراق ودول

---

(١) المرجع السابق: ٤٣ - ٤٥ .

الجوار: قامت إسرائيل بإنشاء مستشفى ميداني بمنطقة حاج عمران، تضم أربعين سريراً لمعالجة المرضى والجرحى بطلب من أشكول في نهاية ١٩٦٦ كهدية للبرازاني مع طاقم الأطباء الإسرائيليين بناء على طلب من البرازاني.

في ٥ حزيران احتفل البرازاني بانتصار الصهاينة على العرب، وذبح كبشاً ضخماً بهذه المناسبة علق في رقبته شريطاً أزرق وأبيض دلالة على العلم الإسرائيلي، وكتب على الشريط: هنئوا إسرائيل بانتصارها، وسوف نذبح هذه الليلة خروفاً قرباناً لاحتلالكم القدس، وقد عمت الفرحة في كردستان بانتصار إسرائيل على العرب(١).

عندما وقع نائب الرئيس العراقي صدام حسين اتفاقاً مع مصطفى البرازاني من خمسة عشر بنداً نال الأكراد بموجبه حكماً ذاتياً في ٨-٣-١٩٧٠، أرسل البرازاني تقريراً إلى إسرائيل حول سير المفاوضات وتوقيع الاتفاق(٢).

٤- لم يعد التعاون الإسرائيلي الكردي لغزاً أو سراً، بل أضحى أمراً معروفاً ومألوفاً، بل ومذاعاً على كل الصعد السياسية والإعلامية دونما تردد أو وجل من الفريقين، فهذا مناحيم بيغنْ يعلن في لقائه مع هيئة المدرسين في مدرسة الجنود في مستعمرة جفعات أولفا في وقت لاحق في ٢٩-٩-١٩٨٠ أن إسرائيل قدمت طوال عشر سنوات من

---

(١) المرجع السابق: ٤٧ - ٤٨ .

(٢) المرجع السابق: ٥٠ .

عام ١٩٦٥ وحتى عام ١٩٧٥ الدعم للبرازاني، والذي اشتمل على الأموال والأسلحة والتدريبات وتبادل المعلومات.

كما ذكرت صحيفة يديعوت أحرنوت في عددها الصادر في ٣٠-٩-١٩٨٠ أن الأكراد لم يخيبوا في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ أمل إسرائيل في الاعتماد عليهم إذ نجحوا في مشاغلة الجيش العراقي في شن هجوم عليهم عن وصول بعض قطعاته العسكرية إلى الأردن للانضمام إلى الحرب ضد إسرائيل، ثم عادت الصحيفة في ١-١٠-١٩٨٠ للتأكيد على أن البرازاني خلال زيارته لإسرائيل في أيلول عام ١٩٧٥، وفي زياراته الأخرى المتكررة التقى جولدامائير وموشي دايان وإيغال آلون.

ونشرت صحيفة هآرتس حول عمق صلات التعايش والتنسيق بين إسرائيل والبرازاني، وذكرت أن مرافقاً إسرائيلياً كان يقيم مع البرازاني في مقره نفسه، ويعمل في الوقت نفسه ضابطاً للاتصالات بينه وبين تل أبيب، ويؤكد رفائيل إيتان في كتابه: (قصة جندي) أن البرازاني وولده كانا قد زارا إسرائيل، ومكثا فيها فترة من الزمن.

وكشف الكاتب الأمريكي جوناثان راندل في كتابه: أمة في شقاق، دروب كردستان كما سلكتها، أن مجموع المساعدات التي قدمتها واشنطن للأكراد في عامي ١٩٧٢ و١٩٧٥ بلغ ستة عشر مليون دولار، أنفق معظمها على شراء الأسلحة، وأن هذا كان يحدث في فترة المصالحة بين بغداد والأكراد، وأكد في نفس الكتاب -أمة في شقاق- أن الموساد أسهم في تأسيس جهاز المخابرات المركزية

-البارستن- برئاسة مسعود البرازاني، وأن الأكراد ساعدوا في تأمين تهريب الطيار العراقي منير روفا إلى إسرائيل بطائرة الميغ ٢١، وأن رجال الموساد اشتركوا في التخطيط للمعارك وقيادة بعضها في الشمال ضد الجيش العراقي، وهم متنكرون بالملابس الكردية[١].

هذه الشذرات أو المقتطفات التي أوردتها موجزة، بل شديدة الإيجاز، لتدرك الأجيال الصاعدة من أبناء أمتنا، مدى تغلغل العدو الصهيوني في بلادنا، وتمزيقهم لصفنا، وتوظيفهم لخلافاتنا، وإقامتهم تحالفات مع فرقاء من أبناء الوطن العربي، كان البرزانيون في مقدمتهم، وهذا يتنافى مع حقيقة مواقف الكرد وتاريخهم المشرف، وجهادهم البطولي ضد الأعداء في حقب ماضية، وأن هذا الشعب المؤمن قد اشتهر بالصدق والوفاء مع العرب والمسلمين، حتى إن المراسلين في المهمات الدقيقة بين ألوية الجيش العراقي كانوا يُختارون من الكرد، وأن عدداً من المحافظين كذلك كانوا أكراداً لما اتصفوا به من الأمانة والإخلاص والصدق، وأنهم عاشوا مع العرب مئات السنين في تعاون وتصاهر واندماج دون أي تمييز أو تفرقة بين الشعبين المسلمين عرباً وأكراداً.

٥- إن ظاهرة البرازاني والطالباني لا تمثل حقيقة الأكراد ولا تاريخهم البطولي، بل هي ظاهرة شاذة، سوف تزول بزوال أسبابها التي أفرزتها التدخلات الأجنبية -إيران الشاه وإسرائيل وأمريكا- ومن قبلهم الاتحاد السوفياتي، والتي نتوقع أن لا تستمر طويلاً، بل هي

(١) التغلغل الإسرائيلي في العراق: ٥١ - ٥٤ لمحمد الحوراني.

إلى زوال، حالها حال الغزوات أو الهجمات التي سبقتها قبل ذلك بقرون.

أما التغلغل الصهيوني بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣ فقد تجاوز كل التوقعات، ليشمل التغلغل كل مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والأمنية وكل مفاصل الحياة، ليس في شمالي العراق فحسب، بل في كل أرجاء القطر الشقيق المبتلى، مما سيأتي تفصيلاً في سياقه بعد سيطرة أمريكا وحلفائها ومن يسيرون في ركبها في قهر العراق العربي المسلم الجريح.

إن جماهير الأكراد تعيش في مأساة وكارثة حقيقية جراء تصرف الحزبين الكرديين التابعين للطالباني والبرزاني المتعاونين مع أمريكا وإسرائيل، وما يمارسانه من تسلط وطغيان على الجماهير الكردية، ولاسيما ضد الحركات الإسلامية الرافضة للاحتلال الأجنبي والتغلغل الصهيوني، وطالما مارس الحزبان الكرديان الاتحادي والديمقراطي البطش ضد الحركات والجماعات والاتجاهات الإسلامية، مهما كانت وجهتها في التزام السنة والانتماء إلى المدارس الصوفية، وبخاصة النقشبندية، ومارسوا القمع مع أي تحرك منهم، ولاسيما في موسم الانتخابات، إذ هاجم الطالبانيون مقرات الإسلاميين، وأوقعوا فيهم مجازر بقتل أعضائهم في داخل مراكزهم، لإرعابهم، وحتى يحولوا بينهم وبين المشاركة الفعلية في انتخابات المجالس النيابية المحلية في شمال العراق، وفي انتخابات المجالس المركزية.

لقد قدر العارفون بالمنطقة الكردية في شمالي العراق أن

الانتخابات لو جرت في جو من الحرية والنزاهة، لاكتسح الإسلاميون الشارع الكردي، ونالوا من الأصوات ما يؤهلهم للتصدي للحزبين: الاتحادي والديمقراطي العلمانيين اللذين ربطا علانية مصير شمالي العراق بالهيمنة الأمريكية والنفوذ الصهيوني، والأمل بالله كبير، ثم بالقاعدة الكردية الإيمانية الصلبة أن لا تطول هذه الفترة الشاذة من حياة أكراد العراق، ليتحرر الشمال من ربقة الانحراف والتبعية للأعداء الألداء والمحتلين.

سابعاً- الصلات السورية الإسرائيلية

حظي نظام الأقلية في سورية بدعم كبير من الغرب، وفي مقدمته أمريكا، ومن الصهاينة المحتلين لفلسطين، فلم يتحدثوا قط عن ممارساته اللاإنسانية في سورية، ولم ينكروا حكم القمع في ظل الحكم العرفي أو حكم قانون الطوارئ الدائم، ولم يتحدثوا عن إعدام الألوف من النخب في سورية جراء محاكمات شكلية وتعذيب وحشي، بل استمر شهر العسل بين السلطة السورية القمعية وبين العدو الإسرائيلي عقوداً.

أ- كشفت حرب حزيران ١٩٦٧ وكذا حرب ١٩٧٣ بعض الوثائق عن التعاون المباشر بين حكم الأقلية في سورية وبين العدو، أو غير المباشر كما رأينا ذلك من قبل، وكيف سلم وزير الدفاع حافظ أسد، الجبهة المنيعة التحصين، والأرض الغنية بثرواتها، بعد أن تم تخييره بين زحف الصهاينة إلى دمشق وإسقاط الحكم أو تسليم الجولان وترسيم حدود جديدة خلف خطوط الجبهة على طريق

دمشق، فصدر أمر وزير الدفاع للجيش بالانسحاب الكيفي، وتسليم أسلحة حديثة وكثيرة مثل قاذفات اللهب والدبابات البرمائية وغيرها، وقطع الكهرباء كيلا يحدث تفجير للآليات الإسرائيلية الزاحفة لاحتلال الجبهة، وسحب المؤونة (طعام الطوارئ) بدعوى تبديلها، وإنزال العقوبة بكل من واجه العدو كما رأينا ذلك من قبل، ومن ثم وضع الخطوط (الحدود) الجديدة بين سورية والعدو، ليسلم النظام من السقوط، فاعتبرت سلطة الأقلية ذلك نصراً طالما أن النظام القومي التقدمي الثوري استمر في الحكم، وكان تسليم الجولان في الحقيقة هو الطريقة أو الذريعة أو المقدمة لاعتراف النظام السوري بإسرائيل التي حرصت على استمرار هذا النظام الذي وصفته -كما وصفه كيسنجر- بالتزامه للاتفاقيات المبرمة معه، ولأنه ضعيف لا يريد ولا يقوى على مواجهة العدو، ولأنه شديد البطش في المواطنين كيلا يفكروا يوماً بتغيير النظام أو مواجهة العدو، ولأن السوريين لا يوجد فيهم من يقبل أو يطيق الاعتراف باليهود الذين اغتصبوا فلسطين، وأعلنوا عن برنامجهم المقبل بدولتهم التي ستمتد ما بين النيل والفرات، فكان تسليم الجولان والمطالبة به مدخلاً للاعتراف بإسرائيل، وإقناع المواطنين أو إسكاتهم بدعوى أننا استعدنا الأرض مقابل السلام مع الصهاينة، والاعتراف بدولتهم، ورفع العلم الإسرائيلي في ربوع دمشق.

شرع الأسد يبشر بهذا، ويطرح شعار: السلام الاستراتيجي مقابل التوازن الاستراتيجي الذي شغل به الشعب أكثر من عقد، وحرم

المواطنين خلالـه حتى من الخبز والحرية وحركة الـعمل و. . . مقابل الاستعداد للمـواجهة ولاستكمال برامج التوازن الاستـراتيجي، وعندما سأل سـامي الجندي، وهو سـفير سورية فـي باريس، وزير الخارجـية إبراهيـم ماخوس: هـل ترجع الجولان؟ قـال ماخـوس: نعم، مقـابل الاعتراف بإسرائيل، كما مر معنا.

٢- لقـد آن الأوان لحافـظ أسد، بعـد أن استـقر حكـمه المـطلق دونما معارض أو مناوئ أو منافس، أن يـكشف عن بعض سياساته أو أسراره المكتومة مع العدو، تمهيداً لعـلاقته، أو علاقة الأقلية الحاكمة المسـتقبلية مـع إسرائيل، وقد بدأ يـظهر ذلك جلياً خـلال حكم الابن الوريـث الذي اسـتـمـر كـأبيـه في شـهـر العسـل الدائم مـع العـدو، والاستمرار في قانون الطوارئ الدائم في حكم سورية.

لقد مارسـت إسرائيل ضغطاً معـلناً وصريحاً ضد الأمـريكان الذين كانوا ينسقـون مع الفرنسيين لتـغيير النظام السوري، فـحذرت إسرائيل من هذا الـتفكيـر الذي سيلـحق الأذى بدولتـهم، ويشكل خطـراً على وجودها، لأن الـبديل سيـكون الفوضى أو وصـول المتـشددين -أي: الإسلاميين إلى الحـكم- فبدّلت أمريكا موقفهـا، وأعلنت أنها لا تريد تغيير النظام السوري، بل تريد تبـديل سلوكياته، وكان قد سبق هذا أو رافـقه أو أعـقبـه، لقاءات سـورية إسـرائيلـية في أمـريكا بـترتيـب من كيسنجر عراب السياسة الأمـريكية في الشرق الأوسط، إذ بادر بتوجيه دعوة لكل من سورية وإسرائيل إلى واشنطن للبحث في فك الارتباط، لإعطاء الأسد نـصراً وهمياً بـإعادة القنيطرة الـمدمرة المجـردة من كل

شيء لحافظ أسد، فحضر دايان عن إسرائيل، وحضر حكمت الشهابي رئيس الأركان السوري المحسوب على السياسة الأمريكية، عن سورية، في آذار ١٩٧٤، فطار الشهابي من دمشق يحمل هدايا من الأثاث -الدمشقي- المطعم بالصدف، وقطع من النحاس المزخرف لوزير الخارجية الأمريكية، وبعد حوارات سريعة، ومهيّأ له ومتفق عليها، حاز كيسنجر على موافقة حكمت الشهابي على خطة الفصل بين القوات بمنطقة عازلة، تحيط بها منطقتان، سورية وإسرائيلية، فيهما قوات وأسلحة محدودة[1].

أزفت ساعة استحقاق الأسد، (بعد انسحابه من الجولان وتسليمه للعدو) أن ينتزع من الرئيس الأمريكي نيكسون تعهداً بالانسحاب من الجولان، واستعداده للاعتراف بإسرائيل إذا ما انسحبت إلى حدود حزيران ١٩٦٧، لكن اليهود، يأخذون ولا يعطون، يعاهدون ولا يلتزمون، يستخفون بالشعوب، ولا يتقيدون بالمواثيق (وهذا هو دأبهم وديدنهم على مر القرون استناداً إلى فهم تلمودي وتوراتي ينص على أنهم شعب الله المختار، وأن الشعوب الأخرى خلقت لخدمتهم، وكل ما لديها مباح لهذا الشعب المختار) وسرعان ما أفسد كيسنجر المباحثات بين الأسد ونيكسون (عندما التقيا وكان نيكسون يتعهد ببعض المطالب السورية) بأسلوب فظ شرحه بإسهاب باتريك سيل في كتابه عن الأسد والصراع في الشرق الأوسط[2].

---

(١) باتريك سيل: ٣٩٤ .

(٢) المرجع السابق: ٤٠١ .

٣- كان كيسنجر، ثعلب السياسة الأمريكية المراوغ، يقرأ، بعمق، نفسية الأسد، ويدرك تطلعاته وآماله ومخاوفه، وخشيته من سيطرة الإسرائيليين على لبنان بدعوى حماية المسيحيين، فوظف كيسنجر ما كان عليه الأسد من طموح، وما لديه من مخاوف، للاستفادة منه باتجاه مضاد للفلسطينيين، لسحقهم بدلاً من حمايتهم، وإلغاء دورهم بدعاوى عدة مرّ بعضها منذ قليل فيما يخص حماية المسيحيين في لبنان من عدوان الفلسطينيين عليهم.

إذن.. فالفلسطينيون سيتم قهرهم وضبطهم، واليسار سيتم البطش به واحتواؤه، وموسكو ستصاب بخيبة أمل، والأسد سيتلوث، حسب ما نقله باتريك سيل عن كيسنجر، وتسوء سمعته في نظر البلدان العربية، أو بالأصح، الجماهير العربية، وبهذه المنطلقات، أقنع كيسنجر إسرائيل، بل طمأنها من مغبة دخول الجيش السوري إلى لبنان، كما رأينا من قبل، وإطلاق يده في وسطه وشماله، وهذا ما سوف يضعف الجيش السوري، بصراعه مع الفلسطينيين واللبنانيين المسلحين والحاقدين على الأسد، ويشغله عن التفكير في الجولان، ويبعده عن الاهتمام به. فأطلقت أمريكا أيدي السلطة السورية الحاكمة في لبنان، وراح الأمريكيون يتحدثون عن دور سوري إيجابي في لبنان، ولم يحدث أن تغير الضوء الأحمر إلى الضوء الأخضر بمثل هذه السرعة حسب التعبير الغربي.

لم ينتظر الأسد طويلاً بعد دخول قواته إلى لبنان، بل سارع إلى تقليم أظافر القادة السياسيين، وأمراء الحرب، وقادة منظمة التحرير

الفلسطينية، ومطاردة المقاومة، وضربها بقسوة بالغة، وقهر الزعماء، وفي مقدمتهم كمال جنبلاط الذي عقد الأسد معه اجتماعاً عاصفاً في ٢٧-٣-١٩٦٧ استغرق سبع ساعات، افترقا بعده متخاصمين، وانتهى الأمر باغتيال كمال جنبلاط، والقضاء عليه، وتفتيت الجبهة الوطنية العريضة التي كان جنبلاط يتزعمها ويقودها[١].

٤- سارع الأسد بعد دخول جيشه إلى لبنان كذلك ليعلم الفلسطينيين التعقل -حسب ما نقله عنه باتريك سيل- فكان أول إنجازاته فك حصار الفلسطينيين واليساريين عن المعاقل المسيحية في مدينة زحلة، وفي وادي البقاع بالقوة الغاشمة، مما أورثه كرهاً شعبياً، أفقده أصدقاءه في الخارج، وعرّضه لأسوأ أزمة يواجهها في الداخل.

إن التدخل السوري غيّر مجرى الحرب لدى المسيحيين، من الدفاع إلى الهجوم، ضدّ مخيم تل الزعتر الذي يسكنه ثلاثون ألفاً، والذي سقط في ظل مأساة مرعبة بعد حصار خانق أورث سكانه جوعاً وعطشاً وقتلاً وجرحى لا يجدون العلاج ولا الدواء، ثم أعقب سقوطه حدوث مذبحة رهيبة، قتل فيها ثلاثة آلاف فلسطيني مدني، ذبحوا فيه ذبح النعاج بعد سقوط المخيم على أيدي النمور -جيش كميل شمعون- بقيادة ولده داني.

كانت مذبحة تل الزعتر واحدة من عدة مجازر ضد المدنيين

---

(١) باتريك سيل: ٤٥٢ - ٤٥٥ .

الفلسطينيين في مخيمات صبرا وشاتيلا فيما بعد، وكذا في حرب المخيمات عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧ التي كان الشيعة، ولاسيما حركة أمل بقيادة نبيه بري المتحالفة مع النظام السوري الذي يمدها بالسلاح والتموين والذخيرة والدعم اللوجستي، إذ كان جنود أمل يفتكون بالفلسطينيين ويعملون في الوسط والجنوب على مطاردتهم وقتلهم[1].

٥- بعد أن ساءت سمعة الأسد في لبنان بين الفلسطينيين واللبنانيين، جراء القمع والمذابح والجرائم التي ارتكبها ضدهم، وكذا في داخل سورية، بعد الفساد والنهب والرشى التي زكمت رائحتها الأنوف، أعلن عن حركة التصحيح التي أراد أن ينقذ بها سمعته، لكن هذه الحركة بدت ملوثة حسب تعبير صديق الأسد باتريك سيل، إذ راحت تظهر فوارق كبيرة تدل على عدم المساواة بين المواطنين بشكل سافر، وبدأ عدد من رموز السلطة الطائفية المتنفذين المهيمنين على أجهزة الدولة يجمعون الثروات الأسطورية بشكل غير مسبوق، ولم يعرف السوريون لها مثيلاً من قبل، فامتلأت صفوف السلطة الحاكمة، وكذا الطبقات العليا من العسكريين والأمنيين وموظفي الحكومة الكبار وبعض الصغار في البحث عن الربح، وجمع الثروات الخيالية والمال الحرام.

في عام ١٩٦٣ كان في سورية ٥٥ مليونيراً، فارتفع عددهم عام ١٩٧٣ إلى ٢٥٠٠ مليونير أثرى كثيرون منهم من العمولات والسرقات

---

(١) المرجع السابق: ٤٥٩ - ٤٦٠ .

والرشاوى والابتزاز والتسلط على التجار والأثرياء، فنمت وظهرت أو ولدت شراكات بين رجال الأعمال، وبين كبار موظفي النظام التقدمي -عسكريين وأمنيين وسياسيين- وتكاثرت معها شبكات الفساد والمحسوبية، فلم يعد للمصلحة العامة في الدولة والمجتمع شأن يذكر، بل أصبح الدافع والمحرك لهذه السلطة العجيبة في عالم السياسة، الأرباح والمكاسب الشخصية[1]، وقد رأينا أن المسؤول عن الاقتصاد السوري شكل مدرسة أو نموذجاً في نهب الأموال، ليكون الأنموذج لكل الفاسدين في (جمع الثروات الأسطورية) الذين يمسكون بزمام السلطة الحاكمة، فامتلأت البنوك (في أوربا وأمريكا، ولاسيما في فرنسا المركز الرئيسي لأبناء الأقلية الذين تربطهم صلات وثيقة منذ أيام الانتداب، بفرنسا) امتلأت بالأموال المنهوبة والثروات المسلوبة، في الوقت الذي كانت جماهير المواطنين تعاني من التضخم والغلاء والبطالة وضآلة الرواتب، وضعف القوة الشرائية لليرة السورية، وحرمان الموظفين غير المتنفذين من العيش الكريم اللائق، إذ إن رواتبهم لا تكفي للإنفاق على عائلاتهم وأبنائهم أكثر من عشرة أيام في الشهر، ليضطروا إلى العمل في بيع ربطات الخبز للمسافرين في مراكز انطلاق السيارات، أو بيع الصحف، أو سائقين في سيارات الأجرة، فانعكس ذلك على المجتمع برمته، وظهر جلياً في تخلف القطاعات الصناعية والثقافية والصحية، إذ كان بعض المرضى يضطرون إلى السفر للبلاد المجاورة كالأردن ولبنان لتلقي العلاج في

---

(١) المرجع السابق: ٥١٥ - ٥١٨ .

العمليات المعقدة والأمراض الخطيرة، وكان هذا كله نذيراً لسحق الطبقة الوسطى أو زوالها، وهي قوام المجتمع في كل البلاد الناهضة.

٦- اتسعت صلاحيات الأجهزة الأمنية، حتى استحال الحكم في سورية كلها إلى مجتمع أمني، فالسلطة ليست سلطة الحزب أو الحكومة أو القضاء أو الجهاز التشريعي، فليست سلطات هذه الهيئات والأجهزة مجتمعة بذات أثر في مجرى الحياة العامة في سورية، فالسلطة كلها للأجهزة الأمنية من مخابرات وجيش، وهي وحدها أدوات الرئاسة -رئاسة الأسد- الحقيقية، فالوزراء في حال يدعو إلى الإشفاق، إذ ليس لهم رأي أو شأن أو نفوذ أو صلاحيات، بل إن رئيس الوزراء لا يجرؤ على السؤال عن معتقل أو سجين أو مفقود ولو كان من أفراد عائلته، بل يعتذر لمن يراجعه قائلاً: هذا من صلاحيات قصر الرئاسة حيث توجد قيادات الأجهزة المهيمنة على وزارات الحكومة ومؤسساتها وأجهزتها وكل دوائر الدولة التي يحركها من القصر حافظ أسد، أو من ينيبه عنه مثل ولده باسل قبل موته في ظروف غامضة، ثم أحد أبنائه أو أفراد أسرته وأقاربه، حتى أضحت الهيمنة على شؤون البلاد وحتى الصغيرة منها تحت المجهر وفي متناول المراقبة الدقيقة والمتابعة والمساءلة عن كل ما يصدر عن المواطن السوري!!

من هنا فإن وحدة السلطة تساوي بالنسبة للأسد وحدة الأجهزة الأمنية القمعية -الجيش والمخابرات- فهذه هي نواة السلطة الصلبة أو

عمودها الفقري، التي تمسك الرئاسة بكل خيوطها ومفاتحها في كل الظروف والأحوال، ولا يجوز أن يقترب منها أي مؤثر من خارجها، وأن يخضع كل ما في البلاد من سياسات وقوى وأشخاص لمستلزمات وحدتها وقوتها وهيمنتها، أما الحزب والحكومة والجبهة الوطنية والسلطة التشريعية والقضائية والصحافة.. إلخ، فليست سوى أدوات لهذا الجهاز المتحكم بالبلاد تحكماً لا يحده قيد أو اعتبار أو دستور أو قانون، وإنما وظيفتها الأساسية هي التغطية على جرائم السلطة وإجراءاتها الخيانية والقمعية، وإيهام المواطنين أو تضليلهم وتضليل الأمة العربية والرأي العام الدولي أنها هي الممسكة بالسلطة، وأن الأسد هو الأمين العام للحزب والجبهة الوطنية الذي يدير أجهزة الدولة.

إن هذه الأحزاب والمنظمات والهيئات والمؤسسات، وعلى رأسها حزب البعث نفسه -الحاكم ظاهراً- تقع خارج التركيبة الحقيقية للسلطة.

إن خطب الأسد في هذه الفترة كانت للتعمية على أهدافه الحقيقية، وليس للإفصاح عنها، فالكشف عنها كان يمس التغييرات السلطوية التي تعمل على تنفيذها، والأهداف الحقيقية التي كان يستبطنها ويتكتم عليها، ولذا كانت أحاديثه عن الحرية وعن جميع شعاراته في هذه الفترة مجرد ادعاءات للمناورة لا تلزمه بأي شيء، مع أنها لعبت دوراً بالغ الحيوية في تضليل المواطنين وخداعهم لفترة من الزمن، يتم بعد ذلك سحبها من التداول، أو إعادة قراءتها، بعد

أن تكون قد أدت دورها في التمهيد للطور الذي سيلي هذه الفترة الانتقالية، فمثلاً كانت شعارات الحرية قد مهدت لإقامة مرتكزات، وأقامت مؤسسات وأجهزة، وأشاعت مناخاً لاستبداد شمولي أشد قسوة ودموية في حياة السوريين في القديم والحديث[1]. وقل مثل ذلك في شعار التوازن الاستراتيجي الذي أعاد قراءته ليكون السلام الاستراتيجي، ومثل ذلك كثير.

٧- في منتصف السبعينيات اشتد زحف السلطة الأسدية على مرافق الدولة، وعلى مؤسساتها لاحتلالها والسيطرة عليها بمواطنين علويين، ضاربة عرض الحائط بمعايير المواطنة القانونية والدستورية، وذلك لإضفاء طابع مذهبي مهيمن بأوسع ما يمكن على السلطة، لجني المكاسب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المادية والمعنوية للمنتمين لأبناء الطائفة العلوية، من أمثلة ذلك تعليمات صدرت ذات يوم من عام ١٩٧٦ إلى اللجان الحزبية الفاحصة في وزارة الخارجية التي كانت تجري مقابلات شفهية لعشرات المواطنين المتقدمين، لانتقاء خريجي دراسات قانونية، تود الدولة تعيينهم في السلك الخارجي، فقد أصدر أحد رجال أمن الوزارة آنذاك توجيهات شفهية إلى رئيس اللجان يأمره بإعطاء الأفضلية للعلويين، وإن كانوا من غير الحزبيين، على السنّة، وإن كانوا أعضاء في الحزب.

ومن أمثلة ذلك أيضاً توزيع المعلمين على المدارس في المدن والقرى والأحياء، فالمعلم الذي يرسل إلى التجمعات السكانية الكبيرة

---

(١) حوار حول سورية: ٤٣ - ٤٥ .

أو المعادية يكون عادة من العلويين، ومدرسو المواد ذات العلاقة بتكوين الوعي السياسي والاجتماعي للتلاميذ كمواد التاريخ والتربية القومية والاشتراكية وعلم الاجتماع والفلسفة يكونون بدورهم من العلويين[1]. ؟

أما الذين يعرفون بميولهم الإسلامية، سواء أكانوا من الإخوان أم من غيرهم، فإنهم سيبعدون إلى المناطق التي تسكنها أقلية طائفية أو مذهبية أو قرى مسيحية أو درزية أو إسماعيلية، وقد عرفنا الكثير من هؤلاء الأساتذة الذين أبعدوا عن بلدانهم، وعن المدارس التي زاولوا فيها مهنة التدريس سنوات طويلة.

في هذا العرض المؤلم والمحزن نتساءل: هل هذه السياسة الطائفية المنتنة تصب في صالح المواطنين العلويين؟

وإذا كانت نسبة العلويين لعدد السكان في سورية لا تزيد على ٨٪ كما يؤكد البعض، أو ١٠٪ كما يزعم آخرون، أو ١٢٪ كما ذكر بعض العلويين مثل الضابط محمد هواش في كتابه: عن العلويين ودولتهم المستقلة[2]، فهل من العقل أو المصلحة العامة أو تكافؤ الفرص أو مصلحة الطائفة نفسها، أن تدفع الطائفة بسياسة حمقاء في مواجهة الأكثرية بروح العداء والتسلط؟ وهل يستطيع المهيمنون على مفاصل السلطة والحياة برمتها أن تظل أصابعهم على الزناد إلى مالا

---

(١) حوار حول سورية: ٩٥ .

(٢) عهد العلويين ودولتهم المستقلة لمؤلفه محمد هواش: ٦٦.

نهاية؟ ألا يخشون من سوء المصير أو سوء الخاتمة السياسية؟ ما هذا المصير المجهول الذي يقود حافظ أسد الطائفة أو شطراً منها إليه على مذابح زعامته ومصالحه ومكاسب عائلته وعشيرته؟

إن عقلاء الطائفة يشعرون بذلك، ويمقتون هذه السياسة الأسدية المدمرة، وقد دفع بعض المفكرين في الطائفة ثمن رفضهم لسياسة حافظ أسد غالياً، فيما نالهم من مطاردة واعتقال وتعذيب وقتل وتشريد وسجن استمر زهاء بضعة وعشرين عاماً.

لا بديل من تعاون المخلصين من كل أطياف الشعب في سورية، من أبناء الأكثرية وأبناء الأقليات الدينية والطائفية والعرقية لترسيخ الوحدة الوطنية كما كانت يوم واجه السوريون وهم قلة لا تزيد على ثلاثة ملايين، أقوى الدول في عصرها، وألحقوا بها هزيمة نكراء، وانتزعوا استقلالهم وحريتهم من فرنسا بوحدتهم وتضامنهم في فترة وطنية زاهية.

إنني أمد يدي لكل من يتجاوب مع هذه الصيحة المخلصة، لننقذ وطننا وشعبنا، قبل أن يدرك الغرق المركب الذي يحملنا جميعاً.

ثامناً- سورية قبل النهوض الإسلامي

في ظل الاحتلال الفرنسي عام ١٩١٨-١٩٤٦ كانت الحياة السياسية في سورية ذات طابع غربي وعلماني، لا تمت بأي صلة للرسالة الإسلامية في كل ما يطرحه السياسيون من تشريعات وبرامج وقيم وأعراف اجتماعية، بل كانت شرائح واسعة، وأحزاب ذات نفوذ، تعادي الإسلام، وتعتبره مظهراً للرجعية والتخلف، وتشهر عليه

انتقادات جارحة، وتدعو الناس للتحرر منه والابتعاد عنه، وكان معظم الساسة السوريين، إن لم يكونوا جميعاً، من خريجي الجامعات الفرنسية المتشبعين بالثقافة الغربية التي تنادي بفصل الدين عن الدولة، وإقصاء الإسلام عن السياسة والحياة العامة، وتنادي بمجتمع ليبرالي يحذو حذو أوربا في نهضتها ومسيرتها.

١ً- لم أصادف سياسياً واحداً في عشرينيات القرن الماضي رفع راية الإسلام، واعتبره مصدراً ومرجعاً له في برنامجه أو فكره السياسي، أو دعا إليه، أو أسند إلى بعض أحكامه، أو وقف منه موقف الإكبار والتعظيم، فالبعض كان يتبرأ من الإسلام، ويعتبر النهوض ملازماً لإقصائه وحصره في الشأن التعبدي فيما بين الإنسان وخالقه، وقد قرأنا لبعض الساسة في تلك المرحلة تصريحات معادية تخلو من اللياقة والذوق، مثل ما كان عليه ساطع الحصري، وأنطون سعادة، وغيرهما، بل إن بعض المواطنين ذوي الشهرة بمواقفهم وقدراتهم السياسية في مخاطبة المواطنين والتأثير بهم، مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر يشيد بتجربة كمال أتاتورك في مواقفه من الرجعية، أما الساسة الأكثر اعتدالاً مثل شكري القوتلي، وهاشم الأتاسي الذين لم ينالوا من الإسلام قط، فإنهم لم يشيدوا بالإسلام قط، ولم يتخذوا منه مرجعاً أو مصدراً، يستلهمون منه أو يرتكزون عليه في نضالهم السياسي، وكفاحهم من أجل الحصول على التحرر والاستقلال.

٢ً- استمرت هذه الحالة في تاريخ السياسة السورية حتى منتصف

الثلاثينيات من القرن الماضي، إذ تمادى العلمانيون والمعادون حتى أوشكوا أن يصدروا قانون الأحوال الشخصية الذي يخالف أصول الإسلام في وزواج المسلمة بغير المسلم، وبمصادرة الوقف الإسلامي، وفي تشويه المناهج التعليمية في المدارس، كالتربية الإسلامية، والتاريخ الإسلامي... إلخ، فانبرى لهذه الموجة وهذا التيار المعادي رجال فحول، ودعاة كبار، آثروا مرضاة الله على كل ما في هذه الدنيا من متاع وأبهة وشهرة، ووضعوا أرواحهم على راحاتهم، ورفعوا راية الإسلام والدعوة إليه خفاقة، واستنهضوا همم الغيورين على دين الله وعقيدته السمحاء وشريعته الغراء، كان منهم على سبيل المثال لا الحصر، في دمشق: الشيخ كامل القصاب، والشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ علي الدقر، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ حسن حبنكة، وفي حمص: الشيخ أبو السعود عبد السلام، وطاهر الرئيس، وفي حماة: الشيخ سعيد الجابي، والشيخ سعيد النعسان، والشيخ محمود العثمان، وفي حلب: الشيخ محمد النبهان، والشيخ راغب الطباخ، والشيخ أحمد الزرقا وولده العالم الجليل الشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ نجيب خياطة، وفي دير الزور: الشيخ حسين رمضان، وفي حوران: الشيخ نايف عباس، نزيل دمشق، والشيخ سليم المصري، وفي إدلب: الشيخ نافع شامية وغيرهم.

تحرك هؤلاء الأفذاذ منذ منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، ونفخوا في الأمة روحاً جديدة، وأثاروا الغيرة في نفوس المواطنين على الإسلام، وحذروهم من الأخطار التي تستهدفه، فاستطاعوا كسر

الموجة المعادية، وإيقاف زحفها في كل أرجاء سورية، ثم ظهرت منذ منتصف الثلاثينيات، الجمعيات الإسلامية في حمص ١٩٣٤، وفي دمشق ١٩٣٥، وفي حلب ١٩٣٧، وفي حماة ١٩٣٨، وفي دير الزور ١٩٤١، وفي اللاذقية ١٩٤٢، ليشكل روادها فيما بعد جماعة الإخوان المسلمين في مطلع عام ١٩٤٥ كما مر معنا تفصيلاً في بداية المجلد الأول من هذه الأوراق.

٣- أثار ميلاد الإخوان المسلمين في سورية وانتشارها السريع في جل المحافظات السورية، والتفاف الجماهير حولها: حفيظة الأحزاب اليمينية واليسارية، فشرعوا أقلامهم بالتهجم على الجماعة، واتهامها بالرجعية والتخلف، وكان الشيوعيون أشد الناس عداءً للإخوان في هذه الفترة المبكرة من حياة الجماعة، فانبرى كتاب الإخوان بالدفاع عنها، وتفنيد أراجيف خصومها، على صفحات جريدة (المنار) التي صدرت في حزيران ١٩٤٦، وكان من أبرز كتابها: الأستاذ السباعي، والشاعر عمر بهاء الأميري، والأستاذ بشير العوف، والأستاذ كاظم نصري الدمشقي إذ ذاك.

شغل هذا الصراع الرأي العام في سورية، كما كنا نحن -أبناء الجماعة- في مستهل حياتنا الإخوانية، وحياة التنظيم الذي التحقنا به في العام الأول الذي نشأت فيه، نتابع هذا الصدام بحماسة وانفعال كبيرين.

إن هذا التحرش الذي مارسه الخصوم على الجماعة، قوّى عددها، وشدّ ساعدها، فكسبت أنصاراً وأتباعاً مؤيدين، فشكلت تياراً هادراً لا يستطيع المناوئون تجاهله، أو لا يحسبون حسابه.

٤ً- عندما أطلّ عام ١٩٤٧ أعلنت الحكومة عن إجراء انتخابات نيابية بعد انتهاء فترة مجلس ١٩٤٣، كانت الكتلة الوطنية سيدة الموقف في ثقلها وفي شخصياتها المعروفة من أمثال: جميل مردم، ولطفي الحفار، وصبري العسلي، ونسيب البكري، وفي مقدمتهم شكري القوتلي.

خاض الإخوان الانتخابات بعزيمة، وتحدثوا عن الفساد الإداري الذي غرق فيه رجال الكتلة التي انفصلت فيما بعد إلى حزبين: الحزب الوطني في دمشق، وحزب الشعب في حلب، فالتفت الجماهير في العاصمة السورية حول الجماعة، التي بدت كفتها راجحة، وتأييدها كاسحاً، فلجأت السلطات الحاكمة إلى تزوير مفضوح فاحت رائحته، وبدت أدلته، فكان هذا السلوك إيذاناً بزوال بقايا الكتلة وانفراط عقدها.

لم يعد الهجوم على الجماعة بضاعة رائجة في الأوساط الشعبية، بل أصبح يلحق خسائر سياسية وشعبية بمن يقدم عليه أو يتورط فيه، فركب كثير من الساسة المحترفين الموجة، وصاروا يتقربون من العلماء والدعاة والأئمة، ويتظاهرون بالتدين، واحترام الإسلام بعد أن رجحت كفة التيار الإسلامي في دمشق وفي مدن أخرى.

لم يكن للإخوان ثقل في مجلس ١٩٤٧، غير أن صوتهم صار مدوياً ومسموعاً عبر الأستاذ الكبير محمد المبارك أحد مؤسسي الجماعة في دمشق والبرلماني الألمعي تحت قبة المجلس النيابي، وكان الرافد في هذا الصراع الفكري: جريدة المنار الإخوانية اليومية

التي تقدمت على الصحف الأخرى العريقة والسابقة عليها في كمية الأعداد المطبوعة، وفي إقبال القراء عليها، وانتظار كل صباح صدورها بفارغ الصبر.

كان تنظيم الفتوة الإخواني، وانتشار مدارس الجماعة، وأنديتها الرياضية، ونشاطها الثقافي، ملء السمع والبصر، فاقتنع الخصوم بوقف حملاتهم، باستثناء حزب صغير هو الحزب التعاوني الاشتراكي المحسوب على شكري القوتلي، والذي استخدم أساليب فاشية ضد الأحزاب المناوئة للقوتلي، واغتالوا الطالب الجامعي محمد علوش أحد أعوان أكرم الحوراني، ودخلوا مع الإخوان في خصومة بقيادة رئيس الحزب ومؤسسه فيصل العسلي ذي النزعة الهتلرية، فانتهى به المطاف إلى تلاشي الحزب واضمحلاله، ونزوح مؤسسه فيما بعد إلى الخارج، وعمله كموظف في السعودية إلى آخر حياته.

٥- منيت الجماعة بأزمة فاقت في ضررها ما أحدثه خصوم الإخوان من علمانيين وشيوعيين، إذ حدث أول انشقاق وتمرد في دمشق على قيادة الجماعة قاده الأستاذ كاظم نصري وآخرون في دمشق بعد أن كان كاظم نصري مجلياً في قلمه بالدفاع عن الجماعة على صفحات الجرايد، وبالذات على صفحات المنار، لكن الخلاف جرفه وجرف فضلاء معه، كما أثر هذا الانشقاق في جيوب صغيرة في المدن الأخرى ولاسيما في حمص دون أن يكون له أي تأثير على مسيرة الجماعة وانتشارها. ومن فضل الله ورحمته بهذه الجماعة التي رفعت راية الدعوة إلى الله بإخلاص وعزيمة، ثم بفضل قيادة السباعي

والمبارك ومن التف في دمشق حولهما، وفي إدارة المراكز، سرعان ما طوق الخلاف، وانطفأت نار الفتنة، وعادت الجماعة إلى ما كانت عليه من وحدة وتماسك والتفاف حول قيادتها، ونبذ كل خلاف أو انشقاق أو نزاع في صفوف الجماعة الراشدة.

كان الصراع مع اليمين من أمثال القوميين السوريين بقيادة أنطون سعادة المدعوم من الغرب، واليساريين وعلى رأسهم الشيوعيون بقيادة بكداش المدعوم من الاتحاد السوفياتي بكل أنواع الدعم المالي والسياسي والثقافي والإعلامي.. إلخ ثم حدوث الانشقاق الأول في صفوف الجماعة في أواخر الأربعينيات، كان هذا كله أول صدمة تتلقاها الجماعة، وأول اختبار لها في مسيرتها الدعوية والتنظيمية والسياسية خرجت منها متماسكة ظافرة، بل ربما أعطتها مناعة ضد انشقاق كبير ستواجهه بعد ست سنوات في ظل حكم الشيشكلي العسكري، وغياب القائد عن الساحة بنفيه أو انسحابه من الصراع مع الشيشكلي.

كان الانشقاق هذا -الثاني- عام ١٩٥٣ كبيراً وخطيراً كاد أن يطيح بالجماعة ويقضي عليها، إذ شاركت فيه قوى داخلية من داخل الجماعة، كما شاركت فيه قوى خارجية وأجهزة مخابرات دولية وعربية، كان عبد الناصر في مقدمتها وعلى رأسها، وكان أشد تأثيراً في ذاك الانشقاق عندما استطاع تجنيد عناصر إخوانية سابقة خرجت على الجماعة، وارتبطت بالمخابرات المصرية، كان نجيب جويفل أبرزها وأخطرها، وأشدها فتكاً في التنظيم الذي يعرف الكثير من

خفاياه وخباياه وأشخاصه ونقاط الضعف فيه، وقد أحرز نجاحاً كبيراً في مهمته التدميرية عندما استطاع شراء عناصر إخوانية سورية من داخل التنظيم، باعت نفسها بمكاسب ومناصب ومواقع رخيصة، كان من أبرزها عبد المجيد الطرابلسي من حمص، وأنور حمادة من إدلب، وآخرون أقل أهمية في دمشق واللاذقية وحمص وغيرها. وقد عرفنا ذلك تفصيلاً وتحليلاً في المجلد الثاني من هذه المذكرات.

إن الذي ساعد الجماعة في هذه المحنة الكبرى، وخروجها منها معافاة، مبادرة قائدها السباعي الذي دخل سراً إلى سورية -رغم ملاحقته- ليتصل بشرائح الجماعة في معظم مراكزها، وكشف لهم دناءة بعض المصريين والسوريين الذين باعوا أنفسهم لأعداء الدعوة بثمن بخس، وكذا وعي جمهرة كبيرة من قواعد الإخوان، ولاسيما في مركزي حلب وحماة اللذين ارتابا منذ البداية من حركة نجيب جويفل، وأغلقا في وجهه ومن معه الأبواب، وقطعا عليهم دروب الفتنة والكيد، وألقيا بثقلهما مع القيادة الإخوانية الشرعية بقيادة الشيخ السباعي، فكان في ذلك ترجيح للجماعة، وفشل ذريع لرؤوس الفتنة الذين لاذوا بالفرار والإدبار.

إن سبب هذا الحشد الكبير في ضرب الجماعة اضطلاعها بقيادة الحركة عالمياً في أثناء نكبة الإخوان في مصر على يد عبد الناصر الذي عمل على سحق الجماعة، دونما رحمة أو شفقة أو ضمير، فكانت عاقبته ومن معه الخزي والخسران في هذه الدنيا الفانية، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

٦- تلاحقت الأحداث في سورية بتسارع كبير، فقد سقط حكم الشيشكلي في مطلع عام ١٩٥٤، وعاد رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي ظافراً إلى دمشق رئيساً للجمهورية كما كان قبل حدوث الانقلاب، وكذا حكومة الدواليبي، ليتابع العهد مسيرته التي أوقفها الانقلاب، معلنين عدم دستورية فترة الشيشكلي التي امتدت من عام ١٩٥١ وحتى شباط ١٩٥٤، وأعلنوا عن انتخابات جديدة، وقد استمرت هذه الحقبة الديمقراطية الهشة حتى عام ١٩٥٨، عندما قامت الوحدة بين مصر وسورية مما جاء شرحه مفصلاً وكاملاً في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

تاسعاً- الخلاف من جديد

أثقل المرض كاهل المراقب العام الشيخ السباعي في أعقاب هذه المرحلة أو في نهايتها عام ١٩٥٨، فصار يُسند بعض مهماته لإخوانه الذين يحملون عبء العمل الدعوي معه، واستمر على هذه الحال إلى ما قبل وفاته رحمه الله عام ١٩٦٤، عندما أسند مهمة المراقب العام إلى الأستاذ عصام العطار رئيس مركز دمشق، غير أن شطراً من الجماعة لم يرق لهم إسناد منصب المراقب العام للأستاذ عصام وتثبيته فيه دون أن يصدر ذلك عن مجلس الشورى أو برلمان الجماعة، فجاهروا بعدم موافقتهم على قيادة الأستاذ العطار، وذكروا عدداً من الملاحظات على أسلوبه في قيادة التنظيم، وتغليبه الأسلوب الخطابي المؤثر على العمل المؤسساتي في داخل الجماعة، وبدأ الخلاف يطفو على السطح، ويعرف به جمهور الإخوان في جميع

المراكز، وكان مركز حلب يقود هذا التوجه ويجهر به، ويطالب بتنحية الأخ المراقب العام عصام العطار -حفظه الله- بأسلوب لا يخلو من الخشونة، كان الدكتور فوزي حمد رحمه الله يضطلع به، ويقوم بجولات على الإخوان في داخل سورية وفي خارجها في البلاد العربية والأجنبية، فتعكرت الأجواء والنفوس، وفقدت الجماعة ما كانت عليه من صفاء القلوب وروح الأخوة الصادقة، والحب في ذات الله وفي دعوته.

أتى رد الفعل حاداً من مؤازري الأستاذ عصام، وفي مقدمتهم الشيخ زهير شاويش -حفظه الله- الذي كان يقوم بجولات مضادة طاعناً في مواقف الذين يودون إزاحة المراقب العام عن موقعه القيادي، وصار يدعو إلى إعطاء البيعة للأستاذ عصام في مبادرة غير مسبوقة، إذ إن منصب المراقب العام عمل إداري يضطلع به من يسند إليه لأجل مسمى، ثلاث أو أربع سنوات، ثم ينتخب غيره أو يجدد انتخابه، ولم يحدث قط قبل ذلك أن بويع المراقب العام بيعة دائمة، فتعمق الجرح، واتسعت الهوة في شرخ كبير بين تيارين كبيرين، يقود أحدهما الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، ويضم مركز حلب ومركز اللاذقية، ومجموعات أخرى في جميع المراكز الأخرى، ويقود ثانيهما الأستاذ عصام العطار حفظه الله، وتضم مركز حمص ومركز دمشق ومجموعات في جميع المراكز الأخرى.

كان أسوأ ما في هذا الانقسام توجيه الاتهامات المتبادلة عبر المحاضرات والجولات وإصدارات الكتب التي تشرح أسباب الخلاف

والانقسام.

استمرت هذه الحال المأساوية أو هذه القاصمة في جماعة الإخوان فترة طال أمدها، فتحركت القيادات الإسلامية غير السورية لرأب الصدع وإنهاء الخلاف، كان منهم مرشد الإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله والشيخ أبو الحسن الندوي من الهند والأستاذ أبو الأعلى المودودي من باكستان وغيرهم، وعندما استعصى الخلاف تقدم مكتب الإرشاد بحل لهذا النزاع الذي طال أمده، وشكلت لجنة من ثلاثة إخوة من العراق ولبنان والأردن، للقيام بمسعى حميد، لإخراج الإخوة في سورية من هذه الفتنة دون جدوى، فقررت اللجنة فرض الحل على أطراف النزاع، ومن لم يقبله يكون خارج التنظيم.

أعلن مركز حلب ومن معه الرضوخ لقرار قيادة الإخوان العليا، وكان ثمة ثلاثة مراكز نأت بنفسها عن الخلاف باسم مراكز الحياد، فقبل اثنان منها قرار مكتب الإرشاد، وهما مركز إدلب ومركز حماة، وتحفظ مركز دير الزور، ثم أعلن موقفه مع مركز دمشق ومن سار معهم في قيادة الأستاذ عصام العطار.

كان ذلك في عام ١٩٧٥ بعد خلاف استمر ست سنوات منذ عام ١٩٦٩، تضاف إليه سنوات أخرى من النزاع والجدال سبقت الإعلان عن الخلاف.

عاشراً- اختيار مراقب جديد

انضمت معظم المراكز في سورية إلى التنظيم الذي أعلن ولاءه

لمكتب الإرشاد والارتباط به، والإذعان لقراره، فبالإضافة إلى مراكز حلب واللاذقية وحماة وإدلب، أعلن عضو إدارة مركز حمص الشهيد محمود سويد وزميله في الإدارة أبو جابر انضمامهما إلى الجماعة، كما مر معنا من قبل، كما قام الأخ الشهيد فرج غليون -أبو حيدر- وغيره من حمص بمساعٍ حثيثة لرأب الصدع، وكنت أنزل عليه ضيفاً عندما كنت أزور مدينة ابن الوليد، وكان هذا شأن الإخوة في حوران، والإخوة في الميادين من محافظة دير الزور، غير أن مركز دمشق بقيادة الأستاذ عصام العطار، وشطراً من حمص بقيادة الشيخ محمد علي مشعل، ومركز مدينة دير الزور برئاسة الدكتور حسن هويدي -حفظه الله- ظلوا على ولائهم للأستاذ عصام وارتباطهم بقيادته، والتزامهم بمركز دمشق الذي استمر على مواقفه السابقة.

٦- لن أخوض في تفصيلات الخلاف، كما فعل كثيرون، ولن أصدر أحكاماً بتخطئة هذا الفريق أو ذاك، بل أؤكد على اقتناع في نفسي ألقى الله جل جلاله عليه، يوم تكتب شهادة العباد ويسألون.

لم أجد أسباباً جوهرية تدعو إلى ذاك الخلاف المدمر، والاستمرار عليه، وشق عصا الجماعة، وتعميق الانقسام في صفوفها، فلو آثر أي طرف إخوانه على نفسه لانطفأت نار الفتنة، ولو تنازل طرف لآخر، وتخلى عن اقتناعه التماساً لمرضاة الله، لتبوأ عند الله تعالى منزلة كبيرة ما أشد حاجة المؤمنين إليها يوم الحساب العسير، عملاً بقول رسول الله ﷺ: أنا زعيم لكم ببيت في ربض

الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً[1].

ماذا يضير الإخوان لو تركوا الأستاذ عصاماً مراقباً للجماعة عاماً آخر أو بعض عام كما كان يطالب به إخوانه وأعوانه؟ ولو كان في ذلك تنازل عما يقتنعون.

لقد عرفت الشيخ عبد الفتاح رحمه الله عن قرب، وعرفت الأستاذ عصام حفظه الله كذلك في مناسبات عدة، والتقيت مَن حولهم في حلب من أمثال الأخ عبد الحميد الأصيل رحمه الله وأخيه سامي الأصيل والأستاذ عادل كنعان والدكتور عبد القدوس أبو صالح وعلي الهاشمي وأخيه عادل، والأستاذ الأديب عبد الله الطنطاوي، والأستاذ إبراهيم عاصي، ومحمد الحسناوي وفاروق بطل وغيرهم، كما التقيت بإخوة الأستاذ عصام في دمشق من أمثال عمر عودة الخطيب، وزهير الشاويش، ومحمد الصباغ، والدكتور أديب الصالح، والشيخ عبد الرحمن الباني، وغيرهم كثير من حماة واللاذقية ودير الزور والميادين ودرعا وإدلب، ولمست فيهم جميعاً تحرقاً لنصرة الإسلام، والدفاع عنه، والتضحية في سبيل الله ذوداً عنه، وكلهم يتجنب الكبائر والمخالفات الشرعية، ويقوم بحق الله في عبادته، والإذعان لمشيئته، والسعي الحثيث لمرضاة الله في مثوبته، فما بالهم قد نزغ الشيطان بينهم، وألقى بين ظهرانيهم الخلاف والتنافر والجفاء.

لا يسعني وأنا أسطر هذه الكلمات إلا التضرع إلى الله العفو

---

(١) خرجه أبو داود رقم٤١٦٧ .

الغفار أن يتجاوز عنهم، ويغفر لهم، ويأجرهم على ما قدموا من عمل وجهاد في سبيل الله، وأن يعفو عنهم فيما وقعوا فيه من أخطاء واختصام، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

٢- مررت في صيف عام ١٩٧٥ ببيروت مع عائلتي في سفر كنت أرجئه وأؤجله منذ حوالي خمسة عشر عاماً، فالتقيت طيفاً واسعاً من الإخوة في لبنان يبحثون عمن يسندون إليه مهمة المراقب العام، ليعيد جمع التنظيم، ويلم أشتاته ومعظم كوادره، وكان الشيخ عبد الفتاح راغباً في التخلي عن منصب المراقب العام، وكان بها زاهداً وعنها راغباً، يُحمل عليها حملاً بإلحاح إخوانه عليه، وكان يلح على إخوانه أن يسندوا هذه المهمة إلى واحد منهم، وكانت هذه الرغبة قديمة لديه في الترك والانصراف إلى العلم والحياة الأكاديمية، فعرض إخوانه هذا الأمر على الأخ الداعية مصطفى الصيرفي حفظه الله، فأبى ذلك ورفضه بشدة وإصرار، فاستدعاني الشيخ عبد الفتاح، وعرض علي هذا الأمر، فكان ذلك مفاجأة وما يشبه الصدمة لم أتوقعها، ولم تخطر لي على بال، فأجبته بالاعتذار، وسقت له حججاً تبرر هذا الرفض، منها أنني لست جديراً بمثل هذه المسؤولية الثقيلة، وقلت له عبارة ما زلت أذكرها: هل يجوز أن تبدأ الجماعة برجل عملاق كالشيخ السباعي، وتنتهي إلى أمثالي؟

ومنها أن الشروط التنظيمية لا تنطبق عليّ، لأنني ظللت ثلاثين عاماً مبتعداً عن العمل الإداري، فلم يسبق لي أن كنت عضواً في فرع أو شعبة أو إدارة، والذي يرشح لموقع المراقب العام ينبغي أن يكون

قد شغل عضـوية مجلس الشورى لفترة يحددها الـنظام وهكذا. . كما قلت له: إن لدي سـتة أطفال، فـأين أذهب بهم؟ وأنتم تشـترطون أو بالأصح يشـترط مكتـب الإرشاد على من يـكون مراقبـاً عاماً أن يـقود الإخوان من الداخل، وأنا ممنوع من دخـول سورية، بقرار صادر عن السلطة الباغية ضمن أربعة إخوة صدر قرار عليهم بالمنع وهم: محمد نعسان عرواني، ومصطفى الصيرفي حفظهما الله، وعبد الكريم عثمان رحمه الله.

قال الشـيخ عبد الفتـاح عليه رحمـة الله: أما أبناؤك فسـوف توفر لهم الالتـحاق بمدارس فـي طرابلس، وبعـد نقاش وإلحاح طـويلين، قـررت في نفـسي شيـئاً لـم أذكره للـشيـخ خجـلاً منه واحـترامـاً له، فاستمهلته في الإجابة وودعته.

عـدت إلى الفنـدق الذي أنزل فـيه فـي رأس بيـروت أمام المـنارة واسمـه فندق لوردز، ودفـعت له الحـساب، وانتـقلت إلى فنـدق آخر أمام صخرة الروشة، يـسمى البحر الأبيض المتوسط، واسـتأجرت فيه غرفـة بعيـدة عن أعـين الإخوة، وإذا بثـلاثة من الإخـوة يهتـدون إلى مكـاني، ويأتون زائـرين وهم: أحـمد العـمـري المعـروف بالشـهامـة والسـخاء والمـروءة رحمه الـله، ومحـمد ديب الـجاجي الذي شـغل منصـب المراقـب العام فـي وقت لاحق لفـترة وجـيزة، وفـارس ملي رئيس مـركز حماة سـابقاً -حفظهـما الله- فأهـابوا بي أن لا أتردد ولا أرفض، لأن الجماعة في مأزق، وهي عرضـة لأزمة لا تحمد عقباها، إذا انفض الجمع دون الاتفـاق على مراقب عام للجمـاعة. قلت: وما

الحيلة بالأبناء؟ ماذا أفعل بهم؟

قالوا: نسألك بصراحة ووضوح، ونرجو أن نسمع منك إجابة شافية، هل تؤثر أبناءك على الدعوة، أم تؤثر دعوة الله على أبنائك؟ فلم أجبهم، خجلاً منه جل ثناؤه أن أتفوه بكلام لا يرضي الله. فقالوا: لزمتك، فلا تتردد.

عقد مجلس الشورى السوري للإخوان جلسة في بيروت، تم فيها اختيار الفقير إلى عفو ربه وعونه كاتب هذه الأحرف مراقباً عاماً بإجماع الحاضرين، فلم أدر ماذا أفعل، ومن أين أبدأ، فدعوت إلى اجتماع ضم لفيفاً من وجوه الجماعة، أذكر منهم الشيخ عبد الفتاح، وعادل كنعان، وفوزي حمد، وأمين يكن، وآخرين، فقلت لهم: أيها الإخوة، أشيروا علي: ماذا أفعل؟ وما الأسماء التي ترشحونها أعضاء في المكتب التنفيذي؟

فوقع الاختيار على اثنين من حلب مازالا على قيد الحياة في خارج سورية، وآخر من مدينة حماة قضى شهيداً في أحداث الثمانينيات، ورابع من حمص سمّي نائباً للمراقب باقتراح من الشيخ عبد الفتاح، وخامس من محافظة دمشق أثنى الحاضرون على نشاطه وإنجازاته عندما كان مدرساً في مدينة حلب.

دعي أعضاء المكتب لعقد أول جلسة في بيروت للتداول في مسيرة الجماعة، وبما أن هذه المرحلة كانت مفصلية في تاريخ الجماعة والأوضاع في سورية، فلا مناص من ذكر موجز عنها بين يدي هذه المسيرة التي استمرت من عام ١٩٧٥ وحتى العام ١٩٨٢،

وإن ورد بعض التكرار في بعض فقراتها لضرورة الترابط بين الأحداث ومجرى المسيرة الإخوانية.

٣- بالرغم من الوهن الذي أصاب الحكم العثماني في أيامه الأخيرة، فإن انهياره عام ١٩٢٤ كان يعني زوال آخر مظهر للسلطان السياسي للمسلمين، لقد حدث فراغ كبير في العالم الإسلامي، وفي الوطن العربي بصورة خاصة، حاول الغرب ملأه بالقوة العسكرية والمناهج التربوية والبرامج الإعلامية، وقام بحملة تغريب واسعة ترمي إلى سلخ الأمة الإسلامية عن تاريخها وعقيدتها ومقومات حياتها، ومسخ شخصيتها، وإلغاء هويتها.

في هذا الخضم، ومن أعماق هذا الديجور الحالك الظلام، أطلق الإمام المجدد طيب الله ثراه حسن البنا، صيحته المدوية على ضفاف النيل عام ١٩٢٨ بعد إلغاء الخلافة الإسلامية بأربع سنوات، لم تلبث أن دوت في أرجاء مصر، ثم في جنبات الوطن العربي وأصقاعه، ثم في بلاد العالم الإسلامي ، لتبلغ دعوة الإخوان المسلمين في نشاطها القارات الخمس.

كانت سورية أول قطر عربي استجاب لصيحة الإمام المجدد، فقامت جمعيات وجماعات منذ منتصف الثلاثينيات في المدن السورية انتهت إلى قيام جماعة الإخوان المسلمين في مطلع ١٩٤٥، فكانت باكورة حياتها السياسية: مشاركة الشعب في سورية في مقارعة الفرنسيين في عدوانهم الوحشي على دمشق، وضربهم البرلمان السوري بالمدفعية وقتل حاميته من الدرك السوري.

وعندما كان الفلسطينيون يخوضون معارك ضارية ومصيرية ضد الغزو الصهيوني لوطنهم لانتزاعه منهم، كانت كتائب الإخوان تقاتل في شمالي فلسطين وفي ربوع القدس، كما مرّ معنا في المجلد الأول.

وبالرغم من فوضى الانقلابات العسكرية، وما جرته على الوطن من نكبات وويلات، فإن الجماعة تابعت مسيرتها، وحملت على عاتقها عبء الدعوة إلى الله، وتحكيم شريعته، فعملت في كل الساحات التربوية والتعليمية والإعلامية والرياضية والصحفية، وشاركت في الحياة السياسية، فخاضت انتخابات ١٩٤٧ و١٩٤٩، ودخلت في وزارات ائتلافية، ودعمت الوحدة ما بين سورية ومصر، وأنكرت حدوث الانفصال، ولم تلجأ خلال أربعين سنة من عمرها المديد، وتحت أي ظرف إلى الانقلابات العسكرية رغم ما عانته من ابتلاءات على أيدي الانقلابيين، كما فعلت أحزاب وفئات من أدعياء الحرية والديمقراطية الذين اغتالوا الحريات العامة والخاصة بتحريضهم العسكريين على هدم الحياة الدستورية والبرلمانية.

٤- غير أن سورية التي كانت أول بلد في العالم الثالث ينال استقلاله كاملاً، وقعت ضحية مؤامرة دولية كانت المخابرات الأمريكية رأس الحربة فيها، لتعطيل المسيرة الظافرة على طريق الوحدة الشاملة والنهوض الاقتصادي، ومواجهة التآمر الاستعماري والهجرة الصهيونية الاستيطانية في فلسطين، ثم كانت العثرة التي لا تقال، ألا وهي السقوط في مستنقع حكم طائفي بغيض، حقق للعدو

الغربي والصهيوني أهدافاً ظل طيلة ربع قرن عاجزاً عن تحقيقها، ولذا فلا مناص في هذه الدراسة من تناول هذه الظاهرة الشاذة في تاريخ أمتنا المعاصر، لتكون شعوبنا على بصيرة كي تدرك أن لا أمل من إصلاح هذا النظام الطائفي الثمل بخمرة الحكم، والغارق حتى أذنيه في الدماء البريئة التي سفكها، والثروات الطائلة التي نهبها، هذا النظام الذي أذاق الناس من ألوان الشقاء والبلاء مالا يعرف له التاريخ مثيلاً في ماضي سورية وفي حاضرها، والذي يوصف في خلاصة أو كلمة: أنه ذو طبيعة إجرامية، رافض لكل معارض أو ناصح، بعد أن اختلس السلطة، واغتصبها بقوة السلاح، ما أفضى به إلى جملة تصرفات وحشية شاذة من أبرزها:

أ- طائفية النظام الذي غرر بالعلويين، ودفع بهم إلى عداء المواطنين الأكثرية، موهماً إياهم أن في هذا الحكم حياتهم، وأن التخلي عنه سيفضي بهم إلى الفناء، ولو كان لهذا الإفك أي أثر في الماضي لما وصل العلويون إلى مراكز حساسة في الجيش مكنتهم من الانقضاض على السلطة ، والاستيلاء على الحكم.

ب- بعد أن كانت سورية من أفضل بلاد العالم في محاربة الفساد، وخلو مجتمعها من الرشوة والنهب -حسب تقارير الأمم المتحدة- إذا بالهيئة الدولية، وعبر مؤسساتها الرسمية، تدين سورية، وتعلن أنها في مقدمة الدول التي تتفشى فيها الرشوة، ويغشاها الفساد، حتى سلبت العصابة الحاكمة الشطر الأكبر من ثروة البلاد، وأودعتها في البنوك الأوربية والأمريكية، في الوقت الذي تلهث فيه

الجماهير بحثاً عن الخبز والطعام والوقود، ويحرق الغلاء الفاحش أوقات الناس وأعصابهم.

ج- تصفية الجيش السوري من خيرة ضباطه وأعلى خبراته، تمهيداً لتعريضه لهزائم شنعاء في لبنان وفي الجولان، وإعلانهم استعدادهم للصلح والتطبيع مع العدو في سلام استراتيجي حسب تعبير الأسد وولده مقابل تسليم هضبة الجولان المنيعة التي سلموها للعدو دونما حرب أو مقاومة.

د- مصادرة الحريات العامة والخاصة أياً كان حجمها، ومطاردة الكلمة واغتيال حملة الأقلام، وحل النقابات العلمية، والتنكيل برجال التعليم حتى قضى عدد منهم شهداء تحت وطأة التعذيب الذي تقشعر من هوله الأبدان.

هـ- سفك الدماء البريئة في طول البلاد وعرضها، والويل لمن يشكو أو يتظلم أو يسأل عن ابنته المخطوفة أو ولده المعتقل أو المختفي ليعرف شيئاً عن مصيره، إن كان في عالم الأموات أم في عالم الأحياء، ثم صدور القانون ٤٩ لعام ١٩٨٠ ليحكم على كل منتمٍ لجماعة الإخوان بالموت، فشاع قتل المواطنين تحت هذا المسمى بالجملة في معظم محافظات القطر، وممارسة الاعتقالات العشوائية كرهائن لأقرباء الملاحقين، حتى بلغت أعدادهم عشرات الألوف، مات عدد كبير منهم تحت التعذيب، أو من انتشار الأمراض المعدية الخطيرة لعدم القيام بمداواتهم، ثم امتدت يد الإجرام إلى خارج الوطن لخطف السياسيين والإعلاميين والأكاديميين أو

اغتيالهم، كما فعلوا في صلاح الدين البيطار رئيس الوزراء الأسبق البعثي ومؤسس حزبهم، وكمال جنبلاط رئيس الجبهة الوطنية العريضة المساندة للفلسطينيين في لبنان، وموسى شعيب، وتحسين الأطرش، ورياض طه رئيس نقابة الصحفيين اللبنانيين، وسليم اللوزي الصحفي الشهير، والسفير الفرنسي في بيروت، وعبد الوهاب البكري في عمان، ونزار الصباغ في إسبانيا، ومحمود عبد القادر ودعة في يوغسلافيا، وخطف ميشال جودة وهشام محيسن ومصطفى خليل بريّز والكاتب توفيق بركات من لبنان.

و- دلل حكم الأقلية الطائفية في سورية على عداء سافر للدعوة والدعاة، وأنه ينطوي على ضغائن وأحقاد دفينة لكل ما يمت للإسلام وقيمه وشرعه وأهله بصلة، فقد طارد العلماء، وزجهم في غياهب السجون، ونفذ حكم الإعدام في العشرات منهم، واضطر عدداً منهم إلى الهرب واللجوء إلى بلاد أخرى.

هذه هي الأجواء التي كانت تسود الحياة السورية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، ولقد مرت بالسوريين أيام عصيبة لم يعد المواطن يأمن فيها على نفسه أو جسده أو ماله أو عرضه، باستثناء قلة قليلة باعت نفسها للشيطان، وسارت في ركب السلطة الباغية، حتى زاد عدد النازحين إلى البلاد العربية والأجنبية على مليوني مواطن يمثلون الصفوة من أبناء الوطن في الخبرة والخلق والانتماء.

حدثت ردات فعل حادة تمثلت في المظاهرات والاعتصام في

المساجد والإضرابات كالذي شاهدته دمشق وحمص وحماة، فقمعت السلطة هذا التحرك بدك المساجد أو هدمها، وزج المئات من كل أطياف المجتمع السوري في سجن تدمر الصحراوي عام ١٩٦٦، كتمهيد ظهرت آثاره فيما بعد، بالتلاحم بين السلطة والعدو الصهيوني أدى إلى تسليم منطقة الجولان الحصينة، وتحطيم معنويات الأمة، وتهيئتها للاستسلام، وإبرام صلح ذليل مهين مع اليهود.

أعقب ذلك اعتقال العلماء الذين شجبوا علمانية الدستور الذي فرضه بطل الجولان!! على سورية، وزج بهم خمس سنوات في غياهب السجون، وكان منهم الشيخ سعيد حوى رحمه الله، والشيخ محمد علي مشعل حفظه الله.

أقدمت السلطة بعد ذلك على ما يشبه التطهير العرقي في دوائر الدولة ومؤسساتها ومدارسها ومعاهدها وإقصاء الموظفين والمعلمين والمدرسين وأساتذة الجامعات، وكل من يلمسون منه إيماناً بالله العزيز الحميد، مما سيأتي ذكره مفصلاً في سياقه.

٥- أفرزت هذه السياسة الحاقدة والطائشة تياراً رافضاً للتهادن أو الإذعان لهذه السلطة الباغية التي تجاهر بعدائها للإسلام ومحاربتها له، وكان على رأس هذا التيار المجاهد الشهيد مروان حديد رحمه الله الذي وضع روحه على راحته ليفتدي الإسلام بدمه وحياته، ثم تأثر بمواقف مروان مجموعات كبيرة آثرت الموت في سبيل الله على الحياة في ظل معصيته.

أدرك الإخوان في سورية أن الإسلام في محنة، وأن الوطن كذلك

في محنة، وأن سورية قد سقطت بين براثن الحقد الطائفي، وفي شراك مؤامرة دولية كان الحكم الطائفي فيها رأس الحربة، كما أدركوا أن النظام يتربص بهم، ويسعى إلى جرهم لمجازر تنتهي بهم إلى الذبح والإبادة، وهذا ما برز واضحاً في أقوال حافظ أسد في ثكنة الشرفة في مدينة حماة منذ وقت مبكر في عام ١٩٦٤ عندما قال في خطابه متوعداً ومتحدياً الإخوان أن يقفوا في وجه السلطة ليروا ماذا سيحل بهم، لأنه -كما قال- سوف يسحقهم حتى العظم، لأن الإخوان -في رأيه وما ورد في خطابه- لا تنفع فيهم العقوبات المألوفة، فله معهم تجربة مذ كان طالباً في الثانوية باللاذقية.

تجنبت الجماعة الصدام مع السلطة، وقررت عدم الانجرار إلى الاشتباك معها، رغم الاستفزازات والتحديات التي كانت السلطة تعمد إليها في إيذاء أبناء الدعوة في عقائدهم ومشاعرهم، وأثبتت ذلك في خطتها العامة التي سوف ننشر نصوصها كاملة لأول مرة في هذا المجلد، ليرى المهتمون والدارسون نصوصها كاملة، وليحيطوا علماً بها.

وبالرغم من احترام الإخوان لإخلاص الشيخ مروان وشجاعته، بل ولبطولاته، فإنهم لم يوافقوه على أسلوبه في مواجهة السلطة والصدام معها.

في هذه الفترة، وبالتحديد في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، حدث شرخ عميق في جسد التنظيم، جعل من الجماعة تنظيمين متقاربين في الثقل والعدد، فأنهك هذا الانقسام كيان الجماعة، وألحق بها الضعف والإحباط كما رأينا قدراً من التفصيل

عن ذلك قبل قليل.

أفرز هذا الانقسام عناصر قيادية لا تقوى على تحمل العبء الثقيل في مسؤولية الجماعة، فالشيخ عبد الفتاح أبوة غدة رحمه الله أوكل القيادة إلى نائبه في الداخل الأخ (ع. ش) رحمه الله الذي كان رغم خلقه الرفيع والتزامه الصادق بتعاليم الإسلام، دون المهمة التي أسندت إليه، وقد اجتهد الأخ -وهو من ريف دمشق- في جمع المعلومات عن التنظيم، وأسماء الأعضاء وإدراجهم في قوائم، تمهيداً لإجراء الانتخابات، وأودعها في خزانة بجانب كتب تلاحق دوائر الأمن ذويها، لأنها طبعت بصورة غير قانونية، الأمر الذي سهل لعناصر الأمن العثور على أوراق التنظيم دون أي جهد مبذول، عندما كانوا يصادرون كتاب عودة الوعي لتوفيق الحكيم الذي طبع دون إذن أو توكيل، فقال رجال الأمن: عثرنا على كنز، ومثلما اعتمد الشيخ عبد الفتاح على الأخ أبن أيمن ع. ش لتغيب الشيخ في الرياض وعمله فيها أستاذاً للحديث الشريف في جامعة محمد ين سعود، اعتمد بدوره أبو أيمن على الأخ ط. هـ الذي أجمع الإخوان من حوله على أنه دون المهمة الموكولة إليه، والذي صار يطوف مع المخابرات ورجال الأمن على بيوت الإخوان ليرشدهم إليها بعد اعتقاله بساعات قليلة.

طلب مني أحد أعضاء اللجنة الثلاثية التي أشرفت على الانتخابات السورية، ع. ص أن أذهب إلى ألمانيا، وأبايع الأستاذ عصام، فقلت له: هل أنا جئت بالإخوان، أم الإخوان هم الذين جاؤوا بي،

وكلفوني بمهمة المراقب العام؟ فكيف يجوز في غيبتها ومن وراء ظهرها، ودون استشارتها أن أقدم على هذه الفعلة أو هذا الإجراء؟ فإذا به يكتب لمكتب الإرشاد رسالة يعترض فيها على اختياري مراقباً عاماً، فأصغى مكتب الإرشاد لرأيه، وأوقف إجراءات اختيار المراقب العام إلى وقت لاحق، فانتهزت هذه الفرصة، ودعوت مجلس الشورى لجلسة طارئة عقدت في بلد مجاور في آذار عام ١٩٧٦، وتقدمت له بالاستقالة، من مهمات المراقب العام، تمهيداً لاختيار أخ بديل، غير أن رئيس المجلس -م. د. ج- استمهل بحث الموضوع، ودعا إلى جلسة لم أحضرها بعد تقديمي الاستقالة، فاتخذ المجلس قراراً بالإجماع يؤكد فيه على موقفه السابق، ورفض الاستقالة، ورفع مذكرة إلى مكتب الإرشاد، يشرح فيها حيثيات هذا التأكيد، وبيان الأسباب التي دعت المجلس إلى ذلك.

ظل الأمر معلقاً لأيام قليلة، إذ صادف زيارة الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله إلى الخليج، فالتقيته في منزل أخ مصري هو المهندس س. ش كنت أسكن إلى جواره، فحسم التلمساني الموضوع، ودعاني إلى زيارة القاهرة تمهيداً لإعطاء البيعة للمرشد باسم تنظيم الإخوان المسلمين في سورية، فلم يكن في مقدوري دعوة مجلس الشورى أو أعضاء القيادة مرة أخرى إلى خارج سورية للحصول على موافقتهم نظراً لخطورة الوضع الأمني، فاستعضت عن ذلك بالسفر إلى السعودية، وأداء مناسك العمرة، واستشارة الإخوة السوريين في هذا الأمر، وكانوا يمثلون ثقلاً إخوانياً وعددياً كبيراً في تنظيم الإخوان المسلمين السوريين، فحبذوه وتحمسوا له، فتوجهت

إلى القاهرة، وذهبت برفقة الدكتـور أحمد الملط عضو مكتب الإرشاد رحمه اللـه إلى إحدى ضواحي القاهرة لـزيارة المرشد، فأديت البـيعة بعد أن تعهدت بعدم إفشاء أو ذكر اسم المرشد، وما أزال أحتفظ بهذا السر حتى كـتابة هذه الكلمات، بالرغم من أن الرجـل انتقل إلى جوار ربه، وكذا الدكتور الملط الذي وافته المـنية منذ أكثر من عشر سنين، وأن حوالي ثلث قرن مرّ على ذاك اللقاء.

لقـد لاحظـت أن المـرشد الـذي لم أسمـع باسـمه مـن قبـل رغم معرفتي الواسعة بالشخصيـات الإخوانية في أثناء دراستي بالقاهرة وبعد ذلك، شعـرت أنه بعيد عن الأحـداث المعاصـرة والساخنة، ولاسيـما في سورية، وما تعانيه من تسلط طائفي واضطهاد وإقصاء للأكثرية من أهل السنة والـجماعة في بلاد الشـام، فلم أكد أتحدث قلـيلاً في هذا الشأن حتى سأل المرشد الدكتـور أحمد الملط قائلاً: من يكون هؤلاء العلويون يا أحمد؟!!

لقد جئت بهذا الموجز الذي مرت معنا أحداثه بالتفصيل والتحليل من قـبل فـي المـجلديـن الأول والثـاني، وفي الـشطر الأول مـن هذا المجلد- الثالث، ليكون المشهـد أمام القارئ واضحاً، يستطيع أي أخ معـني من خلاله أن يـقارن بين مـا كانت علـيه الأوضاع في سـورية، وكيف كـانت أحوال الجماعـة، وبين الفتـرة التي شهِدْتُهـا، والنهوض الإخواني على الصعـد كافة، كما سيأتي ذلك لاحقاً ومـفصلاً، فيطلع الإخوان علـى صفحات مـضيئة مـن تاريخ جماعـتهم وإنجـازاتها، لا يجوز أن تبقـى لديهم مغيبة أو مـجهولة، أو لدى الباحـثين والدارسين

والمؤرخين من داخل الجماعة أو من خارجها، من أصدقائها أو من أعدائها، ومن المنصفين الذين يبحثون عن الحقيقة، ولا يقبلون بديلاً عنها.

حاي عشر- مسيرة الجماعة الظافرة

استمرت هذه الفترة ثلاث سنوات هي أعوام ١٩٧٦ و١٩٧٧ و١٩٧٨، كانت سنوات مباركة لمسنا فيها عون الله تعالى وتوفيقه وتأييده، حتى أطلق عليها بعض الإخوة المسؤولين والمعنيين: الفترة الذهبية من تاريخ الإخوان المسلمين السوريين المعاصر.

أ- بعد التداول والتشاور مع لفيف من الرعيل الأول أو من كانوا في الصف الإخواني الأول، تم تحديد أسماء المكتب التنفيذي من خمسة أعضاء بالإضافة إلى المراقب العام كما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل.

عقد المجلس أول لقاءاته في بيروت، فتم فيه وضع اللمسات الأولى التي تحدد مسيرة الجماعة المقبلة، ثم تابع عقد لقاءاته في داخل سورية في جلسات مفتوحة ربما استغرقت أيام الأسبوع كلها، إذ لم تكن الاجتماعات أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية كما فعل الإخوان في أوقات وظروف لاحقة، بل كانت اجتماعاتنا مفتوحة ومستمرة، لأن العبء كبير والمشروعات كثيرة وثقيلة، وكثيراً ما كانت جلسة المكتب تستغرق ساعات الليل كله، فإذا أُرهق عضو أو أكثر، أخذوا حظهم من الراحة والنوم قليلاً، ثم تابعوا مشاركتهم في أعمال المكتب المنعقد، وكان المكتب يعقد جلساته في حلب أو في

حماة أو في غيرهما، أما مجلس الشورى فكانت جلساته كلها أو معظمها تعقد في مدينة حلب تحت الحراسة المنظمة والمشددة كيلا نفاجأ بما ليس بالحسبان فيسقط المجلس كله بأيدي نفر من رجال الشرطة أو عناصر الأمن.

كان الأنس والإلفة تسودان اجتماعات المكتب واللجان المنبثقة عنه، وكذا اجتماعات مجلس الشورى، وكان الحافز في المسيرة قوياً، ينسي أصحابه التعب والرهق، وكانت القرارات تؤخذ بالإجماع، ونادراً ما كانت بشبه الإجماع، دونما وشوشة أو تداول خارج الاجتماعات، أو جدال أو تشكيل محاور، أو الدعاية لهذا الرأي أو ذاك، بل كانت تأتي وتصدر عفوية، وكأنها تنبثق عن قلب رجل واحد، سقى الله تلك الأيام ما أجملها، وما أروعها، وما أعذب أويقاتها.

إنني أسجل هنا -والله يسأل عباده عن شهاداتهم- أنني خلال ٦٣ سنة أمضيتها في الجماعة لم أذق مثل طعم تلك الفترة في حلاوتها، وفي طعمها العذب، لا قبلها ولا بعدها.

أطلقنا على تلك الفترة التي تمتد ثلاث سنين عنوان: مرحلة التكوين الرباني، فتركزت الجهود على التوجيه والتأديب، وعلى الذكر والعبادة، والأخذ بالعزائم، والتأكيد على النوافل (وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)[1] من صيام وقيام، ومعالجة لأمراض

---

(١) أخرجه البخاري، رقم٦٠٢١ .

اللسان، والسيطرة على الخواطر، وحسن الظن بالآخرين ممن حدث اختلاف معهم، واتهام المؤمن لنفسه بالتقصير في جنب الله، كما كان سلوك السلف الصالح ومنهج العارفين، وكان الإخوان يرغبون في إصدار أشرطة أسجل فيها الصوت بمخاطبة أعضاء الجماعة، فامتنعت عن ذلك خشية أن ينشغل الإنسان بمنطقه وكلامه وثناء الإخوان عليه، فينزلق به الحال إلى الشعور بالجاه والشهرة والاهتمام بالذات، بشعور أو بلا شعور، واكتفيت بتوجيه خطاب أو نداء مكتوب واحد خلال ثلاث سنوات، خلاصته: أن أشد الأمور تعقيداً وتعسيراً تجد لها حلاً في ظلال التقوى، وأن أيسر الأمور وأهونها تستعصي على الحل في غياب التقوى، فكان شعار الجماعة في هذه الفترة: التقوى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾[1] فلمسنا بركة ذلك في أنفسنا، وفي جميع مراحل سيرنا، والخلاصة أن من ذاق طعم الأخوة الصادقة والصافية في الله، والحب في الله، والتعاون في سبيل الله وفي ذات الله، يستهين بما دون ذلك من متع الدنيا وإغراءاتها، ولا يجد لها طعماً ذا بال، إن لم يجدها مُرّة كطعم العلقم والحنظل.

٢- كان القرار الأول (رقم١) الذي اتخذه مجلس الشورى في أولى جلساته في آذار ١٩٧٦ التي تمّ عقدها في بلد مجاور: العمل الجاد والسعي الحثيث على إقامة علاقات ود وتعاون مع العلماء في كل المدن السورية للاستفادة من تخصصاتهم العلمية وتوجيهاتهم الدعوية والتربوية، والتعاون مع تلاميذهم ومريديهم من أجل إقامة

---

(١) سورة التغابن ٤٦ .

جبهة إسلامية عريضة وعتيدة في كل أصقاع سورية، فسارعنا إلى تنفيذ هذه التوصية بحماسة كبيرة، وقمنا بزيارات لعدد كبير من الشيوخ والعلماء في كل بلد نمر به في داخل سورية، وأقمنا معهم علاقات ودية قوامها الاحترام والتقدير للسادة العلماء والخطباء والمدرسين، ووضعنا ضوابط في العلاقة مع من يبادرنا بالعداء، أو يصدر فتاوى زائفة تقرباً للسلطان الجائر، دافعنا فيه عن أنفسنا، وفندنا الفتاوى بموضوعية تامة في نطاق الضوابط الشرعية -في أدب الخلاف- دون أن نجر إلى معارك جانبية، أو مواقف حادة، أو كلمات جارحة وغير لائقة، كيلا نعالج الخطأ بخطأ يوازيه، فأدت هذه السياسة أكلها سريعاً، وانتهت إلى إقامة علاقات حميمة وصلات وثيقة مع السادة العلماء وطلاب العلم ووعاظ المساجد والشيوخ في حقل التعليم، وأنهينا تلك العلاقة النكدة والخصومات الضارة بين شباب الدعوة وبين بعض العلماء إلى غير رجعة، لتحل محلها علاقات الأخوة الإسلامية، والرابطة الإيمانية والحب في الله والاحترام من الصغير إلى الكبير، ورحمة الكبير بالصغير، وإعادة الفضل لأهله وذويه طبقاً للتوجيه النبوي الشريف: ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا فضله[١].

من جهة أخرى قررنا إنهاء الخلاف بين طرفي التنظيم الإخواني، ولو من طرف واحد، واعتبرنا الانشقاق منتهياً، وأخذنا بسياسة التأليف والمحاسنة، وإحلال الثقة والمودة محل النزاع، وباشرنا

(١) أخرجه الترمذي، رقم ٢٠٧٣ .

الاتصال والوصال والتزاور والتوادد مع الإخوة جميعاً، والتعاون معهم فيما يعود على الدعوة والجماعة بالخير والفلاح.

تطبيقاً لهذه السياسة التي قررتها مؤسساتنا الشورية والتنفيذية، قمت بزيارات للإخوة في حلب وحمص ودمشق وغيرها في المحافظات السورية، وفي خارج سورية، فانتهت بنا هذه السياسة أو هذا المسلك إلى ما كانت عليه الجماعة قبل الانشقاق كياناً موحداً وتنظيماً متراصاً كما سترد تفصيلاته في حينه.

من ذلك تشكيل وفد من الإخوة: سعيد حوى، وعلي البيانوني، وعدنان سعد الدين، شد الرحال إلى ألمانيا، والتقى الأستاذ عصام في مكان متفق عليه، قريباً من مدينة آخن حيث يقيم أبو أيمن، تعاملنا معه كأخ كبير قدمناه علينا جميعاً في ترؤس الجلسات، وإدارة الحوار، والمعروف عن الأخ عصام دماثة الخلق، ولطف المعشر، وعذوبة الحديث، غير أنه من العسير معرفة ما يريد، في أفهامنا على الأقل.

عرضنا على الأخ الكبير أن يكون مرشحنا لمكتب الإرشاد، والمشاركة في قيادة يكون لأنصاره نصفها، وأن يكون الشيخ مشعل، أحد مؤيديه، رئيساً لمجلس شورى موحد، بيد أن الحوار انتهى إلى طريق مسدود بسبب تحفظه حيال مكتب الإرشاد، إذ كانت قناعة الأستاذ أن أمر الجماعة لا يحتاج إلى التقوى فقط، بل يحتاج كذلك إلى الكفاءة في قيادة التنظيم، وقبل أن نفترق على مودة كما التقينا، رغب إلينا الشيخ بأمرين اثنين، أولهما: التقاط صورة تذكارية لهذا

اللقاء الأخوي الودي، وثانيهما: أن نتـواصل معه، ونقوم بزيارته كلما حضرنا إلى أوربا ودخلنا الأرض الألمانية، فلبينا له ما أراد.

وبالرغم مـن عدم وصولنا إلـى ما كنا نتطـلع إليه من هذا الـلقاء، فإن حبال الود ظلـت موصولة مع الأخ الكبير، كما ظلـت العلاقة قبل هذه الزيارة وبعدها موصولة مع أنصاره في عمان، وعلى رأسهم الأخ الفـاضل أبـو سليم الـبغـا، وتقـديم جـميـع التـسهـيلات والـخدمـات المـستطاعـة كالوثـائق والمطبـوعات والأمـور الأخرى، فجـاءت هذه السياسـة يانعة القطوف، مذهلة النتـائج الإيجابية، فاقت مـا كنا نتطلع إليه في توجهاتنا الدعوية.

٣- قمنا بربط الإخـوان في الخارج بتنظيم الداخل، وتمـثيلهم في مجـالس الشورى، ليكـمل بعضهـم بعضاً، بـعد أن كانت الانتـقادات متبـادلة بين الفريقـين، إذ كان إخوان الداخل يـنعون على المهـاجرين انشغـالهم بأنفسهم، وكـسبهم للرواتب الـكبيرة، كما كـان الإخوة في الخارج ينتقدون إخوة الداخل في اندفاعاتهم الضارة، وحماستهم التي تتـجاوز تقديـر الأمور والأخطار التـي تحيق بـالجماعـة، فانتـهت هذه الظاهـرة بمجالـس الشورى التـي تمثل الجـميع، ومـن داخلها تعـالج الأمور بالدراسة والحوار والتفاهم.

لم تكن للجماعة سياسة مالـية أو ميزانية أو صندوق موحد، وإنما كانت ثمة تبرعات أو اشتراكات يـرسلها أبناء كل محافظة إلى بلدهم، ليـسد بهـا المركـز بعض الـثغـرات، وقد رأينا أن نـائب المـراقب في الخـارج ذكر أن مـا اسـتلمـه طيلـة العام كـان ١٤ ألف لـيرة سـورية،

وكـانت مخـصصـاته حـوالي ١٧ ألف لـيرة سـورية، فكان الأخ دائـناً للجماعة بحوالي ٣ آلاف ليرة، فتـم تسديدها له بالحال مع مبلغ كنت أحضرته من إخوة القطر الذي كنت أعمل على أرضه.

قررنا توحـيد الصندوق، وإلحـاقه بالمكتـب التنفيذي الـذي يملك الرؤية الـشاملـة عن كل المـراكز، ليـنفق منـه على أغراض الـجمـاعة ومتطلباتها، بصرف النظر عن البلدة والمدينة والمحافظة.

أقبل الإخـوة على التبـرع ودفع الاشتراكـات بأريحية وسـخاء، إذ كان تـقديرنا أن الوارد سـيكون ١٠٠ ألف فـي أحد الأقطار، فـجاءت ١١١ ألف، ثـم زادت النسـبـة أكثـر مـن ذلك في الـعام الـذي تلاه، وهكذا كان الحال في الأقطار الأخرى، فاستـطاعت الجماعة بما توفر لهـا من قدرات مالـية أن تحـقق العديـد من المشـروعات التي كـانت عاجزة عـن تنفيذها، فـبادرنا إلى شراء سـيارة لكل مركـز، وتفريغ أخ لعمل الجـماعة وأهدافها في مـحافظته، وشراء آلة لطبـع برنامج الأسر ومناهج التوجـيه الإخواني، وغير ذلك، فـفاضت معنا الميـزانية حتى فكرنـا في استـثمار بعـض ما لدينا تـنمية لـلدخل الذي يتـطلبه العـمل الدعوي بـكل مرافقـه السياسـية والإعلاميـة، والتكافل الإسـلامي بين أفراد الجماعة حسب الضوابط الشرعية.

لحظنا أن شيخنا الجليل وقائدنا رحمه الله قد أغرقته المشاغل في البـرلمان والجـامعـة وقيـادة التنظيـم وصحـافة الجـماعة والـموسـوعة الفقـهية، فكان أمة في رجـل، يسد ثغرات يعجـز كثيرون عن ملـئها، لقـد كان الـجهـد الكبـير الذي يـضطلـع به رحمـه الله عـلى حسـاب

الاتصال بالمراكز كافة والفروع، فالمنطقة الشرقية -محافظات الجزيرة والدير والرقة- لم تحظ بزيارة الشيخ إلا مرة واحدة، وكذلك كان الحال في اللاذقية ومدن الساحل السوري، فوضعنا جدولاً للاتصال بالمراكز كافة وزيارتها المبرمجة، نص على زيارة المناطق القريبة كل شهرين، وهي دمشق وحمص وحماة وإدلب وحلب، وزيارة المناطق الأبعد كل أربعة أشهر، وهي مدن الساحل السوري اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس والحفة، ومحافظة حوران، أما المناطق النائية أو البعيدة، وهي الفرات والرقة والجزيرة، فتكون زيارتها كل ستة أشهر، وقد بدأ تطبيق ذلك بالفعل، لولا تداعيات الأحداث التي عطلت الاستمرار في تنفيذ هذا الجدول.

٤- التفتنا بعد ذلك إلى الخارج، وتحركنا على ثلاثة محاور، كان أولها الاتصال بحزب السلامة الذي كان يشارك في الحكومة التركية بزعامة نجم الدين أربكان، وكانت عوامل الجغرافيا وراء هذه الأولوية في التحرك الخارجي، وكذا نزوح قسم من الإخوان الملاحقين إلى البلد المجاور ليجدوا المأمن والملاذ، فجرت مباحثات مع الأستاذ أربكان في منزله تناولنا فيه طعام السحور، وسمعنا من أربكان عن طموحاته في تعديل مناهج التعليم في تركيا، باعتباري كنت مسؤولاً في قسم المناهج في الإمارات، فشرحت له أن هذا الأمر يتطلب وجود لجنة موسعة على مستوى رفيع لبحث الخريطة الكاملة للخطة الدراسية ومفرداتها، وكيفية توزيع ساعاتها الأسبوعية، ومشاركة مختلف الاختصاصات في اللجنة مثل الشيخ

القرضاوي في الشؤون الإسلامية وغيره من المواد الأخرى، واتفقنا على التنسيق والتواصل، غير أن هذا لم يأخذ مداه لظروف كانت تنتاب ممثلنا في تركيا في تلك الفترة من سبعينيات القرن الماضي.

وفي المحور الثاني التقينا مع إخوان الأردن وفلسطين ولبنان، لتشكيل قيادة واحدة يمثلها شخص واحد في مكتب الإرشاد بدلاً من سفر أربعة مراقبين، وعلينا أن نتجاوز تقسيمات سايكس بيكو في تمزيق بلاد الشام، حيث لا يجوز ولا يقبل أن تكون درعا مفصولة في التنظيم عن الرمثا، ولا يفصل بينهما أكثر من عدة كيلو مترات، بينما هي مرتبطة بالقامشلي الذي يفصل بينهما زهاء ٨٠٠كم، تحمس مراقب الإخوان في الأردن، الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة لهذا الأمر، وشرع يستعيدني شرحه أمام إخوانه كلما سنحت فرصة في عمان أو في موسم الحج، غير أنه أراد أن يقرأ أفكارنا التي تكمن وراء هذا الطرح، فقال: نحن بالأصل جزء من إخوان سورية، وشعبة عمان كانت تمثل بالهيئة التأسيسية في دمشق، فأجبته: بل أنت الأخ الكبير الذي لا نتقدم عليه، كان مقترحنا أن تسمى هذه الكتلة: الإخوان المسلمون في بلاد الشام، ليستفيد الجميع من فرص كانت توجد في قطر، وينعدم وجودها في قطر آخر، ففي الأردن كانت تقام مخيمات الفتوة في غابات جرش لتدريب الشباب وتربيتهم، وكذلك كان الحال في الضنية في شمالي لبنان، بيد أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فقد اضطربت الأحوال في سورية، مما حمل الإخوان في لبنان بقيادة الشيخ فيصل المولوي الذي يفكر بعقلية القاضي على

التريث، وبالتالي الانسحاب من المشروع، فاقتصر الدمج على تنظيمي الأردن وفلسطين، وما زال هذا الدمج مستمراً حتى كتابة هذه السطور تحت مسمى: الإخوان المسلمون في بلاد الشام.

على المحور الثالث كان التحرك في موضوع مكتب الإرشاد، إذ كان الإخوة المصريون شديدي الغيرة على المكتب، ويتحسسون من أي تفكير في مشاركة غير المصريين فيه، مع أن الأمور لا تحتمل بقاء الأمر على ما كان عليه قبل عشرين سنة، فعندما لاحق الطغاة تنظيم الإخوان في مصر بقسوة بالغة، وبحقد كان كالحالقة، وتدمير كل ما بنته الجماعة في الفرد والمجتمع، كان عدد تنظيمات الإخوان المسلمين في البلاد العربية قليلاً، تنتشر في مصر وسورية ولبنان والأردن والعراق والسودان، وكان قادة هذه التنظيمات الست تتحرك باسم المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في البلاد العربية برئاسة الأستاذ عصام العطار مراقب الإخوان المسلمين السوريين، وعندما انكشفت الغمة نوعاً ما عن إخوان مصر، وخرجوا من السجون والمعتقلات، وشرعوا بجمع صفوفهم، وإعادة تنظيمهم، كان عدد التنظيمات الإخوانية في البلاد العربية قد اقترب من عشرين تنظيماً، أكثرها لم يكن موجوداً من قبل، حيث قامت تنظيمات جديدة في اليمن ودول الخليج كلها وفي الشمال الإفريقي في تونس وليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا والصومال وغيرها، فكان لابد من الاتفاق على خطة موجزة، تتضمن الخطوط العريضة للأفكار والأهداف والخطط والبرامج والسياسات في الحكم والاقتصاد

والتربية. .إلخ، فثمة تباين في الاجتهادات والمواقف بين العمل السري والعلني، والمشاركة في الحكم والابتعاد عنه، وتغليب الطابع التربوي والروحي وتزكية النفس والسلوك على العمل السياسي والانخراط في العملية السياسية أو العكس، فلابد، والحالة هذه، من عقد مؤتمر يضم قادة التنظيمات، ومعهم خبراء في التربية والتنظيم كمستشارين لهم للوصول إلى وضع الخطة الموجزة المنوه عنها قبل قليل، فاقترح الأخ الشهيد كمال السنانيري إعطاء فرصة عام للتهيئة لهذا الأمر، وحدد مكاناً في أوربا ليتم الاجتماع فيه، وقال: سوف نحدد الأسماء من خبراء الجماعة لحضور هذا المؤتمر، فحضرنا إلى مكان في ألمانيا بعد عام في سنة ١٩٧٧ صيفاً، لنفاجأ أن المصريين لم يستطيعوا إعداد أي شيء جراء الظروف الأمنية الصعبة التي كانوا يعانونها في مصر إبان حكم الطغيان، فاقتصر اللقاء الذي لم يحضره إلا عدد قليل من قادة التنظيمات الإخوانية في البلاد العربية على نقاشات وحوارات عامة، فحدثت خيبة أمل في هذا البدء من المرحلة الجديدة التي كنا نطمح بانطلاق التنظيم لاستدراك ما فات الجماعة خلال عشرين عاماً.

تقدمت لمكتب الإرشاد في أول لقاء للمجلس في القاهرة حضره عدد من قادة الإخوان من الخليج ومن بلاد الشام والشمال الإفريقي في مقر دار الدعوة بحي السيدة زينب يومين متتالين، ثم انتقلنا في اليوم الثالث وفي آخر جلسات هذا اللقاء الأول في عام ١٩٧٦ إلى منزل الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله في حي الضاهر، تقدمت

للمكتب بخريطة باسم تنظيم الإخوان السوريين تحتوي على مصور في وسطه دائرة، في داخلها كلمة القاهرة، وبجانبها الرقم ٨ هم عدد إخوان مصر في مكتب الإرشاد ذوي العضوية الدائمة، ومن حول الدائرة الرقم ٥ من البلاد العربية، واحد يمثل تنظيمات الشمال الإفريقي، وآخر يمثل تنظيمات بلاد الشام والعراق، وثالث ورابع يمثل دول الجزيرة العربية واليمن والخليج، وخامس يمثل تنظيم السودان، فيكون عدد مكتب الإرشاد ١٣ عضواً، ثمانية من مصر ثابتون، وخمسة من غير مصر متغيرون، حسب ترشيح مناطقهم لهم، وكان القصد تطمين إخوة مصر على أن مقود القيادة في أيديهم باعتبارهم مؤسسين وأصحاب السبق، وخير من يؤتمن على مسيرة الجماعة وعلى مبادئها التي أرسى قواعدها ووضع أسسها الإمام الشهيد حسن البنا طيب الله ثراه، فلاقى الاقتراح قبولاً لدى الجميع، وتم إقراره والموافقة عليه، ودخل حيز التنفيذ، ولا يزال العمل به سارياً حتى يومنا هذا، فكان من غير المصريين إخوة من الأردن وسورية والجزائر أو تونس، ومن لبنان والعراق، يعقدون جلساتهم، ويتدارسون شؤون الجماعة على ضوء الأحداث المستجدة والساخنة، واتخاذ المواقف المناسبة التي تجنب الجماعة العواصف التي كثيراً ما يثيرها الخصوم في وجهها، لإيقاع أو إلحاق الأذى بها، أو لعرقلة مسيرتها.

٥ً- مر بنا أن الإخوة الكبار المجربين والمتقدمين في السن يرون أن الأمور معقدة، تتطلب صبراً وحكمة، مدركين ما يؤدي إليه

الصدام الذي كان يدعو إليه الشباب المتحمس والمتأثر بأفكار ومواقف الشيخ مروان حديد رحمه الله من كوارث ومصائب، وأن يتحول إلى فتنة عمياء، ومن جهة أخرى كانت الجفوة ملموسة بين الإخوان، وبين عدد من التجمعات الإسلامية، الصوفية منها والسلفية والفقهية، فقامت الجماعة بدور إيجابي نشط، لإزالة الجفوة، وإنهاء التباعد والعمل الدؤوب على التفاهم والتشاور والتعاون عملاً بالقاعدة التي أوصى بها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله: فلنتعاون فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

أقول بكل ثقة بالله تعالى، ثم فيما عزمنا عليه، إن الجماعة قد حققت ما تريد في هذا الشأن، بل وتجاوز الطموح، ما حققته من تفاهم داخل الصف الإخواني، وفيما بين الإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى من الطموحات التي كنا نتطلع إلى تحقيقها في مضمار وحدة العمل الإسلامي، والفضل في ذا وذاك لله وحده الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثاني عشر- الإخوان والعمل العسكري

لم أكد أزاول واجباتي كمراقب عام سنة ١٩٧٦ حتى حدثت أمور كثيرة، منها ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي.

١- كان في مقدمة الأمور الإيجابية: التحاق أعداد كبيرة من الطلاب والمثقفين وأبناء الريف بتنظيم الإخوان المسلمين، فازدادت الأعداد بصورة غير متوقعة، أو أكثر مما كنا نتوقع، ولاسيما في محافظات حلب وإدلب وحماة، حتى أضحى التيار الإسلامي

كاسحاً، فقد قدرت إدارة حلب الزيادة ل٨٠٠٪ في المحافظة، وفي محافظة حماة قدرت الزيادة بأكثر من ذلك، وكذلك الأمر في محافظة إدلب وريفها، مما اضطر قيادة الجماعة إلى إعادة النظر في التشكيلات الإدارية، وإنشاء مراكز جديدة في بعض الأقضية لبلوغ عدد أفراد التنظيم الأرقام المطلوبة وزيادة كشرط في إنشاء مركز جديد، فكان مركز الباب الذي استقل عن مركز حلب الذي كانت زيادة المنتسبين إلى الإخوان فيه هائلة، وكان مركز الميادين الذي كان يعج بالنشاط، وبالأعداد التي اقتربت من ٣٠٠٪ من المنتسبين إلى الجماعة.

وأما الأمر السلبي فكان موجة الاغتيالات في سورية عام ١٩٧٦، وكان أول من حدث اغتياله الرائد محمد غرة المسؤول عن المخابرات العسكرية في مدينة حماة، فقد كان يزاول سلطة مطلقة في المحافظة بلغت حد التطاول على الشرف والكرامة، فاستفز سلوكه أبناء المدينة، فوقعت حادثة اغتياله، ثم سمعنا عن حوادث اغتيال في حلب ودمشق، دون أن نعلم شيئاً عن الجهة التي كانت تقف وراء تلك الاغتيالات، وكانت الدولة توزع الاتهامات على العراقيين واللبنانيين والفلسطينيين تحت مسميات مختلفة تطول خصومها في الخارج، وكان المواطنون ونحن منهم يتساءلون عمن كان وراء ذلك، وكانت هذه الاغتيالات تسبب لها حرجاً كبيراً، لأنها كانت مصدر استفزاز وتحريض للسلطة، الأمر الذي يؤثر سلباً على تحركنا، وعلى مسيرتنا، وما تحققه من إنجازات ومكاسب كبيرة.

كانت الدولة تتهم العراقيين وتسميهم التكارتة نسبة إلى مدينة تكريت التي ينتمي إليها صدام حسين وعدد من رؤوس السلطة العراقية، وأحياناً تتهم حزب الكتائب اللبنانية، تحت مسمى الانعزاليين واليمينيين وحلفاء الإمبريالية، وتتهم آخرين دون علم منها بمن يقف وراء هذه الاغتيالات.

تناولت الاغتيالات شخصيات علوية بارزة مثل الرائد علي حيدر آمر موقع حماة، والعميد عبد الكريم الرزوق قائد سلاح الصواريخ في الجيش السوري بتاريخ ١٩-٦-١٩٧٧، والدكتور علي العابد العلي الأستاذ في جامعة حلب بتاريخ ١-١٠-١٩٧٧ والدكتور يوسف عيد، والمقدم أحمد خليل مدير الشرطة في وزارة الداخلية، والدكتور إبراهيم نعامة نقيب أطباء الأسنان وآخرين.

٣- هزت هذه الأحداث أركان السلطة، وأرعبت رئيس النظام، فراح يلتمس مخرجاً، ويهدئ من مخاوف الذين يمسكون بزمام السلطة، ويرفع من معنوياتهم، ومن ذلك عزل اللواء ناجي جميل رئيس مكتب الأمن القومي ونائب وزير الدفاع وقائد القوة الجوية، لإخفاقه في إيقاف الاغتيالات، كما قرر تطمين المواطنين الذين كانت تنهب ثرواتهم، وتنهش كراماتهم، فأعلن في ١٨-٨-١٩٧٧ عن تشكيل لجنة للتحقيق في الكسب غير المشروع، وذلك أملاً في أن يعيد لنظامه بعض اعتباره المفقود بعد تدخله العسكري في لبنان، وانتشار الفساد والنهب والسلب والرشوة والابتزاز على طول الساحتين السورية واللبنانية وعرضهما، بهدف تبديد السخط الشعبي، وتضليل

الجماهير من جديد، وإيهامهم أنه يقف ضد الفساد، مع أنه هو الذي يقود حملة الفساد، ويطلق أيدي ذويه وإخوته وأبناء عائلته وعشيرته وأنصاره في السلطة في الإمعان بكل ضروب التسلط على أقدار المواطنين.

لقد منيت هذه الحملة بالفشل الذريع، وكشف المواطنون ما كان يرمي إليه الأسد من تضليل للمواطنين منذ البداية، إذ إن الذين سيقومون بالتحقيق مع اللصوص والمفسدين هم غارقون بالفساد إلى آذانهم، وأن المقربين جداً من حافظ أسد الذين يمثلون قاعدة الحكم وحاشية النظام وهم ضباط كبار وأمنيون في قمة السلطة يمسكون بناصية النظام، ولا يستطيع أن يحاسبهم أو يسائلهم أحد من النظام الذي يهيمنون عليه، وهم ذوو الأمر والنهي فيه، ولهذا لم تمس حملة التطهير أياً من المفسدين الحقيقيين من أمثال رفعت الأسد، وعلي حيدر، وعشرات أمثالهم وفي رتبهم، بل إن الحملة كانت فرصة للتخلص من أذناب السلطة الذين وضعوا أنفسهم في خدمتها من غير العلويين، وتم استهلاكهم.

٤- عندما كان الشيخ عبد الفتاح رحمه الله مراقباً عاماً في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، اتخذ بعض الإخوان قراراً بالتدريب العسكري وتخزين السلاح في غيبته ودون علمه، لأنه كان بعيداً في أكثر الأوقات، الأمر الذي أدى إلى كارثة، وألحق بالجماعة دماراً كبيراً مرت بنا بعض فصوله، ثم تكرر هذا الخطأ بعد أن كلفني مجلس الشورى بمهمات المراقب العام، فعندما حضرت إلى سورية

وجدت أن مجلس الشورى، بتحريض من بعض أعضائه، اتخذ قراراً بالتدريب العسكري، فكانت الصدمة كبيرة وفوق قدرتي على تحملها، لاسيما أن قرار المجلس السابق، وما أدى إليه من كوارث لم يمض عليه إلا سنوات قليلة، ولذا أنكرت اتخاذ مثل هذا القرار، وعرضت استقالتي من مهمتي كمراقب عام، أو يلغي مجلس الشورى قراره الذي اتخذه في أثناء سفري، فألغى المجلس قراره، واتخذ قراراً بديلاً ينص على أن للمراقب أو القيادة معالجة هذا الأمر واتخاذ ما تراه مناسباً.

بدأت البحث في الشأن العسكري، وشرعت أسأل الإدارات، وأستوضح عن خفايا هذا الموضوع، فأحطت بالمعلومات التالية: يوجد ثلاث مجموعات في محافظات حلب وحماة ودمشق، أما مجموعة دمشق فلم يكن لنا عليها من سبيل، ولم نستطع أن نمسك بأي خيط منها، لأنها تشكلت عن طريق مروان حديد، وانطوت على نفسها، وظلت تأخذ بالسرية المطلقة، وأما مجموعة حماة فكانت تتبع رئيس المركز عن طريق مسؤول عنها، وتأكدت أنها حصلت على السلاح دون معرفة المراقب العام السابق، ودون علم القيادة بذلك، وأنه توجد جفوة بين هذه المجموعة ومجموعة الشيخ مروان التي تولى أمرها بعد وفاته أو اغتياله في السجن الدكتور عبد الستار الزعيم رحمه الله، فطلبت حل هذه المجموعة التي شاع أمرها في أوساط التنظيم، وأصررت أن يغادر القطر رئيس المركز ورئيس المجموعة، فقوبل طلبي هذا بالتلكؤ والتسويف، ولمست تضامناً من بعض أعضاء

الإدارة مع رئيس المركز بغية إلغاء القرار وتمييعه، أو للعدول عنه، فاضطررت للمرة الثانية أن ألوح بتقديم الاستقالة بجدية وإصرار، مما اضطر رئيس المركز أن يغادر إلى باكستان، وأن يسافر رئيس المجموعة إلى إحدى دول الخليج.

أما في حلب فقد قدم أحد أعضاء المركز شرحاً للموضوع العسكري باعتباره مسؤولاً عنه، وأنه يفضي لي بهذه التفصيلات باعتباري المراقب العام ومسؤول الجماعة، ومما ذكره أن عدد المجموعة يبلغ خمسة وعشرين عضواً، فقلت له: أبلغ مجلس الإدارة بإلغاء العمل العسكري في المركز، والامتناع عن الإقدام على أي تشكيل عسكري، وأبلغ أفراد المجموعة بحل هذا التشكيل، والتحاق أفرادها بالأسر التوجيهية دون تردد، وأن هذا القرار واجب التنفيذ، ولن يكون ثمة أي تساهل في تطبيقه، وقلت لمسؤول العمل عضو الإدارة: إن هذا القرار سيكشف لنا جميعاً عن الانضباط التنظيمي ومدى تقيد أفراد المجموعة بالنظام والتوجيهات الصادرة عن القيادة، ومدى التزامهم بالسمع والطاعة وقرارات الجماعة، وبهذا انتهى أي تشكيل عسكري في التنظيم، ليبقى هذا العمل وقفاً على مجموعة مروان رحمه الله، وخارجاً عن البنية التنظيمية للجماعة.

إن جميع أفراد الإدارات التي جرى التعامل معهم في هذا الموضوع هم على قيد الحياة، وقريبون منا في المكان، ويمكن تسميتهم وتحديد عناوينهم وأمكنة سكنهم لمن يود استقصاء هذا الموضوع، والوقوف على تفصيلاته من المعنيين بهذا الأمر.

٥ً- كثر الحديث عن الشيخ مروان حديد رحمه الله من أطراف مختلفة في داخل سورية وخارجها، وتحدث عنه إخوة في ألمانيا وفي دول الخليج، ومن عدنان عقلة الذي كان يتحدث باسمه، ويزايد على الآخرين في الصلة به، وعندما التقيته في إيطاليا بعد خروجه من سورية، وسألته عن آخر لقاء بينهما أجاب: لم ألتق بمروان قط!!

ومنهم من ذكر أنه تلقى بيعة منه، علماً بأن البيعة لم تكن واردة ولا موجودة في تنظيمنا الإخواني في سورية في حياة مروان، ومن قبل التحاقه بالإخوان إلى أن غادر دنيانا الفانية، ومنهم من نسب قصصاً خيالية عن الرجل نقلاً عن الإعلامي المصري جابر رزق رحمه الله، البعيد عن أحداث سورية في ظروفها الصعبة، وأصدر كتاباً تحت عنوان: الإخوان المسلمون والمؤامرة على سورية، ولإزالة أي لبس في حياة الشهيد مروان حديد، أعرض لحياته وقضيته بدقة واختصار، كما عايشتها وعرفتها عن تواصل وقرب، وقد عرضنا شذرات من حياته من قبل.

انشغلت بالتربية والتوجيه، وتشكيل الأسر، وإلقاء المحاضرات، والقيام بجولات على الأحياء والقرى وسكان الأرياف مع ثلة من كرام الإخوان في حماة، وفي مقدمتهم الداعية مصطفى الصيرفي والأخ الفقيد عبد الكريم عثمان، ولم يكن تشكيل الأسرة إذ ذاك يحتاج إلى المرور بالأسرة المفتوحة، أو فترة التجربة، بل كان النقيب يشكل الأسرة من عدد يتراوح ما بين ٧ إلى ١٠ أعضاء، فيكون التحاق الأخ بالأسرة والجماعة في نفس اللحظة.

في عـام ١٩٥٠ شكلت أسـرة من عـشرة إخـوة، كان من أولـهم الأخ الشيخ عـدنان الزعيم رحمه الـله الذي وافاه الأجل في السعـودية التي عمل فـيها مـدرساً للتـربية الإسلامـية فتـرة طويلة، وترك أفـضل الأثر وأنجب عدداً مـن التلاميذ أمـثال الشيخ سـفر الحوالي، فـعرض علي إلحـاق الطالب مـروان حديـد في الأسرة، فـترددت بحـجة أن إخـوته الثـلاثة الـذين يكـبـرونه (أحـمد وكـنعـان وعدنـان) من أنـصار أكـرم الحوراني والمـتحمسين لحزبـه، فقال عدنان الزعيم رحـمه الله: لكن مروان يختلف عنهم، وأنا أعرفه تمـاماً، باعتبارنا ندرس معاً في صف واحد -الثـاني الثانوي- فـوافقت على دعوتـه، فكان عاشر عـشرة في أسرة تحدثت عن تجربتها في المجلد الأول من هذه الأوراق.

كانت هذه الأسرة التي استمرت متكاتفـة متلاحمة أربعة عشر عاماً ما بين ١٩٥٠ وحـتى عام ١٩٦٤ نموذجاً لـلتربية الإخوانيـة في الأخذ بالعزائم وتطبيق النوافل، والسير مسافات طويلة على الأقدام، والصيام المشترك والإفطار معاً، والأخذ بنظام التكافل إذ أنشأنا صندوقاً أردفناه بالاشتراكـات والتبرعات حتى بلغ رقـماً مجزياً في معـيار ذلك الوقت المالي، وتطبيـق برنامج ثقافي مكثف يقع ضمنه دراسـة واعية لرسائل الإمام الشـهيد حـسن البنا وهضـمها، وتكـليف كل عضـو في الأسرة بتـقديم شـرح لإحدى الرسـائل التـي اختارهـا، ومناقـشته بـها، كـما أرسلت الأسـرة ثلاثة من أعضـائها للدراسـة في الخارج، كـان مروان رحمه الـله أولهم، إذ كانت عائـلته تعاني من ضـائقة مالية طـارئة بعد فشل مشروع القطن الذي كان والد مـروان يديره في محافظة الجزيرة،

وعندما أشرف مروان على نهاية السنة الأولى في دراسته كمهندس زراعي، سدد المبلغ الذي أنفقته عليه الأسرة، الأمر الذي مكّن الأسرة من إيفاد أخوين آخرين بالتتالي إلى القاهرة وإلى استنبول، ففعلا ما فعله مروان من وفاء المبلغ الذي قدمته الأسرة لهما، وكان الثلاثة هم: مروان حديد، والمهندس الزراعي محمود نجار، والشيخ عدنان الزعيم الذي تحول من استنبول إلى دمشق، وحمل من كلية الشريعة بالجامعة السورية شهادتها، رحم الله الثلاثة الذين سبقونا إلى جوار الله جل وعلا، وأجزل لهم الأجر والمثوبة.

لقد رأى مروان في مصر ما يتعرض له الإخوان من تنكيل وتعذيب وإعدام، فامتلأت نفسه غيظاً على الظالمين الذين امتهنوا سحق التيار الإسلامي ومطاردة أعضائه في دراستهم وبمعيشتهم وحقهم في الحياة.

عاد من مصر بعد إكمال دراسته، وقد أقام فيها علاقات حميمة مع عدد من العاملين في صفوف الجماعة في أرجاء القطر الشقيق، فهاله ما رآه وما سمعه في سورية من تحد للمشاعر الإيمانية، وعدوان على القيم الإسلامية، والجهر بالكفر البواح عبر الإعلام المسموع والمقروء، فقرر السير على درب الشهادة وطريق الشهداء بعد أن أخرج الدنيا من قلبه، وتحرر من سلطانها عليه، وتجرد من متع الدنيا المباحة، ومنها الزواج الذي آثر تركه بعد أن عقد على زوج صمم أن لا يدخل بها، حتى لا يترك لها عبئاً من الأطفال، موقناً بأنهم سيعيشون أيتاماً، شعوراً منه أنه سيلحق بربه عاجلاً.

رفع مروان علم الجهاد، ودعا الشباب إلى حمل الراية والانضواء تحتها، فاستجاب له ثلة من الشباب اليافع تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة، والعشرين، وكانوا على درجة من الصفاء والنقاء، دون أن تكون لديهم تجربة أو خبرة أو حنكة، أو نظرة بعيدة يقدرون عبرها الأمور والأخطاء المحدقة بالتنظيم وبالعمل الإسلامي وذويه من الأعداء المتربصين بالإسلام وأهله في داخل الوطن ومن خارجه، الأمر الذي سبب حرجاً لتنظيم الإخوان في حماة دون أن يتمكنوا من معالجة هذه الظاهرة، رغم ما بذلوه من جهد في هذا السبيل.

استمرت العلاقة بين إدارة المركز ومجموعة الشيخ مروان بين مد وجزر لسنوات، فتارة يكون الانسجام تاماً، وأحياناً يبدو الخلاف بارزاً للعيان، وحيناً تكون العلاقة بين بين.

لم يقل مروان قط إنه خارج الجماعة، وإنه يقيم لنفسه تنظيماً، وما نسب إلى مروان من أنه شكل تنظيم الطليعة المقاتلة للإخوان محض افتراء، غير أن الواقع يشير إلى أن مروان كان يتصرف طبقاً لاجتهاده وحماسته، وهو يرفع شعارات: الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا، وكان بعض أعضاء التنظيم يتعاطفون ضمناً معه.

٦- زاول مروان نشاطه بعد العفو عنه وعن مجموعته، بعد أحداث جامع السلطان عام ١٩٦٤، واقتصر في لباسه على ثوب أبيض -دشداشة، أو كلابية- كان يسير بها في شوارع المدينة، وكان الرصاص قد اخترقه دون أن يمسه أذى، ليدلل للناس ولاسيما

لإخوانه أن الأعمار محدودة، وأن الحياة والموت بيد الله وحده.

عدّل مروان من أسلوبه دون أن يغير من أهدافه، واستأنف حواره مع الجماعة، ووعد أن يكون ملتزماً في أواخر أيامه، غير أن الأحداث لم تمهله، وكنت أتحدث معه بشيء من الصرامة لثنيه عن برنامجه الصدامي بحكم ما كان بيننا من صلة تنظيمية وتوجيهية طيلة خمسة عشر عاماً مضت، وأخيراً توارى عن الأنظار، وغادر إلى دمشق، وظل مختفياً فيها شهوراً.

أرسل إليّ من مخبئه أخاً كان يرافقه أحياناً، ويزوره أحياناً ويعمل على ترتيب إقامته، جاءني الأخ الذي ما زال على قيد الحياة، ينقل إلي رسالة شفهية يطلب فيها المساندة والدعم، فأرسلت معه أخاً عرفنا فيه الشجاعة والسخاء والإقدام والمروءة، ليلتقيه ويستفسر منه عما يريد، ذهب الأخ أحمد نافع العمري رحمه الله برفقة مبعوث الشيخ مروان، وقصدا المخبأ الذي يقيم فيه.

قال العمري: لقد أرسلني أبو عامر إليك، مستفسراً عما تريد، فإن كنت تريد تغطية التكاليف المعيشية، وما يتبعها، فطلبك نافذ، والمبلغ الذي تحدده يأتيك بسرعة، وإن كنت تريد غير ذلك، فأوضح وأفصح عما تريد.

قال مروان: لا أريد شيئاً شخصياً من مال أو غيره، وإنما أود تجهيز الشباب للمقاومة.

قال له العمري رحمه الله: وأي نوع من المقاومة تريد؟

عَدَّدْ لي صنوفها، وبعد أخذ ورد، نقل لي أخي أحمد العمري رحمه الله وأعلى قدره: أن مروان لا يعدو كونه يطمح إلى آمال عريضة، ليست واردة في عالم الواقع أو على الأرض، فأدركنا جميعاً أن الرجل يتطلع إلى الشهادة، وهذا ما كان يغلب على تحركه وتفكيره.

ومن أغرب ما قرأت عن مروان ما كتبه مؤلف في نهاية عام ٢٠٠٢ أن مروان حديد دخل على منزله فسمع أخاه الكبير أحمد، أحد المقربين من أكرم الحوراني، يقول: اليوم قتل مجرم كبير في مصر، اسمه حسن البنا، فلفت هذا الكلام انتباه مروان، فأحضر رسائل البنا وقرأها، وصار من ذلك الوقت الابن البار لدعوة الإخوان المسلمين، وهذا الكلام يتنافى مع مقتضيات العقل ومنطق الأشياء كلها، وطبيعة الإنسان في هذه المرحلة من عمره، إذ كان عمر مروان إذ ذاك خمسة عشر عاماً إلا قليلاً (١٩٣٤-١٩٥٩) في الصف الأول الثانوي، فكيف فكر ابن الخمسة عشر أن يراجع رسائل البنا؟ ومن أين أتى بها في هذه العجالة؟ وكيف استطاع استيعابها لنفسه، وخرج بعد قراءته لها داعية؟

إن هذه القصة الخيالية التي تتنافى مع مقتضيات العقل لا أصل لها من قريب أو بعيد، وإن مروان لم يتح له الاطلاع على رسائل البنا إلا بعد سنوات أمضاها في الأسرة التي تحدثت عنها سابقاً بإيجاز، وإنني أقول ناصحاً لمن أراد الكتابة عن أمور إخوانية وحساسة: أن يتحرى الحقيقة، وأن يُعمل عقله في الدراسة والتحقيق وأن يدعم كلامه بالمصادر الموثوقة، وبسماع الرجال الصادقين حتى يقترب ما وسعه

من الحقـيقة والواقع، ويبتـعد ما وسعه عن الوهـم والخطأ والروايات الزائفة.

٧- عزمنا في حمـاة على فصل العملين بصـورة حازمة، ومنع أي تداخل بين أعضاء تنظـيمنا ومجموعة الشهيد عبـد الستار، وطلبت من إدارة مركز حـماة إبلاغ الدكتور عبـد الستار الزعيـم بذلك، فرغب أن يلقاني للمرة الأولى، ولم أكن قد رأيته أو التقيته قط، فكان الاجتماع الأول مع عبد الستار، لأصادف إنساناً من نوع آخر، عزيمة كالحديد، وصرامة لا تلين، وشجاعة نادرة أقرب إلى الأساطير، ودقة فيما يفعل أو يخطط، الأمر الـذي كان ينقص شيخـه مروان، وإخلاصاً فيـما بدا لي، ولا أزكي على الله أحداً.

عـرض عـبـد السـتـار خـلاصـة آرائه قـائلاً: نـحن درع الإخـوان المسلمين، ولن نقبل في صفوفنا غير الذين تربوا في أحضان الدعوة، ويمكن أن نضع أنفسنا تحت تصرف الجـماعة بشروط. فلم يتلق مني أي إجابة؟ بل أجـلنا الحديث إلى موعـد آخر، بعد عرض الـموضوع على أعضـاء المكتب التنفـيذي -القيادة- فاسـتبطأ ردنا عليـه، وحضر إلى بيروت، وكنا في لقاء مع إخوة التنـظيم العالمي، وبعد أن تباحث مع عـدد من أعضـاء القيـادة للإخوان السـوريين الذين كـانوا يعـقدون اجتماعاً على هامش لقائنا بالتنظيم العـام، استمهلنا عبد الستار شهرين لنجيبه على تساؤلاته في الداخل.

التـقينـا بعد شـهريـن ويوميـن، فقلـت للشـهيـد عبـد الستـار: إن موضـوعنا دقيق وخطـير، ولا يستطيـع شخص واحد أن يقـضي به أو

يبت فيه ولو كان المراقب العام أو أحـد أعضاء قيادته، ولذا أرى عقد اجتماع يضم أعضـاء القيادة والمعنيين في الجماعـة مثل رئيس مجلس الشورى لبحثه ومناقشته بعمق وإحاطة، فوافق على ذلك ورحب به.

عـقدنا جـلسـة ضمـت أعضـاء القـيادة ورئـيس مجـلس الشـورى ومشـاركة عبـد الستار، اسـتمرت طـيلة ساعـات الليل، وكان جـوهر الموضوع الذي تناولـه حول فصل عمل المجموعـة عن التنظيم، وعن منهج الإخوان الدعوي كـيلا ينعكس النشاط الجهادي عـلى الجماعة، فلاقى هذا الفهم قبولاً لدى الجميع بمن فيهم الشهيد عبد الستار، غير أن السـؤال الذي وقف أمـامه الجـميـع، كيف يـتم الفـصل بين عـمل المجمـوعة وبرنامج الجماعـة. وكم كانت الدهشة مذهلـة بل ومؤلمة عندما قرأت لأحد الحاضرين شهادة يتكلم فيها عن اتفاق احتوى بنوداً سبعة يشمل المال والسـلاح والتدريب و. . . إلخ، وينص على تقديم الجماعة ما تطلبه المجموعة من مال ودعم وغير ذلك.

أقول بكل تأكيـد: إن هذه الشهادة الزور التي أوردها صاحـبها في دراسة التـقويم، والتي سـيسأله اللـه عنها يوم تزل الأقـدام، لا أساس لها، ولا أصل لهذا الاتفاق الـذي هو أقرب إلى الأسلوب الروائي منه إلى الحقائق الموثقة.

رجعت إلى الإخـوان الذين حضروا تـلكم الجلسة واحـداً واحداً، وجميعهم ما يزال على قيد الحيـاة باستثناء صاحب المنزل الذي عقدنا فيه اللقاء، فأنكر الجميع شهادة الزور التي قدمها صاحبها هدية مجانية للـطغاة، ومـن حق كل غـيور علـى دعوة الـله وجمـاعة الإخـوان أن

يستفسر من أيٍّ من الذين شهدوا اللقاء وشاركوا في موضوعاته، وقد سأل رئيس مجلس الشورى صاحبَ الشهادة الغريبة لما نسبه إليه في شهادة موازية، فلم يجبه، ولاذ بالصمت، وطلبت من الإخوة أن يستفسروا من هذا الذي قدم شهادته التي لا أصل لها، عن مصدر هذا الخطأ، وعن دوافعه والأسباب التي تكمن خلفه؟ أهي الغفلة أم النسيان أو أي شيء آخر؟ فلم يفعلوا، وآثروا أن لا يزعجوه أو يعكروه، لأنه يملك حماية جهوية تجعله فوق التساؤل، وذلك بعد أن استفحلت العصبيات المنتنة في أوساط الجماعة، ومنها الانتماء إلى المحافظة أو المدينة أو القرية أو العائلة، وهذا ما ألحق بجماعة الإخوان ضرراً فادحاً وأذى كبيراً أوصلها إلى ما هي عليه من إحباط ويأس وما يشبه الانهيار.

بعد الجولات التي جرت مع عبد الستار للوصول إلى موقف أو قرار، استبعد الشهيد دمج المجموعة بالجماعة، وعرض أحد وسيطين بين الجماعة والمجموعة كضابط اتصال، فاعترضت على ذلك لأسباب شرحتها للشهيد، فاستوعبها واقتنع بها، ثم عرضت عليه أمرين ليختار أحدهما في تحديد الصلة، فرفض الأمرين كليهما، ثم انتقل إلى الموضوع المالي فقال: نحتاج كل شهر إلى ٣٥٠٠ ل. س للمساجين والمطاردين كنفقات معيشية كحد أدنى للمعتقل أو الملاحق، لأنهم كانوا يعيشون حياة الزهد والتقشف. فقلت: ندفع لكم هذا المبلغ الشهري من غير صندوق الجماعة كيلا يحصل أي تداخل بين العملين وقد التزمنا معه بدفع المبلغ حتى آخر المطاف

دون اتفاق أو تنسيق أو ترتيب. وعندما اشتدت الضائقة المالية على مجموعة عبد الستار رحمه الله، طلب زيادة ألف ليرة سورية في الشهر ليكون المجموع ٤٥٠٠ ل.س، فتم له ما أراد، واستمر هذا الوضع حتى وقع ما لم يكن في الحسبان عندما أعلنت السلطة رسمياً الحرب على الإخوان المسلمين على لسان نائب الحاكم العرفي وزير الداخلية عدنان الدباغ، ووزير الإعلام أحمد اسكندر أحمد، ونائب القائد العام مصطفى طلاس، وكلهم دعا إلى قتل أعضاء الجماعة في الداخل والخارج، ونفذوا حربهم بلا هوادة أو شفقة، وكان ذلك إثر حادثة مدرسة المدفعية التي فوجئنا بها، كما فوجئت السلطة الحاكمة في سورية.

ثالث عشر - نظام الإخوان المسلمين

في أثناء دراستي في مصر ١٩٥١-١٩٥٥ كنت على صلة بمؤسسات الجماعة في القاهرة، كانت لجنة الشباب المسلم التي كان يوجهها ويشرف عليها الدكتور عبد العزيز كامل في مقدمتها، وكذلك مع الأستاذ سعيد رمضان صاحب مجلة -المسلمون- الشهرية بصورة محدودة، ومع الشيخ عبد المعز عبد الستار، والأستاذ عبد البديع صقر الصديقين الحميمين لشيخنا محمد الحامد رحمه الله.

١- أقرت قيادة الإخوان في مصر بقيادة المرشد العام الإمام حسن البنا القانون الأساسي للإخوان المسلمين في ٨-١١-١٩٤٥، ثم اقترح الإمام المرشد إجراء أو إدخال بعض التعديلات عليه، لمواجهة اتساع ميادين نشاط الجماعة، فشكلت الهيئة التأسيسية -مجلس

الشورى- لجنة برئاسة المرشد وعضوية طاهر الخشاب وصالح العشماوي وعبد الحكيم عابدين، فتقدمت بالتعديلات المقترحة للهيئة التي أقرتها في ٢١-٥-١٩٤٨ أي قبل اغتيال الإمام بثمانية أشهر وبضعة أيام، وعندما عدت إلى سورية حملت معي صورة عن هذا القانون -الأساسي والداخلي- فجرت دراسته من قبل مجلس شورى الجماعة، والأخذ ببنوده بعد إقرارها، كواحد من إنجاز السنة الأولى للجماعة بعد تكليفي بمهمة المراقب العام عام ١٩٧٦، ولا تزال الجماعة ملتزمة بمعظم مواد هذا النظام (المعمول به لدى تنظيم الإخوان في مصر) بالرغم من إجراء تعديلات عليه في أوقات لاحقة، وعندما غادرت سورية في أواخر شهر أيلول عام ١٩٧٨ حملت نسخة عن النظام المؤلف من ١٣٢ مادة ليكون سارياً على التنظيم في الخارج كما كان سارياً على تنظيم الجماعة في داخل سورية.

من المفيد أن أثبت أهم فقرات هذا النظام الأساسي متجاوزاً الحديث عن بنود النظام الداخلي الذي يختص به كل قطر بما يناسب أوضاعه الإدارية والإقليمية والقطرية.

أ- الإخوان المسلمون هيئة إسلامية جامعة، تعمل على تحقيق الأغراض التي جاء من أجلها الإسلام الحنيف، وما يتصل بهذه الأغراض:

- شرح دعوة القرآن الكريم شرحاً دقيقاً يوضحها، ويردها إلى فطرتها وشمولها، ويعرضها عرضاً يوافق روح العصر، ويرد عنها الأباطيل والشبهات.

- جمع القلوب والنفوس على هذه المبادئ القرآنية، وتجديد أثرها الكريم فيها، وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة.

- تنمية الثروة القومية، وحمايتها وتحريرها، والعمل على رفع مستوى المعيشة.

- تحقيق العدالة الاجتماعية، والتأمين الاجتماعي لكل مواطن، والمساهمة في الخدمة الشعبية، ومكافحة الجهل والمرض والفقر والرذيلة وتشجيع أعمال البر والخير.

- تحرير وادي النيل والبلاد العربية جميعاً، والوطن الإسلامي، بكل أجزائه من كل سلطان أجنبي، ومساعدة الأقليات الإسلامية في كل مكان، وتأييد الوحدة العربية تأييداً كاملاً، والسير إلى الجامعة الإسلامية.

- قيام الدولة الصالحة التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عملياً، وتحرسها في الداخل، وتبلغها في الخارج.

- مناصرة التعاون العالمي مناصرة صادقة في ظل المثل العليا الفاضلة التي تصون الحريات وتحفظ الحقوق، والمشاركة في بناء السلام والحضارة الإنسانية على أساس جديد من تآزر الإيمان والمادة، كما كفلت ذلك نظم الإسلام الشاملة.

ب- يعتمد الإخوان المسلمون في تحقيق هذه الأغراض على الوسائل الآتية، وعلى كل وسيلة أخرى مشروعة:

- الدعوة بطريق النشر والإذاعة المختلفة من الرسائل والنشرات والصحف والمجلات والكتب والمطبوعات، وتجهيز الوفود والبعثات في الداخل والخارج.

- التربية، بطبع أعضاء الهيئة على هذه المبادئ، وتمكين معنى التدين العملي لا القولي، في أنفسهم أفراداً وبيوتاً، وتكوينهم تكويناً صالحاً، بدنياً بالرياضة، وروحياً بالعبادة، وعقلياً بالعلم، وتثبيت معنى الأخوة الصادقة والتكافل التام والتعاون الحقيقي بينهم، حتى يكون رأي عام إسلامي موحد، وينشأ جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، ويعمل بأحكامه، ويوجه النهضة إليه.

- التوجيه، بوضع المناهج الصالحة في كل شؤون المجتمع في التربية والتعليم والتشريع والقضاء والإدارة والجندية والاقتصاد والصحة العامة والحكم.. إلخ والاسترشاد بالتوجيه الإسلامي في ذلك كله، والتقدم بها إلى الجهات المختصة، والوصول بها إلى الهيئات النيابية والتشريعية والتنفيذية الدولية، لتخرج من دور التفكير النظري إلى دور التفكير العملي.

- العمل، بإنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية ودينية وعلمية، وبتأسيس المساجد والمدارس والمستوصفات والملاجئ.. إلخ وتأليف اللجان لتنظيم الزكاة والصدقات لأعمال البر، والإصلاح بين الأفراد والأسر، ومقاومة الآفات الاجتماعية والعادات الضارة، والمخدرات والمسكرات والمقامرة والبغاء، وإرشاد الشباب إلى طريق الاستقامة، وشغل وقت الفراغ بما يفيد وينفع، ويستعان على ذلك

بإنشاء أقسام مستقلة طبقاً للوائح خاصة، تتفق مع القانون ٤٩ لسنة ١٩٤٥ الخاص بتنظيم الجمعيات الخيرية، وأعمال البر، وتسجيلها بوزارة الشؤون الاجتماعية.

أوردت هذه الفقرات من القانون الأساسي لجماعة الإخوان الذي اكتمل في مصدره بمصر ثم انتشر وعم أقطاراً أخرى لإطلاع المعنيين من الباحثين والدارسين من داخل الجماعة ومن خارجها، وللتدليل على ما كانت عليه الجماعة منذ نشأتها من نضج وشمول هي أقرب للكمال من أي وصف آخر في حياتها المباركة.

رابع عشر- مرحلة البرمجة والتخطيط

حققت جماعة الإخوان المسلمين في سورية قفزة نوعية، عندما قررت الانتقال إلى طورٍ جديد، وبرنامج متطور، طبقاً لخطة للجماعة تسير بموجبها، والانتقال بالتنظيم من المرحلة الخطابية في الوعظ والتبليغ والتجميع، إلى مرحلة البرمجة والتخطيط، إكمالاً للمرحلة السابقة وليس إلغاء لها، فشكل مجلس الشورى لجنة ثلاثية برئاسة المراقب العام وعضوية رئيس مجلس الشورى محمد ديب الجاجي، والأستاذ محمد الحسناوي عضو المكتب التنفيذي.

١- عكفت اللجنة بجدية وحماسة كبيرتين على وضع الخطة التي تحتاج إلى عمل دؤوب، وقناعة كبيرة، وثقافة واسعة، ودراسة شاملة للخطط والبرامج التي أخذت بها الأحزاب والهيئات والشركات وحركات التحرر والأحزاب السياسية العالمية ذات التاريخ العريق والتجربة العميقة، وكان الجهد الأكبر في وضع الخطة لرئيس مجلس

الشورى محمد ديب الجاجي المشهود له بحذره ودقته وأناته، يليه في بذل الجهد الأستاذ محمد الحسناوي رحمه الله، إذ كان لهما جهد يستحق التنويه والتقدير.

بعد ستة أشهر من العمل المتواصل تقدمت اللجنة إلى مجلس الشورى بمشروع الخطة، فشرع المجلس في مناقشة صريحة وموسعة، وظهرت انتقادات وآراء ومقترحات أدت إلى إضافة أخوين من المجلس إلى لجنة الخطة كانت لهما ملحوظات ومقترحات مفيدة، فتابعت اللجنة دراسة الخطة، وإعادة صياغتها، ومن ثم تقديمها إلى مجلس الشورى في قراءة ثانية وفي دورة لاحقة، فأبدى المجلس تحفظات وملحوظات، فأعادها المجلس إلى اللجنة مرة أخرى لتأخذ بعين الاعتبار ما قاله أعضاء المجلس، وعندما عقد المجلس جلسة في دورة لاحقة، ناقش مشروع الخطة في قراءة ثالثة، انتهت في الموافقة على الخطة التي استمر النقاش حولها ثلاث دورات امتدت عاماً ونصف عام على إنضاجها وإكمالها بالإجماع، وتوقيع المراقب العام عليها في ١٩ رمضان ١٣٧٩، الموافق الثاني من أيلول / سبتمبر عام ١٩٧٧ .

٢ً- من المفيد، بل من الواجب في اجتهادي وقناعتي أن يطلع أعضاء التنظيم وأبناء الجماعة والأجيال الناشئة ومن يسير على خطاهم على الخطة كاملة -بعد أن أضحت جزءاً من الماضي بما تحتويه من فكر إخواني محض، ومن نظريات في السياسة والاجتماع، وبناء المجتمع، وإقامة الدولة، والأساليب والوسائل والخطط الجزئية

المرحلية لتحقيق أهداف الجماعة، في التماس رضوان الله جل وعلا، وتحكيم شرعه القويم، ورسالته السمحاء، ونشر قيمه السامية ومثله العليا، بالكلم الطيب، والحكمة والموعظة الحسنة، ومخاطبة العقل، وتهذيب النفوس وتزكيتها، وإيقاظ الضمائر بالتي هي أحسن، وبالهدي النبوي الشريف.

لقد استفاد واضعو الخطة من مصدرين أصيلين فيما بلغوه من فكر ورأي وتوجيه.

الأول: ما أنجزه الرعيل الأول في بناء المجتمع وإقامة الدولة في العصر النبوي المبارك، بقيادة ورعاية وتوجيه سيد الخلق، والقدوة الحسنة، والمثل الأعلى للإنسانية قاطبة، وللحياة الفاضلة سيدنا وأسوتنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، وأصحابه الميامين، ولاسيما في زمن الخلفاء الراشدين، جيل القدوة لمن تلاهم من أجيال المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الثاني: تجربة الإمام المجدد الشهيد حسن البنا في مصر، والذي تأتي أهميته من كونه متبعاً خطى النبوة، سائراً على هداها، فكان في دعوته ونهجه وأسلوبه وسلوكه قبساً من مشكاة النبوة، صافياً نقياً من أي ابتداع، ملتزماً وعاضاً بالنواجذ على كل اتباع، مستمسكاً بالسنة المطهرة، ملتمساً خطا صاحبها القدوة عليه أفضل صلاة وأزكى سلام.

مع استيعاب متغيرات العصر ومتطلباته في حياة الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع، وفي منطق الدولة الحديثة والمعاصرة.

إننا نثبت -للأهمية البالغة- نصوص الخطة العامة للجماعة كاملة،

بعد أن مضى على صدورها زهاء ثلث قرن تبدل فيها الناس، واستجدت أحداث وتغيرت فيها نفوس، وتلاشت همم كانت في يوم تطاول الجبال اعتزازاً بربها ودينها، وتخلت مجموعات عن الدرب خوفاً من باغٍ، وطمعاً في مغنم رخيص زائل، ولكن الحق لم يتغير، والمبادئ كما هي كأنها شمس الظهيرة فوق أرض الحجاز، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولمن أراد أن يستمر على الدرب، ويستأنف كجندي من جنود الله وأتباع رسوله ﷺ المسيرة الظافرة، والمنتصرة بمشيئة الله إن لم يكن اليوم ففي الغد المشرق بإذن الله -ثم تعود على منهج النبوة-[1].

* * *

(١) أخرجه أحمد، ١٧٦٨٠ وهو حديث صحيح.

الخطة العامة

لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين

في سورية

التي تم التصديق عليها من مجلس الشورى

وتوقيع المراقب العام عليها واعتمادها

في شهر رمضان المبارك ١٣٩٧ الموافق شهر أيلول ١٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

أولاً: أساسيات التصور الإسلامي

إنّ الدين عند الله واحد، قام على عقيدة التوحيد، وهيمنة الله تبارك وتعالى على الوجود الذي خلقه بتنظيم كل حركة فيه.

وجاء الإسلام شرع الله الأخير للإنسان، فبيّن أسس الدين الصحيح المرتضى للبشر جميعاً، وأكّد أخوّة الرسل بسبب وحدة مصدر الرسالات. فكان دين الفطرة الإنسانية: يلبي حاجة الفرد والجماعة، ويوجّه الطاقات، وينظم التصرفات، ويعتبر الناس متساوين في الأقدار، من حيث الخلق والمصير، ولكنهم يتفاضلون بالعمل الصالح في الدنيا، وبالجزاء عليه يوم القيامة.

والإنسان المسلم خليفة الله في أرضه ما استمسك بشرعه، والجماعة المسلمة مستأمنة على دينه، شاهدة على خلقه، ما خضعت لأحكامه واستجابت لأمر رسوله، والحضارة الإنسانية السليمة نتيجة عملية لهذا الإعداد والتنظيم الرباني على مستوى الفرد والجماعة معاً.

تتمثل مهمة الجماعة المسلمة في تنفيذ أوامر هذا الدين: بالدعوة إليه على بصيرة، وتنظيم أمور حياتها وفق خططه وأساليبه، وحمايته من هوى النفس وعدوان الجاهلية، والتمكين له في النفس والواقع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطة العامة

تعريف الخطة: «هي منهج العمل الإسلامي الذي تعتمده جماعة الإخوان المسلمين في سورية لمواجهة الواقع والانتقال به من موقع الإعداد إلى موقع التمكين، مستفيدة من سنن الله عزّ وجل في الوجود، معتمدة على خبرة إسلامية مكتسبة من تجارب الماضي والحاضر في تحديد أهدافها ومراحل عملها ووسائل تنفيذها، وطبيعة مشكلاتها الحالية والمتوقعة وأساليب معالجتها».

تبدو عناصر الخطة من خلال هذا التعريف في ثلاثة أقسام:

ولقد حقق الله مراده في الأرض بالجماعة المسلمة يقودها الرسول الأسوة ويسدد خطاها بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، فواجهت الباطل بقوة مكافئة له، مستخدمة كل وسائل الإعداد المتاحة، مستجيبة لأمر ربها في كل تحركاتها.

والتفريط في أمر التلقي عن الله ورسوله في أي قضية اعتقادية أو منهجية أو سلوكية هو الذي يفسر بحق أسباب ضعف الأمة المسلمة اليوم وتخلي المولى عز وجل عنها فيما تعانيه من ضياع وعجز، ولم يسلط الله سبحانه عليها أعداءها إلا عندما ركنت إلى مافي أيديها من متاع وقوة، ولم تستمسك بالذي أوحي إليها إيماناً وعملاً.

ومن أجل أن يتحوّل ركب الحياة إلى طريقه الصاعدة، لابد من توجيه قيادته وربط مسيره بوحي السماء كاملاً، ولابد أن تتصدى الجماعة المسلمة لذلك فتعزم على النهوض بهذا العبء حتى يكون الدين كله لله ولا يعبد في الوجود سواه.

تجد الجماعة المسلمة نفسها اليوم في صراعها مع الطاغوت ملزمة باستيعاب وفهم خطوات الدعوة الأولى التي قادها الرسول الأعظم محمد ﷺ، فهو قائدها الآن كما كان قائد الدعوة الأولى في معركة الحق والباطل.

وهي لا تتطلع إلى الاستفادة من منجزات العصر في مجال التنظيم والحركة أو غيرها باجتهاد أو اقتباس مالم تستوعب خطوات الدعوة الأولى وتتعامل مع تصوراتها وإرشاداتها في صراعها القائم اليوم لإخضاع الباطل لنواميس الحق، حتى لا يتسلل إلى تصورها أو

تنظيمها أي انحراف أو ضلال، وإذا كان للباطل أصول مختلفة فإن للحق أصلاً واحداً.

فبماذا اتّسمت خطوات الدعوة الأولى حتى بلغت هدفها وحققت رسالتها؟

ثانياً: خطوات الدعوة الأولى

تقدّم الجماعة رؤية عملية للسيرة النبوية الكريمة تأخذ منها خبرة مكتسبة تعالج بها الواقع القائم لتحقيق الأهداف التي بلغتها الدعوة الأولى، وهي رؤية مرحلية تهيب بفكر المسلم أن يسهم في تسديدها وإغنائها دون تشدد أو ترخّص.

فقد كشف محور الصراع بين الإسلام والجاهلية من خلال العهدين المكي والمدني عن عناصر رئيسة، ومهمات أساسية، كانت ترتسم من خلالها حركة الدعوة في صورة مراحل متطورة متقدمة حتى بلغت هدفها.

وهذه العناصر هي:

١ - المنهج الرباني

٢ - الرسول القائد.

٣ - الجماعة المسلمة.

٤ - الأعداء.

أما المهمات الأساسية فهي: **التعريف - التكوين - التنفيذ.**

وحين ننظر إلى هذه المهمات نجدها تكاليف تبدأ ثم تستمر وتترافق وتتداخل.

أما المراحل: فلكل مهمة مراحل أو خطوات خاصة بها تتطور وتستمر حتى تبلغ الهدف. فبالنسبة لمهمة التعريف: نجدها مرّت بالمراحل التالية:

مرحلة التعريف السريّة - مرحلة التعريف الجهرية، ويمكن أن ننظر إلى مراحل هذه المهمة من زاوية الشمول والاتساع بالترتيب التالي:

مرحلة تلقي الأمر الإلهي - مرحلة الدعوة الفردية المحدودة - مرحلة إنذار العشيرة القريبة - مرحلة إنذار المقيمين في جزيرة العرب - مرحلة الدعوة العالمية.

وبالنسبة لمهمة التكوين فمراحلها التالية:

مرحلة بناء العقيدة - مرحلة احتمال الأذى والشدة - مرحلة صياغة المجتمع الإسلامي، نواة الدولة المسلمة - مرحلة بناء مؤسسات الدولة - مرحلة الإعداد والتأهيل لحماية الدولة والوفاء بمتطلبات التشريع.

وبالنسبة لمهمة التنفيذ فقد مرّت بالمراحل التالية:

مرحلة البيعة - الهجرة - تأسيس الدولة المسلمة - الدفاع عنها - الجهاد لنشر الدعوة محلياً وعالمياً.

أولاً - ففي مجال القيام بمهمة التعريف والتكوين في العهد

المكي:

١ – كان المنهج قد أعطى بشعار (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تصوراً عقيدياً ربانياً يواجه التصور الجاهلي المناقض، ويمثل رفضاً حاسماً للقيم الجاهلية، وانقلاباً على مواضعات الجاهلية السائدة، فكانت المجابهة أعنف ماتكون في آيات القرآن الأولى، ومع ازدياد العناصر المؤمنة كانت تزداد الآيات حيث ينمو التوجيه والتكوين متوازياً مع نمو البناء الحركي ويتعامل معه تعاملاً حركياً، إذ كان النص القرآني يقوم بالمهمتين في آن واحد: التعريف بالدعوة وتوجيه وتكوين العناصر المؤمنة الملتزمة، ولعلّ سورة الأنعام على الأخص والسور المكيّة الأخرى التي بلغت ثلثي القرآن الكريم تقريباً تمثل هذه المهمة بطرفيها: التعريفي والتكويني.

٢ – أما الرسول القائد ﷺ: فقد كانت تطوف بفكره وقلبه منذ حداثته وقبل تلقيه الوحي أمور الكون والإنسان والحياة والموت فتصرفه عن التفكير في الملذات والتماسها، مما حببه لأهل مكّة وميّزه في نظرهم عن الآخرين.

وعندما اطمأن إلى صدق دعوته، ووثق من تكليف الله له، بدأ العمل، وترك مرحلة العزلة، وانصرف لبناء المجموعات الأولى من الدعاة، وأمر أتباعه الأوائل بالتزام الحيطة والحذر والكتمان طوال مرحلة التعريف السرّيّة التي استغرقت ثلاث سنوات، وبدت الحاجة والرغبة في التركيز والاختيار والانتقاء للأكثر جدارة وكفاءة ومقدرة، فتجمع لديه أوثق العناصر وأعمقها إيماناً وتحركاً بالدعوة في

المجالات القريبة بحيث شملت الزوجة والصديق والقريب وغيرهم، واستطاع نشر مبادىء الإسلام فيمن حوله بهدوء وطمأنينة.

وفي مرحلة التعريف الجهرية التي تميّزت كذلك بطول الزمن واصطفاء الدعاة الأكفياء صدع بأمر الله عز وجل تحت شعار (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فاصطدم منهجاً وحركة بمراكز السلطة والنفوذ والتوجيه، ترفده قوة من الإيمان بالله تعالى، وذخيرة من العزيمة والصبر جعلته من أولي العزم، ومع اشتداد الأذى كان خبر الدعوة ينتشر، وتستجيب له القلّة الواعية، فيبث الوحي الإلهي في نفوسهم فيحييها ويعطيها ثباتاً وثقة، ويرشدهم إلى طرائق وأساليب تتحرك بالدعوة إلى الهدف الموعود.

٣ - أما الجماعة المسلمة: فقد تكونت من خلال استجابة الصدر الأول من رواد الحركة، وكان لاستجابتها أثر عميق في حركة الدعوة، فاستَخْفَوا في مرحلة التعريف السريّة، ليستكملوا بناءهم النفسي والفكري، ثم تصدَّوا في مرحلة التعريف الجهرية بعزم وصلابة، حتى همّوا بمقابلة الأذى والعدوان بمثله، لولا أن خطة الدعوة لم تتجه بعد إلى المجابهة المادية، وإنما أرادت أن تتيح الفرصة لمفاهيم الدعوة الجديدة أن تأخذ أبعادها في النفوس والمجتمع، وكلما ازدادت المحنة وعظم البلاء ساق الله للدعوة رجالاً كباراً لهم وزنهم في مجرى الأحداث وقدرتهم على المقاومة والثبات وحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التضحيات، فتجاوزت الدعوة دائرة العصبية وحشدت كلّ الطاقات استعداداً لمهمة التنفيذ القادمة.

وقد قامت المرأة المسلمة بدورها بجدارة، فتحمّلت أعباء الاضطهاد والهجرة والمقاطعة مع زوجها وأهلها، وكانت أول من أسلم، وفي جملة من بايع!

وهكذا أهّلت الدعوة في مرحلة التعريف السرية والجهرية المكيّة طرازاً قرآنياً فريداً من الدعاة يحتمل ضغوط الوثنية ويتجاوز محنتها، وتكونت قاعدة صلبة تكافىء مواقف الصراع المكي، وتحبط مخططات الوثنية في استئصال هذا الجيل العملي الذي يفسّر أهداف الإسلام في تحدي عقائد الجاهلية وموروثاتها، ويتطلّع إلى أبعاد سياسية خطيرة على مراكز السيادات القائمة.

٤ – أما الجاهلية: فقد كانت تتمثل في بيئة فكرية ونفسية واجتماعية وجملة موروثات وتقاليد أرضية، خلّفت تناقضات وتصدّعات عنيفة على أرض الواقع، ومع ذلك فهي ترفض كل تغيير وكل تبديل فيها. فكان لابد من الإسلام ليحيا الإنسان خليفة مكرماً.

لقد أدركت الجاهلية في أوائل مواقف الصراع مع الدين الجديد أنها لن تستطيع تضليل الدعوة وقائدها في معاركها الفكرية والنفسية معه، فاتجهت بعد المساومات المخفقة إلى التعذيب الجسدي والمقاطعة الاجتماعية، واستهدفت فتنة ضعاف المسلمين، فسعت من خلال بطشها وتعذيبها ومن حيث لم ترد ولم تشعر إلى نشر الدعوة في الآفاق كما هي سنّة الصراع الدائم بين الحق والباطل، ولاحقت المهاجرين إلى الحبشة تحاربهم وتشهّر بهم، وقاطعت الرسول ﷺ وبقية المؤمنين في منطقة سيطرتها، ومارست معهم فنوناً من التجويع

والكبت والحرمان.

وحين استبان لها محور الهدف الذي تسعى إليه الدعوة في تحركها نحو بناء المجتمع الإسلامي الجديد في المدينة، وجدت الفرصة مواتية لتسلك سبيل التصفية الجسدية في مؤامرة جماعية استَعْدَت فيها على قائد الدعوة كلَّ بطونها وعشائرها، فكانت البيعة ثم الهجرة إلى المدينة آخر الحلقات في سلسلة تلك المحنة القاسية، وأول خطوات التنفيذ، خسرت فيها الجاهلية جولتها الأولى، وأثبتت عجزها عن إطفاء جذوة الدعوة في نفوس رجالها.

ثانياً - وفي العهد المدني

تابعت مهمات التعريف والتكوين والتنفيذ والقيام بالأعباء المطلوبة في بناء المجتمع الجديد، حيث أثمرت جهود موفد الدعوة (مصعب بن عمير رضي الله عنه) في المدينة وأصبح الوضع الاجتماعي فيها قادراً على استيعاب المهاجرين الجدد، وسارت الدعوة خطوات تنفيذية هامة، وهي تواجه أوضاعاً قاسية تقتضي حلولاً جذرية عاجلة، فكان التآخي حلاً للأزمة المعيشية الطارئة التي أوجدتها حركة الهجرة، وقد تمّ تنفيذ هذه الخطوة بموقف قيادي استجاب له المؤمنون فوراً.

واستغرقت مرحلة تأسيس الدولة أربعة أشهر، واستهدفت صياغة الدولة وبناء أسسها من خلال:

- شخصية الرسول الكريم ﷺ رئيساً لهذا المجتمع.

- والجماعة المسلمة نواة الدولة الإسلامية.

- والمسجد: معهد التربية والإعداد والقيادة لتكوين قاعدة صلبة مكافئة لمواقف الصراع القادمة.

- والمعاهدة بين المسلمين ورعايا الدولة المسلمة الآخرين من يهود وغيرهم، إذ اعتبرت في هذه المرحلة دستور العلاقة الاجتماعية والسياسية بين عناصر الدولة الوليدة.

ثم كانت الغزوات الاستطلاعية والسرايا، الأسلوب العملي المعتمد دائماً في مواصلة التَّماس مع العدو لحماية الدولة الناشئة، ثم أخذت صفة الردع والتطهير بعد (بدر) وحتى (الخندق) آخر خطوات الحرب الدفاعية، ثم تغيّر ميزان القوى بعد ذلك فحملت الدولة الإسلامية عبء المبادرة الذاتية لتنفيذ استيراتيجية جديدة تستهدف:

- تصفية الوجود الوثني.

- وإزالة التكتل اليهودي المجاور الذي كشف عن نيّاته السيئة تجاه الدولة المسلمة.

- والتمكين للدولة الناشئة على الصعيد الداخلي والخارجي.

- وتبليغ الدعوة للعالم كله، فتحقق بذلك غاية وجودها أمة شاهدة على الناس.

وكان فتح (خيبر) وغزوة (تبوك) أهمّ معالم الطريق في هذه الاستراتيجية.

وكان من أهمّ أسباب النصر بعد المنهج وخطوات الحركة السابق ذكرها: قيادة راشدة وجنود ممتازون.

١ - **أما القيادة الراشدة:** فقد أعطى الرسول ﷺ في سيرته صورة القيادة الراشدة وصفاتها الرائدة المتمثلة فيما يلي:

- توثيق الصلة بالله تعالى والتخلق بالقرآن.

- الشخصية الشجاعة ذات الإرادة القوية والنفس الثابتة في العسر واليسر.

- سبق النظر ومعرفة القابليات.

- الثقة والمحبة المتبادلتان بين القيادة ورجالها.

- القدرة على إصدار القرارات الصريحة الحاسمة.

٢ - أما الجنود الممتازون: فقد صاروا بفعل التربية والتكوين والتدريب المستمر على استعداد ذهني ونفسي وسلوكي كامل لتقبل ما سيجيء من تشريعات وتنظيمات وحدود وعلاقات في سائر سور القرآن الكريم المدنية وتوجيهات السنة الشريفة، وأعطت الأخوة ثمارها العملية في تلبية متطلبات الوضع الطارىء بكلّ احتمالاته وتكاليفه، فأحسوا من خلال السرايا والغزوات بنبض أعدائهم واختبروا إمكاناتهم الحربية، ومارسوا مزيداً من التدريب، وأدركوا أن انتصار الدعوة وانتشارها لا يتحققان بغير تضحيات، وتذوقوا من النصر والتراجع معنى التعلق المطلق بالله تعالى، وطلب العون منه في كلّ حال، والنزول على حكمه في كل أمر، والتزام أوامر الرسول

القائد مهما خفيت حكمتها.

فكانوا كلهم جنوداً: النساء لإعداد أبناء أقوياء مجاهدين يحملون عبء الحرب ومتطلباتها مع قيامهن بواجب الدفاع والنصرة عند الأزمات. والرجال لتحشيد قواهم وأموالهم كلها لمصلحة الدعوة أولاً وآخراً.

وحركة النفاق: ظاهرة معقّدة لابدّ من دراستها، فقد أصيبَ بها المجتمع الإسلامي الأول، كما يصاب بها أيّ مجتمع إسلامي ناشيء، وتتمثل في تجمّع منظم أو مفكك ينسرب في جسم الدولة غير واضح الأبعاد، قادر على الاستخفاء في أعقاب أي تخريب يمارسه، لأنه محسوب على معسكر الدعوة، ويتعذّر التصدي المباشر له كيلا يتّخذ ذلك سلاحاً دعائياً لمهاجمة الدعوة.

لقد تتبع القرآن الكريم منذ معركة (بدر) خططهم وتخريبهم، وواجههم الرسول بيقظة كاملة.. كان يجابه كل حالة بما يكافئها قبل أن تأتي بنتائجها المرة، فكانت الحركة من هذا الوجه ظاهرة صحية في المجتمع الإسلامي الأول أشبه بالمصل المضاد، دفعت المسلمين للعيش في حالتي حذر ويقظة دائمتين، وعززت وحدتهم الداخلية، واستدرجت هؤلاء إلى مواقف مزرية ومهينة، ثم ضعف خطرهم وعاد إلى الصف كثير من شيعتهم نادماً تائباً، مما أثبت وجهة نظر الرسول الكريم في عدم أخذهم بالعنف.

وقد تميزت أساليب النفاق بالتظاهر بالنصح، والحرص على مصلحة الدعوة، ونشر شائعات الخوف والسخرية في مواقف الجد،

والتواري عن الصفوف في أزمة المعارك والصدام، وتأريث الصراع بين أجنحة الدعوة، واعتماد مؤسسات الدعوة ذاتها كالمسجد لإخفاء كيدها وتدبيرها.

وفي أواخر السنة التاسعة ضعف شأنهم، حتى بقيت لهم بقية مارست دورها في حركة الردّة ثم في حركة الفتنة ضدّ عثمان رضي الله عنه التي زعزعت أركان الدولة الراشدة.

ثالثاً: الحركة الإسلامية الحديثة

تشكّل حركة الإخوان المسلمين في العصر الحديث امتداداً عملياً للدعوة الإسلامية الأولى، فهي باعتبارها قاعدة التحرّك الإسلامي الصحيح في مواجهة تحديات الجاهلية والردّة في هذا العصر، تعتبر مواقفها وآراؤها ومنجزاتها منطلقة من ذات الرؤية السابقة للسيرة النبوية الكريمة، وتعتبر بالتالي جزءاً هاماً من الخبرة المكتسبة تضع في يد كافة القوى الإسلامية وأجيال الجماعة في العصر الحديث بوجه خاص إمكانيات تطبيقية وفكرية وتنظيمية وحركية كبيرة لتواجه بها من خلال التعامل المباشر مع الواقع، مواقفَ الأعداء المتربصين، وتتخذ بإمكانياتها المتوافرة لديها مواقف جديدة متقدمة للوصول إلى الهدف ذاته الذي وصلت إليه الدعوة في مسيرتها الأولى وهو الدولة المسلمة، والذي لايزال هدف العمل الإسلامي للجماعة في العصر الحديث بعد غايتها المستمرة الثابتة، وهي رضوان الله تبارك وتعالى. فما هي هذه الجماعة؟ وما هي خصائصها الفكرية والحركية؟ وما أهمّ مواقفها؟:

١ - مضمون دعوة الإخوان المسلمين: هي دعوة الإسلام الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، شاملة لنواحي الحياة، مهيمنة على قضايا الإنسان، مسايرة للفطرة، تجمع بين مطالب الفكر والروح والجسد، وتدعو من استجاب لها إلى النزول على حكم الله والرضى والتسليم به.

٢ - مهمتها: الوقوف في وجه الباطل متمثلاً في الموجة المادية الطاغية وحضارة المتع والشهوات، وبيان حدود الإسلام، والمطالبة بتحقيقه والعمل على تنفيذ أحكامه.

٣ - نظرتها للواقع:

تتمثل في أمراض ومشكلات أصيب بها المسلمون، في طليعتها الاستعمار (الفكري والمادي والاقتصادي) والإلحاد والقوانين الوضعية وفوضى التربية والتعليم، واليأس والخمول والجبن، والشحّ والأنانية.

٤ - مطالبها: إسلامية الحياة بدءاً من حياة الفرد، وانتهاء بإسلامية الحكم.

٥ - وسائل العمل:

أ - تربوية: تستهدف تربية الفرد والبيت والمجتمع: بالإيمان العميق والتكوين الدقيق، والعمل المتواصل لتحقيق الإرادة القوية، والوفاء الثابت، والتضحية العزيزة والمعرفة الواضحة للمبدأ.

ب - اجتماعية: تستهدف تغيير العرف العام الفاسد إلى عرف إسلامي صالح، وتحقيق القدوة الحسنة في التّمسك بالإسلام

والحرص عليه، والوقوف إلى جانب الناس في قضاياهم ومظالمهم.

جـ - تنظيمية: تعتمد على قيادة وتنظيم وجنود عاملين ومنهاج صحيح سليم.

٦ - مراحل العمل:

أ - الدعوة والتعريف.

ب - التكوين والاختبار.

جـ - التنفيذ.

٧ - مواقفها:

- من القوى الإسلامية: تدعو لتوجيه جهود الدعاة إلى جمع الناس حول محاربة ما يتهدّد المسلمين من أخطار، وقد أجمعوا على إنكارها.

- من المسلمين عامة: مسلمو اليوم إما مؤمنون يلتقون في ساحة العمل مع الإخوان، أو مترددون فيتركونهم لترددهم، أو نفعيون فليس لهؤلاء عندهم إلا ثواب الله عز وجل، أو متحاملون فيدعونهم إن قبلوا، ويدعون الله فيهم أن يهديهم إن أعرضوا.

- من الدعوات الوطنية والقومية: الإخوان يزنون كلّ فكرة بميزان الإسلام، فما وافقه فمرحباً به، وما خالفه فهم منه براء.

- من القوة: هي شعار الإسلام فلا بدّ منها، ودرجاتها: قوة العقيدة، ثم قوة الوحدة والارتباط، ثم قوة الساعد والسلاح. والقوة

في درجتها الأخيرة لا تستخدم إلا عندما لايجدي سواها، ولا بدّ قبل استعمالها من استكمال عدّة الإيمان والوحدة، والإنذار ثم الانتظار، وبعد ذلك يتمّ الإقدام واحتمال النتائج.

- من الثورة: لا يؤمنون بنفعها ونتائجها من حيث هي مصطلح يختلف عن مدلول الجهاد ومعطياته التاريخية والشرعية.

- من الحكم: يعتبرونه فرضاً من فرائض الإسلام الأساسية، وليس من الفرعيات أو الأمور الاجتهادية، ويعتبرون قعود دعاة الإسلام عن المطالبة به جريمة لا يكفرها إلا النهوض بها.

٨ - **خطوتهم التنفيذية الكبرى:** تأتي بعد إعداد النفوس بالتربية الصحيحة، والاختبار الدقيق، والعمل الشاق، وفطم النفوس عن شهواتها، وبلوغ الصف المجاهد مستوى عددياً كافياً للمقاومة.

٩ - **تصورهم لأبعاد الطريق:** يبدأ بمشقات وعقبات من الحاقدين، وإثارة للشبهات ثم تدخل الجماعة طور التجربة والامتحان، فتواجه السجن والنفي والتشريد والمصادرة والتفتيش، حتى تنال في نهاية ذلك نصرة المجاهدين، ومثوبة العاملين، ومنازل الشهداء.

١٠ - ميزات الدعوة وتأثيرها:

- اعتمدت منهجية الفكر والتربية العملية.
- اتّصفت بالشمولية والعموم.
- فهمها للإسلام أعاد الثقة به.

- قدمت قادتـها شهداء في سبـيل دعوتها، وكان ذلـك دليلاً على قوة إيمانها بصحة الطريق، وعلى مدى صلابتها في الحق الذي تطالب به.

- كشفـت بمواقفهـا هذه خطط الأعداء في تذويب الإسـلام ونشر الروح الانهزامية.

- أكّدت ضرورة العمل الإسلامي المنظم.

- أغنت المكتبة الإسلامية بكثير من التآليف الفكرية، والسلوكية.

رابعاً: الواقع الراهن

حين يختفي مـن ساحة الصراع أحد عناصر الحركـة الأساسية التي ألمـحنا إليهـا في رؤيتنـا للسيـرة النبوية أو بـعض منهـا، فإنّ محـصلة القوى تنحرف إلى نتائج مضادة وفي الاتجاه المعاكس.

هكذا صار واقع المسلمين اليوم! تقود الـجاهلية الحديثة مبادراتها لتصفية القوة الباقية للإسلام في أرض السلام، وتستعدي عليها عناصر الردّة في كلّ بلد مسلم.

الظرف العالمي: يشبه الظرف العالمي الـيوم إلى حد بعيد الوضع الذي كانت عليـه البشرية من جاهلية في عـهد الدعوة الأول، من زيغ عن الناموس الـرباني، وهيمنة القوى الـكبرى التي تتحرك مـن خلالها الصهيـونية، آخذة حظّهـا من القوة والحركة. وتـأتي الصين الشيـوعية قوة جديدة في إطار هذا التسابق في الصراع، فتزيده حساسية وحركة. وتتقـدّم هذه القوى باتجـاه العالم الإسلامي لـتخريبه، بـاعتباره منـطقة

النفوذ المستهدفة أولاً، منطلقة من فلسطين، لتمتدّ إلى مناطق مختلفة من آسيا وأفريقيا.

غير أنّ المعركة تأخذ على أرض الواقع أشكالاً ومظاهر متبدلة، ساهمت فيها معطيات المدنية ومنجزات العلم، وانحراف الجاهلية، وأحقاد التاريخ. وأهمّ هذه المظاهر:

١ - **مظاهر على الصعيد الدولي:** وتبدو فيما يلي:

آ - تسابق الكتل الضخمة على مناطق النفوذ التي أشرنا إليها، وأبرزها دول العالم الثالث التي يشكّل المسلمون أكثرية فيها.

ب - يجري التعامل الدولي على أساس (الغلبة للقوة) ويبدو التسابق عنيفاً على اقتسام مناطق النفوذ، ولكن بمقدار مافي هذا الصراع من وحدة يشكّل في حالات أخرى متنفساً للعالم الإسلامي حين يستطيع أن يستفيد من هذه التناقضات بين الكتل المتصارعة.

جـ - وتأتي المبادىء والأفكار التي تتمثل لدى الفكر الاشتراكي ولدى الفكر الرأسمالي، واعتماد الأممية نظرة أساسية في التّصور لديهما، فتزيد من عوامل الضغط والتأثير الفكري على الواقع الإسلامي بما تلاقيه هذه المبادىء والأفكار من هوى في النفوس الضعيفة، رغم أن أيّاً من هذه الشعارات لم يعط ثمرته المزعومة، ولم يحدث الطمأنينة الموهومة، بسبب غياب الإيمان بالله تعالى، وعدم التلقّي الكامل عن الله عزّ وجل في شؤون الحياة كلها. مما يؤكد أنّ ساحة الواقع مستعدة بشكل أو بآخر ليمارس الإسلام دوره القيادي الجديد باعتبارين:

- باعتباره تعبيراً فطرياً عن تطلعات الإنسانية، وفي أوسع مداها لحياة أفضل وأكرم.

- باعتباره الدين الوحيد القادر على مواجهة كلّ المبادىء المنحرفة.

٢ - مظاهر عامة على مستوى العصر:

آ - سهولة انتقال الأفكار، وسرعة الاتصال بين البشر، بفضل التقدّم الحديث في وسائل المواصلات والإعلام والنشر، فكان من مظاهر تأثيره تعرّض العالم الإسلامي لغزو فكري وسلوكي خارجي مباشر شديد التأثير على مختلف جوانب الحياة، وأعطى في الوقت ذاته فرصة أفضل لأن تتحرّك القوى الإسلامية العاملة مستفيدة من هذه المعطيات.

ب - التفاوت الاقتصادي المتمثل في ارتفاع مستوى الرفاهية لدى بعض الدول والشعوب نتيجة استثمارها للجهود العلمية المتطورة، أو استغلالها لثروات وجهود الدول والشعوب الضعيفة الأخرى، وقد نشأ عن هذا الوضع مواقف مختلفة في السياسة والأفكار، فكانت شعارات (الاستعمار - الدول النامية - مناطق النفوذ) وكان العالم الإسلامي بالذات مسرحاً لكثير من القلاقل والمشكلات والصراعات الفكرية والمذهبية، تبدو في التغيير المستمر في صيغ وأشكال الحكم وتنقلها بين موالية للغرب أو الشرق نتيجة لتبادل طغيان هذا النفوذ أو ذاك. وقد أحدث ذلك تأثيره السيء بزيادة التخلف والتدهور وضعف القدرة على المواجهة، وأنشأ تركيباً معقداً للعلاقات بين الدول المتصارعة

من جهة، كما أحدث ظواهر غريبة التـفسير من جهة أخرى، تبدو في دعم أحد الـمعسكرات لـبعض الدول في مـرحلة، والعمل ضـدها في مرحلة أخرى، ومشكلة فلسطين وغيرها من مناطق الصراع الحادة أبرز مثال على هذه الظواهر. ولابدّ من الإشارة أخيراً في هذا الظرف الذي لايزال دور الإسلام فيه محدوداً إلى الخطرين التاليين:

أولهما: أن الفكر المـاركسي رغم نكساته الـتطبيقيـة لايزال يحتلّ أهمـية فـي هذا العـصر من حـيث تطـلع الدول الـضعـيفـة والشعـوب المتـأخرة إلى مـعطياته فـي الكفاية المـزعومة رغـم أن ظواهر أهميـته وتأثـيره فـي العالـم المـسيـحي والـبوذي أسـرع ممـا هي فـي العـالـم الإسلامي.

ثانيهما: أن المظهر الرأسـمالي المتمثل في شـدّة الترف والحرص على الكماليـات، واستخدام صيغ مخـتلفة من الانتهازية والاستـغلالية في أسلوب الحـياة لايزال يحتلّ أهميـة في هذا العصر أيضـاً من حيث اعتـباره مـرضاً عالمـياً وطرازاً أمـريكيـاً وأوربياً يغـزو مناطق الضـعف الفكري والـسلوكي، ويتدفّـق سيل تأثيـره بشدة ليصـبّ أغلبه في بيـئة العالم الإسلامي باعتباره منطقة تخلف تشتدّ قابليتها في غياب الإسلام عن الـحكم والحـيـاة لهـذه الموجـات الوافـدة من مـظاهر الانحـراف السلوكي في المفاهيم والعادات والنزعات.

وتبقى في جسد الجاهلية هذه بؤر إسلامية داخل الشرق أو الغرب لها دورها المـجدي، باعتبارها رفداً خـصباً للروح الإسلاميـة الحديثة يوم يتنامى المدّ الإسلامي ليستعيد مكانته ويستردّ دياره المغتصبة.

وإذا كان لابدّ من مفاضلة في سلّم أولويات العمل الإسلامي اليوم فإن مسلمي العالم الإسلامي في رأس الاهتمام والتّوجه.

العالم الإسلامي

يشكّل المسلمون اليوم ربع سكان الكرة الأرضية (ألف وخمس مئة مليون) ويعتبر العالم الإسلامي بذلك مجالاً حيوياً للعمل الإسلامي بسبب غناه البشري وكثرة كنوزه الاقتصادية الدفينة، وامتداده الجغرافي عبر قارتي آسية وأفريقية، ويعتبر الإسلام في هذه البلاد الضمانة الأولى والأخيرة في التصدّي لمواجهة المدّ الاستعماري والصهيوني كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

١ - الحكومات: هي بين حكومة مصنوعة بغرض استئصال الإسلام من البلاد، أو ذات مظهر إسلامي لكنه قاصر فكرياً وحركياً وسياسياً عن استيعاب طبيعة العصر لمواجهته إسلامياً بما يكافئه من المواقف والإنجازات، أو ذات مظهر وطني خاضع لضغوط أجنبية ثقافية وسياسية، ويكاد يكون هذا النموذج قاسماً مشتركاً في كثير من الحكومات المحسوبة ظلماً على المسلمين.

ويكاد يكون أكثرها قد وصل إلى السلطة بأسلوب القهر والبطش والخداع والتضليل، والتظاهر بالاهتمام بمصلحة شعوبها ورفاهيتها.

أمّا مواقف الجماعة تجاه هذه الحكومات فهي مرتبطة بمقدار عداوتها للإسلام من جهة، أو الاقتراب منه من جهة أخرى، وبمقدار المواقف المعوّقة لسير العمل الإسلامي إلى هدفه من جهة ثالثة.

٢ - الشعوب: تتفاوت في مدى الوعي رغم أنّ الخط البياني يوحي بازدياده بفضل الأحداث والحركات الإسلامية في العصر الحديث.

وموقفنا الدائم: هو مع هذه الشعوب ضدّ الذين يمارسون عليها الظلم والقهر والاستبداد.

٣ - الجماعات والحركات الإسلامية: لايكاد يخلو قطر إسلامي من وجود منظمة إسلامية تتفاوت في الوعي والتنظيم، ولكن أغلبها يتّسم بما يلي: - ترفض الواقع المتخلّف - تستهدي روح الشريعة - تجاهد لتحكيمها.

المواقف المطلوبة: دعم المساعي المبذولة قديماً للتعارف والتعاون وتبادل الخبرات وتعميم الكفاءات وتوحيد الخطط بدءاً من الصعيد الإعلامي وانتهاء بالتلاحم العضوي (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد...) والمهم أن تجري هذه المحاولات في إطار الحيطة والتعقل، وبوسعنا أن نطرح خطوطاً عريضة للتحرّك على صعيد العالم الإسلامي أهمها:

١ - محاربة الروح الإقليمية والعنصرية وتحكيم معيار التقوى في كلّ مشكلة (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم).

٢ - محاربة الصراع المختلق بين الأقطار الإسلامية وتحبيذ خطوات التقارب والتعاون مالم تكن بقصد ضرب العمل الإسلامي.

٣ - الدعوة لنصرة الأقطار المضطهدة، والعمل على تحريرها من

المستعمر.

٤ - تبنّي قضية فلسطين بالمفهوم الإسلامي الذي يؤكّد على أنّ أسلوب الجهاد يبقى الوسيلة الصحيحة والوحيدة لإعادة الحق الشرعي للمسلمين في سيادتهم على كلّ بلادهم وإدارة أمورهم بأنفسهم. فضلاً عن حرمة هذه الأرض وكونها محركاً عاطفياً لمشاعر المسلمين، وكشف مساعي اليهود الرامية إلى التسلل للعالم الإسلامي.

٥ - محاربة الدعوات الضالة والمنحرفة كالقاديانية والبهائية والماسونية وما إليها.

٦ - رفض الأحلاف والنفوذ الأجنبي.

٧ - الدعوة إلى تطوير الأقطار الإسلامية علمياً وصناعياً وتجارياً.

٨ - الدعوة للحفاظ على الثروات المحلية وفضح الاستغلال الأجنبي والاحتكارات.

٩ - رفع شعار استثمار موارد البلاد ذاتياً وتنميتها، والمطالبة بالعدالة الإسلامية في التوظيف والتوزيع والاستخدام.

١٠ - الدعوة إلى إقامة وكالة أنباء إسلامية متحررة من وصاية الدول، وتطوير أجهزة الإعلام الإسلامية.

١١ - المشاركة في المؤتمرات الإسلامية الشعبية، والسعي للاستفادة من هذه المؤتمرات المقامة بإشراف الحكومات ولدفع الأضرار الناجمة عنها.

١٢ - دعم قضايا التحرر باعتبارها حقاً إنسانياً يحترمه الإسلام الذي يمنع الظلم والقهر ولا يقرّهما.

١٣ - محاربة الدعوات المشبوهة الرامية إلى الحدّ من نمو السكان بحجة محاربة التخلّف الاقتصادي.

العالم العربي:

تكاد تتشابه أوضاعه مع أوضاع العالم الإسلامي.

الحكومات: أغلب الحكومات ابتعدت عن الإسلام، وفُرضت على شعوبها بطرق مختلفة، وتختلف في تركيبها ومدى عداوتها للإسلام والمسلمين: فهي إما معادية للإسلام بالجهل أو بالتبعية للأجنبي، أو حزبية عقائدية تستهدف القضاء عليه، أو طائفية عقائدية تستهدف القضاء عليه كذلك.

أما المواقف الخاصة للحركات الإسلامية بكلّ قطر: فذلك يخضع لأسلوب الحركة المناسب زماناً وظرفاً وإمكانية.

الشعوب العربية: غالبيتها مسلمة تخالطها أقليات عرقية ودينية قديمة ومستحدثة، ولهذه المخالطة أثر كبير في البنية الاجتماعية.

والموقف العام منها مايلي: نحن دعاة وحدة إسلامية، قيمة العرب من خلالها أنهم المرشحون قبل غيرهم اليوم لاستئناف المسيرة الإسلامية بما يملكون من لغة القرآن وإرث الإسلام والموقع الهام انطلاقاً من الدولة الإسلامية في القطر ومروراً بفلسطين، وانتهاء بوحدة الوطن العربي وتعاون العالم الإسلامي، ثم برفع راية الإسلام

على أنحاء المعمورة.

أما مخطط العمل السياسي على الأرض العربية فيضم الأحزاب التالية: تقليدية مصلحية في طريق التلاشي، وحزبية طائفية تفرض سيطرتها في بعض المناطق، وحزبية عقائدية أو قومية في مناطق أخرى.

يضاف إلى ذلك أن أثر الاستعمار الغربي في تحجيم الكيانات السياسية أحدث تفاوتاً اقتصادياً كبيراً بينها، فالدول النفطية تختلف في مستواها اختلافاً كبيراً عن غيرها، فضلاً عن أنّ الأوضاع الدولية تفرض وجوب تقنين استخراج النفط وتوسيع استثمار منتجاته لصالحها قبل مصالح الدول التي ينبع من أرضها.

وأخيراً لابدّ من الإشارة إلى أنّ هجرة الفنيين والعلماء تشكّل ظاهرة خطيرة على مستقبل المنطقة، وتعتبر دليلاً على التفريط الشديد في حقوق هذه الأمة على أبنائها المتفوقين في تسخير قدراتهم داخلها، وخاصة أصحاب الخبرات الفنية من الإسلاميين الذين يمكن أن يكون وجودهم تدعيماً لمسار الحركة الإسلامية، ولجهود الأمة ونهوضها في مواجهة أعدائها من خلال ذلك.

ومن أهمّ المواقف تجاه هذه الشعوب: أننا مع الشعوب العربية المسلمة. ولتوضيح معنى الشعوب (المسلمة) لابدّ من ذكر السمات التي اقتضت تسميتها بذلك وأهمها مايلي:

- تحمل رصيداً من العواطف الإسلامية القابلة للحركة.

- ترفض الانسلاخ عن الصفة الإسلامية.

- تعتزّ بتاريخها الإسلامي ولاسيما سيرة الرسول (ﷺ) وخلفائه الراشدين.

- تعتبر الشعائر الإسلامية مقدسة ولا تسمح بالتطاول عليها، وتبدي رضاها عند المطالبة بالحكم الإسلامي.

- أخفقت الأحزاب العلمانية والضالة والمنحرفة في كسب ودّ هذه الشعوب.

- يتطوّر وعيها الإسلامي باستمرار إلى الأفضل، ومن ثم فلا ينبغي أن توصم هذه الشعوب بوصف الجاهلية.

فلنميز بين المنحرفين عن عمد من أتباع الأحزاب والسلطات المعادية، وبين أهل الغفلة والشهوة والجهل، ولطالما استغلّ الطغاة أقوالاً منسوبة لدعاة الإسلام لاستعداء هذه الشعوب وعزلها عن قادتها من العلماء والمفكرين والعاملين.

وانسجاماً مع موقف دعم هذه الشعوب تجاه محاولات الإبعاد عن الإسلام، فإنّ مواقف الجماعة المتخذة مع شعوب العالم الإسلامي هي نفسها مواقفها في العالم العربي مع شعوبه تجاه حكوماته. ونضيف إليها مايلي:

١ - دراسة ورصد نشاط المؤسسات والنقابات والاتحادات العربية ومحاولة الإفادة منها، وفي مقدمتها وكالات الأنباء ولجان الدفاع عن حقوق الإنسان.

٢ - الدعوة إلى تطوير مرافق الحج والتبليغ في صفوف الحجاج

للتوعية بما يصيب ديار الإسلام المضطهدة ورجاله المعذبين.

٣ - اتخاذ الصحف الإسلامية والمؤتمرات الإسلامية منابر ونوافذ للعمل الإسلامي الواسع بالمشاركة والمطالبة.

٤ - الدعوة إلى زيادة الاهتمام بالجامعات الإسلامية، وإنشاء اتحاد خاص بها للتعاون العلمي والتخطيط وتبادل الخبرات.

٥ - المطالبة بإنشاء اتحاد لدور النشر الإسلامية، وإصدار مجلة الكتاب الإسلامي عن الاتحاد المذكور ولجنة إسلامية للمتابعة.

٦ - الدعوة إلى مراقبة ومكافحة وفضح ومقاطعة المؤسسات الأجنبية ذات الخطر على الإسلام والمسلمين، ورصد تحركات مسؤوليها ونشاطاتهم.

٧ - المطالبة بإنشاء وكالات وصحف إسلامية ومكتب للدراسات الإسلامية.

٨ - المطالبة بحرية التنقل بين الأقطار.

٩ - قضية فلسطين والحل الإسلامي لها وعودة فلسطين لأهلها المسلمين، ومعالجة المشكلات الباقية على ضوء العدل والموقف السابق.

كانت جماعتنا سبّاقة إلى الجهاد في سبيل استنقاذ فلسطين على هذا المبدأ، والجماعة تؤكد اليوم فشل المنطق القومي الشوفيني والماركسي والأجنبي في حلّ المشكلة، ويخطىء كلّ من يعالج المشكلة في غير إطارها الإسلامي الواسع.

فقضية فلسطين مشكلة دينية ذات أعماق وأبعاد تاريخية لدى المسلمين وأعدائهم، ولا تجدي معالجتها بتجاهل هذه الأبعاد والأعماق التي تغور فيها جذور المشكلة.

ولا يغيّر من ذلك تعاظم القوى التي تدعم الباطل، فإنّ ذلك دليل وجهة نظر الحق (لا يغرنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد).

وخطة الجماعة تجاه هذه القضية تقع على مستويين:

١ - على المستوى النظري: اعتبار قضية فلسطين قضية الجماعة الإسلامية ولابد من تحريرها.

٢ - على المستوى العملي: - إحياء القضية وفق النظرة الإسلامية بمختلف الوسائل.

- تحديد مواقفنا من الدول والأحزاب والمنظمات على ضوء موقفها من هذه النظرة.

- تبنّي المشروع التعبوي الذي طرحته الجماعة على لسان مراقبها العام: الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله عام ١٩٥٤.

- دعوة الجماعات والشعوب الإسلامية العربية لأداء واجبها تجاه فلسطين.

- الدعوة والعمل لإعداد الأجيال الناشئة أو الصاعدة معنوياً ومادياً، ورفض كل الحلول السلبية أو الاستسلامية أو التجزيئية أو أي صلح أو تقارب مع اليهود في المجال السياسي أو الاقتصادي أو

غيرهما. يدخل في ذلك كافة المخططات المطروحة الآن بما فيها إقامة الدولة الفلسطينية على جزء من أرض فلسطين.

القطر السوري:

تمهيد: اتخذ القطر السوري كيانه السياسي المنفصل عن العالم العربي والإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية، وفرض الانتداب الفرنسي عليه فهيأت فرنسا التربة السياسية لتأصيل انفصاله أو عزله، فاعتمدت وضع مقاليد الجيش والسياسة في أيدي من تربّوا على مفاهيم المدنية الغربية، ومكنت لجذور الأقليات في هذا القطر حتى جنى الغرب ثمار جهوده هذه في اصطناع نظام للحكم عجيب، يحشد كل قواه وجهوده في إيذاء المسلمين وخدمة أعدائهم.

١ - الوضع السياسي

وصلت إلى السلطة الحاكمة منظمة حزبية طائفية فكرية بعد حلقات متسلسلة من الانقلابات الفردية العسكرية والتحالفات السياسية، جمعت بين ديكتاتورية الفرد وتنظيم الحزب والطائفة.

آ - حافظ أسد

ضابط علوي في سلاح الطيران، توصل إلى الانفراد بالحكم والتخلّص من منافسيه داخل الطائفة وخارجها بدعم من مخابرات خفيّة وقوى أجنبية تمكّن له في الطائفة وتفرضه على القطر وتحميه. يستعين الآن بأشقائه وعائلته وأقاربه وطائفته وبقية الأقليات العرقية والطوائف الأخرى، أمّا الذين يعملون معه من المحسوبين على أهل

السنة فهم بين رجلين: رجل رضي أن يكون واجهة وَتُقْضى الأمور من دونه، مقابل منفعة رخيصة أو ثمن بخس، ورجل متواطىء معه على المسلمين، مُظاهرٌ له على دين الله وشرعه.

وضع في أيدي المقربين منه مصالح القطر واقتصاده، فأثروا وصار هو ومن حوله من أغنياء العالم المعدودين.

ب - الطائفة العلوية

هي إحدى طوائف الأقليات، تعلن عن صلتها بالشيعة، لايزيد تعدادها عن ١٠٪ من سكان القطر، زجّت برجالها في الجيش والأحزاب العلمانية حتى وصلت إلى السلطة، كان أحد زعمائها سليمان المرشد قد ادّعى الألوهية وشايعه قسم من الطائفة، ولكن الوضع الاستقلالي الجديد لم يحتمله فانتهى أمره.

يساعد معظم أبناء الطائفة رئيسها السياسي حافظ أسد، رغم ما يحدث بين عشائرها ورجالاتها من خلافات في وجهات النظر، وتمدّ يدها إلى الأقليات، إذ إنّ هذه الطوائف والأقليات رغم عداوتها للعلويين لا يمنعها ذلك من التعاون معها.

تحميها تنظيمات عسكرية خاصة، ويحتلّ رجالها المراكز الحساسة في الجيش والدوائر الرسمية ومؤسسات المال والتجارة والتربية، وتشجّع بذلك على الاختلاس والرشوة والتجارة بالمحظورات والمخدرات، حتى شملت الشبهات الوجوه السياسية البارزة منها.

جـ - حزب البعث الحاكم

حزب قومي أبرز مؤسسيه في نظر رجال السلطة الحاكمة في سورية زكي الأرسوزي، أغلب عناصره من الأقليات، ويشكّل العلويون الآن مراكز القوة فيه، له امتدادات خارج القطر السوري، في العراق والأردن ولبنان، ويعاني من انشقاقات داخلية وصراع حاد على السلطة. وقد أصبح اليوم بؤرة للانتهازيين والعملاء، وأداة مسخّرة للحكم الطائفي.

انحدرت أصوله الفكرية من الجمعيات والمنظمات التي عملت على حرب الدعوة الإسلامية والحكم الإسلامي، وصارت مهمة هذا الحزب تكريس هذه التجزئة في بلاد المسلمين. مؤسساته ومنظماته هياكل تتجسّس على المواطنين وتنشر الفجور وتمتهن الرشوة، وتشجّع على الفساد باسم التحرر والمدنيّة.

د - الجبهة التقدمية

اصطنعها الحزب الحاكم ليضفي على سلطته السياسية الديكتاتورية طابع الديمقراطية، وتضمّ الأحزاب السياسية غير الإسلامية ومن يشارك في السلطة يتحمّل مع الحزب الحاكم مسؤولية تخريب عقيدة الأمة والمتاجرة بمستقبلها ووجودها لمصالح الأعداء شرقاً وغرباً. وهذه الأحزاب المشاركة هي:

الشيوعيون - الناصريون - الاشتراكيون العرب - أما الوحدويون فقد أعلنوا اندماجهم في الحزب لوحدة المنابت الفكرية السابقة.

أما الحزب القومي السوري: فهو حزب إقليمي أسسه (أنطون سعادة)، واستهدف عزل سورية عن العرب والإسلام، والتفّ حوله كثير من المسيحيين والعلويين في سورية ولبنان. ليس له صلة بالسلطة ظاهرياً، رغم وجود دلالات تشير إلى صلة خفية بين القوميين السوريين، وحزب البعث الحاكم. ومجموع هذه الأحزاب ضعيف التأثير في المجتمع، وتغلب على عناصرها المنابت المنتمية للأقليات. ودراسة هذه الأحزاب تفصيلاً مهمة ينبغي تنفيذها على أيدي مختصين يتابعون رجالها ونشاطها وصلاتها وأفكارها.

٢ - الشعب في سورية:

الأقليات والطوائف: إذا أضفنا إلى هذه القوى السياسية المنحرفة النشاط التبشيري والفكري المناهض، ونشر مظاهر الفساد الخلقي والتجسس لحساب الدول الأجنبية، مما يعتبر رأس جسر للجاهلية الحديثة؛ تصبح الصورة أقرب إلى الوضوح؛ إذ نرى هذه البلاد غدت نهباً للحاقدين على الإسلام من كل جنس وفكر ولون.

أما الأقليات المسلمة غير العربية فهي:

- التركمان وهم أقرب وأفضل تقبلاً للإسلام من غيرهم، ويمثلون وجوداً في مناطق العلويين.

- الشراكسة: مالوا إلى الدّعة والترف، فسقط بعضهم في طغيان الأفكار المادية والشيوعية، وكادت تزول من أذهانهم مآثرهم الإسلامية في مواجهة القيصرية والشيوعية.

- أما الأكراد: فوزنهم السياسي يشغل بال السلطة، وخاصة بعد نمو فكرة القومية الكردية نتيجة ردّ الفعل القومي الذي أحدثته العصبية القومية والتأثير الماركسي. عدد الأكراد في سورية كبير، أما بقية الأقليات غير العربية فليس لها وزن كبير. وينبغي دراسة هذه الأقليات ومتابعة أوضاعها مثلما أشرنا إليه سابقاً.

٣ - ولا بدّ من التعرّض لأهمّ آثار هذا الواقع السياسي على المسلمين في القطر:

آ - في المجال الداخلي:

يتردّى الوضع الداخلي بانحدار شديد، ويتجلّى ذلك واضحاً في: تقهقر الإنتاج، وكثرة الرشوات والفضائح المالية والخلقية، وتعطيل أجهزة الرقابة، والتجسس والصراعات، وتدهور نقدي خطير، وفساد الأمن، وزوال الطمأنينة، وتضارب الإشاعات، وارتفاع الأسعار، وانتشار التهريب، وفقدان الثقة، والإقبال على الفساد والشهوات، وتردّي وضع الموظفين المخلصين، وكثرة مشاهد المتملّقين والمقرّبين والمنافقين، حرصاً على لقمة العيش، وضماناً، للدخل المرتفع.

ب - في المجال الخارجي:

١ - العسكري: توّجت هذه الطغمة المتسلطة جهودها في خدمة العدو بحروب ومظاهرات عسكرية حققت فيها تراجعاً وانهزاماً رهيباً على المستوى الاستراتيجي، فسلّمت مرتفعات الجولان ذات السيطرة

الاستراتيجية البارزة على الجبهة الجنوبية للقطر مع الصهيونية، ومرتفعات جبل الشيخ التي تتحكّم بالنظر والردع في أشدّ أعماق الأرض السورية، وصارت المنطقة الجنوبية منذ حرب عام ١٩٦٧ وحتى الآن تحت رحمة المدافع والمراصد الصهيونية. بالإضافة إلى عدد كثير من الأراضي والقرى السورية استولت عليها الصهيونية في حرب ١٩٧٣ الماضية. كما أثبتت على المستوى التعبوي تخاذلها المريع في مواقف المجابهة، فكانت مشاهد الهرب والتراجع مثار سخرية الأعداء، وخجل الأصدقاء، كشفت عن ضعف البنية النفسية والروحية للمقاتل السوري الذي تربّى في أحضانهم، وعلى العكس عرضت صوراً من بطولة النماذج الإسلامية التي اقتضت الظروف أن تشارك محتسبة عملها هذا جهاداً في سبيل الله، فكان لبطولاتها أثر هام جداً على قلة عددها وعدّتها في صدّ هجوم العدو وإعاقة تقدمه، استفادت السلطة من هذه المواقف فبادرت إلى نسبة ذلك إلى جهودها ومهارتها.

٢ - **السياسي:** لم تتقدم بشعاراتها المزيفة نحو أي تقارب سليم صحيح في المجال العربي أو الإسلامي، وكلّ ما بذلته في هذا المجال خطط تخريبية سواء على مستوى الاتحاد الثلاثي والاتحاد مع الأردن.

فقد كشفت أبعاد التلاقي عن اتفاق خطير ضدّ مصلحة القضية الفلسطينية، بدا في حوادث لبنان الأخيرة إذ انتهت مرحلتها الأولى بدعم الأحزاب الطائفية في لبنان، ومرحلتها الثانية بتصفية القوة

الفلسطينية، والتهيئة لمرحلتها الثالثة في استقرار الوجود اليهودي، وتوفير حالة الأمن الدائمة حوله، لتتمكّن اليهودية من ممارسة دورها التخريبي بجدارة في كلّ من آسيا وأفريقيا.

هذه الهزائم العسكرية والتخاذل السياسي، والتخريب الداخلي، تركت آثارها في نفسية الإنسان المعاصر في هذا القطر، وكانت محصلة ذلك، ازدياد مظاهر الخوف والاستخذاء والخضوع وفقدان الأمل في الإصلاح، والميل إلى الشهوات والاحتفالات، كلّ ذلك تجمعه كلمة (الوهن): حبّ الدنيا وكراهية الموت.

وكان من أهم آثار هذا الوضع السياسي على الإسلام ودعاته، أن اعتبرت هذه البلاد منطقة مفتوحة لكلّ الأفكار الوافدة المنحرفة، والعادات الجاهلية؛ وأصبح استئصال الإسلام وحركاته العاملة أهمّ مسوغات بقاء هذا الحكم الطائفي البغيض.

ولذلك ما برح هذا الحكم يلاحق هذا التيار الإسلامي المتصدي للطغيان والانحراف والتبعية. ويحتال لاقتناص رجاله بالسجن والقتل والمطاردة، كما صادر الأموال وأصدر الأحكام العرفية الجائرة، واستخدم أبشع أساليب المساومة الرخيصة لإبعاد هذا التيار عن ساحة المعركة وإخضاعه لمخططه في تصفية الوجود الإسلامي المعارض.

وهو لايكاد يفرج مضطراً عن فوج من العاملين بعد طول اعتقال وتعذيب، حتى يلجأ من جديد إلى ارتهان مجموعات جديدة من هذا الشباب المجاهد، متذرعاً بأسباب ومناسبات مصطنعة، ويعتقل على الظن والشبهة، ويعذّب الطفل والبريء ليصل إلى هدفه في خنق

صوت الحركة وعزلها. ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره وينصر دينه.

٤ - القوى الإسلامية:

آ - العناصر ذات الصلة الوظيفية بالسلطة من موظفي الأوقاف الإسلامية والمساجد، فعلى الرغم مما ينتظر أن يقوم به هؤلاء في المجال الإسلامي الاجتماعي والفكري بوجه خاص، فإنّ دورها محدود في إطار رغبة السلطة وتعليماتها إلا ما كان منها صاحب التزام بجهة إسلامية أخرى.

ب - الجماعات الصوفية وأتباع العلماء: يمثل أغلبهم ردّة الفعل السلبية لمعطيات المدنيّة الحديثة، واندفاعاتها الشاذة في الفكر والسلوك، اكتفوا من الإسلام بالتزكية والخلوة ومعالجة الباطن في عزلة عن التماس بالواقع المرير، وكان أثر البعض في مجال التربية والعلم والفهم والعمل مفيداً ورائعاً.

وتبدو على بعضها آثار يقظة ووعي نتيجة التماس مع العناصر الإسلامية ذات الطابع التنظيمي نتيجة الاطلاع على الآراء الإسلامية التي تسود ساحة العمل الحركي، وهي بشائر يرجى منها فعالية ووضوح أكثر في المستقبل، وتدعو للحوار الهادىء مع الصادقين والمعتدلين منهم.

جـ - الجماعة السلفية: تمثل ردّة الفعل السلبية كذلك لمظاهر غريبة اعتبرت من أصول الدين عند بعض العوام من المسلمين، تتمثل في التّمسح بالقبور والنذور لها، وردّة فعل سلبية كذلك لبعض

المواقف من غلاة الصوفية. إذ تتجه لتحري النص الشرعي، والوقوف عند الأثر. ولكنها في سعيها وقعت في إثم تكفير من لا يجاريها فيما تذهب إليه من التقيّد بموقف خاص متشدّد من القضايا الفرعية الخلافيّة، وتصرّ على جعلها من جوهر الدين وأساسه، وتفاضل بين المسلمين على أساسها، مما كان سبباً في نشأة خلافات مذهبية كان من الأولى بذل الجهود في جمع المسلمين وتوجيههم إلى ماهو أجدى على الإسلام والمسلمين.

إذ ليس أمراً مقبولاً أن نختلف في أمر الأذان وعدد درجات المنبر، بينما تجرى تصفية الإسلام على يد الجاهلية والردّة كي لا يبقى أذان ولا منبر.

د - جماعة التبليغ: منشؤها في الهند، ولها أتباع في سورية وغيرها، تمارس التبليغ في المساجد والسياحة في الأقطار والأمصار بأسلوب الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب وإثارة العواطف دون التصدي لتحديد المشكلات التي تعيق تقدّم العمل الإسلامي ومعالجتها. ولا ينكر أثر الجماعة الإيجابي في عملها رغم محدوديته.

هـ - حزب التحرير: تنظيم إسلامي نشأ مع بداية الخمسينيات ومجمل أفكاره مايلي:

- المعول عليه في العمل: العقائد والأفكار والأنظمة ولا دور للأخلاق.

- الحركات الإسلامية الأخرى بنظر الحزب أنها لم تستطع إقامة

الدولة المسلمة خلال ثلاث وعشرين سنة. «ويحسن أن يقال هنا: مع أنه قد مضى على قيامهم أكثر من هذه الفترة فلم يستطيعوا ذلك».

- العمل الثقافي والسياسي يعيد الثقة بالإسلام.

- مراحل العمل عند الحزب: التثقيف - التفاعل مع المجتمع - الانقلاب الفكري.

تقويم الحزب:

- اعتماد الفكر وسيلة لبناء الشخصية الإسلامية جعل نشاط الحزب جدلياً.

- الواقع العملي مليء بالعقبات والابتلاء، ولا بدّ من التربية والإعداد، أما التثقيف وحده فلا يكفي.

- نتيجة هذا الفهم وقع الحزب في آراء فقهية غريبة، مثل جواز تقبيل المرأة الأجنبية، والنظر إلى الصور العارية وغيرها، وله آراء شاذة ومنكرة في الجهاد.

ورغم ذلك فالإخاء والحوار المشترك سبيل جيّد للوصول إلى الفهم المشترك في حدود الشرع وتوجيهاته مع كلّ هذه القوى.

و - الإخوان المسلمون: أهداف هذه الجماعة ومبادئها فضلاً عن غايتها سبق ذكرها في قسم الخبرة المكتسبة، أما عن الجماعة في هذا القطر فهي أكبر الجماعات العاملة للإسلام فيه، وقد أنجزت عدداً من المهمات تحتسبها عند الله تعالى. مثل:

- خوض حرب فلسطين ١٩٤٨ واعتبارها مع قضية المطالبة

بالحكم الإسلامي أهم قضاياها.

- إسهامها الواسع في تعديل البرامج التعليمية والتربوية إسلامياً، تلك التي تراجعت عنها السلطة في هذه العهود المظلمة اللاحقة.

- إحباط المؤامرات والمخططات الموجهة ضد الإسلام والمسلمين، كالعلمانية والماركسية والتبشيرية على صعيد المجالس النيابية، والتظاهرات الشعبية والنشاط المسجدي وتأليف الكتب والنشرات، ولعلّ أكبر إنجاز حققته هو تربية جيل من الدعاة والعاملين على مختلف المستويات، لاسيما على صعيد المثقفين والطلاب، وتوّجت ذلك كله بإنشاء كلية الشريعة في جامعة دمشق.

لقد مرّت هذه الجماعة الراشدة بعدّة مراحل من الضعف والقوة في صفوفها الداخلية، وفي مجال توسع انتشارها بين فئات المجتمع، وقد تعرضت في القطر السوري إلى هزتين داخليتين كبيرتين:

الأولى: في الخمسينيات تجاوزتها بسرعة وعادت أقوى صفاً بعون الله وتأييده.

والثانية: في السبعينيات عطّلت مسيرتها إلى حد ما وهاهي ذي تستأنف المسيرة معتمدة على الله عز وجل، تستفيد من خبراتها وتجاربها، وتعالج ظواهر الضعف لديها باعتبارها مظاهر عارضة تنتاب الجسم الحي في بعض الظروف، ليعود أقوى مناعة وأصلب عوداً ومقاومة بإذن الله تعالى.

وهي تتوّج خطواتها الجديدة بهذه الخطة التي سيعقبها خطوات

أخرى إن شاء الله تعالى. إن لم يحدث ما لم يكن في الحسبان، تتجاوز فيها مرحلة الارتجال إلى التخطيط والتنفيذ بالعمل الجاد المخلص، والتكوين السليم والوعي الكامل بإذن الله تبارك وتعالى.

❋ ❋ ❋

القسم الثاني

الغاية. الهدف. الوسائل. المراحل والمشكلات والمواقف والحلول.

١ - **الغاية:** رضوان الله تبارك وتعالى.

٢ - **الهدف:** الدولة الإسلامية باعتبارها الهدف الأساسي. علماً بأنّ الخطة تتضمن أهدافاً مرحلية، نشير إليها عند الحديث عن المراحل وما تتضمنه من مهمّات.

٣ - **الوسائل:** النظام واللوائح - التبليغ ونشر الدعوة - الخطط الفرعية والفنية المختلفة -المناهج- الأجهزة والمؤسسات - التربية والتكوين - الجهاد.

٤ - **المراحل:** وهي ثلاث: الإعداد - تطوير القوى - التنفيذ -

أ - مرحلة الإعداد: هي المرحلة التي تقوم فيها الجماعة بمهمة نشر الدعوة للتأثير في الرأي العام وكسب الأنصار وتكوين العناصر الصالحة واستكمال تأسيس الأجهزة والمؤسسات اللازمة بحيث تقوى على التحرك لمواجهة المهمات القادمة بكفاءة وجدارة، وهي مرحلة اختفاء عن أعين الأعداء ما أمكن.

ب - مرحلة تطوير القوى: هي المرحلة التي تتأكد فيها الجماعة

من قدرتها على مواجهة القوى المضادة وإبطال تأثيرها، بعد استكمال أسباب القوة والتنظيم وزيادة فعاليتها إلى مستوى أهلية الحركة الشاملة، وهي مرحلة ابتلاء وامتحان طويل المدى كثير التضحيات.

جـ - مرحلة التنفيذ: هي المرحلة التي تقوم فيها الجماعة بحركة شاملة لسيادة الإرادة الإسلامية، وإقامة الدولة المسلمة، وهي مرحلة جهاد وعمل لاهوادة فيها.

أما العناصر الباقية من الخطة وهي: المشكلات والمواقف وأساليب المعالجة فتعرض في حينها ومكانها من كل مرحلة.

ملاحظات: قبل التفصيل في الحديث عن المراحل لابدّ من تقديم الملاحظات التالية بشأنها:

(١) - اجتازت جماعتنا خطوات واسعة منذ تأسيسها حتى الآن. ولابدّ من تحديد المرحلة والخطوة التي نحن فيها الآن فهي ليست في أول الطريق حتماً.

(٢) - العمل والحركة تكاليف تبدأ بالإعداد وتنتهي بالتنفيذ، والتكاليف تزداد حسب المراحل وكل مرحلة تحمل تكاليف ومهمات المرحلة السابقة إلى جانب تكاليف ومهمات المرحلة الحاضرة.

(٣) - كثيراً ما تسير هذه المراحل والخطوات والمهمات جنباً إلى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينهما جميعاً. فالجماعة تدعو وبنفس الوقت تبني وتربي، وفي الوقت نفسه تنفذ، ولا شك أن المرحلة الأخيرة لا تظهر إلا بعد تعميم التبليغ وكثرة الأنصار ومتانة

التكوين.

(٤) – هذه المراحل يقصد بها رسم خطة الحركة للجماعة كتنظيم وقيادة، وقد ينظر إليها من خلال حركة الفرد داخل التنظيم، ولتوضيح القصد فإن المرحلة إذا ذكرت عموماً فإنها يقصد بها حركة التنظيم كجماعة إلا إذا نص صراحة على قصد رسم حركة الفرد فيها.

(٥) – إن اللجوء إلى التخطيط وتحديد المراحل والسير على هداها لا يعني عدم الإفادة من التطورات المفاجئة أو نضج بعض الشروط قبل أوانها، وفي هذه الحالة لا يكون المعيار للتسلسل والزمن ،وإنما لتحقق الشروط والمواصفات اللازمة لكل خطوة أو مرحلة، فهذه الخطة والمراحل ليست قالباً حديدياً، وإنما هي إطار للعمل يمنع من الارتجال والتخبط في ظلام التصورات.

مرحلة الإعداد

هدفها المرحلي: بناء القاعدة الصلبة.

مهماتها الأساسية: ١ – التعريف ٢ – التكوين ٣ – الاختبار.

برهان إنجازها: القدرة على تحريك الرأي العام للعمل الإسلامي والوصول بالفرد والجماعة إلى مواصفات الجندي الرباني والقيادة الراشدة والأجهزة والمؤسسات العاملة.

أولاً:- مهمة التعريف

حملت الجماعة أعباء هذه المهمة منذ تأسيسها، ولا تزال تقوم بأدائها رغم اختلاف الظروف وتغير صور الصراع واختلاف بعض

الوسائل، ومظهر هذه المهمة اليوم يعتمد على الهدف المباشر والمهمات والوسائل والأساليب التالية:

تهدف مهمة التعريف إلى إيصال مفهومنا عن الإسلام إلى الناس من حيث إنه خطاب الله للإنسان بأن يقيم أمور حياته كلها على أمر الله ونهيه بعد معرفته، فيغير الواقع المخالف على ضوء ذلك.

ثم التعريف بهذه الجماعة التي تفهم هذا الإسلام وتدعو إليه وتنظم حياتها وفق هديه، وتحميه من هوى النفس وعدوان الطاغوت وتمكّن له في النفس والواقع.

فمهمة التعريف تشمل إذن: التعريف بالإسلام وبالواقع وبالجماعة.

وسائلها:

ويتم أداء هذه التكاليف بعون الله تعالى بالوسائل التالية:

أ - بالتحرك في أماكن التجمع البشرى المختلفة بالدعوة الفردية، وأهم هذه الأماكن: مكان العمل والإقامة.

وبالدعوة الجماعية وأهم أماكنها: المسجد - الحي أو القرية - المناسبات.

ب - باستخدام وسائل النشر والإعلام الممكنة، وأهمها: الصحف والمجلات والكتب والنشرات.

ج - بكافة وسائل التعريف المتاحة.

تهدف الجماعة من خلال تحركها بهذه الوسائل إلى:

- تعزيز الثقة بالإسلام والتعلق بالأمر الإلهي.

- كشف تناقض الواقع مع الإسلام الذي جاء لخير البشرية، ووجوب تغيير هذا الواقع وفق الصورة الصحيحة لهذا الإسلام.

- التعرف على الحلول الإسلامية للمشكلات المعقدة المعاصرة ذات الصلة الوثيقة بالحياة.

وحين يتحقق مستوى مقبول من الاستجابة الفردية والجماعية بالتفاعل العقلي والسلوكي مع الإسلام، ورفض الواقع المخالف، تجري أعمال الاصطفاء الفردية لكسب الأنصار والأصدقاء. وإغناء التنظيم بالأكفياء منهم.

ومن خلال أعمال الاصطفاء هذه، يجري عرض مبادئ الجماعة وتاريخها وأهدافها وتصوراتها. وتكون مهمة التعريف قد وجدت طريقها العملي في الرأي العام حين تتحقق خطوتان:

أ - اصطفاء العناصر الصالحة لتشكيل نواة عاملة في كل تجمع بشري على وجه التقريب تتابع حركتها في مسار التنظيم الصحيح.

ب - تنوير الرأي العام تمهيداً لتوجيهه في مسار العمل الإسلامي الصحيح.

وتبدأ الصلة الفردية بالتعريف والتنوير، وبالتعامل والمعايشة للتأثير بالفكر والسلوك معاً حتى تنتهي في مرحلة التنفيذ بأن يأخذ الأكفياء في كل التجمعات البشرية صفة العضوية في بناء القاعدة الصلبة لتتولى الجماعة إعدادها وتكوينها.

تبدأ الصلة بالرأي العام بالتعريف والتنوير ثم تتبعها الخطوات التالية: التعاطف والتأثير ثم الثقة والأمل، ثم قابلية الرأي العام للحركة والاستجابة للمواقف المتخذة، ثم تتطور إلى عمل إسلامي موحّد حين يساهم الرأي العام في حركة الجماعة بأكبر طاقته، فيأخذ صفة التجمع العام المسلم، وعندئذ تقوده الجماعة وهي تتحرك إلى مرحلة التنفيذ القادمة بإذن الله ومشيئته.

مشكلاتها:

تواجه الجماعة خلال قيامها بمهمة التعريف هذه مشكلات مختلفة: منها مشكلات تتعلق بالجماعة، ومنها مشكلات تتعلق بالسلطة أو بأعداء الإسلام، ومنها مشكلات تتعلق بالقوى الإسلامية العاملة في مجالات العمل الإسلامي المختلفة:

أ - أما المشكلات المتعلقة بالجماعة: فتتمثل في مستوى الإعداد الفردي وكفاحه في مجال الدعوة الفردية، أو في مستوى الأجهزة والمؤسسات العاملة في مجال الدعوة الجماعية، وكلا هذين النوعين سيبحث بعد قليل باعتباره داخلاً في مهمة التكوين.

ب - المشكلات والمواقف من القوى الإسلامية والعاملين في الحقل الإسلامي العام:

تلتزم الجماعة تجاه القوى الإسلامية التي تلتقي معها خلال قيامها بمهمة التعريف على المستوى الفردي والجماعي بالمواقف التي أشار إليها الإمام البنا رحمه الله وأهمها ما يلي:

- الخلاف في فروع الدين لا بدّ منه لاختلاف العقول في قوة الاستنباط واختلاف الاطمئنان القلبي للرواية ما دام منضبطاً بقواعد علم الحديث.

- الإجماع على أمر فرعي متعذر ونلتمس العذر لمخالفينا في ذلك، ولا يحول هذا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير.

- الإجماع منعقد على مواجهة ما يتهدد المسلمين من أخطار، ووجوب العمل على إزالتها.

- الجماعة تجيز الخلاف في الفرعيات وتكره التعصب للرأي، وتحاول الوصول إلى الحق وحمل الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب، وفي ظروف العمل السري التي تمر بها الجماعة لا بد من اتخاذ مواقف حيطة وحذر كما يلي:

- من العناصر الواعية والمعتدلة النظيفة: يستهدى بموقف الإمام الشهيد تجاهها مع استمرار الحوار في ظل الإخاء الإسلامي، ومد الأيدي للتعاون في المجالات الفكرية والسياسية فيما لا يعيق تقدم الصف نحو الهدف، أو يعرض وحدة الارتباط الداخلي لأية هزة.

- من العناصر ذات العلاقة بأعداء الإسلام: ينبغي الحذر من حركتها وكشف حقيقة علاقتها، فإما أن تزال الشبهات ويصبح التعامل على مستوى الإخاء العام كما ذكر. أو تثبت المعلومات بيقين، فلكل موقف ما يناسبه، وقبل ذلك يجب تجنب الصدام والتشهير مع شدة

الحذر والحيطة.

ولعل المسجد من أهم نقاط التلاقي في العمل الإسلامي بين الجماعة والقوى الإسلامية والعاملين الآخرين.

ومن هنا يبدو دور الجماعة في هذا المجال مهماً إلى حد كبير، باعتباره بيئة تعريف وتعليم من جهة، ومنطقة عبور طبيعية لمعظم نشاطات العاملين في حقل التعريف الفردي والجماعي من جهة أخرى.

وإذا استطاعت أجهزة التعريف استثمار جوه الروحي والعلمي وملأه بالنشاطات الكافية المناسبة، والاتصال عن طريقه بمستويات مختلفة من الرواد، واستخدام الأساليب المختلفة في الدعوة وشمول نشاطها لأغلب المساجد في منطقة العمل، أمكن الحكم بأن مهمة التعريف نهضت بالعبء الملقى على عاتقها بجدارة.

فإذا أضفنا إليه مبادراتها في نشر الدعوة في الأرياف والقرى عن طريق مساجدها ومناسباتها والوفاء بالوظيفة الاجتماعية في مدّ يد العون لذوي الحاجة والفاقة من خلال النشاطات المسجدية ومجالس الأحياء، وكانت إلى جانب الناس في سعيهم لتحقيق مطالبهم من السلطة وأصحاب النفوذ، فإن عهداً جديداً من العلاقة الطيبة بين الجماعة والمسلمين يبشر بخير كبير، وإذا استطاعت هذه العناصر بحكم تفاعلها الحي مع المسلمين من خلال المساجد والأحياء والمهمات الاجتماعية وبقية وسائل التعريف المتاحة أن تصل بالعلاقة إلى الحد الذي تثير فيه انفعالاتهم وتفتح عقولهم على حقيقة الصراع

الدائر بين الإسلام وخصومه، وتدفعهم إلى مشاركة الجماعة في نشاطها وأعمالها والوقوف إلى جانبها في الأزمات والمواقف والمحن التي تعترض الحركة خلال سيرها لهدفها، فذلك يعتبر برهان نجاح هذه المهمة على خير وجه.

جـ - المشكلات والمواقف المتعلقة بالسلطة:

وتتمثل في كبت الحريات والوقوف أمام كل نشاط للجماعة، وكثرة محاولات تسلل عملاء السلطة للتنظيم، وتضخم المدّ الطائفي في الحكم وأجهزته، مما يدفع إلى كثير من الحيطة والحذر اللذين يعيقان الحركة عن السير الطليق، ويجعلان للعمل السري مساراً يختلف عن مسار التدفق العلني.

يتمثل موقف الجماعة من السلطة خلال القيام بمهمة التعريف هذه في مرحلة الإعداد بما يلي:

- تحتفظ الحركة بثقلها الحقيقي خفياً، ولا تزج بالعناصر غير المكلفة بالتعريف في أي عمل علني ظاهر.

- لا تدخل صراعاً مكشوفاً نظرياً أو عملياً مع السلطة، ولا يجوز أن تكشف صلة أي عمل تنفيذي بالتنظيم، وتنفذ المهمات التي تقتضيها طبيعة المرحلة من قبل أفراد يتحملون نتائجها بأنفسهم سواء بتكليف رسمي من الجماعة أو بمبادرة فردية منهم، حسب طبيعة المشكلة أو الموقف المتخذ.

- تُعتمد لغة الواقع المتعلق بأعمال السلطة على إدانة التبعية

للأجنبي، وربط عجلة الفكر والصناعة والإنتاج والاختصاص بالعدو، والتأكيد على حرية الإنسان، وضرورة التمكين لعقيدة الأمة ليستطيع المجتمع التحرك في مواجهة أعدائه.

- الانتشار في المؤسسات والدوائر وتغطية كل منها بنواة عاملة.

وفي مجالات العمل السياسي والانتخابي والنقابي: تحدد المواقف حسب طبيعة كل ظرف، وبشكل عام لا يجوز أن نقف مكتوفي الأيدي تجاه تغلغل السلطة والأحزاب المناوئة للإسلام في مجالات الحياة والتأثير في الناس دون عمل ما، ولو كان بأسلوب (أهون الضررين) و(دفع الضرر الأشد بالضررالأخف).

د - المشكلات والمواقف المتعلقة بالمذاهب والاتجاهات الفكرية والطائفية المضادة:

- تضع الجماعة أحداث التسلط الجاهلي السياسي والفكري في إطاره الصحيح خلال تنفيذ مهمة التعريف من حيث عداؤها للإسلام، والحيلولة دون نهوض المسلمين، فتكشف زيف الأفكار والمبادىء الوافدة، وتنتقد الواقع باستخدام الحوادث والتقلبات، وتتخذ من ذلك مناسبات جيدة لتحضير الأذهان وتوعية الأفكار وتعبئة الرأي العام لصالح العمل الإسلامي، وإدانة تلك الأفكار والتجمعات المعادية.

- وتحدد المواقف من التسلط الصهيوني والاستعماري: بتحليل القضية الفلسطينية وأحداث وقضايا العالم الإسلامي من وجهة نظر الجماعة دون التصريح بنسبتها إليها، وبيان موقف الإسلام من هذه

الأحداث والقضايا.

أمارات نجاح مهمة التعريف:

من حديث الشهيد سيد قطب رحمه الله عن أمارات نجاح مهمة التعريف(البلاغ) نقتطف مايلي: «إنه متى صحّ البلاغ عن الله الذي هو أول مراتب الجهاد، واستهدف تبليغ حقائق الدين الأساسية، فلا بدّ للجاهلية أن تواجه دعاته بالإعراض والتحدي، ثم بالإيذاء والتعدي، وحين يستقر الإيمان في القلب، يسعى لتحقيق ذاته في صورة عمل صالح، ودعوة إلى الله، فالإيمان (عقيدة وعمل ودعوة وبناء)، والعقبات هي العقبات والناس هم الناس ولابدّ من البلاغ ولابدّ من البناء والعمل لإزالة العقبات، ولن يكون وقع ذلك على الجاهلية بالأمر السهل» فالبلاغ والبناء لابدّ منهما معاً، وفي مثل هذا المعنى تحدث الإمام البنا رحمه الله عن العقبات، ومن قبل كان موقف الجماعة المسلمة الأولى وهي تقوم بتبليغ حقائق هذا الدين للناس في مرحلة الإعداد المكيّة، ومن هذا التصور كان قول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ يوم نزل الوحي عليه: (لم يأت أحد بمثل ماجئت به إلا عودي). ولنا أن نقول: إن مهمة التعريف قد حققت نتائجها المنتظرة في مرحلة الإعداد إذا تحقق مايلي:

١- قدرة الجماعة على القيام بمهمة التعريف وتغطية أهم أماكن التجمع البشري والاستمرار بها على الصورة المذكورة وعدم توقفها في مختلف الظروف.

٢- تحقيق علاقة وثيقة ومتينة بين التنظيم- من خلال العاملين في

حقل التعريف- وبين الرأي العام المسلم- من خلال العناصر والقوى العاملة فيه- تبدو فيها قدرة الجماعة على تحريكه في المواقف الهامة وقدرته على الاستجابة السليمة المقبولة لمواقف الجماعة.

٣- انتقاء الأكفياء من أغلب التجمعات البشرية وتهيئتهم فكرياً وسلوكياً لإغناء التنظيم بهم كعناصر مؤهلة للالتزام، وللوفاء بمتطلبات العمل في مرحلة الإعداد والقيام بمهمة التكوين التي سنبحثها فيما يلي:

ثانياً: مهمة التكوين

تهدف مهمة التكوين إلى بناء قاعدة إسلامية منظمة تملك إمكانيات الحركة لتنفيذ مخطط الجماعة في الوصول إلى الهدف الأساسي، وهو سيادة الإرادة الإسلامية، وإقامة الدولة المسلمة.

مواصفات هذه القاعدة:

قوة الاعتقاد والتصور، التزام أحكام الإسلام، التربية العالية، الطاعة والولاء الكاملان للجماعة، الحركة الذاتية المستمرة، الوعي والجدية.

عناصر هذه القاعدة ثلاثة:

البنية الفردية (التكوين الفردي)- الأجهزة والمؤسسات، القيادة.

تعتمد مهمة التكوين على وسائل أساسية أهمها أربع: الخطة، والنظام واللوائح، والمناهج وأساليب التربية، والإعداد.

فالمناهج وأساليب التربية تتعلق بالبنية الفردية، والخطة والنظام

تتعلق بالبنية القيادية وأجهزة ومؤسسات الجماعة.

آ- البنية الفردية: (الفرد المسلم والأسرة المسلمة)

١- تأتي قضية البنية الفردية في طليعة اهتمامات الجماعة خلال قيامها بمهمة التكوين، وعلى مقدار سلامة البناء الفردي نستطيع أن نحكم على سلامة البناء التنظيمي، سواء في مجال بناء الأجهزة أو البناء القيادي بشكل عام، لأن الوفاء بالتزامات هذه الأجهزة والمؤسسات لايتم مالم تعتمد على البنية الفردية الصالحة.

وهكذا فالمربي والمدرب هما عنصرا التكوين الأساسيان في هذا المجال، وبالتفاعل مع المناهج الصالحة، واستخدام أساليب التربية الإسلامية، ينبغي أن يتحقق نتاج تكويني يبدو فيه الفرد المسلم الملتزم جندياً ربانياً يتصف: بالإيمان العميق، والالتزام الدقيق، والإرادة القوية، والتعلق الدائم بالدعوة، والتضحية بالنفس والمال، والمعرفة الواضحة للمبدأ، وحسن التصرف في المواقف، والاستجابة لمصلحة الدعوة، وتحقيق التوازن بين مطالب الروح والفكر والجسم من وجهة نظر الإسلام.

وتبدو قيمة التكوين الفردي وأهميتها بشكل واضح خلال المراحل القادمة، إذ تقضي سنة الله في الدعوات أن يمتحن رجالها بعد أن يعلنوا التزامهم بها، فمن كان تكوينه وإعداده متيناً في مرحلة الإعداد، اجتاز الصعاب بفعالية وعزم، وكثيرون هم الذين تصدروا العمل في فترات الراحة ثم تراجعوا في مرحلة الشدة، ذلك أنهم لم يستعدوا لمرحلة امتحان طويل المدى كثير التضحيات تبدو نذرها ماثلة أمام

البصير ذي الخبرة والتجربة.

٢- يعتبر إعداد البيت المسلم أمراً تكليفياً يقع على عاتق الفرد المسلم الملتزم وعلى عاتق الجماعة التي تدعمه بتأمين الوسائل الممكنة وتطويرها وتقديم كل عون مساعد لرفع مستوى الأهلية ليصبح جديراً بشعار (البيت المسلم محضن التجربة الإسلامية النموذجية في مرحلة الإعداد)، ونجاح الأخ الملتزم رجلاً أو امرأة في إعداد بيته على الصورة المطلوبة دليل تحقيق الصفات الفردية المطلوبة فيه إلى حد كبير، وفي سبيل الوفاء بكل هذه الالتزامات لابدّ من وقفة بشأن المناهج على أنها أهم الوسائل التربوية والتكوينية.

آ - المناهج الخاصة بمهمة التعريف: تستهدف:

١- توسيع دائرة الأنصار والتأثير في الرأي العام إسلامياً، واستيعاب العلوم الشرعية الأساسية.

٢ - إعداد الداعية الكفؤ للتأثير في ساحة العمل الذي يتحرك في مجاله.

٣ - كشف الواقع المتناقض مع الإسلام وسبل تحقيق الحكم الإسلامي.

ب - المناهج الخاصة بمهمة التكوين: تستهدف في مجال تحقيق البنية الفردية للأخ الملتزم إعداده على ثلاث خطوات:

١ - التربية والإعداد: (الفكري والروحي والبدني والأمني والجهادي) التي تؤهله لاحتمال أعباء جهاد طويل المدى كثير

التضحيات في المراحل القادمة.

٢ - التدريب والاختبار: للتأكد من تحققه بالمواصفات المطلوبة ولياقته لتنفيذ المهمات التي ستناط به.

٣ - الاختيار المناسب حسب القابلية والاستعداد اللذين وصل إلى مستواهما وحسب حاجة الجماعة.

وعلى ضوء الحاجة تحدّد مستويات الاختيار بحيث يوضع ذوو الإمكانات المحدودة واللياقة المتوسطة والكفاءة العالية كل في مكانه المناسب من العمل.

وحول هذه المناهج لابدّ من التذكير بالملاحظات التالية:

- تشمل التربية الفكرية والروحية والبدنية والأمنية كلّ الإخوة الملتزمين وحسب مستوياتهم، وتستمر إلى جانب البرامج والمهمات التي تتضمنها الخطط الفرعية والفنية الأخرى التي تلقى على عاتق المتقدمين منهم في مجال الأجهزة والاختصاصات الأخرى.

- إنّ قضية إعداد القادة والمربين والمدربين ينبغي أن تقف على رأس قمة اهتمامات القيادة، لأنّ جهاز التكوين الصالح هو المحور الحقيقي لسير الجماعة السليمة، ولا نغالي إذا قلنا: إن أيّ مظهر ضعف أو انحراف أو عجز يظهر في الجماعة يعود السبب الأوفى فيه لضعف المستوى الإخواني لدى القادة أو المربين أو المدربين.

- إنّ قضية التوازن بين مطالب الفكر والروح والجسم تقتضي من واضعي المناهج صياغتها بنسب متوازية مقبولة، بحيث تساهم في

إغناء الشخصية المسلمة وتكاملها، ولا يجوز أن تخلق تشوهاً أو تناقضاً في داخلها. فللعبادة والفكر، والعلم والجهاد، والتربية والمال، والقوة والسياسة.. نسب معينة، فمتى اختلفت هذه النسب حدث الفساد، وينبغي أن يكون التوازن هدفاً أساسياً في صياغة المناهج وأساليب التربية.

فالمناهج الروحية: تنظر إلى العبادة والذكر والتلاوة ومجاهدة النفس والصلة الدائمة بالحقّ عزّ وجلّ على أنها سبيل لعمارة الروح وإعدادها للتصدّي للمنكر بمقاومته وإزالته والدعوة إلى الأمر بالمعروف وتنفيذه.

والمناهج الفكرية: فضلاً عمّا تهدف إليه من التزوّد بالعلوم الأساسية الشرعية والتحقّق بها تهدف كذلك إلى تعميق الاختصاص وتأهيل العلماء والردّ على الأفكار المضادة والمشوّهة للإسلام، وإعداد مهني خاص بأمور كثيرة تعرض للجماعة في طريق سيرها إلى مرحلة التنفيذ.

ومناهج التدريب والاختبار: تهدف إلى ربط الفكر والجسم بساحة العمل وإخلاص النيّة وضبط النفس وتطويع الجسم لمتطلبات العمل الشاق، وتجنّب الترف وإيقاظ غريزة الحذر والوعي بحيث يستعصي الفرد الملتزم على كلّ محاولات الترويض والفتنة والتهديد والتعذيب.

ولابدّ من التنويه بأهميّة دور المسجد في التربية والتكوين:

فطبيعة المواجهة مع أعداء الإسلام في هذه المرحلة تجعل للمسجد دوراً هاماً في عملية الإعداد يتميّز بالنواحي التالية:

آ - باعتباره منطقة عبور طبيعية لكافة نشاطات الأفراد العاملين في مجال التعريف والتكوين.

ب - باعتباره البيئة الروحية الصافية المناسبة لغرس المبادىء الإسلامية والالتزام السلوكي بالأمر الإلهي؛ لأنّ كثيراً من مواد المناهج الروحية والفكرية يستطيع العمل المسجدي القيام بها من جهة توفّر العالم المختص المشهور وتوفّر جو الأمن وإتاحة المجال المناسب للتزوّد الكافي مما لا يتاح للقاءات الخاصة في الأسر والأجهزة أن تحقّق كثيراً من مهماتها الحركية والتكوينية الأخرى التي يستطيع جوّ المسجد الوفاء بها في الظروف الأمنية الشاذة.

وكنتيجة للتربية والتدريب لابدّ من فرز المستويات حسب القابليات والحاجة للعمل في أجهزة الجماعة ومؤسساتها وإغناء أجهزة التكوين العاملة بالمؤهلين والمدربين والمنفذين بحيث ينتقل الأخ بعد إعداده إعداداً كافياً ليعمل في جهاز أو مؤسسة تناسب إمكانياته وتنمّي خبراته وتلبّي حاجات الجماعة من أجل الوصول إلى إقامة الدولة المسلمة بكلّ متطلباتها.

جـ - الأجهزة والمؤسسات:

هي البنية التنظيمية للجماعة، وعلى عاتقها تقع مسؤوليات تنفيذ مهمتي التعريف والتكوين في مرحلة الإعداد وباقي المهمات الأخرى في المراحل القادمة.

يفترض في عناصرها أن تكون من أفضل الإخوة وأقدرهم

وأجدرهم علماً وخبرة وممارسة وتربية.

إنّ بناء الجماعة بناء صالحاً هو نقطة البداية في توحيد المسلمين في كل قطر لإقامة المجتمع الإسلامي، ثم في توحيد المسلمين عالمياً. وللوصول إلى بناء الأجهزة بناء صالحاً لابدّ من الإجراءات التالية:

(١) - الاختيار الصحيح للعناصر الوافدة للتنظيم.

(٢) - توسيع مجال التربية والتدريب وتعميقه لاكتساب الخبرات الجيّدة.

(٣) - معرفة الحاجة الضرورية لنوع الأجهزة وطبيعة عملها وعلاقاتها.

- إنّ وسيلة تحقيق البنية التنظيمية الصالحة هي:

١ - الخطة العامة هذه والخطط الفنية والفرعية التابعة للأجهزة وسيرد الحديث عنها بعد قليل.

٢ - النظام الداخلي واللوائح التي تنظّم العلاقة بين الأجهزة والمسؤولين.

إنّ الأجهزة والمؤسسات التي تحتاج إليها الجماعة في مراحلها المختلفة تختلف من حيث الأهمية إلى أجهزة أساسية، وأجهزة ضرورية، وأجهزة بديلة.

فالأساسية: تبدو أهميتها في أنّ انعدامها يعرّض البنية التنظيمية

للتصدّع وأهمها:

١ - المؤسسات القيادية وأجهزة الفتوى والقضاء والشورى ودورات الموجهين.

٢ - أجهزة الحيطة والأمن -الإحصاء والتخطيط- التعريف والتكوين -التوعية - النشر.

والضرورية: تبدو أهميتها في طبيعة توسّع القاعدة، وحاجات التنظيم، وتطوير القوى، وتبدّل الظروف. وأهمها:

١ - أجهزة القوة والتدريب البدني والجهادي.

٢ - الأجهزة الاختصاصية الأخرى (ريف - عمال - نساء - ناشئة وطلاب. . . إلخ).

٣ - الأجهزة الفنيّة الأخرى (أطباء - مهندسون - محفوظات. .)

٤ - المغتربون.

٥ - البرنامج الإسلامي العام.

والبديلة: وهي القيادات والأجهزة البديلة في الظروف الطارئة والكوارث حيث تأخذ شكل الظلّ في الحاضر. والبديل الشرعي عند الأزمات، أو اللجان المؤقتة عند الظروف الطارئة، وتزول بعد إنجاز مهمتها.

جرى هذا التصنيف بناء على استعراض العمل الميداني الأساسي والضروري في مجال الدولة القائمة في القطر السوري على اعتبار هذه

الأجهزة الصورة المصغّرة للدولة النواة في داخل الجماعة وتستهدف هذه الأجهزة، إضافة لمهماتها الأخرى، متابعة نشاط الدولة القائم استعداداً للمواجهة في مرحلة الصراع، والحلول محلها في مرحلة التغيير، فالجماعة تقوم بتحويل جذري ولابدّ من البديل الصالح في كل مجال من مجالات الدولة المقبلة، وإذا كان هناك مناظرة في التشكيل ظاهرية فهي مختلفة في هدف الحركة كما هو معلوم.

ولتوضيح الفكرة المقصودة لابأس بالمقارنة التمثيلية التالية:

الخصوم	الجماعة
- السلطة (القيادة السياسية)	قيادة الجماعة (مؤسسات قيادية وأجهزة فتوى وشورى ورقابة).
- الحزب	تنظيم الجماعة.
- الجبهة التقدميّة	جبهة القوى الإسلا مية العاملة.
- مؤسسات الإنتاج (زراعة، صناعة، تجارة) إلخ..	مشاريع إنتاجية. مشاريع خدمات اجتماعية ولجان خيريّة.
- مؤسسات الإحصاء والتخطيط	أجهزة الإحصاء والتخطيط.
- الدفاع	التنظيم المقاوم (الأسر والكتائب).
- الأمن	أجهزة الحيطة والأمن.
- الإعلام والنشر والإذاعة والتلفزيون	التعريف - التوعية السياسية - النشر.
- التربية	أجهزة التوجيه والتكوين وأجهزة العمل في الجماعة.
- التعليم العالي	التنظيم الجامعي.
- المؤسسات النقابية والاتحادات	الأجهزة الفرعية الأخرى (ريف - عمال - نساء)
- السفارات	المغتربون.
- البرنامج المرحلي	البرنامج الإسلامي العام.

أما بالنسبة للمسار المتصاعد لشمول هذه الأجهزة لعناصر الجماعة، فعلى ضوء تسلسل مراحل العمل ينبغي أن تستوعب هذه الأجهزة من العناصر ما يحقّق كفاية العمل لتشكيل نواة فاعلة لكلّ الأجهزة اللازمة في مرحلة الإعداد، واستيعاب جميع المؤهلين من الجماعة للعمل في الأجهزة في مرحلة تطوير القوى وتأهيل واستيعاب كافة عناصر الجماعة للعمل في الأجهزة خلال مرحلة التنفيذ.

جـ - القيادة والأجهزة القيادية:

مهمتها قيادة العمل الإسلامي داخل التنظيم وتحريكه نحو الأهداف، وتأمين متطلبات العمل لتجاوز المراحل بكفاءة وجدارة وبتقدير سليم للمواقف، واستخدام واع لأساليب الحركة والعمل، واستيعاب معطيات الخطة بدقة، وتحقيق قدر كاف من الثقة المتبادلة والاستجابة السليمة بين القيادة وعناصر التنظيم.

وسيلة القيادات لتنفيذ مهماتها: النظام واللوائح - الأوامر والقرارات - الخطط الفنية والفرعية - الأجهزة والمؤسسات العاملة، ولتحقيق حسن استخدام هذه الوسائل في سبيل الوصول إلى الهدف المرسوم ينبغي أن تتمثل قيادات الجماعة بالصفات التي توافرت في قائد الدعوة الأول محمد ﷺ والتي سبق ذكرها في القسم الأول عند الحديث عن السيرة، فهو قائدها بالأمس واليوم، وعلى قدر تحقّق القيادات بهذه الصفات عمقاً وسعة تتحقّق المهمات المطلوبة بكفاءة وجدارة، وبذلك توجد أفضل مكونات القاعدة الصلبة، لأنه مالم تكن القيادة قاعدة التنظيم الصلبة لن يكون التنظيم قاعدة المجتمع

الإسلامي الصلبة في مراحله القـادمة، فمن صفات الرسول ﷺ تنهل قيادات الدعوة ويكون العطاء.

ومن هنا تجد القيادات نفسها ملزمـة بتحقيق خطوات متقدمة على مستوى الجـهد الذاتي والـجماعـي لبلوغ المـواصفات والـمستـويات اللازمة، وفي طليعة هذه الخطوات مايلي:

- دوام الاتصال والثقة المتبادلة بينها وبين القاعدة.

- تقـويم أعـمال وتـصرفـات القـيادات الـسابـقة والـدنيا لـتجـنّب المساوىء والاستفادة من المحاسن.

- دراسة وافـية لسيـرة الرسول ﷺ والخلفـاء الراشدين ومـحاولة تفهّم الأحداث التاريخية للاستئناس بها في معالجة الأوضاع القائمة.

- التزوّد الكافي من أحكام الشريعة الإسلامـية بما يتناسب وطبيعة المهمة التي تقوم بها.

- الاطلاع المـستمـر على أساليـب الإدارة ودراسة النتـاج الفكري القـيادي والاستـراتيـجي والاستـفادة منه فـي حدود الشـرع ومعطـيات الخطة.

وإذا عدنـا بعد ذلك لبـحث الوسائـل التي تسـتخدمـها القيـادة في المهمة التكوينية تبدو لنا القضايا التالية:

- النظام واللوائح: يستدعي وضع الجماعة التنظيمي دراسة النظام واللوائـح الساريـة المفـعول وتـحديد الأمـور التي يتـعذّر تـنفيـذها أو استنفـدت أسباب وجودهـا، وتحديد الأمور الإيجـابية الهامـة التي لم

تستخدم رغم توفّر الظروف المناسبة، أو كان تنفيذها متوقفاً على وجود الخطة العامة للجماعة. وعلى ضوء ذلك تبدو لنا إيجابيات جيدة في النظام الحالي ولوائحه من إشارته العمومية لأمور أساسية هامة مثل: تعاون القوى الإسلامية، وتحديد مستويات الإخوة، واعتبار مهمة التكوين الفردي تعتمد على التربية والتدريب والدعوة والجهاد، ووضع فكرة العمل النسائي، والأخذ بمبدأ الشورى، وإلقاء مهمة المتابعة المستمرة لإقامة الدورات اللازمة لرفع المستويات على عاتق القيادة. ومع ذلك ينبغي دراسة النظام ولوائحه لتوفيق أوضاع المراكز مع إجراءاته، وإذا احتاج إلى بعض التعديلات أو الصياغة الجديدة فإنما يتمّ ذلك على ضوء ما تشير إليه الخطة، وترسمه من مهمات وأهداف.

- الأوامر والقرارات: تبدو صعوبة العمل القيادي في مجالات كثيرة، ومن أهمها قدرته على التوفيق بين متطلبات العمل المختلفة والمهمات المتزايدة، وينعكس ذلك على طبيعة وأثر القرارات والأوامر الصادرة من القيادة للقاعدة. ولكي يصدر الأمر أو القرار محققاً هدفه في أفضل صيغة، لابدّ من توفّر الشروط التالية:

- المشاركة الدائمة والمستمرة بين القيادة وعناصر الجماعة، بحيث تتعايش المستويات المختلفة في الجماعة بروح واحدة وحركة واحدة.

- وفاء الأجهزة المختصة بمتطلبات العمل كاملة.

- انسجام عناصر العمل القيادي، وصدور القرارات عن اقتناع

ومشاركة ومسؤولية.

- **الخطط الفنيّة والفرعية:** هذه الخطط أو برامج العمل المرحلية للأجهزة العاملة تشتق من الخطة العامة لتلبية الحاجات القائمة، وتضعها القيادة التنفيذية بالتعاون مع مسؤولي الأجهزة العاملة، وتؤمن لها أدوات التنفيذ ومستلزماته بحيث يتّضح مسار العمل لدى الأخ المسؤول والمكلّف بالتنفيذ بكلّ خطواته ومتطلباته. ثم تتابع النظر في مدى الإنجاز وتذلل العقبات وتحاسب وتكافىء على التقدّم والتقصير، وتبحث في علل العجز والقصور وتقدّم الحلول المناسبة.

- **مهمة اصطفاء العناصر القيادية:** من المهات الأساسية الملقاة على عاتق القيادة في هذا المجال. وتنتقي من الأكفياء ذوي التربية التكوينية العالية، والخبرة الاختصاصية الجيدة، والقابلية القيادية المكافئة، لملء الشواغر القيادية الطارئة، أو تهيئة القيادات البديلة للأحوال الطارئة، ويتطلب ذلك بذل جهود مستمرة للارتفاع بمستوى إعدادها للأهلية القيادية في المرحلة القادمة، وإشراك عناصرها في العمل، ووضعهم في مسار الحركة، ليمارسوا إمكاناتهم، ويعبّروا عن تطلعاتهم، ويختبروا تجربتهم.

ويتطلب ذلك أيضاً إتاحة المجال لتفتح مواهبهم بعيداً عن الولاء الشخصي أو وجهة النظر الخاصة كيلا تتكوّن لديهم آراء غريبة عن تراث هذه الجماعة ومنطلقاتها، فهؤلاء هم قيادة الظل اليوم والبديل الشرعي في الأزمات والمحن والنكبات. ولابدّ في مجالات العمل القيادي والإداري من مواجهة مشكلات واتخاذ مواقف، فماهي هذه

المشكلات وماهي تلك المواقف.

المشكلات والمواقف المتخذة: منها ماهو عام، ويعتبر من لوازم مرحلة الإعداد، ومنها ماهو خاص يتعلّق بوضع الجماعة القائم. وهذا الأخير سنعرض له في بحث (متطلبات العمل) إن شاء الله.

- المشكلات العامة. التي تواجهها القيادة في مرحلة الإعداد:

١ - المشكلات الداخلية:

آ - تجاه الأفراد: من مثل: - عدم وضوح صيغة الاصطفاء والاختيار الأولي، أو تعجّل نتائج العمل، مما يسمح بدخول عناصر غير ناضجة أو غير موثوقة، فيعاني التنظيم من ظواهر مرضية مختلفة بسبب ذلك.

- ضعف الانسجام بين الفكر والسلوك: مما يدفع بكثير من مظاهر التناقض لتطفو على سطح العمل الإسلامي، ومنها على سبيل المثال: المظهر والزي الإسلامي - وسائل الإعلام العامة - منجزات الغرب الحديثة المادية - مصطلحات فكرية متداولة - تجارب مختلفة لم تتّخذ بشأنها مواقف حاسمة.

- ضرورة كشف القابليات وإعطاء الفرص المكافئة للتقدم، وسبر الإمكانيات، فلا تقتل المواهب، ولا يقدّم غير الكفؤ.

- وجوب التأهيل المستمر للمراكز القيادية بالدورات والمناهج وفترات التدريب.

ب – تجاه الأجهزة والمؤسسات: من مثل:

– المشكلات التي تنتج عن تطبيق النظام واللوائح والمناهج مما يستوجب حصرها، وإبداء الرأي بها، وتعديلها، لعودة الانسجام الفردي والجماعي في العمل.

– مشكلة تضخّم الأجهزة دون وجود عمل أساسي أو ضروري لها.

– تناقض العمل والنتائج بين الأجهزة المختلفة، فقد يؤدي ذلك إلى اضطراب في إصدار القرارات.

– ضعف المعلومات الإحصائية، وعدم توثيق المعلومات والإشاعات والأخبار الواردة، مما يضعف ثقة الفرد بالعمل القيادي، ويعكس ذلك أثره الكبير على العلاقة التنظيمية بين الفرد وقيادته.

– عدم إعطاء الأولوية في الاهتمام للأجهزة الأساسية، وفي طليعتها أجهزة التعريف، وأجهزة التكوين، وأجهزة التدريب، والوفاء كاملاً بمتطلبات أعمالها ولوازمها.

– عدم كفاية أعمال الحيطة والأمن وخاصة في مجالات الحركة والتدريب والحماية.

– التوفيق بين الأهلية وتنوّع الخبرات ومشاركة الأطراف من جهة، وبين سرعة إنجاز العمل واستمراره.

– توزيع الأعباء والتكاليف والمهمات.

– قضايا الاتصال والبريد وأسلوب المراسلات.

- تعثّر أجهزة الفتوى والمراقبة.

جـ - تجاه العناصر القيادية ذاتها:

- عدم فرز المستويات - صعوبة اتخاذ القرار - وجوب المدارسة الميدانية للمشكلات القائمة.

- عدم وجود رؤية جماعية موحّدة - صعوبة الخروج بقرار جماعي حاسم، وعدم التخلي عن الرؤية الفردية.

- عدم توزيع الأعباء حسب المهمات الموحّدة.

٢ - المشكلات الخارجية: وهي تبدو على شكل مواقف ينبغي على الجماعة اتخاذها.

آ - تجاه الأعداء: - الوقوف على طبيعة تفكير العدو تجاه الإسلام والعاملين له، وطبيعة تقديره للمواقف والإجراءات المتوقّع اتخاذها.

- إحباط كلّ محاولة لضرب الصف والتسلل من إحدى ثغراته، أو تحويله عن هدفه، باستخدام جيّد لعناصر الحيطة والأمن، والردّ على المواقف المضادة بأسلوب مناسب يطوّر ثقة الجماعة بقيادتها، ويزيد خبرتها، ويدعم تطلعاتها، ولا يعرقل مسيرتها.

- الاستفادة من معطيات العلم ووسائل النشر والاتصال، ومواجهة الحاجات والمتطلبات بالوسائل المكافئة.

ب - تجاه ساحة العمل الإسلامي داخل القطر:

- دراسة حجم القوى الإسلامية العاملة داخل القطر وبقية البارزين

من العاملين، ودراسة أساليب العمل والنتاج الفكري، وطبيعة المؤسسات العاملة لديهم، وتحديد المواقف المناسبة لدعمها، وبذل النصح، وإظهار التعاضد أمام الآخرين.

- توسيع ساحة العمل الإسلامي بالتعاون مع القوى الإسلامية العاملة.

- سرعة الانتشار والتأثير الفردي والاهتمام بمشاكل الناس ومعالجتها على صعيد الدعوة والتعريف الفردي والجماعي.

- تعميم فكر الجماعة وتصوّرها ليصبح رصيداً لكلّ متنوّر، فتنشأ جسور من التلاقي يدعمها السلوك اليومي، وتحدث أثرها في الرأي العام.

جـ - تجاه التنظيمات الإسلامية خارج القطر:

- السعي لإيجاد صيغ من التقارب والتعاون بين التنظيمات الإسلامية في العالم الإسلامي، وبين قيادة الجماعة في مصر أو بين قيادة الجماعة في سورية، وبين قيادات الجماعة في الأقطار المجاورة تستهدف مايلي:

- إجراء الحوار النظري المشترك في الخطط والوسائل والمنجزات والأهداف حسب طبيعة التنظيمات ومجالات التعاون الممكنة سواء على مستوى تنظيمات الجماعة في بلاد الشام والعالم العربي والغربي، أو على مستوى تنظيمات العالم الإسلامي في العالم.

- تبادل الدراسة والأبحاث ورصد التيارات المختلفة، والاستفادة من التجارب وتقويم الأوضاع العامة.

- حصر التراث الحركي والفكري، وتبادل الرأي بشأنه، في سبيل تبنّي فكر يوحّد العاملين في الحقل الإسلامي، وتنسيق التجارب.

٣ - **مهمة الاختبار**: تهدف مهمة الاختبار إلى إجراء صيغ وأساليب من الرصد الداخلي، والمراجعة والمحاسبة لكلّ الوسائل المستخدمة، والظواهر الناتجة عن المهمات المنفذة في مجال التعريف والتكوين، ينكشف بها مدى التحقّق بالمواصفات المطلوبة على مستوى الرأي العام بالنسبة لمهمة التعريف خارج الجماعة، وعلى مستوى البنية الفردية والتنظيمية والقيادية بالنسبة لمهمة التكوين داخل الجماعة. وتدرّس فيها أسباب الظواهر الطارئة للحكم على إمكانيات الوسائل وكفايتها وطبيعة تقدير الجماعة لأعباء المرحلة ومتطلباتها، بحيث تصل بالإحصاء والمقارنة والاستقراء والاستنتاج إلى معرفة أسباب التراجع والتقدّم في مجالات العمل الإسلامي داخل الجماعة وخارجها.

إنّ هذه الصيغ والأساليب ينبغي أن تتضمنها برامج الإعداد والتكوين على المستوى الفردي، وبرامج العمل أو الخطط الفرعية والفنية للأجهزة العاملة، أو تكون على شكل اختبارات محدودة في مجال الصلة بالمسلمين والقوى الإسلامية تتم كما يلي:

- تقوم بها عناصر التعريف بعد تحضير مسبق وإعداد خاص، تستهدف الجماعة منها معرفة مقدار التعاطف والتأثير في البيئة على

صعيد التعريف العام بالدعوة، وإلى أي خطوة من خطوات العمل وصلت الصلة بين الجماعة والرأي العام.

- وتقوم بها أجهزة التكوين بعد إنجاز المهمات التكوينية المطلوبة بالاختبار الفكري والسلوكي والمهمات التنفيذية المحدودة التي يتطلبها إتقان المناهج، وتقتضيها أساليب التربية العملية.

- وتقوم بها الأجهزة المختصة الأخرى نتيجة تكليف من القيادة للقادة، أو إعطاء الرأي المتوقع في موضوع اختصاصها من خلال الأحداث الجارية أو الظروف المتوقعة، حيث تكتشف القيادة من خلال ذلك كفاءة العناصر والأجهزة، وقيمة المعلومات المتوفرة، وقوة الاستنباط وجدارة الاستعداد لمواجهة الأوضاع القادمة.

هذه الصيغ والأساليب تكون بإعداد وتحضير مسبق كما أشرنا، أو قد تأتي حوادث خارجية تستهدف بلبلة الرأي العام تجاه الجماعة، أو حوادث داخلية، نتيجة أخطاء أو تصرفات فردية تشكّل ظواهر خاصة في طريق سير الجماعة، أو إجراءات خارجية يتّخذها أعداء الإسلام تجاه الجماعة، تستهدف حصر نشاطها، أو تشويه سمعتها، أو اقتناص عناصرها، أو مهاجمتها بشكل شامل، فتكون هذه الأحداث صيغاً وأساليب طبيعية تختبر فيها الجماعة فاعليتها بشكل عام، وتدرس ظواهر الضعف في كلّ مجال من مجالات حركتها داخلياً وخارجياً.

ومن هنا تتضح لنا حكمة الرأي السابق في اعتبار النفاق في عصر الدعوة الأول ظاهرة صحية في المجتمع الإسلامي الأول أشبه

بالمصل المضاد، دفعت المسلمين للعيش في حالة حذر ويقظة دائمين، وعززت وحدتهم الداخلية، واستدرجت هؤلاء إلى مواقف مهينة مزرية، فكشفتهم، وطهّرت خط سيرها منهم.

هذه الصيغ والأساليب أو الحوادث والمحن أداة تمحيص دقيق تعطي فوائدها في مجالين أساسيين:

أولهما: في اكتشاف نقاط الضعف والعجز والإهمال في خط الحركة. وفائدة ذلك أنه مؤشر صحيح على كفاءة الجماعة كتنظيم قادر على مواصلة السير لبلوغ المراحل المقبلة، وعلى مكان الجماعة من الخطوات داخل هذه المراحل، فتتضح الرؤية، ويمكن تقدير المسافة الصحيحة بين مكان الجماعة والهدف المرسوم.

ثانيهما: تضع يد الجماعة بشكل محسوس على الأولويات المطلوب استخدامها في مجال العمل، وذلك من خلال الظواهر؛ لأنّ الجماعة حين تجد نفسها قد أعطت لبعض المهمات أكثر مما تستطيع العناصر حمله مثلاً دلّ العجز في هذا المجال على أن سببه يرجع إلى أنّ العناصر دون المستوى المتوقع، أو أنّ القرار أو التكليف الصادر فوق المستوى الذي بلغته الجماعة.

ومن هنا ينبغي التذكير بما يلي:

- أن موقف الجماعة (أفراداً وقيادة) من ظواهر الضعف والخطأ ينبغي ألاّ يقع في التضخيم والجزئية بحيث تلقى المسؤولية كلها على طرف أو فرد دون بقية الأطراف الشركاء في المسؤولية. فقد ينتج عن

ذلك آثار وخيمة العواقب على تماسك الجماعة في الأزمات والمحن. كما ينبغي ألا يقع في التساهل وإلا فقدت موازين العمل فاعليتها.

- إن خطأ أو ظاهرة ضعف أو عجز ليست بالضرورة ناتجة عن سوء تصرف فرد أو مجموعة، بل قد تكون الظاهرة في طبيعة الأمر الصادر أو في طبيعة المنهاج المرسوم أو الخطة المنفذة. وحين تنظر القيادة إلى هذه الاحتمالات مجتمعة بروح المسؤولية والثقة والخبرة والموضوعية غالباً مايكون حكمها على الأمور سليماً وصحيحاً وفيه ما يمتّن ثقة القاعدة بجدارتها بتوفيق الله ورضاه، فالخطأ والعجز مصدر تنبيه للقيادة أولاً قبل أن يكون مظهر عجز فردي. وهكذا تبدو مهمة الاختبار على أنها مجموعة مواقف وحلول لمجموعة مشكلات داخل بنية الجماعة بالدرجة الأولى.. أثارتها حوادث العمل والحركة أو المهمات المنفذة والوسائل المستخدمة على صعيد التعريف والتكوين.

وحين تختبر الجماعة فاعليتها بشكل عام وتدرس ظواهر الضعف والقوة في كل مجال من مجالات حركتها الداخلية والخارجية فإنها تصل إلى أحد القرارين التاليين:

- قرار يفيد أنّ الجماعة، لم تبلغ مقدرتها طاقة تستطيع بها الإقلاع إلى المرحلة التالية، لأنّ المهمات لم يصل تنفيذها في الغالب إلى حد الاكتمال المكافىء للمرحلة القادمة.

وفي هذه الحالة لابدّ من إعادة ترتيب الأمور والمهمات الفرعية

والثانوية على ضوء الحاجات والمشكلات والصيغ المستحدثة الطارئة لمعالجة هذه الظواهر القائمة بعد اكتشاف أسبابها واستيعاب ظروف وجودها وتوفير أدوات معالجتها بما يكافئها من الإجراءات.

- قرار يفيد أن الجماعة وصلت في أغلب مهماتها إلى حد الاكتمال المكافىء للمرحلة القائمة، وتتطلع بإمكانياتها الغالبة إلى المرحلة التالية، وهي في سبيل استكمال بقية مهماتها الجزئية إلى هذا الحد المنتظر.

ويتم ذلك عندما تقدّم مهمات التعريف والتكوين والاختبار برهان إنجازها كاملاً ومكافئاً للمستويات المطلوبة منها في مجال الرأي العام المسلم والفرد المسلم والبيت المسلم والأجهزة العاملة الاختصاصية والقيادية وفق ما أشارت إليه الخطة في خطواتها ومهماتها التي جرى الحديث عنها حتى الآن. عندئذ يمكن الحكم بأنّ الجماعة دخلت طوراً جديداً ومرحلة جديدة هي:

مرحلة تطوير القوى

إذا عدنا إلى تعريف هذه المرحلة في الصفحة الأولى من القسم الثاني للخطة وجدنا أنّ هذه المرحلة تنهض بالمهمات التالية:

- تلافي النقص واستكمال المهمات السابقة.
- زيادة الفاعلية لمواجهة المهمات القادمة.
- الاستعداد لخوض الصراع النظري مع خصوم الدعوة.

هذه المهمات تطبع المرحلة بالسمات التالية:

- مرحلة مجابهة لأوضاع ومواقف وأطراف في ساحة العمل كانت الجماعة في السابق مختفية عنها.

- مرحلة حركة تستهدف احتلال مواقع جديدة في ساحة العمل بعد أن تمكنت من تثبيت مواقعها الحالية.

- مرحلة تأهب واستعداد تنتهي بحركة شاملة تستهدف الوصول إلى الهدف.

- مرحلة امتحان وابتلاء ومجاهدة تبدأ وتستمر حتى تصل إلى هدفها المرسوم.

تبقى الوسائل السابق ذكرها في مرحلة الإعداد صالحة للوفاء بالتزاماتها تجاه هذه المرحلة.

- فأجهزة التعريف: تقوم بمهمتها في هذه المرحلة لتصل إلى خطوة جديدة في المجالات التالية:

١ - في مجال التعريف الفردي: باستيعاب الأكفياء في كل تجمّع بشري بعد إغناء التنظيم بالأكفياء منهم في المرحلة السابقة.

٢ - في مجال التعريف الجماعي: بالانتقال بالرأي العام المسلم الذي كان يتحرّك للعمل الإسلامي إلى خطوة جديدة حيث ترتبط حركته وتنضبط بحركة الجماعة في مرحلة الصراع النظري الجديدة ودليلها في ذلك البرنامج الإسلامي العام الذي سيرد الحديث عنه بعد قليل.

- والأجهزة الداخلية تقوم بمهماتها السابقة للانتقال إلى الخطوات

الجديدة التالية:

- استكمال النواقص.

- زيادة الفاعلية إلى مستوى القدرة على المجابهة.

- خوض الصراع النظري.

وفي حديثنا السابق عن مهمة الاختبار في مرحلة الإعداد استطاعت الجماعة معرفة النواقص واتخذت العدة لاستكمالها لتفي مهمتا التعريف والتكوين بكامل التزاماتهما السابقة وبالسرعة الممكنة.

أما زيادة الفاعلية: فيمكن استيعاب مدلولها إذا تصورنا مجمل مهمات مرحلة الإعداد السابقة في أنها عمل داخلي وخارجي بعيد عن العلنية والصراع، لا يستهدف مواجهة خصوم الإسلام والبروز لهم بوضوح. وإذا تصورنا مجمل مهمات مرحلة التنفيذ المقبلة في أنها تنتهي إلى جهاد مادي علني مباشر شامل، أدركنا أنّ الوفاء بمهمات التعريف والتكوين والاختبار في مرحلة الإعداد لا تكفي وحدها برهاناً على قدرة الجماعة على الدخول في مرحلة التنفيذ المباشر، فلابدّ أن تسبقها أعمال ومهمات تتحرك فيها الجماعة مقتربة نحو العدو لاحتلال قاعدة الانطلاق تمهيداً للإقلاع والهجوم الشامل، فهي بمثابة مرحلة تمهيدية تختبر فيها الجماعة على ساحة العمل الحية إمكانيات العدو، وتتزوّد بالإمكانيات الجديدة الكافية للمجابهة والتفوّق على قوى العدو في أهم مجالات الصراع القادم، وإذا كان مصطلح (خوض الصراع النظري) مع أعداء الإسلام ظاهرة مميزة لهذه المرحلة

فإن ذلك يتطلب معرفة الإمكانيات الجديدة المكافئة.

بالعودة إلى جدول المقارنة السابق بشأن الأجهزة المكافئة لقوى العدو، نجد أنه قد صنفت الأجهزة إلى أساسية وضرورية وبديلة، وقد تكفلت مرحلة الإعداد بإنجاز تأسيس الأجهزة الأساسية على الأقل، ولابدّ في هذه المرحلة من استكمال بناء الأجهزة الضرورية والبديلة وفي طليعتها مايلي:

- أجهزة القوة والتدريب.
- الأجهزة الفنية المختلفة.
- البرنامج الإسلامي العام.

يزداد الاهتمام بعامل القوة حسب نمو قدرة الجماعة وحسب مواقف العدو منها ومن نموها، إلا أنّ المسار العام للقوة والتدريب يأخذ شكل نقطة انعطاف هامة تجاه العدو في هذه المرحلة، فيتجه محوره عمودياً، وتتوجه أغلب طاقات الجماعة لما يلي:

آ - لاستيعاب الأكفياء الوافدين من كل تجمع بشري، وصهرهم في العملية التكوينية المعروفة.

ب - توسيع مجال التدريب وحيازة مصادر القوة.

جـ - وتتحول المناهج الخاصة بهذه المرحلة بعد أداء مهماتها كاملة في مرحلة الإعداد، إلى صيغ من التربية الروحية والبدنية لمن اجتاز تلك المرحلة بجدارة، لتتحقق سمات الجندي الرباني لدى أغلب أفراد التنظيم داخل التنظيم، فتتوثق العلاقة بين القيادة

وعناصرها نتيجة الخبرة الموحدة والتفاهم المشترك، فتختفي مظاهر الضعف والتردد، وتكثر مواقف الاستجابة والإنتاج الهادف، وتصبح الأهداف المرسومة واضحة معروفة لا تستغرق إلا أقل حد من الزمن المتوقع لإنجازها على أفضل وجه.

د - وتقوم الأجهزة الأساسية والضرورية بأفضل العطاء، تدعم البنيان الداخلي وتقود العمل الخارجي، سواء في مواجهة مواقف العدو لإحباط خططه في التسلل، ومؤامراته في التضليل، أو في المشاركة السياسية والاجتماعية لجماهير المسلمين، والمعايشة اليومية للأحداث، والرد المكافىء على كل التناقضات والمواقف المضادة، وهذا يقودنا لشرح مدلول الصراع النظري، ثم مدلول البرنامج الإسلامي العام.

يبدأ الصراع النظري بحركة الجماعة نحو أعدائها بمعارضة نظرية تستهدف كشف المواقف المناقضة للإسلام، وربطها بمواقف رجالها أولئك، وهيئاتها ومؤسساتها الضالة والمنحرفة، وتوجيه العيون إلى المخازي، ووضع الأيدي على العناصر الفاعلة البارزة أو الموجهة الخفية بحيث يفتضح أمر القوى المضادة وتزول الأقنعة وينكشف الخبيء..!

تقوم الجماعة بهذه الحركة بواسطة أجهزة التعريف، بالتحرك بين الناس بمختلف وسائل التعريف السابقة، تستهدف كشف التآمر على الإسلام ودعاته، موضحة مخطط الأعداء في تمزيق الرأي العام المسلم، داعية إلى وحدة العمل الإسلامي في مواجهة القوى المضادة

الموحدة.

وتتقدم خطوة أخرى في مجال حركتها هذه بإعلان البرنامج الإسلامي العام دليل عمل الجماعة المسلمة في هذه المرحلة الهامة تجاه أصدقائها وأعدائها على السواء، والبديل الشرعي للواقع المنحرف والمبادىء الملحدة. فما هو هذا البرنامج الإسلامي العام؟

البرنامج الإسلامي العام:

تعريفه: هو الصورة التفصيلية التي تجسّد تصورات الإخوان المسلمين، ومواقفهم وحلولهم الجذرية الشاملة لمشكلات المواطنين وهمومهم وتطلعاتهم الفردية والجماعية، العاجلة والآجلة بأنواعها الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. . .

حين تستطيع الجماعة أن تنقل بعض أساليب التعريف في تماسها مع الرأي العام المسلم إلى أسلوب الحوار المباشر بالنشرة أو الموقف أو التوجيه، وأن يثير ذلك استجابة متوقعة، فإن ذلك يعني أن الرأي العام وصل إلى خطوة (قابلية الحركة والاستجابة)، ووصل تأثير الدعوة إلى مناطق عميقة من وعي المجتمع اجتاز فيها خطوات التعريف إلى التعاطف والثقة، ثم إلى قابلية الحركة أو ما يسمى (القدرة على تحريك الجماهير) وأسلوب هذا الحوار ومحتواه يحدده البرنامج الإسلامي العام، ويمثّل نقطة انعطاف هامة تجاه المسلمين تنتقل فيها الجماعة من التنظيم السرّي إلى أسلوب يتعرف فيه المسلمون الواعون على وجود التنظيم من خلال آرائه أو مواقفه أو توجهاته.

والصورة المتوقعة للبرنامج الإسلامي العام تضم ما يلي:

- تعريف بمبادىء الإسلام الأساسية.

- فساد الواقع وبيان أمراضه ومشكلاته.

- الحلول الإسلامية لمشكلات الواقع واعتبار هذه المشكلات من آثار إبعاد الإسلام عن الحياة الواقعية.

- ضرورة العمل الإسلامي المنظّم.

لهذا البرنامج أهمية وله أخطاره:

- تبدو أهميته في الحكم على الواقع من وجهة نظر الإسلام، فهو إدانة للواقع تستلزم علاجاً يقدم لمختلف فئات المجتمع، متضمناً رأي الإسلام في المشكلات الراهنة، والاحتكاك معها من خلال هذه الرؤية وهذا الرأي.

- وفي كونه دليل عمل للجماعة الإسلامية من حيث تصور المشكلات وحلولها بمختلف أنواعها الفقهية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية. . .

- وفي كونه أداة بلاغ وحوار بين الجماعة الإسلامية وفئات الأمة المخاطبة به.

وتبدو أخطاره:

- في محتواه من حيث شموله للواقع الفعلي أو قصوره عن الإحاطة به وبعلاجه.

- في تبعاته الثقيلة على الجماعة في حالة كشفه من قبل أعداء الإسلام.

- في طبيعته من حيث كونه يمثل مرحلة لا بد أن تختفي بعض ظواهرها في فترة قادمة مما يستلزم إعادة النظر فيه وتعديله.

في كل الأحوال لا يجوز أن يحول إعلانه دون استمرار العمل في الجماعة نحو المهمات والأهداف المرسومة.

ويجدر التنبيه إلى أن البرنامج الإسلامي المعلن ملمح من ملامح خوض صراع نظري وحركي مع أعداء الإسلام، وهو كشف لوجود التنظيم القائم يضع الدعوة على عتبة مرحلة التنفيذ أو آخر مرحلة تطوير القوى، لأن ظهور التنظيم إعلان للمعارضة، واستمداد للمجابهة وسعي في طريق المواجهة المعلنة، ويبدو أن ذلك هو أول الخطوات الأخيرة في هذه المرحلة.

وكعامل رصد للخطوات المتبعة داخل المرحلة، فإن البرنامج الإسلامي العام حين يكون مجال عمل ومدارسة داخل التنظيم فقط، فإن ذلك يمثل الخطوة الأولى في هذه المرحلة، وحين ينتقل ليطلع عليه الأصدقاء والأصفياء الذين هم أقرب إلى خطوة الالتزام فإن ذلك يمثل الخطوة التالية في هذه المرحلة، وهكذا.. فبقدر ثقة الجماعة بقدرتها على التحرك في مساحات من المجتمع، ومخاطبة فئاته باسم الجماعة، يكون ذلك دليل قدرتها على تحريك المجتمع، ودليل تطوير الرأي العام المسلم في صالح الجماعة إلى خطوة قابلية الحركة والاستجابة، ثم إلى وحدة العمل الإسلامي. فيكون فكر الدعوة

وتصورها رصيداً حياً مؤثراً لدى كل متنور، وتنشأ عن ذلك جسور التلاقي مع القوى الإسلامية العاملة، يدعمها السلوك اليومي الملتزم بأهداف الحركة، وتحدث أثرها في المجتمع، وتكون مظهراً عظيماً لجهود التوعية التي تقوم بها فصائل الحركة، كل في مجاله بعيداً عن أي إثارة منافسة مفسدة للثواب.

ويتمخض عن الجهود الداخلية تجاه تطوير البنية الفردية جيل من الدعاة والعاملين يساهم في تطوير الأجهزة والمؤسسات بحيث تستوعب جميع المؤهلين، فلا بد أن ذلك سيحدث آثاراً عميقة وسريعة في المجتمع، ويحول اتجاه الرأي العام نحو الجماعة بنقطة انعطاف قد تجتاز أغلب الخطوات في وقت واحد، فيغتني الصف المسلم بالأكفياء، ويستوعبهم في كل التجمعات البشرية فتصلب بهم قاعدة التنظيم، ويتحرك الرأي العام المسلم عند ذلك بحركة الجماعة نحو الهدف المرسوم.

عند ذلك تبدو المحن والصعاب وظواهر الابتلاء والتمحيص في هذا القسم الأخير من خطوات المرحلة، على أنها دليل التعامل الصحيح مع سنن الله تعالى في خلقه:

(١) فهي تبدأ بمشكلات وعقبات داخلية كالتي تواجهها الجماعة في كل مرحلة.

(٢) ثم في محاولات أعداء الإسلام النيل من رجاله ودعاته واختراق الصف المسلم المنظم بأساليب مختلفة.

(٣) ثم تتطور هذه المشقات والصعوبات إلى شبهات وضغوط

حين تحس السلطة وخصوم الدعوة الآخرون بقوتها واقتدارها، وأن لها وزناً في مجال فرض المواقف، وإمكانيات كبيرة في خوض الصراع الفكري والعملي المحدود أو الواسع.

(٤) ثم تتطور هذه الضغوط إلى صدام وامتحان تمحص فيه الكفاءات والقدرات وتكشف سلامة المواقف والقدرات. وحين تحتمل الجماعة ذلك وتتابع الطريق تكون هذه المرحلة قد أنجزت كثيراً من مهماتها على وجه مقبول.

ونحسب أنه لابد من التطلع إلى صورة المستقبل ونحن على أبواب مرحلة التنفيذ بين نوعين من الإخوة: متحمسين يعتبرون أن الهدف قد بعدت مسافته أكثر من الواقع، ومتريثين يعتبرون أن الهدف أبعد مما صورت مسافته، ونحيل أنفسنا جميعاً إلى كلمة الإمام الشهيد البنا رحمه الله التي وجهها في مؤتمر الدعوة الخامس مشيراً إلى المستوى الذي يتصور أن تصل إليه نتائج هاتين المرحلتين حيث يقول: «يسهل على كثير أن يتخيلوا... وأن كثيرين يستطيعون أن يقولوا، ولكن قليلين من هذا الكثير يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا، ولكن قليلاً منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف، وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصة طالوت بيان لما أقول. فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها

ومألوفها وعاداتها، وفي الوقت الذي يكون فيه منكم - معشر الإخوان المسلمين - ثلاث مئة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجاج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبّار، فإني فاعل إن شاء الله) ثم يقول بعد قليل: «فأشعروا أنفسكم العبء، وألفوا الكتائب، وكوّنوا الفرق، وأقبلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب، وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تصل إليها بعد، ولا تضيعوا دقيقة عمل».

مشكلات ومواقف تواجه المرحلة:

تواجه الجماعة في هذه المرحلة مشكلات تتطلب منها مواقف وحلولاً مناسبة، وقد تتكرر المشكلات نفسها ولكن الحلول ربما لا تتكرر، فلكل حالة حل مناسب في حينه، والمفروض أن تكون قدرة الجماعة على معالجة المشكلات المماثلة قد تطورت وازدادت خبرة، ولا داعي لتكرار الحديث عنها. فما هي إذن المشكلات الجديدة؟.

١ - مشكلات داخلية تتعلق بالبنية الفردية أو عمل الأجهزة أو العناصر القيادية ويتمثل أهمها فيما يلي:

آ - في مجال البنية الفردية.

- صعوبة التَكَيّف مع الواقع الجديد من حيث إنه حركة محدودة تختلف عن الصمت السابق، والحركة الشاملة المقبلة، إذ تبدو مظاهر متناقضة في ملامح البنية الفردية من استعلاء وغرور نتيجة ارتفاع

مستوى التدريب والقوة، إلى خوف وجبن نتيجة ضعف الرؤية وعدم الارتفاع إلى مستوى المرحلة الحاضرة، وهي قضية موجودة لها أسباب كثيرة.

ب - وفي مجال الأجهزة العاملة.

فقد تبدو مقابلتها لأجهزة العدومثار استنكار لأسباب كثيرة، ولكن إذا عرفنا أن مناظرتها لأجهزة العدو تستهدف مواجهة وإحباط خططه والحلول محله بعناصر مناظرة ومتفوقة في الاختصاص، ولكنها متميزة بالحركة والسلوكية والهدف والتصور.. يزول هذا الاستنكار على الأقل.

كما تبدو مشاكل التفرغ وتعميق الاختصاص وتوفير الكفاءات داخل القيادات وحولها.

ومعالجة التراكم الكمي والكيفي داخل الأجهزة في بعض المناطق أو المراكز، وانعدامها أو ضآلتها في البعض الآخر. وتأمين العناصر الصالحة للأجهزة المستحدثة. وأخيراً مشكلة إعطاء الأولويات والاهتمام للأجهزة الأهم على حسب طبيعة المرحلة القائمة والخطوات المطلوب اتخاذها.

وفي مجال العمل القيادي: فإن القيادة تتعرض إلى ظروف من العمل، وتواجه متناقضات مختلفة من المواقف، ينبغي أن تخرج منها بموقف سليم، وقد لا تبدو هذه التناقضات بوضوح للقاعدة، مما قديحدث آثاراً معوقة إن لم تعالجها القيادة بالاعتصام بالأخوة

والمعالجة الموضوعية والحرص على الثقة وإشاعة أسلوب التناصح، والأخذ بالرأي الصحيح، واحتمال تبعات الخطأ دون إصرار على متابعته.

كما أن القيادة مدعوة لإعادة النظر في النظام والمناهج والقيادات لتوفيق أوضاعها وتوجيه مسارها وفق ما تقتضيه حركة الجماعة باتجاه مراحل العمل، متقيدة بالأسس والمبادىء الأساسية الثابتة، مقدمة الصورة السليمة لحسن تطبيق الأنظمة والمناهج وأسلوب العمل القيادي دون انحراف نحو تحكيم الرأي الشخصي والاجتهاد المتهور غير المتطور.

٢ - مشكلات خارجية:

أ - من القوى الإسلامية والعاملين للإسلام:

- تصبح الحاجة إلى الثقة المتبادلة التي وصلت الجماعة إليها في مرحلتها السابقة ثمرة ناضجة تستفيد منها الجماعة في التقدم بالرأي العام المسلم إلى خطواته الجديدة، ليتحرك بحركتها ويستجيب لمواقفها وينفعل بالعمل وفق تصورها، غير أن عقبات تثيرها جهات غير مخلصة أو أعداء في لباس الأصدقاء، تستهدف التشكيك بالدعوة وقياداتها وأفرادها، متخذة من حوادث فردية لم يبلغ أصحابها مستوى الإعداد والتكوين المناسب بعد، أو متذرعة بتصرف لم تعرف وجه المصلحة فيه، أو اجتهاد اقتضته ظروف العمل لم تستوعب بواعثه وحجته.

تشكل هذه الحوادث مواقف مضادة تعيق العلاقة السليمة عن استمرارها ونموها، والقيادة ملزمة إزاء ذلك بمقدار لا حدَّ له من

ضبط النفس وقبول النصح والحرص على أخوة العمل للإسلام، وتوضيح الملابسات وتأكيد التمسك بمبادىء الوفاق، وإزالة كل أسباب الخطأ، فلا نزال دعاة ولسنا قضاة بعد.

ب - مع الحياديين: هؤلاء ينظرون إلى الصراع القائم على أنه زوبعة لا مصلحة لهم في التصدي لها، لكنها لا بد أن تمر بساحتهم فيحسون عنفها ولفحها، وبعد الإعصار يتحرك القاعدون فتنكشف نيّات الأعداء تجاههم، وتتضح مواقف الجماعة إزاءهم كذلك، وتصبح الحوادث الجارية مناسبة للدخول إلى فكر هؤلاء وعقولهم وتوجيههم حسب خطوات البرنامج الإسلامي العام في مسار العمل الإسلامي، فيصبحون أقرب إلى الإسلام من حيث إنه المعبر الحقيقي عن مصالحهم في مواجهة أعدائهم، ويزداد البعد بينهم وبين أعدائهم من خلال كشف مواقفهم، وفضح مؤامراتهم تجاه الإسلام والمسلمين.

جـ - مع الأعداء: إن إعلان البرنامج الإسلامي العام يعرض الجماعة كما قلنا آنفاً إلى صراع مكشوف مع أعداء الإسلام.

حين يشعر هؤلاء أن الدعوة تحركت تستهدف مواقع جديدة تنزع عنها علم الردة والجاهلية وتخضعها لحركتها، فإن ذلك لن تقابله بالتسليم والاستسلام كما قال الشهيد سيد قطب عن ذلك في كلام سابق.

وربما لا يستهدف العدوّ في تحركه تجاه الجماعة شلَّ قواها، لأنه لم يضع يده على مصادر الحركة والقوة فيها، وإنما اتخذ موقف الهجوم الفكري والنفسي وغايته: إمّا ضرب الفكر الإسلامي، وخنق

صوته، بما ينشره من الذعر والرعب أو إشاعة مظاهر الضلال والفسق، ليعلو بذلك على صوت الحق. وهيهات أن يحقق في ذلك ما يصبو إليه، فقد شبّت الجماعة وقويت بفضل الله وتأييده، وتمكنت جذورها وتأصلت أفكارها وتصدت لزيف فكره تفضحه وتعرّي تآمره، ولكنه لا يستسلم بل قد يلجأ إلى أسلوب المكر والخداع كما هي طبيعته دائماً، حين يستر كيده ويظهر مجاملته فيضرب الإسلام باسم الإسلام، ومثل هذه المواقف لا تخفى، ولكن المهم ألا تدع له الجماعة فرصة ينفذ منها إلى تخذيل الرأي العام المسلم عن الجماعة، متذرعاً بمواقف مصطنعة وأقوال محرفة أو تصرفات فردية أشرنا إليها سابقاً.

فالجماعة بما لها من صلة متينة سابقة بالقوى الإسلامية، أقدر على إحباط خططه تجاهها من هذا المحور.

ولا يبقى أمام الخصم إلا الطعن برجال الدعوة وبالتنظيم نفسه، وأثر هذه المواقف لدى القوى الإسلامية والتنظيم ليس سهلاً، فإن كان الطعن بسبب ضعف فعلي في بنية الجماعة وكان مستوراً عن أعين القيادة، وكشفته ظروف الصراع، فلا بدّ من معالجة المرض رغم ما في الموقف من تعقيد، ومهما كلف من ثمن، فسلامة الصف وصلابة البناء فوق كل الاعتبارات الأخرى، وإن لم يكن ذلك بسبب ضعف فعلي، فما هو إلا دليل واضح على انهيار موقف الخصوم وتردي قواهم، وعند ذاك فالموقف لا يحتاج إلى أكثر من الصبر والثبات والتحلي بضبط النفس ومتابعة العمل بجد وإصرار. وفي

القرآن الكريم وسيرة الجماعة المؤمنة الأولى والجماعة في العصر الحديث صور مختلفة من هذه المحن والابتلاءات، ثبتت في كثير منها وآتاها الله بذلك النصر الذي وعد، وأحدث في بعض منها ضعفاً او تردداً، فابتلاها الله بتأخير نصره، ليصلب عودها وتستكمل بنيتها وتمتن قاعدتها وتستأنف حركتها من جديد إلى الهدف الموعود.

برهان إنجاز المرحلة: تبدو نهايات هذه المرحلة ذات سمات حركية عنيفة ومتلاحقة، فكل طرف في الصراع يمضي إلى هدفه، والله غالب على أمره.

- وحين تصل الجماعة في مجال التعريف خلال مرحلة تطوير القوة إلى خطوة العمل الإسلامي الموحد، أو (الجبهة الإسلامية العاملة)، تتطور العلاقة إلى خطوة (التجمع الإسلامي العام) المتحرك بحركة الدعوة.

- وحين تصل في مجال التمكين خلال تلك المرحلة إلى خطوة (الصف الرباني المكافىء) لمواجهة العدو على الصعيد الفردي والأجهزة والقيادة.

- وحين تصل في مجال الصراع مع العدو إلى عزل تأثيره على الرأي العام المسلم، ومنعه من أي تأثير جدّي في صف الجماعة وتعرية مخازيه.

- وحين تصل في مجال المواقف تجاهه إلى إجباره على التخلي عن مواقع هامة كانت له، وتعدل ميزان القوى بالكشف عن نمو قدرة الجماعة وكفاءتها وتدهور إرادة العدو وتناقضه، فإنّ مرحلة التنفيذ

أوشكت ولا بدّ من خطوة أخيرة في هذا التحرك لتكتمل أعباء المرحلة القائمة وتنتقل الجماعة إلى مرحلة التنفيذ الأخيرة.

أشكال من التنفيذ تسبق المرحلة التنفيذية: قد تقتضي ظروف الصراع النظري أشكالاً من التنفيذ التمهيدي تصدر بصيغ وأساليب مختلفة تناسب المهمة المطلوب تنفيذها، وتعتمد مبدأ سرية التنظيم، فلا حرج ولا ضرر بإذن الله مادامت لا تخضع الصف لصراع مباشر، أو تنقل الجماعة لمرحلة لم تبلغها طبيعياً بعد. ويمكن أن تقوم بهذه الأشكال بعض أجهزة الجماعة وعناصرها حسب طبيعة المهمة وظروفها، سواء بأساليب النشر والتعريف كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواجهة موقف مضاد لأعداء الدعوة وما شابه ذلك، والتدخّل الطارىء المستور بعملية ردع اقتضتها مواقف الخصم ذات أثر بعيد على حركة الدعوة نحو هدفها الرئيسي بحيث يؤدي تنفيذها إلى إحجام الخصم عن التمادي في بعض مواقفه، مما يمكن الحركة من متابعة سيرها دون استجرار لتصعيد الصراع والتحول إلى الصدام قبل أوانه، ومن الضروري التنويه بأنه إذا اقتضت الظروف مثل ذلك فلا بدّ من ضبط العمل بأمور كثيرة أهمها:

- تقدير الموقف - المبررات الشرعية الصريحة - تفادي الضرر الأشد بالضرر الأخف - الحيطة والأمن بشكل كاف - المستوى العالي من الإعداد والتدريب والتربية - أسلوب التنفيذ - حصر الآثار السلبية في أضيق مدى - دراسة النتائج وإغناء الخبرة.

لهذه العمليات التنفيذية فوائد كبيرة وأخطار كبيرة ونجاحها مرهون

بتوفيق الله عز وجل أولاً - ثم بوعي القيادة وضبطها للأمور ثانياً - ثم بكفاءة وإخلاص المنفذين ثالثاً.

الفوائد:

- تختبر القيادة سلامة تقديرها للموقف بإبقاء التماس مع العدو لمعرفة تصوراته الفعلية عن الجماعة وحركاتها وحجم إمكاناتها في مجابهة أوسع.

- تكتشف حجم المسؤوليات والاحتياجات التي تقتضيها طبيعة مرحلة التنفيذ المقبلة، فتتلافى النقص قبل التحرك الشامل، وتعيد تنظيم تعبئتها على ضوء الأوضاع المكتشفة.

- تختبر متانة الصف وكفاءة العاملين وحجم الجهد المهيأ للحركة الشاملة.

- تدرس أثر العمل في البيئة والرأي العام المساند.

- ترفع من مستوى الثقة في نفوس العاملين، فيصبحون على مستوى جيّد من التجاوب والطاعة جميعها، متحمسين ومتريثين، وتستطيع التحرك بهم إلى المواقف الصعبة المنتظرة صفاً واحداً صلباً.

- تدفع بالعدو إلى الارتباك والفوضى فتتصدع صفوفه وتساعد على ردعه، وتمنعه من التعرض العنيف للجماعة، وتحمله على التخفيف من ضغوطه عليها مما يسهّل لها متابعة الحركة نحو الهدف.

الأخطار:

- حين تنكشف علاقة الجماعة بهذه الأشكال من التنفيذ

(المحدود) تقدم للعدو دليلاً مادياً على طبيعة المواجهة التي تنتظره، فكأنها تستدرجه وهو المزوّد بإمكانيات القوة إلى تحرّك واسع يستهدف به ضرب جذور الدعوة قبل أن تقوى عليه، وهذا يعرّض الجماعة كلها لموقف عام ربما لا تكون متأهبة له.

- يكتشف العدو من خلال هذا العمل نقاط الضعف التي جاءت الضربة منها فيعززها ويثير في أجهزته روح اليقظة والتنبه، وتدفعه إلى ضم صفوفه وتناسي التناقضات بين حلفائه مما يعيق حركة الدعوة لفترة طويلة.

- يثير نجاح العمل في نفوس المنفذين والعاملين روح المغامرة والتطاول والثقة الزائدة بالنفس والجماعة، فتندفع بعمليات زائدة عن الحاجة أو دون مستوى الإعداد المطلوب، أو تتصادم مع الموقف الشرعي، وتجرىء النفوس على تحكيم الهوى والذات مما يعيق الحركة ويخلخل بنية الصف، كما قد تتضارب المفاهيم وتختلف التقديرات في حالات الإخفاق والخطأ، فيكثر المدافعون ويشتد الناقدون وتهتز بنية التنظيم وتترنح أعمدة الثقة بين الأفراد والقيادة، وهي أخطار كبيرة قد تعصف بوحدة الصف وصلابة القاعدة، ويتقهقر البنيان بعيداً عن الهدف لاسمح الله بعد أن كان قريباً منه وفي دراسة تاريخ الجماعة عبرة وموعظة.

- تنسب إلى الجماعة في حالات الإخفاق أعمال وتصرفات ليست لها، تشكّل ضغوطاً نفسية وحركية من داخل الصف وخارجه، تثير الشبهات وتزرع الشكوك وتصدّع ثقة الرأي العام المسلم، وتعزله

عن الجماعة بعد أن كان من أهم مسانديها في التحرك العام السابق.

ويجدر التذكير هنا بأنّ الفوائد والأخطار ينبغي أن تزيدنا تبصراً واهتماماً في السعي للوصول إلى أفضل النتائج، ولا تصرفنا عن التفكير في هذه الأمور أو إهمالها، لأنّ الصف آنذاك بحاجة إلى تدعيم وتطوير وثقة وحركة نحو الهدف، وإن لم توجه الفعاليات للبناء توجهت لغير ذلك.

مرحلة التنفيذ

بالعودة إلى تعريف هذه المرحلة في الصفحة الأولى من القسم الثاني للخطة نجد أنّ هدف المرحلة يتمثّل فيما يلي:

الهدف المباشر: «خوض الصدام المادي مع أعداء الإسلام وإحباط خططهم المواجهة، والتقدّم من خلال سيادة الإرادة الإسلامية لاستلام السلطة وحماية الحركة لتثبيت الانتصار».

ويتم ذلك بعون الله عز وجل ويتحرك الصف الرباني المكافىء (القاعدة الصلبة المؤهلة لإقامة المجتمع الإسلامي) بصيغ مختلفة من المواقف والمجابهات، وقيادة عناصر المعارضة والمقاومة ضمن تجمّع إسلامي عام، يتحرّك بحركة الدعوة، مستهدفاً مجاهدة السلطة المعادية وعزلها عن القوى المساندة لها، وإزالة وجودها المادي، وسيادة الإرادة الإسلامية، وإعلان وجود الأمة المسلمة بإقامة المجتمع الإسلامي على أرضها والتمكين له بصف إسلامي ومجتمع إسلامي عتيد.

فأهمّ مهمّات الجماعة في هذه المرحلة:

١ - عزل القوى المساندة للسلطة المعادية.

٢ - إزالة وجودها.

٣ - سيادة الإرادة الإسلامية.

فما هي وسائل الجماعة لتنفيذ هذه المهمات؟

إنّ كافة الوسائل السابقة التي ذكرت في المرحلتين السابقتين لاتزال قادرة على الوفاء بالتزاماتها تجاه هذه المرحلة ولا ضرورة لإعادة ذكرها. إلا أنّ الوسيلة الجديدة الهامة في هذه المرحلة هي (الجهاد العام) البديل الشرعي عن مصطلح (الثورة الشعبية).

وإذا كانت الهجرة وسيلة مجتمع الدعوة الأول لإقامة الدولة المسلمة، فالجهاد الشرعي المنضبط هو هجرة الحركة في العصر الحديث للوصول إلى هدفها المرسوم، يؤيّد ذلك واقع العمل الذي انتهت الخطة إلى تصويره، وحديث رسول الله ﷺ (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية).

إنّ هذه المرحلة كما تضمن تعريفها مرحلة جهاد وعمل لا هوادة فيها، وهي مرحلة امتحان وابتلاء وتمحيص مباشر قاس طويل تتعرّض لها الجماعة بكل ثقلها وعناصرها وخطوط مجابهتها، بل بالعناصر المعارضة وقوى المقاومة المساندة لها كذلك، وهي صورة رائعة بدت فيها جليّة ملامح طلائع المجتمع الإسلامي الوليد في قلب مجتمع الردة بعد أن وفّت المهمات السابقة من تعريف وتكوين

واختبـار وصراع نظري ومواقف عـملية بالتزامـاتها تجاه هذه الـمرحلة الأخيرة.

فكيف تكون الحركة وإلى أي صيغة يتجه أسلوب الحسم؟

تكون الحـركة بالجـهاد كما قـلنا: جهاد مـادي ويكون باستـخدام القوة المـادية بشرية وآليـة. المتمثلـة في الصف الرباني المـسلم يزيل وجود الباطل مرتداً وجاهلياً من أرض الإسلام.

جهاد معنـوي: ويكون باستخدام القوة الروحـية والنفسية المـتمثلة في الشعور بوجوب إزالة الطاغوت فـالتمكين لحكم الله في الأرض، مكافأة الصف الرباني لنيل إحدى الحسنيين، والثقة بنصر الله وجنته.

جهـاد سيـاسي: ويكون باسـتخـدام القوة السـياسـية المـتمثـلة في التحرّك بين فئـات المجتمع وتنفيذ مضمون الـبرنامج الإسلامي العام، وإدانـة العـدو بـاعـتـبـاره يقـف أمـام المـعـروف لـيـمنـعـه في أرفـع درجاته، وخلف المنكر ليسنده ويشجعه في أخطر درجاته.

وخلال هذه الحـركة يشعر العدو بـرجحان كفة العـمل الإسلامي، فيلجأ بدعم وإرشاد القوى المـساندة له إلى نوع من المكر والمناورة، ويرفع في ساحـة العمل والصراع المـادي أعلام المساومة والمـفاوضة لأنواع من الحلول السياسية ذات الأهداف الخبيـثة الماكرة، تتميّع فيها المـواقف الجـادة وتتبـخّر فـيهـا العزائـم بانتظـار حلّ للأزمـة، وتوقع الحسم سياسياً بأقلّ الخسائر المادية الممكنة، وهي مواقف تحمل من دلائل المكر والخـديعة أكثر ممـا تحمل من دلائل صدق الاسـتجابة،

وعلى ضوء موقف القوى الصديقة وحسن التأثير في استجابتها لمواقف الجماعة، وعلى مدى سلامة تقدير الموقف وحساب احتمالات المعركة وإمكانية التحرّك إلى الهدف في أسوأ الظروف تتخذ الجماعة موقفها، وفي كلّ الأحوال فإن قضية «سيادة الإرادة الإسلامية» هي هدف التحرّك ودليله، مالم يتضح أن الاستمرار في الجهاد المادي إلى مداه هو السبيل الأسلم للوصول إلى الهدف، وعندئذ فقط تتخذ القيادة موقف الصدام المادي محددة أسلوب الحسم النهائي وفق إجراءات خاصة تمليها طبيعة الموقف على ضوء الإنجازات التالية:

١ - حققت أجهزة القوة والتدريب وفصائل الجهاد مستوى فريداً من الاستعداد والكفاءة الروحية والبدنية والفنية، وبدت مظاهر الشوق للآخرة تسيطر على جوّ العمل كله.

٢ - قدمت أجهزة الإحصاء والسياسة والأمن تقديراتها لموقف العدو والصديق، وقدمت أجهزة التدريب والتنفيذ تقديراتها لاحتياطي الصفوف الخلفية وإمكانية الصف المقاتل الحقيقية، وقدمت أجهزة التنظيم والتموين إمكانياتها لخوض المعركة الفاصلة.

٣ - وصلت تعبئة الرأي العام المسلم والقوى الإسلامية العاملة إلى حدّ الإشباع اقتناعاً بضرورة التصدّي واحتمال التبعات، وبلغ التجاوب مداه في اعتبار قضية الصدام مع أعداء الإسلام قضية مصير للإسلام والمسلمين.

وأخذت عناصر المقاومة الصديقة مكانها التعبوي المناسب تحت

تصرّف قيادة جبهة المقاومة الإسلامية.

٤ - وبدت على مواقف العدو مظاهر الضعف والتخاذل، وحققت عزلته الكاملة عن كافة القوى المساندة داخلية وخارجية، وأفلست كلّ محاولاته التخذيلية ومناوراته الفاشلة، وبدا التصدّع في صفوف تحالفاته تحت تأثير تعاظم قوة العمل الإسلامي وعملياته التنفيذية وتكرار المواقف الانهزامية المتوالية في مواقف المجابهة والمقاومة، التي أنهكت العدو وهيأته لخطوة قادمة، ولم يبق إلا تحديد التوقيت وإعطاء الإشارة للحركة نحو الحلقة الرئيسية لتوجيه الضربة القاضية.

وهنا تصبح العلاقة السائدة بين القيادة وبين عناصرها (أمر وطاعة بلا تردّد أو مناقشة) وتوزّع المهام على الأجهزة والعناصر باختصار ووضوح، وتوضع كافة الفصائل الملتزمة مهيأة وكافة الفصائل المتعاونة تحت قيادة الدعوة أو جبهة المقاومة الإسلامية، وتنتظر الوقت المناسب من مثل حدوث تصدّع في جبهة العدو أو حدوث مواقف جديدة تصبح الحركة فيها إلى الهدف قريبة وحاسمة، عندها تحدد القيادة أسلوب الحسم وهدفه المباشر، وتعيّن نقطة الانطلاق ونقطة الهجوم، لتتحرك عناصر الصف الإسلامي طليعة الأمة لتوجيه ضربة مفاجئة للعدو في أخطر مقاتله، تتناول الحلقة الرئيسية في وجوده لحظة الانقضاض على مثل الفعاليات القتالية والفكرية والسياسية القيادية.

وتعلن تصفيتها للوجود المضاد في حركة خاطفة سريعة، وتعلن

برنامجها المرحلي الجديد (السياسي، والفكري، والاجتماعي) بديلاً إسلامياً لقيادة ركب الحياة الصاعد على أنقاض الفساد، وتتابع في الوقت نفسه فلول الطاغوت وتجردها من أدوات الصراع وتبطل حركتها وتربطها بالمواقف القائمة بالصيغة المناسبة.

* * *

القسم الثالث

متطلبات العمل لبلوغ المرحلة التالية:

أين نحن الآن؟

أجابت محتويات الخطة على كل عناصرها، لكن الإجابة على سؤال (أين موقع الجماعة اليوم من الخطة؟ وما هي متطلبات العمل لتقدمها نحو الهدف)؟ لم تكن مباشرة وصريحة ولابدّ من الجواب عن ذلك فيما يلي:

يبدو من ملاحظة واقع العمل الإسلامي خارج الجماعة وسير العمل التكويني داخلها وطبيعة الموقف من أعداء الدعوة أنها لاتزال في مرحلة الإعداد.

ولمعرفة مكانها من هذه المرحلة لابدّ من رسم الصورة الواقعية الفعلية التي تعيشها الجماعة إزاء المهمات المطلوبة في هذه المرحلة، وعلى ضوء متطلبات العمل اللازمة للانتقال بها إلى آخر المرحلة يمكن تحديد الخطوة الموازية التي بلغتها الجماعة من المرحلة.

«الظواهر المشاهدة»

الصورة الواقعية في مجال مهمة التعريف:

الوسائل المستخدمة:

أولاً - التحرّك في أماكن التجمّع البشري

١ - من حيث مضمون هذا التحرّك والأثر المطلوب إحداثه في الرأي العام والأصدقاء نلحظ الظواهر التالية:

آ - من حيث فهم الناس للإسلام الصحيح: بالرغم من أنّ عبء تنفيذه يقع في الدرجة الأولى على عاتق الجماعة فإنّ الجهد في هذا المجال ضعيف ومحدود ومردّ ذلك إلى ضعف التحرك فردياً وجماعياً من جهة، وإلى ضخامة جهود أعداء الإسلام بمختلف وسائل الدعاية والتضليل والكبت والقهر من جهة أخرى.

ب - من حيث فهم الناس للواقع السيء: - يجري من خلال الحوادث والأزمات فيكشف تآمر السلطة على مصلحة الإنسان المواطن عامة والمسلم بشكل خاص وجهود الجماعة في كشف ذلك وربط سبب هذا الفساد بإبعاد الإسلام عن واقع الحياة لايزال دون المستوى المنتظر.

جـ - من حيث فهم الناس للجماعة ومواقفها: متقدّم نسبياً ولكن ذلك تمّ أغلبه بجهود سابقة تعتمد على الإرث التاريخي لجهود الجماعة السابقة، أما المواقف الجديدة:

١ - باستثناء مواقف المجابهة بشأن الدستور فليست بالعمق الذي يحدث تغييراً كبيراً في نظرة الناس عامة والإسلامية خاصة لجهود هذه الجماعة وحجمها في التصدّي لخصوم الدعوة والتمكين لهذا الدين

القويم.

٢ - ومن حيث الاتساع والشمول نلاحظ الظواهر التالية:

آ - التأثير في الرأي العام والعلاقة بالقوى الإسلامية العاملة ضعيف ومحدود، تشوبه السلبيات الكثيرة، ولعلّ من جملة أسباب ذلك، السلبية العنيفة التي تواجهها الجماعة من هذه القوى في مجالات العمل ونقاط التلاقي.

ب - التأثير في كسب الأنصار: جهود متقدمة وناجحة إذا قورنت بنشاطات الأحزاب الأخرى في مرحلة السرية هذه، ولكنها بحسب الانتشار في نقاط التجمّع البشري نراها تتكيّف في نقاط محدودة مثل مجالات الطلاب والمثقفين، وأوساط المدن في الغالب، وتتخلّف في أوساط الريف عامة وأصحاب المهن الأخرى غير ذات التخصّص الثقافي خاصة.

جـ - موقف العدو منها: يشعر العدو بوجود الجماعة من خلال الأخطاء الواقعة وبعض ظواهر الضعف أثناء الاعتقال والتعذيب، ومن خلال نمو الجماعة وتوسعها الطبيعي، وتتسم مواجهته لها بالاهتمام الشديد، ورغم أنّ العدو، بحكم موقفه العدائي من الإسلام، يتابع مخططه العلماني اللاديني على صعيد التربية والإعلام، لتصفية الفكر الإسلامي والحركي منه بوجه خاص، فإنه في مواجهته لحركة الجماعة يستخدم جهداً كبيراً من قواه لخنق حركتها بوسائل مختلفة أهمها:

- تحريك أجهزة القمع والرصد للملاحقة والاعتقال لمنع كل حركة إسلامية هادفة أو منظمة.

- تحريك أجنحة ضعيفة من المحسوبين على العلماء من أدعياء هذا الدين لملاحقة نشاط الجماعة وتشويه حركتها بأسلوب حرب الإسلام الصحيح بإسلام مشوّه يستهدف من تحريكه وتحرّكه الانفراد بالجماعة وعزلها عن القوى الإسلامية الأخرى، وعن عامة المسلمين.

ثانياً: استخدام وسائل الإعلام

وفي مجال استخدام وسائل النشر والإعلام نلاحظ الظواهر التالية:

١ - الكتاب الإسلامي: الإقبال جيّد على الكتاب الإسلامي وجهود الجماعة والمتعاونين معها في هذا المجال متقدمة نسبياً، غير أنّ السلطة تقف أمام هذه الظاهرة وتبذل محاولات لمنع صوت الإسلام الصحيح من التحرّك لأداء رسالته أهمها:

آ - حصر الكتاب طبعاً ونشراً وتوزيعاً بمؤسسات السلطة، ومصادرة أي كتاب ينشر خلاف قوانينها المعدة لهذه الغاية.

ب - ضغوط وصعوبات تستهدف منع تداول وبيع كثير من الكتب الإسلامية في المكتبات والمدارس وغيرها.

٢ - الإذاعة والصحف والتلفزيون: لا مجال للإفادة المباشرة من هذه الوسائل باعتبارها أداة السلطة في تنفيذ مخططاتها تجاه الإسلام

والمسلمين، وإذا انعدم الأثر الإيجابي لهذه الوسائل فلابدّ للجماعة من موقف تجاهها سنعرض إليه عند بحث متطلبات العمل.

الواقعية في مجال مهمة التكوين

الوسائل المستخدمة:

أولاً: البنية الفردية والمناهج وأساليب التربية: في هذا المجال نلحظ ضعفاً نسبياً في البنية الإخوانية مثل التخلف الروحي والضعف الفقهي يقل في بعض المناطق ويزيد في بعضها الآخر يعكس ظلالاً سلبية على تقدم العمل، وتبدو أهم أسبابه فيما يلي:

١ - في المجال الداخلي:

آ - الخلافات السابقة داخل قيادة الجماعة، وقد برئت منها أغلب مستويات الجماعة بفضل الله تعالى.

ب - قصور مستوى المناهج وأساليب التربية والإعداد ووسائل الاختبار عن تحقيق الصفات اللائقة بالجندي الرباني والمدرب والمربي والقائد، الذين تنتظر الأجيال رؤيتهم في ساحة العمل والجهاد ليجري الله على أيديهم تغيير الواقع الفاسد بالنموذج والقدوة والمنهج والفكرة والحركة.

جـ - الابتعاد عن المساجد.

- طبيعة العمل السري أضعف من تأثير دور القدوة في التربية.

- عدم التمييز بين مستويات الإخوة تجاه العمل السري.

د – عدم اهتمام الإخوة القدامى بشأن زواجهم من الأخوات الملتزمات حيث أحدث ذلك ظواهر ضعف في بنية البيت المسلم كذلك، تبدو في عجزه عن مقاومة ضغوط البيئة.

٢ – في المجال الخارجي: وهي ظواهر ناتجة عن ضغوط البيئة أهمها مايلي:

آ – التأثر بالنزاعات السلفية والصوفية على صيغة من التطرف ومجانبة الاعتدال والتوازن.

ب – الترخص في بعض العادات ومظاهر الترف والزي والآداب الإسلامية الأخرى تحت تأثير الأفكار والعادات الوافدة.

ثانياً: الأجهزة والخطط الفنية والفرعية

١ – يلاحظ نمو متقدّم نسبياً في مجال الأجهزة المختلفة في بعض المراكز، وتأخّر شديد في بعضها الآخر، وقد يتجاوز مستوى الإنجاز في بعض المراكز الأخرى احتياجات مرحلة الإعداد ويتعداها إلى المرحلة التالية.

وإذا قارنا مدى الإنجاز في هذا المجال بمدى الإنجاز في مهمة التعريف السابقة بدا الفرق كبيراً.

ويعزى سبب الضعف في الاهتمام باحتياجات مهمة التعريف من حيث الأجهزة اللازمة لها والمناهج والأساليب إلى مايلي:

آ – ردّة الفعل على طرق العمل القديمة التي كانت تكتفي غالباً بالتعريف والتجميع.

ب - طبيعة العمل السري.

جـ - وصول العدو إلى السلطة مما أغلق مجالات كانت مفتوحة للعمل العام وأحدث قنوطاً في النفوس من جدوى العمل العام.

د - الانكفاء على الذات بسبب الخلافات الداخلية السابقة.

هـ - هجرة أعداد كثيرة ذات كفاءة متفردة من الذين كانوا يعملون في حقل التعريف.

و - اكتشاف أهمية التكوين والحاجة إلى الأجهزة أحدث ردّة فعل تجاه مهمة التعريف.

ز - عدم وضوح الرؤية الصحيحة للعمل في هذه المرحلة، حيث أعطيت أهمية للأجهزة ربما كانت على حساب قضية التعريف بحجة أنّ الجماعة تعيش في مرحلة توازي العهد المكي، رغم أنّ العهد المكي كان مرحلة ذات مهمتين متوازيتين: تعريف وتكوين في آن واحد.

ح - التمسّك بفكرة (غرس مبادىء العقيدة أولاً) -وهي فكرة صحيحة وسليمة- أدى بشيء من التطرف في فهمها إلى اعتزال قضايا الناس ومعايشة الأحداث وعدم تحديد الموقف الإسلامي منها.

والملاحظ أنّ الجماعة اليوم استردت مسارها الصحيح إن شاء الله تعالى، واتجهت لإعطاء مهمة التعريف حقها من الاهتمام، وباستعراض أنواع الأجهزة العاملة على ضوء توزيعها على المراحل نجد مايلي:

٢ - الأجهزة الأساسية: وهي من حيث التشكيل والوجود تبدو على مظهرين:

آ - أجهزة أساسية تباشر عملها على مستوى المكتب التنفيذي، وأغلب المراكز وهي التالية:

أجهزة التعريف -أجهزة التكوين - قسم الأخوات - لجنة التوعية السياسية - قسم النشر ورصد الكتاب.

وهناك أجهزة فرعية خاصة تقوم بنشاطات إعلامية داخل أجهزة التكوين أهمها: (أجهزة المجلات الداخلية لقسم الأخوات والجهاز الجامعي) وهذا كلّه في بعض المراكز الكبيرة فقط.

ب - أجهزة أساسية في حيز المشروع والتفكير الأولي رغم أهميتها وشدّة الحاجة إليها وهي التالية: (أجهزة الحيطة والأمن - الإحصاء - التخطيط).

٣ - الأجهزة الضرورية: أما بالنسبة للأجهزة الضرورية التي تعتبر من مهمات المرحلة التالية فقد تفردت بعض المراكز بإنجاز كثير منها، مثل: (جهاز الأطباء والمهندسين والناشئة والعمال والريف. . إلخ). .

بعضها وضعت له خطة عمل فرعية واختصاصية، والآخر لايزال ينتظر ذلك.

كما استحدث المكتب التنفيذي، تبعاً لهذا التوسع، أجهزة أخرى مثل (البريد - المحفوظات - الأشرطة المسجلة - المغتربين) وضع

لبعضها خطة عمل، والبعض الآخر ينتظر ذلك.

والظواهر الملاحظة على هذه الأجهزة مايلي:

آ - أجهزة التعريف:

- العمل المسجدي: رغم أهميته، فظواهر العمل المتقدمة غير متكافئة مع هذه الأهمية في كافة المراكز.

- نشاط فرق الدعوة في القرى والريف: دون مستواه، رغم وجود الاستعداد الفطري، والاستجابة السليمة.

- مجالس الأحياء المنبثقة عن نشاط أجهزة العمل المسجدي للقيام بمهمة الخدمات الاجتماعية والتأثير في البيئة لايزال وجودها ونشاطها شبه معدوم.

ب - أجهزة التكوين:

- قصور عددي في ملاكات الموجهين والمدربين ودورات التدريب.

- عدم وجود متفرغين ومتخصصين في التوجيه والتدريب وهجرة عدد منهم خارج القطر.

- عدم تنوع المناهج من أجل التفاعل مع البيئة كملاحظة بيئة العمال والطلاب والنساء.. إلخ.

- ضعف علاقة الموجه والمدرب بالأخ عضو الأسرة، واختصار هذه العلاقة على وقت الجلسة الرسمي، وعدم المعايشة والصحبة

الصادقة ومعالجة ظواهر الضعف والمشكلات الطارئة.

جـ - قسم الأخوات: نشاطه، بوجه عام، متأخر وإذا لوحظ تقدم نسبي في بعض المراكز فسببه أمور أهمها:

- حجم المدن الكبيرة المليئة بالكفاءات.
- قدم عمل الأخوات في بعض المراكز.
- بشكل عام يتناسب حجم العمل في هذا القسم مع حجم العمل التكويني الآخر في المركز.

تتسم ظواهر العمل في هذا القسم والعقبات أمامه بما يلي:

- ضعف الوعي الحركي بسبب عدم وجود المنهاج الاختصاصي.
- عقبات الزواج.
- عدم وجود كاتبات في الفكر الإسلامي والعلوم الشرعية.
- ضعف البنية الفردية من حيث قدرة الأخت على الحركة والنشاط الدعوي ضمن الأقارب وذوي الرحم.
- التأثر بضغوط الموجة الغربية الوافدة، ونشاط السلطة الإعلامي الخاص بالمرأة.
- عدم كفاية الجهود المبذولة لسد حاجة العمل في مجال التعليم والتدريس من الأخوات رغم تقدمه على المجالات الأخرى نسبياً.

د - جهاز التوعية السياسية: عمله متقدم يعتمد في ذلك على لجنة مركزية ومندوبين عن المراكز وخطة عمل متقدمة.

ثالثاً: القيادة والنظام الداخلي

١ - تعاني القيادة ممثلة في المكتب التنفيذي من الصعوبات التالية:

آ - غياب القياديين القدامى ذوي الخبرة والتجربة عن ساحة العمل الفعلي بالهجرة أو القعود.

ب - عدم الأخذ عملياً بمبدأ التفرغ للمستويات القيادية العالية.

جـ - عدم إدارة العمل القيادي على أساس التخصص واللجان وتنفيذ الخطط والبرامج المرحلية نحو هدف معيّن ووفق خطة معينة، وهناك صعوبات بعضها ناشيء عن غموض النظام الداخلي في بعض مواده.

د - كعدم تطوير مبدأ الانتخاب المنصوص عليه، بحيث يحقق الشورى والثقة واختيار الأكفياء.

هـ - عدم تطوير مبدأ التعاون والعلاقة بين مجلس الشورى والمكتب التنفيذي للمشاركة في الفكر والفهم وتحقيق المتابعة ورصد النتائج، أو عدم تنفيذ مضمون ما أشار إليه النظام من حيث ضرورة تشكيل اللجان العاملة في المراكز وتمثيلها في اللجان المركزية المماثلة تحت إشراف المكتب التنفيذي من أمثال لجنة التوعية السياسية، والتوجيهية والأمنية والمالية. . .إلخ. .

٢ - وأخيراً: الحاجة إلى تقوية الصلة والعلاقة بين قيادة الجماعة في سورية، وقيادات الجماعة في الأقطار المجاورة والحركات

الإسلامية خارج القطر عموماً.

متطلبات العمل العاجلة

بعد عرض ظواهر العمل في مختلف وسائله ومهماته، تتضح لنا الحاجات والإجراءات التي ينبغي تنفيذها لبلوغ نهاية المرحلة وفق الأولويات التالية:

في مجال التعريف:

١ - العمل المسجدي: وضعت خطة للعمل المسجدي وينبغي متابعة تنفيذها وتدعيمها بالعاملين الأكفياء، وأن تنقل إلى المسجد أغلب المناهج الثقافية والشرعية الممكنة، للتعريف بالإسلام من خلالها، ونقد الواقع على ضوء المواقف الواردة في الخطة، فضلاً عن المناسبات الإسلامية، والدورات والحلقات التي تستوعب مختلف المستويات والأعمار، وتستهدف ربط المسلم بالمسجد والعودة به إلى مكان القيادة في المجتمع، وملاحظة موظفي المسجد والعناية بهم، ودعم مجالس الأحياء وقيامها بمهماتها المشار إليها في الخطة العامة هذه.

٢ - فرق الدعوة: ينبغي وضع خطة عمل خاصة بها تشمل الأمور التالية:

- ملء المساجد غير المشمولة بخطة العمل المسجدي السابقة لاسيما مناطق الريف والأحياء النائية بالنشاط اللازم المتتابع المستمر، وتأمين الأكفياء لهذه المهمة من عناصر الطلبة كمتمرنين تحت إشراف

ذوي الخبرة والمواهب والاختصاصات الشرعية بعد إجراء الدورات العلمية والتدريبية اللازمة.

- الاهتمام بطلبة العلم الشرعي عامة والاستفادة من جهودهم واستثمارها.

- التأكيد على ضرورة جمع المؤهل العصري العلمي إلى جانب المؤهل الشرعي دعماً للعيش الكريم وتمتين الصلة المباشرة بالمجتمع.

- التأكيد على وجوب التعلق بالريف وعدم هجرة العاملين منه وخاصة أهل العلم الشرعي والدعاة.

- تغطية نشاط هذه الفرق بالانتساب إلى الجمعيات الخيرية المرخصة.

٣ - أجهزة الاتصال والتعاون مع القوى الإسلامية العاملة: ينبغي وضع خطة عمل خاصة تعالج مهمتها ووظائفها بحيث تشمل الأمور الآتية:

- مسح وإحصاء هذه الجماعات لمعرفة حجمها، والتيارات الداخلية فيها، ومنحنى تقدمها وتراجعها، مع التعليل والتفسير.

- جمع نتاجها ودراسة مؤسساتها.

- وضع الخطة التي توضح أسلوب العمل إزاء كل جماعة منها بعد تعرف مواطن القوة والضعف في عناصرها.

- عقد الصلة المباشرة مع المستويات المختلفة فيها، وتفقّد

أحوالهم في المنشط والمكره والمناسبات وتقديم النصرة لهم عند الحاجة.

- بذل النصيحة حول أساليب العمل لمنع الانحراف والتنافس المؤذي أو لتجنّب خطر محدق وعرض الخدمات الممكنة.

- إطلاعهم على الواقع من وجهة نظرنا في مراحل الاضطرابات والأخطار.

- إظهار التعاضد أمام العدو.

- الإلحاح والتمسك بالقاسم المشترك المتفق عليه.

- عدم تعجّل النتائج واعتماد الصبر الطويل.

- الاهتمام بالإيجابيات على صعيد الفرد والجماعة والمركز والقطر، وتجنب التعميم الخاطىء للحالات الخاصة والنادرة.

- تتبع هذه الملاحظات بالنسبة للعلماء، الأصدقاء منهم والمحايدين، بعد مراعاة الفروق الفردية بين كل منهم.

أما الخصوم من العلماء فتدرس أسباب العداوة لنعمل على إزالتها إن كانت متعلقة بنا، أما ماله علاقة بسوء النية والعقيدة فيعالج بالحكمة حتى نقطع الشك باليقين، ثم يتدرّج في الكشف والمواجهة حسب المرحلة التي تمر بها الجماعة.

ويقف في طليعة الواجبات نحو هذه القوى اتخاذ الموقف الصحيح تجاه الإخوة الذين لايزالون يعملون خارج التنظيم الشرعي.

إن علاج الوضع يتطلب جهوداً أهمها:

- الابتعاد عن أي إثارة للماضي، وتوزيع الاتهام وإثارة الشبهات.

- عدم الدخول في مناطق المنافسة في العمل، ومعالجة هذه الحالات بروح الأخوة والإيثار ولو على الأقل من جانبنا.

- الدعوة المستمرة الصادقة إلى وحدة الصف وتبادل الرأي في الأمور الطارئة والمعلومات الهامة، والخطوات الأساسية والمواقف الصعبة، لأنّ الحفاظ على سلامة الفكر والتمسك بالتراث واستنباط الحلول والمواقف المتشابهة، وتوحيد الرؤية للمستقبل ركائز كبيرة وهامة من أجل توحيد صيغ العمل ووحدة الفكر وبالتالي وحدة التنظيم فيما بعد.

- توثيق الصلة مع الإخوة المعتدلين، وتبادل الخبرة والرأي دون إلزام بالمواقف.

- لايجوز أن يؤثر ذلك كله على سير العمل داخل التنظيم أو يجمده، لأنّ العمل بطبيعته لايتصادم مع أي تقارب أخوي فضلاً عن أن أي تقارب ينبغي أن يزيد العمل فاعلية وقوة.

٤ - دعم العمل الفردي في مجال التجمعات البشرية التي لم تتشكل فيها نواة عاملة وعلى وجه الخصوص: (الأوساط العمالية - بقية دوائر الدولة ومؤسساتها - المجالات الهامة والحساسة في النقابات والنوادي والجمعيات).

وينبغي الإلحاح على الاهتمام بمهنة التدريس والتعليم رغم

المستويات المتوفرة حالياً ومعالجة الصعوبات التي تدعو الإخوة للابتعاد عنها. ويكفي لبيان أهميتها وخطورتها أن نقول:

إن السلطة تعتبر معركتها اليوم مع القوى الإسلامية أشدّ ماتكون في مجال التربية والتعليم.

٥ - ملاحظة الحاجة إلى الكتابة والتأليف في نواة البرنامج الإسلامي العام عن العمل والعمال والمرأة والطلاب والريف والموظفين.

٦ - استثمار رصد أجهزة الإعلام الرسمية ضمن العمل المسجدي ومجالات التعريف الأخرى.

٧ - الاستفادة من المغتربين والصحافة الموالية في مجال التعريف باعتبارها أقنية توصيل للرأي العام العربي والأجنبي.

مجال التكوين

١ - في البنية الفردية:

- مراعاة التوازن في البنية التربوية الفردية للأخ المسلم، وملاحظة ذلك في مناهج العمل والتدريب، وعدم الترخص في مظاهر السلوك والعادات المخالفة لآداب الإسلام.

- ربط النشاط الإسلامي بالمسجد ما أمكن.

- التخفيف من قيود السرية كلما ارتقى مستوى الأخ التنظيمي والحركي مما يتيح للثقة والوعي والخبرة أن تؤهله للمستوى اللائق أو

المتوقع.

- تعميم دراسة فكر الدعوة والتأكيد على استيعاب آثار الإمام البنا رحمه الله واعتبارها أساساً في فهم الدعوة الصادر عن كل من خلفه من القادة ورجال الفكر مع عدم التحول من خلال ذلك إلى خصومة مع القوى الإسلامية العاملة.

- تعميق مفهوم جدية الدعوة والتأكيد على مواصفات الجندية الربانية والحذر من غلبة الطابع الثقافي في العملية التربوية.

- التأكيد على العناية بسن الطفولة ودعم ذلك بالبرامج والتنظيم والرحلات والتأليف والأشرطة ورياض الأطفال، ووجوب تعاون البيت المسلم وجهاز الأخوات والعمل المسجدي وبقية الأجهزة المختصة للوفاء بهذه المهمة الأساسية.

- التأكيد على وجوب الحرص على التفوّق العلمي، إلى جانب الحرص على العمل الحركي في المجال الطلابي، وألا تعارض بينهما مع معالجة ظواهر الضعف.

٢ - في الأجهزة العاملة:

- استكمال تشكيل بقية الأجهزة الأساسية، مثل: (جهاز الحيطة والأمن -الإحصاء والتخطيط - الأخوات) وتعميم ما يجب تعميمه منها على المراكز.

- إنجاز تشكيل أجهزة التدريب على مستوى المراكز وتمثيلها في لجنة التدريب المركزية، ووضع خطة عمل لها بعد دراسة واسعة

وسريعة، رغم أن هذه الأجهزة يقع عبء استكمالها على عاتق المرحلة التالية، إلا أن بدايات تشكيل النواة العاملة على مستوى المراكز والقيادة وصياغة الأخ القوي في جسمه يفرض وجوب بذل الجهود الجدية والمجدية بشأنها في هذه المرحلة على مستوى التدريب فقط. فالهدف المطلوب من هذه الأجهزة في هذه المرحلة: إنجاز الإعداد الفردي على مستوى اللياقة الفردية، ثم تتطور في المرحلة القادمة إلى مستوى الخبرة الفنية والتعبوية، بحيث تنتقل إلى ممارسة العمليات المادية في مرحلة التنفيذ.

- تأمين العدد الكافي من المدربين والموجهين وتعميق المستوى وتأهيل اللائقين المتفوقين لتفريغهم للعمل.

- تنويع المناهج بحيث تعالج مشكلات الواقع الخاص بكلّ تجمّع بشري.

- توثيق صلة المدرب والموجه بعنصر الأسرة، وملاحظة مسار العمل الفردي وتطوره ومشاركة قيادات الأجهزة والمختصين بدراسة ظواهر الضعف، ومتابعة تنفيذ الحلول المقترحة بهذا الشأن حتى تختفي تلك الظواهر المشاهدة.

- معالجة ظواهر ضعف العمل في جهاز الأخوات باتخاذ الإجراءات السليمة لتحقيق زواج الإخوة من الأخوات، لتكوين البيت المسلم الصالح مع مراعاة الاعتبارات الشرعية وظروف التكافؤ الأساسية.

- دعم الملاك العددي لجهاز النشر ورصد الكتاب

بالاختصاصيين، ومشاركة المراكز في أعماله وربطه بالمكتب التنفيذي ووضع خطة عمل لمهماته، وتأمين أدوات العمل اللازمة له.

- تشكيل لجان سياسية في المراكز تمثل في اللجنة المركزية التابعة للمكتب التنفيذي، وعدم الاكتفاء بمندوبين سياسيين عن المراكز وتوجيه عناصر متفوقة للتخصص العالي في الشؤون السياسية.

- دعم أجهزة البريد والمواصلات بضرورة مشاركة المراكز في تسهيل عملها بصورة جديّة، ووضع خطة تدريب تتناول المرسل والمرسل إليه والمراسل والرسالة شكلاً ومضموناً وواسطة الانتقال وأماكن الاستلام والتسليم ومواعيدها بما يحقق الحيطة والحذر والسرعة.

- دعم الجهود المبذولة لتأسيس جهاز المحفوظات ولجان الفرز فيه وأدوات العمل ووضع خطة تدريب لمندوبي المحافظات بعد استقرار العمل المركزي وتنفيذ خطة العمل الموضوعة لذلك.

-إنجاز المهمات الملقاة على عاتق جهاز الأشرطة المسجلة، بفرز الأشرطة وتعميم الفهرس ومتابعة ذلك وإخراج الشريط المنوع بالمستوى اللائق وإيجاد صيغة مبيع للمستهلك العادي فيما لا يشكل مضمونه خطراً أو حرجاً.

- وبالنسبة لباقي الأجهزة المستحدثة في بعض المراكز فالأمر يتعلق بمدى الحاجة إليها في المراكز الأخرى. وننبه إلى ما يلي:

- تبادل الخبرة والمشاركة تحت إشراف المكتب التنفيذي،

وتدارك الحاجات في هذا المجال.

- تفادي خطر التوسّع والتضخّم لماله من أثر على تعقيد العمل وفقدان المسؤولية، لا سيما الأكفياء العاملون دون كفاية الحاجات الأساسية فضلاً عن الكمالية الزائدة.

٣ - في القيادة والنظام:

- الوقوف أمام الهجرة في القيادات بوضع الحلول للمشكلات المسببّة لها سواء ما كان منها ناتجاً عن أعباء مادية صعبة أو عن تدهور في الروح الحركية يدفع إلى الانسحاب من ساحة العمل.

- استعادة المهاجرين بوضع الحلول السليمة على ضوء البند السابق، مالم يكن هناك عائق أمني يمنع من ممارسة عملهم في الدعوة والحياة.

- بذل المحاولات الجدية المتكررة لوضع القاعدين عن العمل الحركي أمام مسؤولياتهم، ومعالجة أسباب القعود، وتيسير المشاركة والمواكبة لهم على أي صورة ممكنة دون تأثير على خطر سير الحركة.

- الأخذ الفعلي بالتفرّغ للمستويات القيادية، ورسم سياسة مالية وأمنية تتناول المستويات الأعلى فالأدنى حسب الحاجة والكفاءة.

- إدارة العمل وفق أسلوب نشاط اللجان المركزية، والتحرك ضمن مخطط محدد، لتنفيذ المهمات وتحديد الأولويات للوصول إلى الهدف.

- تطوير مبدأ الانتخاب لتحقيق الشورى والثقة واختيار الأكفياء.

- دعم العلاقة والتعاون بين مجلس الشورى والمكتب بصورة تتم فيه المشاركة في مجال الفكر والفهم الموحّد، وتحقيق المتابعة ورصد النتائج، ويتم ذلك من خلال إعادة النظر في النظام الداخلي بحيث تستدرك الأمور المذكورة.

- إعادة النظر في النظام والمناهج والخطط الفرعية والفنية المقترحة والنافذة للتوفيق فيما بينها وبما ينسجم مع هذه الخطة والخطوات التي تسير فيها الجماعة.

❋ ❋ ❋

خاتمة

وأخيراً لا بد من ذكر الملاحظات التالية:

١ - رغم الجهود المبذولة فهذه الخطة بحاجة دائماً إلى مراجعة من قبل ذوي الخبرة والاختصاص والقادة، لأنها نتاج بشري لا يبرأ من النقص، ولأن التطبيق العملي لها والظروف المستجدة كفيلة بالاستدراك والتسديد.

٢ - رأت لجنة الخطة خلال عملها أنها أمام صيغ ومصطلحات مختلفة لمراحل العمل داخل الخطة باعتبار هذه المراحل البنية الأساسية للمشروع.

- بعضها يعتبر أن مرحلة التعريف تلحق مرحلة التكوين أخذاً بفكرة أن التبليغ العام يواجه صعوبات وتكاليف في العهود السرية، ومواجهة أنظمة الحكم المعادية لا تحتملها الجماعة مالم تكن قاعدتها الصلبة بلغت مستوى تعجز عنه السلطة في استئصالها.

- بعضها اعتمد ما ورد في أقوال الإمام البنا رحمه الله عند الحديث عن مراحل الدعوة في أنها ثلاث:

(التعريف فالتكوين فالتنفيذ)

ومع ذلك فقد ساد عمل اللجنة فهم مشترك واحد للمهمات

والأهداف واتفاق في الرؤى العامة للحركة، ووجـدت اللجنة بأغلبيتها عند الصياغة النهائية للمشـروع أن التصوّر الأقرب لواقع الجماعة اليوم هو الجـمع بين مهمـتي التعريـف والتكوين واعتـبارهما مرحـلة واحدة أخذاً بأقـوال الإمام البنا رحـمه الله، واسـتفادة من الـسيرة النبـوية في عهدها المكي كما سبق وأشرنا إليه.

أما تعبير مصطلح (مرحلة تطوير الـقوى) فقد أملته طبيعة الموقف العـام للجمـاعة مـن السلطة فـي المرحلـة الأولى المتـمثـل بالاختـفاء والإعداد مـن جهـة، وطبيـعة المـرحلة الأخـيرة (الـتنفيـذ) المـتمـثلة بالـحركـة الجهـادية المـستـمـرة من جهـة أخرى. ولا بـد من مرحـلة متوسطة تضع الجماعة فيها نفسها بخط متدرج مع الأعباء، من المحن والتكـاليف المقـبلة، لأنه مـالم تتعـامل الجمـاعة مع الـواقع المبـاشر فتـطور إمكانيـاتها علـى ضوئه، لا يمكـن أن تكون نفـسها في الـفراغ لتواجه عدواً لم تشتبك معه في أي موقف ولا تقدر قوته حق قدرها.

كما أن إقـامة الحكم الإسـلامي تتطلب إعداداً واسـتعداداً مخـتلفاً عن أي مـخطط جـاهلي لاسـتلام السـلطة، وأن أي تسـرّع مخـفق أو نكسة، لا سـمح الله، تقضي على آمـال أجيال وجهود قـد يسأل الله عنها المتسرعين قبل المتريثين.

أما مهمة الاختبار في مرحلة الإعداد وبرهان إنجاز كل مرحلة فقد اعتـبرت نـمطاً ضـرورياً لا بد منه فـي فكر الجـماعـة وحركـتهـا على مختلـف المستويات للخـروج من الارتجال والغمـوض وللوصول إلى مستوى جيد من القدرة على تقدير المواقف وإصدارالأوامر المناسبة.

كما أن الخطة لم تتعرض للتفـصيل في أسلوب الحسم والحركة،

وكيفية ممارسة الحكم ودراسة أعباء الدولة الإسلامية الجديدة خلال بحثها لمرحلة التنفيذ. لهذه الاعتبارات المشار إليها، ولاعتبارات أخرى أهمها:

- خشية الوقوع في قوالب مستحدثة للحركات الانقلابية والثورية الحديثة غير المنضبطة بقواعد شرعية.

- آثرنا تعبير الجهاد وسيلة أساسية، فله معطياته الشرعية والتاريخية، وترك للقيادة تفصيل الخطوات الدقيقة وفق الواقع الذي تواجهه لحظة الحسم.

- للإمام البنا رحمه الله موقف من مصطلح (الثورة) ورأي في القوة والخلافة ينبغي أن يكون من أهم ضوابط الفكر والحركة أثناء مرحلة التنفيذ.

- ينبغي التحذير من أن تنقلب الحركة الجهادية ضد الوجود المناوئ إلى فتنة عمياء لا تفرق بين عدو وصديق، فوزر ذلك كبير لا يزول أثره بسهولة.

- إن الغاية هي رضوان الله تعالى فلا يجوز أن تكون الوسيلة إليها متناقضة معها.

٣ - ليست العبرة بكتابة الخطة وإنما العبرة بتنفيذها، ولا يجوز أن يكون الأمر الذي يشغل بال الجماعة منذ تأسيسها حتى الآن هو عدم وجود خطة فقط، بل إن وضع الخطة موضع التنفيذ هو غاية الجماعة من وضع الخطة.

٤ - عانت اللجنة خلال عملها من نقص كثير في المعلومات

والإحصائيات عن واقع الجماعة وعن الأصدقاء والأعداء.

وفي سبيل تدارك ذلك ينبغي أن تقوم أجهزة الإحصاء والتخطيط في الجماعة بجهود كبيرة ومجدية مما يسهّل عمل لجنة الخطة في المستقبل.

٥ - تعتبر كافة مشاريع الخطط المقدمة سابقاً والملاحظات عليها والمقترحات بشأنها إطاراً لهذه الخطة وجهوداً تمثل مختلف فعاليات الجماعة، ومرجعاً على وجه الخصوص لبعض العموميات الواردة في الخطة تجاه كثير من مهمات ومواصفات الأجهزة والمناهج والنظام فتعتبر بذلك دليلاً هاماً عند الحاجة إلى التفصيل.

كما تعتبر أقوال الإمام البنا والشهيد سيّد قطب رحمهما الله تعالى في الفكر والتنظيم ومنهج الحركة مرجعاً أساسياً للوصول إلى رؤية موحدة ومواكبة متوازنة للفكر الإخواني الذي يجمع بين الممتحنين داخل السجون وخارجها فيوحّد الرؤية ويضم الخطوة إلى الخطوة في سبيل بلوغ الهدف ونوال الغاية. وصلى الله على سيدنا وقائدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين... والله أكبر ولله الحمد.

أقرّ مجلس الشورى هذه الخطة بالإجماع باستثناء مندوب / حمص/ لعدم تمكنه من الحضور واعتمدها فضيلة المراقب العام.

في التاسع عشر من رمضان عام ١٣٩٧ الموافق للثاني من أيلول عام ١٩٧٧.

* * *

تعقيب

بالرغم من مرور حوالي ثلث قرن على اعتماد هذه الخطة للجماعة، آثرتُ عرضها كما هي، ولو قيض لي كتابة خطة بديلة أو معدلة في العام ٢٠٠٨ لكتبتها بصيغة أخرى، تجنباً لما ورد فيها من تكرار وتداخل وتفرع تلو تفرع، بحيث يكون فكر القارئ لها عرضة للالتباس وعدم الإحاطة بها، أقول: لو أعدت كتابتها، لعرضتها عرضاً سهلاً وميسوراً، ومختصراً ومتسلسلاً، دونما تكرار وتفصيلات كثيرة وتفرعات مسهبة، لتكون واضحة في أفكارها وبيان أهدافها، حتى لا يجد من يقرؤها ويطلع عليها أي "إبهام" أو حيرة أو التباس.

وبالرغم من هذا الانتقاد الذاتي في أسلوب الخطة، فإن هذه الخطة التي أقرها مجلس شورى الجماعة منذ أكثر من ثلاثة عقود تحتوي على أفكار سبقت عصرها، وتضمنت رؤية متقدمة في الفهم والإحاطة الناضجة في أهداف الرسالة الإسلامية، ووسائل التغيير الدعوي والسلمي للوصول إلى تحقيق ما تصبو إليه البشرية من بناء المجتمعات المثالية.

إن الهدف من نشر هذه الخطة لأول مرة هو إطلاع الباحثين والدارسين والمؤرخين والمعنيين بالفكر الإسلامي الذي طرحته حركة الإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية في العالم ليقرأه

الآخرون بعمق وإحاطة، وليدركوا المستوى الرفيع المتقدم الذي بلغته جماعة الإخوان المسلمين في جهادها المبارك في خدمة الرسالة الإسلامية الخاتمة وليصلوا إلى اقتناع بأن الإسلام وأن الجماعة التي عاهدت ربها على خدمته وتبليغه والالتزام به، إنما هو مصدر خير وسعادة ليس للمقتنعين به وحاملي رايته فحسب، بل للإنسانية كلها على مر العصور والدهور، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

المؤلف

ملحق رقم (أ)

محمد المبارك
كبير الدعاة والمفكرين

حملني على كتابة هذا الملحق عن أستاذنا الداعية محمد المبارك رحمه الله أمران ماثلان في الذهن وحيّان في الشعور:

أولهما: أن المبارك لم يأخذ حقه من التقدير والاحترام ممن عاصره، وممن سمعه وتلقى عنه، ومن الباحثين والدارسين للشخصيات ذات الأثر الكبير في مجرى الأحداث، وفيما قدموه في سبيل الله والدفاع عن الإسلام من جهد لا يقدر عليه إلا من أمده الله تعالى بالعون والتأييد.

ثانيهما: أنني عرفت الأستاذ الكبير عن قرب، نائباً ووزيراً وأستاذاً جامعياً وعميداً لكلية الشريعة، وخبيراً ثقافياً وتربوياً في الجامعات العربية في السودان والسعودية والأردن، ومحاضراً أكاديمياً بارعاً. وكنت أزوره بشكل دائم في مقرات عمله، في وزارة الزراعة في مطلع خمسينيات القرن الماضي عندما استلم حقيبتها في وزارة حسن الحكيم عام ١٩٥١ وكان يتعامل معي وأمثالي بمودة وتشجيع على

طرح الأفكار وإبداء الآراء، والاستماع إلى المقترحات، وكأننا من جيل واحد، ولم أكن قد تجاوزت من العمر اثنين وعشرين عاماً.

١- كان أستاذاً متعدد المواهب، موسوعي الفكر والثقافة، برع في المجلس النيابي السوري عندما انتخبه سكان العاصمة في الأعوام ١٩٤٧ و١٩٤٩ و١٩٥٤، كبرلماني لامع في مناقشاته ومقترحاته والبرامج الإصلاحية التي كان يتقدم بها، والتي يحتاج حصرها إلى كتاب خاص في موضوعات السياسة الخارجية والإصلاح الداخلي، والدفاع عن الفئات الضعيفة من عمال وفلاحين وحرفيين، وحث الحكومات المتعاقبة على تأمين غذاء ذوي الدخل المحدود، ولاسيما رغيف الخبز للفقراء، وتأمين حاجات المواطنين في المياه والكهرباء والضروريات، كما كان رحمه الله كالسيف في مواجهات الأحلاف الأجنبية وأطماع الدول الاستعمارية في سورية طيلة حياته السياسية، فكان في وطنيته علماً خفاقاً وصوتاً مدوياً، كالطود في التصدي لجميع المؤامرات التي كانت تحوكها المخابرات والدول الكبرى ضد الوطن العزيز.

٢- أنجز في وزارتي الأشغال العامة، والزراعة اللتين شغل حقيبتيهما مشروعات لا تنسى، ولا تمحى آثارها مثل تأمين الأرض وتمليكها (للمزارعين والفلاحين المحرومين من الملكية من أراضي الدولة) ما يجعلهم مواطنين مالكين، وتشييد ميناء اللاذقية العملاق في عهده والإشراف عليه والتعجيل به، والذي كان وما يزال رئة الوطن السوري في تجارته واتصاله بالعالم الخارجي وفيما وراء البحار.

٣- ولد الأستاذ المبارك في دمشق عام ١٩١٢ لأب عُرف بالعلم

والفضل، فكان علماً من أعلام العربية، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ الساعات الأولى لتأسيسه في الفترة القصيرة من تتويج الملك فيصل الأول ملكاً على سورية، كما كان مرجعاً في اللغة العربية، شِعرها ونثرها ومفرداتها وقواميسها، والاشتقاق من مصادرها في تسمية المستجدات من إفرازات الحضارة والمخترعات ومعطيات الحياة الحديثة، فكان هذا الوالد المدرسة الأولى لشيخنا محمد المبارك في تلقي العلم، والتحلي بالخلق السامي والأدب الرفيع، والعكوف على مكتبة هذا الوالد التي ورثها عن أبيه، وأورثها لبنيه، فكان الشيخ المبارك خريج هذه المكتبة، كما كان منذ حداثة سنه خريج مدرسة والده الشهير العالم اللغوي الكبير عبد القادر المبارك.

ووالده عبد القادر هو حفيد مجاهد من أعوان عبد القادر الجزائري الذي قارع الفرنسيين حوالي عشرين سنة، فلما غُلب على أمره أمام فرنسا المدعومة من الدول الأوربية عام ١٨٤٥، غادر الجزائر، ومعه المخلصون من أعوانه، ليجدوا في دمشق العروبة والإسلام ملاذاً لهم، وتعويضاً عن وطنهم الغالي الجزائر.

استفاد المبارك من الحضور الكبير لعلماء الدين واللغة في دمشق الذين كانوا يؤمون دار والده، ويعقدون فيها الجلسات العلمية، فكان دائم الحضور والاستماع إلى جهابذة العلماء الدمشقيين في لقاءاتهم وندواتهم.

٤- كان للمبارك إخوة عرفت منهم ثلاثة، هم هاني خريج أول دفعة في كلية الآداب ليحمل ليسانس التاريخ منها، ولم يكن لي اختلاط واسع معه، والدكتور مازن المبارك الذي جمعتنا الدراسة في

القاهرة، والسكن معاً في حي الدقي في العاصمة المصرية، والدكتور مازن حاد الذكاء يميل إلى الدعابة والطرفة، وهذا ما جعله لطيف المعشر، وقريباً من قلوب عارفيه، فكان بيننا مطارحات ومداعبات لطيفة، حتى إذا ما ذُكر بعضها أمامه، تذكر تلك الأيام الخوالي التي قضينا فيها صحبة لا تنسى، وعرفت كذلك أصغر إخوة الأستاذ المبارك في أبو ظبي: عبد الهادي الذي جاءها ليكون المشرف أو المراقب على برامج الإذاعة فيها. والجميع تشدهم إلى الإسلام أواصر، تتراوح بين العاطفة والالتزام بشكل أو بآخر.

٥- حبا الله، جل ثناؤه، أستاذنا المبارك، رجحان العقل، وعمق التفكير، وحدة الذكاء، وبعد النظر، الأمر الذي أهله للاضطلاع بالدور الكبير الذي قام به كواحد من الدعاة الكبار إلى الرسالة الخاتمة، وكما أن القدر هيأ له مصادر في العلم والثقافة والمعرفة، ليرى فيه من عرفه وخالطه مصلحاً بارزاً في ميادين متنوعة، يواجه فيها الأمور والأحداث بشخصية موسوعية الفكر والعلم والثقافة.

أ- كانت مدرسته الأولى التي رضع لبانها، وترعرع في كنفها أسرته التي ورثت الفقه وعلوم اللغة وأصولها كابراً عن كابر، فكان الشيخ المبارك وريثها والمؤتمن عليها، فكان يشرف على تعليم العربية في المدارس الثانوية في جميع المحافظات السورية (كما أسند له تدريس فقه اللغة في الجامعة فيما بعد) وهذا ما أتاح له تدعيم مراكز الجماعة في عدد من المدن الكبيرة، كانت اللاذقية من أبرزها وفي مقدمتها.

ب- ثم إنه تلقى علوم الشريعة وعلم الحديث الشريف على يد

المحدث الأكبر في بلاد الشام الشيخ بدر الدين الحسني طيب الله ثراه، والذي تتناقل الأجيال، كما سمعنا عن آبائنا وممن سبقنا، قصصاً عن صلاحه وتبحره في علم الحديث الشريف، وعن سمته الإسلامي ومحبته للمصطفى ﷺ، وتأدبه في مسجده الشريف عندما كان يزور المدينة المنورة، وعن أثره فيمن يستمع إليه عندما كان يقوم بجولات دعوية في المحافظات السورية.

عن هذا العالم الرباني أخذ أستاذنا المبارك روح الدعوة الإسلامية، وتخرج في مدرسته، ونهل من ينبوعها الثر، وتشرّب مبادئها، وتلقى عن شيخه الحسني علوم النحو والصرف والتفسير والفرائض والكلام والبلاغة والحساب والجبر، وإن كان لمصطلح علم الحديث الحظ الأوفر والأوفى.

جـ- بعد تخرجه في كلية الحقوق والآداب في دمشق عام ١٩٣٥ نجح في مسابقة أجرتها وزارة المعارف فكان الأول من بين المتسابقين، فشد الرحال إلى باريس، والتحق بجامعة السوربون ذات الشهرة العالمية، وأقدم الجامعات الأوربية كمثيلتها جامعة أكسفورد في بريطانيا، فحمل من السوربون ثلاث شهادات في الأدب الفرنسي، وفي اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وفي علم الاجتماع، واستمع إلى مستشرقين كبار من أمثال ماسينيون، وإلى أساتذة له في تخصصه، أخصّ منهم دوركهايم مؤسس علم الاجتماع في عصره، دون أن يفوته الاستماع إلى محاضرات، والمشاركة في منتديات، وزيارة معاهد علمية وأندية ثقافية على اختلاف ألوانها وتوجهاتها.

لم تشغله دراسته الجامعية ونشاطاته الثقافية عن الاتصال بجمعية

العلماء المسلمين الجزائرية، وممثلهم الفضيل الورتاني، رحمه الله، أحد رواد حركة التحرير في الجزائر.

٦- تلاحقت الأحداث في سورية عندما أعلنت الحكومة إجراء انتخابات نيابية للبرلمان السوري بعد انقضاء دورته ١٩٤٣، فاختار الإخوان ورابطة العلماء والجمعيات الإسلامية الأستاذ محمد المبارك مرشحاً لها للبرلمان النيابي السوري، فمنحته العاصمة السورية ثقتها، ليكون الناطق بلسانها، ولسان التيار الإسلامي تحت قبة البرلمان بعد أن استقال من عمله الوظيفي في وزارة المعارف السورية.

لم يكن التدريس الجامعي محظوراً على أعضاء المجلس النيابي، فأسندت له الجامعة السورية تدريس فقه اللغة والدراسات القرآنية في كلية الآداب، ليستمر في هذا العمل الأكاديمي من عام ١٩٤٨ وحتى العام ١٩٦٦ .

ظهرت كلية الشريعة في الجامعة السورية، فشارك المبارك في وضع مناهجها، التي تضمنت دراسة نظام الإسلام، وحاضر العالم الإسلامي، ثم تولى عمادة كلية الشريعة عام ١٩٥٨ في الجامعة السورية واستمر في هذه المسؤولية حتى العام ١٩٦٣، وعندما زحف التتار الجدد على الوطن، وشرعوا في هدم كياناته ومؤسساته على كل الصعد، هاجر المبارك إلى السودان بطلب من رئيس جامعة أم درمان الإسلامية، أستاذاً وخبيراً في التخطيط، ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية، ليبقى في جامعة أم درمان من ١٩٦٦ وحتى العام ١٩٦٩، وفي هذه الفترة درّس في جامعة الخرطوم مادة السياسة الشرعية، ثم تلقى دعوة من وزير المعارف السعودية، فلبى الدعوة واختار مكة

المكرمة مقاماً له ومقراً لإقامته بجوار بيت الله العتيق لمدة أربع سنوات، عمل خلالها رئيساً لقسم الشريعة والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة، ثم مستشاراً في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ليرسي فيها قواعد المناهج الأكاديمية على أسس إسلامية راسخة، ثم ليشعر في أثناء ذلك أن أيدياً خفية من خارج الجامعة تعرقل مساعيه، لإجهاض مشروعاته، وَفَرْضِ مناهج الجامعة على أسس أخرى غير التي تبناها وعمل لها الأستاذ الداعية الكبير محمد المبارك أبو هاشم، كما سمعت ذلك من فمه رحمه الله رحمة واسعة.

٧- تحضرني دائماً المقارنة بين الشيخين الكبيرين: السباعي والمبارك، فأرى السباعي فارساً مُعْلَماً لا يشق له غبار، دائماً تراه في معركة على كل الصعد، في الدفاع عن الإسلام، سالكاً، كما قال المتنبي، فؤاد عجاجة، وقد أوتي من سحر البيان وزلاقة اللسان، ما يجعله قادراً على استنهاض مدن بكاملها في قوة حجته، وعذوبة منطقه، وسحر لغته، أما المبارك، فكان كالمياه الراكدة البعيدة الغور التي لا تعكرها الدلاء، أو التي ليس من السهولة بلوغ قعرها وأغوارها البعيدة.

كان شيخنا المبارك شخصية متوازنة، تتسم بالاعتدال، والجمع ما بين القديم الأصيل، وما بين الحديث المفيد، وكان يجمع خير ما يلمسه من الصوفيين في الأدب والحب والتربية والعفة عن المغانم، وما يعرفه عن السلفيين في تحري النصوص والاتباع، وتحصين الشباب من الابتداع، كما كان يقرأ بعمق مواقف الآخرين من ذوي الأيديولوجيات البعيدة عن الإسلام، والمتناقضة معه، فيسبر غورهم،

ويقرأ بإحاطة وعمق وفهم، أفكارهم، ويفند، بأدب وموضوعية، أخطاءهم، حتى بلغ منزلة قال عنها أبو حامد الغزالي بعد أن قرأ أفكار وفلسفات عصره (حتى صار إبطال مذهب ضالٍ أهون عليّ من شربة ماء).

رأى المبارك انتشار الدعوة إلى القومية العربية، واستنادها إلى أسس فكرية واهية، فأصدر كتابه العتيد: الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، فدلل بالعقل والفكر والبحث العميق وأحداث التاريخ والدراسات المقارنة.. إلخ أن العروبة من دون الإسلام جسد بلا روح، وأنها سراب ووهن، وأنها بالإسلام أمة خالدة في عقيدتها وشريعتها وفلسفتها وقيمها ومثلها في إنقاذ الإنسانية -كل الإنسانية- وسعادتها.

ثم التقى المبارك سدنة القومية العربية من أمثال ميشيل عفلق وغيره، ووضع دراساته التي لا يرفضها منطق سليم، فكان لذلك تأثيره الملموس فيهم، الأمر الذي جعل عدداً كبيراً من دعاة القومية العربية من بعثيين وناصريين ممن نشؤوا على مناوأة الإسلام ورفضه في أول أمرهم، يصدرون بحوثاً رصينة في اعتماد العروبة على الإسلام وأنهما وجهان لعملة واحدة لا ينفك أحدهما عن الآخر، كما لا يفترق روح الإنسان عن جسده. ولديّ حوالي عشر دراسات في هذا الصدد، مثل الذي قدمه ميشيل عفلق وأمين شقير وصدام حسين وشبلي العيسمي والوزير الناصري إبان الوحدة الذي استلم وزارة الأوقاف يوسف مزاحم وعشرات آخرين في السودان واليمن الشمالي والإفريقي.

لقد رأيت من المفيد أن أوزع نسخاً من كتاب الشيخ المبارك، (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) على قادة الفكر القومي، وأقدمه هدية لهم، فأحضرت من عمان عشر نسخ إلى بغداد، وقدمتها للرئيس العراقي ونائبه وشبلي العيسمي ومحمد الجراح، وقادة المعارضة السورية، قائلاً لهم: إذا كان لديكم الوقت، آمل أن تقرؤوا هذا الكتاب الذي يعالج صلة الإسلام كرسالة، بالعروبة كوعاء ليكونا وجهين لعملة واحدة -كما مر معنا قبل قليل- كما يقول القوميون أو كثير من قادتهم في بعض أدبياتهم في الثمانينيات وما بعدها من القرن الماضي.

٨- كان المبارك موسوعي الثقافة والسياسة، فعلى صعيد الأولى كتب مجدداً عن المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي والدولة الإسلامية، والأدب الإسلامي وأسرار البيان في القرآن، وفي فقه اللغة، وفي الأمة في معركة تحقيق الذات، وفي المجتمع الإسلامي المعاصر، ونحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع، كما بحث في تركيب المجتمع السوري الذي دق فيه ناقوس الخطر عن التحرك الباطني السري في الدولة والمجتمع، وفي مؤسسات الدولة الرئيسية مثل الجيش والأمن والأحزاب السياسية، كما كتب رحمه الله في الدراسات الإسلامية كتباً جمة، مثل: نحو إنسانية سعيدة، ضمنها فلسفة الإسلام عن الكون والحياة والمصير والإنسان والمجتمع. وأصدر كتابه: نظام الإسلام في العقيدة والعبادة والحكم والدولة والاقتصاد، كما كتب مجموعة من الكتب قارن فيها بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، وتحدث فيها عن الإسلام، وعن الفكر العلمي.

إن أهم من هذا كله أن الأستاذ الكبير محمد المبارك أدخل معظم إنتاجه العلمي عن عظمة اللغة العربية وعبقرية الإسلام في شتى مناحي الحياة، في مناهج التدريس الجامعي، بدءاً من كلية الشريعة الإسلامية في دمشق، وجامعة أم درمان الإسلامية، وفي مناهج الجامعات السعودية في مكة المكرمة، وفي جدة، وفي بحوث الجامعة الأردنية، ولم يفتر في إنتاجه وبحوثه وتأليفه وهو في السبعينيات والثمانينيات حتى أدركه الأجل المحتوم في المدينة المنورة ليدفن مع الصحابة وآل البيت في البقيع، وكان يعد كتاباً مهماً في علم الاجتماع الذي حمل شهادته من باريس في جامعة السوربون على يد مؤسس علم الاجتماع الغربي دوركهايم، باذلاً جهداً مباركاً في تطويع كل ما تناوله من دراسة وبحوث لمنهج الإسلام ونظرته الكونية وفلسفته الفطرية التي توصل الإنسان إلى الحقائق، وتسمو به في هذا الوجود إلى منزلة لا يبلغها الإنسان في كوكبنا الأرضي إلا عن طريق الرسالة الخاتمة.

أما المحاضرات التي ألقاها، والمؤتمرات التي شارك فيها، والندوات التي تحدث فيها، منذ الأربعينيات وحتى الثمانينيات، فتحتاج في أهميتها وفي كثرتها وسعتها، وتعدد أوجه الفكر والثقافة والتربية فيها، إلى سفر كبير، وحسبي الإشارة إليها في هذا الملحق الموجز من حياة الشيخ المبارك الغنية والمباركة.

٩- وأما على الصعيد السياسي، فقد كان المبارك مبرزاً على الصعد كافة، فقد كان من منهجه فتح باب الحوار مع الجميع، وقد استفدنا من هذا المنهج الذي عرفناه عنه ومنه، فقد كان رحمه الله يواصل السياسيين جميعاً من مسلمين ومسيحيين ويمينيين ويساريين

وقوميين واشتراكيين، ويترك بصماته في جميع لقاءاته كالذي لمسته عند ميشيل عفلق عندما التقيته في بغداد، وكان يذكر المبارك بتقدير وإعجاب كبيرين.

أما على الصعيد السياسي، فقد خاض شيخنا غمار الحياة السياسية في كل ساحاتها، ودخلها من أوسع أبوابها، فكانت باكورة أعماله الناجحة -وكان ما يزال طالباً في كلية الحقوق- أن تصدى ومعه الدكتور معروف الدواليبي رحمه الله لمحاولة الفرنسيين في إحلال القانون الغربي محل مجلة الأحكام العدلية الشرعية المستقاة والمأخوذة من الفقه الإسلامي -ولاسيما الفقه الحنفي- فأحبط مخطط الفرنسيين، وهزم مشروعهم، وأبقى على مجلة الأحكام الشرعية الإسلامية، كما تصدى المبارك إلى موجة الإلحاد التي ذرّت قرنها في عشرينيات ومطلع ثلاثينيات القرن الماضي في المجتمع السوري في ظل الانتداب الفرنسي، كما تصدى للاحتلال ضمن التيار الوطني الذي جاهد لإخراج الفرنسيين من سورية، فأدخلته سلطات الانتداب السجن الذي خرج منه أصلب عوداً وأشد مكسراً، ليواجه الموجة الأتاتوركية المعادية للإسلام، ويواجه كذلك الظهير البربري الفرنسي في المغرب في محاولته الفصل بين العرب والبربر الذين وحدهم الإسلام، ليشطرهم إلى قوتين متصارعتين، ولكن الله خيب أملهم، وأحبط كيدهم.

لم يطل العام ١٩٤٧ حتى كان المبارك مرشح الإخوان والعلماء والتيارات الإسلامية إلى المجلس النيابي، ففاز بتمثيل العاصمة السورية لمدة اثنتي عشرة سنة في دورات ١٩٤٧ و١٩٤٩ و١٩٥٤،

فكان الصوت المدوي في البرلمان دفاعاً عن الإسلام ومواجهة التحركات الكيدية ضده، فكان بحق فارسها المجلي، والنيابي البارع، والسياسي المحنك الذي ملأ بشخصه وجهده وفكره ما تعجز كتلة برلمانية كبيرة أن تضطلع بالدور الكبير الذي أداه وقام به.

وعندما احتدمت معركة الدستور سنة ١٩٥٠ في صراع حاد، كان المبارك عضواً ناشطاً في البرلمان السوري ضمن كتلة كبيرة في عددها وفي نوعية رجالاتها دخلت البرلمان بعد الانقلاب على حسني الزعيم، فكان بجانب أخيه السباعي وأعضاء الكتلة الإسلامية الاشتراكية في خوض معركة حامية الوطيس، استنفر فيها العلمانيون واليساريون ورجال الأكليروس، بتحريض من الحزب الوطني وغيره، قواهم لتحويل سورية إلى بلد علماني، فأحبط المولى سبحانه ما صنعوا، وأكّد القادة الإسلاميون في داخل البرلمان وخارجه بالتعاون مع حلفائهم والغيورين على رسالة الإسلام وعلى القومية العربية الإسلامية، ذات الإرث الحضاري التليد والأصول الإسلامية الراسخة.

لم يجامل المبارك طاغوتاً أو باغياً أو حاكماً ديكتاتورياً، بل رفض سياساتهم فأدخله الشيشكلي السجن شهرين متتابعين، فلم تلن قناته، بل تابع سياسته ومسيرته، وعندما حانت فرصة انتخابات ١٩٥٤ وقاطعها الإخوان في موقف صدم الجميع وحيرهم، باستثناء المبارك الذي لا يستسلم ولا يقبل الهزيمة أو يسلم بها، قدم ترشيحه للانتخابات فلم يحالفه الحظ في الجولة الأولى، فتحرك الإخوان لاستدراك ما قرروه، ورموا بثقلهم إلى جانب أستاذهم ودفعوا به إلى

البرلمان في الجولة الثانية بفوز مظفر.

كنت أتابع النشاط البرلماني لأبي هاشم، وأتصل به عميداً لكلية الشريعة ونائباً في البرلمان، وأشهد الله وأشهد أنه سد ثغرة كبيرة، وقام مقام كتلة برلمانية عتيدة في مناقشاته ومقترحاته وردوده، على المتربصين بدعوة الإسلام، وفي دفاعه الحار والصادق عن المواطنين، ولاسيما الفقراء منهم، كما أشهد أنه كان في مشاركته للوزارات الائتلافية من عام ١٩٤٩ وحتى العام ١٩٥٢ مثال الوزير البارع والمنتج والنزيه، الذي يخفض جناحه لجميع المراجعين والمواطنين.

١٠- لا أود أن يشتط بي اليراع فأسترسل في الكتابة عمن عرفته فاحترمته، وشاورته فقدرته، في نشاطه الدعوي وإنتاجه الفكري، وإنجازه السياسي، وآثاره الكبيرة في المناهج والبرامج والحقول التربوية في طول البلاد العربية وعرضها، لأن هذا يتطلب كتابة أسفار عنه، فأتجاوز عمل الملحق الموجز الذي يكتفي بالوقوف لدى إنجازات رفيعة، ومحطات سريعة، وخلاصة أعمال ترفع صاحبها ليكون في عداد الخالدين -بإذن الله- بفضل ربهم عليهم، وتوفيقه لهم، ورفعه قَدْرَهم ومقامهم في الغفران والرضوان عند مليك مقتدر.

. . . .

هذا واحد من شيوخ الجماعة ومن جيل المؤسسين الذين أكدوا على هوية الوطن عروبة وإسلاماً، وأقنعوا الأمة بعظمة الإسلام وصلاحيته في هداية البشرية وإسعادها، وفي قدرته الفائقة غير

المحدودة على هضم مستجدات العصر ومتغيراته، وتقديم الحلول الناجعة، وحل المعضلات التي تبدو مستعصية، بكل سهولة وصدق ونقاء وعفوية، كمن يشرب فنجان قهوة الصباح على حد تعبير الفيلسوف البريطاني برناردشو.

لقد عرفنا جيل المؤسسين في حلب، أمثال عمر الأميري، والقاضي عبد الوهاب ألتونجي والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وعبد القادر السبسبي، وعبد الحميد الأصيل، وسامي الأصيل، ود. فوزي حمد، وعشرات معهم، كما عرفنا في حماة الشيخ محمد الحامد، وعبد الله الحلاق، ونورس عبد الرزاق، وعبد الغني الحامد، وعبد الغني الساعاتي، ومنير الحوراني، وعبد الكريم عثمان، ومصطفى الصيرفي، ونعسان عرواني، وبديع عدي، وعشرات من حولهم، كما عرفنا بعضاً منهم في حمص كان السباعي على رأسهم وفي مقدمتهم، وكذا شقيقه نصوح السباعي، وأبو جاسم الديك ومحمد علي مشعل والطيب الخوجة، وجمهرة من الدعاة حولهم، أما في دمشق، وما أدراك ما دمشق، فهي منبع الرجال الكبار من أمثال السباعي الذي سكنها، والمبارك والعطار والخطيب والشاويش والجلاد والأسطواني وغيرهم، وقل مثل ذلك في دير الزور واللاذقية وإدلب وحوران، رحم الله الجميع وأعلى قدرهم، وتجلى عليهم بغفرانه وجناته، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

ولا يسعني في هذه العجالة إلا أن أختمها بقول الأستاذ الكبير أنور الجندي في كتابه: أعلام الدعوة والفكر: محمد المبارك مثل حي من أمثلة النوابغ القلائل الذين عرفوا معضلات فكرنا العربي

الإسلامي المعاصر، ووصفوا لـها حلولاً جذرية بأسلوب علمي هادئ رائع، هو ثمـرة جماع مـنسق من الثـقافة العـميقـة الواسعـة، والنظرة الشامـلة والإيمان الصادق، وهـو لاشك ثمرة خصـبة من ثمار اليـقظة العربية الإسلامية.؟

وأختمها كذلك بقول الشاعر العربي الفذ:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

ملحق رقم (٢)

مروان حديد
شيخ الشباب المجاهد

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد عزمت -اعتماداً على العون الإلهي- أن أسجل ترجمة موجزة للمجاهد مروان حديد رحمه الله رحمة واسعة، من فيض الخاطر، وبما رأيته وعرفته عنه باتصال وثيق معه عبر أربعة عشر عاماً، بدأت في عام ١٩٥٠ وانتهت بالقبض عليه وقتله في سجن الظالمين عام ١٩٧٥، رحمه الله، ولربما تقاطع بعض ما سيرد عنه مع الحديث عنه في ثنايا هذا المجلد، لأن ترابط الأحداث هو الذي يلزمني بذلك.

١- كان مروان طالباً في المدارس المتوسطة في مدارس حماة في نهاية الأربعينيات كشأن أبناء المدينة، وكانت عائلته تسكن في حارة البارودية من حي الحاضر الملاصق لحارة الشرقية الذي ولدت ونشأت فيه. وعندما انتقل إلى المرحلة الثانوية عام ١٩٥٠، وكنت قد عزمت على الالتفات لتوجيه الأسر الإخوانية، والاستغراق في الأجواء التربوية والتوجيهية في صفوف الجماعة، عمدت إلى تشكيل أسرة من

عشرة أعضاء كما ألفنا ذلك في أن تضم الأسرة سبعة إلى عشرة أفراد من التنظيم، فرشح أحد الأعضاء رفيقه في الصف مروان حديد ليكون في عداد هذه الأسرة، فترددت قليلاً، لأن مروان يعيش في أسرة يؤيد أفرادها الحزب العلماني الذي أسسه ويقوم على قيادته أكرم الحوراني، ولكن سرعان ما تلاشى ذلك التردد بشهادة عدنان الزعيم الذي رشحه وزكاه قائلاً: هو رفيقي في الدراسة، ونحن في صف واحد، وإنني ألمس منه حماسة وغيرة على الإسلام ظاهرتين، كان ذلك في عام ١٩٥٠ عندما كان رحمه الله في الصف الأول الثانوي.

٢- بدأت هذه الأسرة بتوفيق الله ورعايته، فكانت نموذجية في دوامها، والتزامها ببرنامج الأسرة برغبة قوية، والتزمت بالمنهاج الإخواني، بحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وأخبار المسلمين كافة، والأخذ بالعزائم، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل، وتطبيق مبدأ التكافل من صندوق للأسرة أمددناه بالاشتراكات والتبرعات لأن بعضنا أضحى مدرساً في المرحلة الثانوية، وبإمكانه ردف الصندوق بمبلغ مفيد، ولقد تحدثت عن هذه التجربة الأسرية بتوسع في المجلد الأول من هذه الأوراق، رغبة في أن يطلع عليها أبناء الدعوة الناشئون لعلهم يستفيدون منها، ومن الجهود الأخرى لدى أبناء الجماعة في الدعوة والتبليغ، وإلقاء الدروس الصباحية التي كان أبناء الجماعة مستغرقين فيها، والاستماع إلى ما تتضمنه من فقه وتوجيه، يقوم بها ثلة من الموجهين والمربين.

٣- كان المجاهد مروان مبرزاً في نشاط الأسرة وأعمالها النظرية والعملية، والتي كان من أبرزها رسائل الشهيد الإمام حسن البنا

الإحدى عشرة (لم تكن الثانية عشرة قد ظهرت) بعمق والتزام كل أخ بدراسة متقنة لإحدى الرسائل، يختارها بما يوافق ميله وقناعاته، ليقرأها على إخوانه، ويشرحها لهم ليناقشوه في معانيها وأفكارها ومضامينها، لم أعد أذكر الرسالة التي اختارها المجاهد مروان حديد، وإن كنت أرجح أنها رسالة الجهاد الموجزة والثمينة للإمام الشهيد حسن البنا.

لقد استغرقت هذه الفقرة مدة طويلة متداخلة في الفقرات الأخرى من برنامج الأسرة سنوات ربما استمرت طيلة خمسينيات القرن الماضي، فكانت هذه الدراسة للرسائل زاداً مفيداً، وركيزة فكرية في نفوس الأعضاء، رافقتهم حتى آخر حياتهم، بالإضافة إلى الأخذ بالعزائم، والشروع بدراسة مبادئ الجماعة التي هي مبادئ الإسلام والاتباع لهدي سيدنا وحبيبنا محمد عليه أفضل صلاة وأزكى سلام، وكذا العمل التكافلي بعدما أصبح صندوق الأسرة يبشر بالخير، وقادراً على إمداد الأسرة بما يعين على المضي في تحقيق أهدافها.

٤- حمل المجاهد مروان شهادة الثانوية عام ١٩٥٦، ليتوجه إلى الدراسة الجامعية، غير أن والده كان يعاني من أزمة اقتصادية خانقة إثر فشل مشروعه في زراعة القطن في محافظة الجزيرة، مما جعل إيفاد مروان لإحدى الجامعات أمراً متعذراً على الوالد في تلك السنة، وهنا جاء دور الأسرة لتقرر إيفاد مروان على حسابها إلى القاهرة، ليلتحق بكلية الزراعة في جامعة عين شمس عام ١٩٥٦، وليمده صندوق الأسرة بنفقات المعيشة في مصر، والتي كانت سهلة ويسيرة، ولم يكد يكمل مروان دراسة السنة الأولى حتى خرجت عائلة مروان

من أزمتهـا إلى الانفراج، فسدد لنا مـروان كل ما أنفقته الأسـرة عليه، فكان ذلك عـوناً للأسرة أن توفد على هـذه الشاكلة، وبنفس الـطريقة الأخ محـمود النجار إلى مـصر لدراسة الزراعـة كذلك، وهو اختـياره واختـيار مروان من قـبله، والأخ عدنان الزعـيم إلى استنـبول، والذي تحول بعد ذلك إلى دمشق لدراسة الشريعـة في جامعتها، كذلك سدد مـحمـود وعدنان مـا استـلماه مـن الأسرة مـن نفقـات استـلموهـا من عائلاتهما كما فعل مروان رحمه الله من قبل.

٥- وجـد مروان فـي مصـر ظلـماً واقـعـاً على جـمـاعة الإخـوان المسـلمين، وإصرار حكـومة البغاة عـلى سحقهـم بالسجن والتـعذيب والمطاردة والتضـييق على عائلاتهم فـي لقمة العيش وإطعـام الصغار، ففـجر في أعمـاقه براكـين من الغضـب والكره المقـيت لهذا الـسلوك الوحشي والبغيض الدفين للدعوة الإسلامية وأبنائها الذين أوصلوا هذه الحكومة -انخداعاً بها- إلى دست الحكم، واستلام مقاليد الأمور في عـام ١٩٥٢ بانقـلابها الـعسكـري على الـملك فـاروق، كمـا ورد في العـديد من الـمذكـرات والدراسـات في كتـب صدرت عن الإخـوان، وعن بعض ضباط الانقلاب أمثال أنور السادات، وخالد محي الدين، وغيرهما، وهـذا ما كان يشير إليه جـمال عبد الناصر بخطبـه المتكررة كلما تلقى نصحاً أو اعتراضاً من قيادة الإخوان على سياساته قائلاً: لا نقبل بأي وصاية على الثورة.

كانت فرصة مروان كبيرة بالتعرف على شخصيات إسلامية مجاهدة كالشـيخ عبـد الفتاح إسـماعيـل قرين الشـهيد سـيد قطب في الـنشاط والدعـوة والتنظـيم، وأقرب النـاس إليه، والذي اسـتشـهد مـعه شنـقاً

(رحمهما الله ورفع مقامهما في علـيين) بأيدي الطغاة تنفيذاً لسياسات ظهـر جانب كـبيـر منها، تـخص الأمريكـان والصهـاينة والرأي الـعام الغربي في وجوب التخلص من تنظـيم الإخوان المسلمين القوي الذي رفع راية الـجهاد في وجـوه المحـتلين والـمعتـدين في مصـر، والذي يشكل خطراً على النفوذ الانكليزي والأجـنبي -سياسياً واقتصادياً- في أرض الكنانة المـباركة، وكما جـاء في وثيقة صدرت في فـايد -مركز القيادة البـريطانية في قنال السويس- مـوقعة من ممثلي إنكلـترا وفرنسا وأمـريكا، والـتي نشـرتهـا مـجلة الدعـوة الإخـوانيـة بالزنـغراف عـلى صفـحاتها أكثـر من مرة تطالـب -الوثيقة- وكـيل وزارة الداخلية عـبد الرحمن عمار بالتخلص من تنظيم الإخوان المسلمين، فكان أن قامت عصابة عبد الرحمن عمار في وزارة إبـراهيم عبد الهادي باغتيال الإمام الشـهيد حـسن البنا الـقائد الفـذ والمصـلح الكبيـر طيب الله ثراه في ١٢-٢-١٩٤٩، ممـا لا أودّ الخوض بتفـاصيله، لأن الملـحق خاص بالمجاهد مروان الذي استقى من النبع النضاخ في مصر التي نبتت فيها شجـرة الإخوان المسلمـين ذات الجذور الثـابتة في الأرض، وفرعـها يتطاول برعاية الله في السماء.

٦- عاد مروان من مـصر بعد أن أكمل دراسته يحـمل بكالوريوس في الهندسة الزراعية، ليجد أن الوضع السياسي والأمني في سورية قد آل في الجـيش والأمن والوزارات والدوائر إلـى حكم طائفي، مـؤكداً كمـا سبق لي في هـذه المذكرات التـفريق بين الـطائفة ككـل والحكم الطائـفي الذي نوهـت إليه مـراراً كيـلا تصـدر عنا أحكـام تخلط بـين المجرم وغير المجرمين.

لم يكتف مروان بالبراكين التي كانت تنفجر في داخله وفي قلبه وكبده بعد الذي رآه في مصر، بل ليتحول هو ذاته إلى بركان في مواجهة حكم ظالم دموي قمعي ما عرف تاريخ سورية في القديم والحديث، حقداً كحقده، وظلماً صبه على رؤوس المواطنين جميعاً باستثناء قلة من السفلة والمنافقين.

باشر المجاهد نشاطه الدعوي في المساجد والقرى والأحياء، مستنهضاً الجماهير على حماية الإسلام الذي يتعرض لخطر حقيقي، والمسلمين الذين يصمم البغاة المتسلطون على سحقهم، وتبديل دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم وأعرافهم، والانتقال بهم إلى مجتمع آخر في معتقداته وأخلاقه ومقومات حياته.

لم ينقطع مروان عن الإخوان، وعن الأسرة التي شب وترعرع في كنفها، وتشربت روحه من أجوائها النقية، ومن توجيهاتها، غير أن ضبطه كان عسيراً، لأن قلبه لا يحتمل ما يراه من انتهاك لحرمة الإسلام وكرامة المواطنين، وكانت الصلة القديمة والوثيقة معه، تتيح لي أن أوجه النصائح له، والحديث الشديد معه أحياناً لعله يسيطر على تحركاته وخواطره، ولم يدخل قط معي في مشادة، وأكثر ما سمعت منه في جامع السلطان ونحن خارجون من الحرم، وقد أغلظت له القول بكلام وددت أن يلامس شغاف قلبه: أهكذا تظن بي؟ بألم وحرقة، رحم الله مروان، فإنه كان مع شجاعته التي لم نر لها مثيلاً، وجهاده الذي نسمع عنه في جيله شبيهاً، مؤدباً لطيف المعشر، عف اللسان، مهذب النفس، نقي الضمير والقلب، زاهداً في الدنيا كالذي قرأناه عن حسن البنا الذي خرج من سلطان الدنيا،

ولم يلتـفت إلى أيّ من زينتـها أو إغراءاتها، فـكان اللقاء المنـتظر مع الله يـملأ عليـه قلبه وعـقله، وكان اليـوم الآخر نصب عـينيه، وكـأنه يسمع زفير جهنم، ويتنسم عبير الجنان، وهذا ما زهد مروان بالزواج، وحمله على العزوف عن الدخول بالزوجة التي عقد عليها.

٧- خاض مـروان رحمـه الله مـعارك قاسـية مع الـنظام البـاغي، ودخل صراعات معه لا تحتملها الجـبال، كانت معركة جامع السلطان أشـدها وأقـساهـا، ودخل سـجون حـمـاة والجـزيرة وحـمص وتدمـر ودمشق، وتعرض لألوان من العذاب مزقت قدميه وأجزاءً من جسده، وضربات قـاسية على رأسه، وعنـدما أفاق ذات مرة من الإغـماء وجد قدماً مـمزقة، وأخرى شـبه سليمـة، فقال للسـجان الذي يمارس مـعه التـعذيب: لمـاذا لم تفـعل بهـذه كما فـعلت بتـلك؟ فبـهت السـجان وأنْشَدَه، وهذا ما يذكـر بالصحابي الجليل الذي كان فـيه عرج: سأطأ بعرجتي هذه الجنة، كـما يذكّر بعمير بن الحمام عندمـا قال في معركة بدر: إذا انتظرت حتى آكل هذه التمرات فإنها لحياة طويلة، فلم يلبث أن استـشهـد وصعـدت روحه إلى الـرضوان والجـنان، كل هذا يـذكر بالمجـاهد مروان عندما عـزف عن الدخول بالزوجـة قائلاً: لا أود أن أشغل الزوجة والأهل بتربية الأيتام من بعدي!!

ما هذا الإنـسان العجـيب والمجاهد الـغريب، والشجـاع الذي لم يعرف عنه تذمر أو نحيب؟

لو كان في كل ألفٍ مروان آخر لما استطاع الطغاة أن يتحكموا في رقابنا، ويبـيعوا للصهايـنة بلادنا بصفقات مـهينة، ليضمنـوا بقاءهم في السلـطة أربعين عـاماً أخرى. ولـكن هيهـات هيهات، فـقد انكشـفت

الأستار، وافتضحت النيات السيئة، وظهرت الحقيقة لكل ذي عينين في دنيا العرب وعالم الإسلام عن حقيقة النظام الباطني وارتباطاته، والأمل بالله كبير أن يكون قد اقترب أجله، وأن ساعة الخلاص منهم قد أزفت.

فيا أبناء الإسلام وحملة القرآن، هيا هيا، واقتدوا بمروان الذي كان مثله الأعلى محمد بن عبد الله من ولد عدنان، تفوزوا بإحدى الحسنيين أو بهما.

٨- لا أرى ضرورة أن أعيد آخر اتصالاتي بمروان رحمه الله بعد خروجه من سجن تدمر والسجن البالوني في حمص، وتوجيه الدعوة إلى حوالي مئة مجاهد شاركوا في أحداث حماة عام ١٩٦٤ من الإخوان ومن غيرهم إلى دعوة غداء في أحد بساتين حماة المطلة على العاصي من شماله، وعلى نواعير البشريات الأربعة، وكذا الاتصال الذي جرى عن طريق أخوين كريمين، أحدهما لحق بربه سبحانه، والثاني ما يزال حياً وناشطاً، وعلى العهد ثابتاً، وذلك قبل إلقاء القبض عليه، واستشهاده رحمه الله تعالى، ورفع مقامه.

إن أفضل ما وصف الشهيد مروان الأخ الداعية الدكتور أحمد فارس جواد قبل أن يسبقنا إلى رحاب ربه، بقلمه السيال ومن قلبه المكلوم، وإعجابه الذي لا ينقضي بحبه وإكباره لمروان.

قال فيه أحمدجواد: المهندس الشهيد الأخ مروان حديد رحمه الله تعالى رائد الجهاد، وداعية الاستشهاد، للنصف الثاني من القرن العشرين، بطل لا تدانيه الأبطال، ورجل ليس كمثله في الرجال،

قوي الشكيمة، ثابت العزيمة، عميق الإيمان، رابط الجنان، دعا إلى الإسلام بقوة، وتحدى الكفر والإلحاد ببسالة وفتوة، كل من خالطه يأنس إليه ويحبه، إنه فصيح اللسان وواضح البيان، سريع البديهة، قوي الحجة والبرهان، ملتزم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولحسن طالعه كان موجهه الأول في أسرته الإخوانية، الأستاذ المربي والسياسي المحنك الشيخ عدنان سعد الدين (أستغفر الله وأعتذر إليه) حفظه الله لأكثر من عشر سنوات[١].

تأثر مروان عبر الحلقات والدروس بالشيخ العارف بالله محمد الحامد في جامع السلطان، فكان لذلك أعظم الأثر في الارتقاء به إلى منزلة الصادقين[٢]، وأكسبه زاداً من المعرفة في الفقه والتفسير والسيرة النبوية، واللغة، والمقدرة على اجتذاب الشباب وتوجيههم، وتربيتهم على الإسلام، والاستعداد لبذل الغالي والنفيس فداءً لدين الله ودعوته، قال له ذات اليوم الشيخ محمد الحامد طيب الله ثراه في الجامع الجديد في حماة: يا مروان لو رآك الشهيد حسن البنا لقرت بك عينه[٣].

٩- عندما اعتصم المجاهد مروان حديد في جامع السلطان مؤيداً من الشباب، ومن عامة المواطنين في مواقفه الرافضة لمظالم الفئة الحاكمة، شعر الشيخ الحامد بالخطر على مروان وعلى من معه،

---

(١) من كراس كتبه الداعية الدكتور أحمد جواد رحمه الله عن الشهيد مروان: ١.

(٢) المرجع السابق: ٢.

(٣) المرجع السابق: ٦.

فكلف أقرب المريدين إليه أحمد جواد أن ينقل رسالة شفهية إلى مروان، مفادها أن يغادر المسجد هو والمتضامنون معه في أسرع وقت، بعد لقائه بأمين الحافظ في حماة، وبعد أن أحس بالخطر الداهم وما يبيته الطغاة من نيات سيئة لجامع السلطان، ولمدينة حماة بشكل عام، يقول أحمد جواد: خرجت مسرعاً متجهاً إلى جامع السلطان، أبحث عن مروان بين الجموع المحتشدة في حرم المسجد، فوجدته واقفاً على السدّة التي اعتاد المؤذنون أن يقيموا عليها، وقد ازدحم عليه إخوانه والمعتصمون معه، وقد اصطبغت عيناه بلون الدم، وظهر عليه الإعياء والتعب، فقلت له يا أبا خالد: أتسمع مني بعض الكلمات الموجزة، ثم أنت وشأنك؟

قال: هات ما عندك.

فقلت له رسالة الشيخ، وهو يريدك أن تغادر وإخوانك بأسرع وقت، وأبلغته فحوى رسالة الشيخ الحامد، ورأيت بعد خروجي من المسجد، عبد الله المصري متجهاً إلى مروان، فقلت له: حاول أن تقنع مروان بفض الاجتماع. قال: سأفعل، فذهب بالتو إلى المسجد، وتحدث مع الشيخ مروان طويلاً حتى أقنعه بإنهاء الاعتصام، لكنهما وجدا أن الليل قد تأخر، فأرجآ ذلك إلى ما بعد صلاة الفجر، فلم تبزغ شمس الأربعاء الموافق ١٤-٤-١٩٦٤ حتى كانت السلطة قد حشدت قواتها ومدافعها الثقيلة، فنشبت معركة غير متكافئة بين الجيش والمعتصمين.

أما الشيخ الحامد الذي أدرك حقد البغاة وما يبيتونه للمدينة من كيد ودمار، وما كان يراه من منزله الذي يطل على مكان المعركة من

تلة عالية يقع عليها منزله، نزل من بيته بعد أن أنزل معه رحمه الله كتباً فيها أسماء أصحاب بدر، وشرع في قراءتها، متضرعاً إلى الله أن ينزل نصره ورحمته على المحاصرين، لاعتقاده أن الله ينصر عباده عند ذكر الصالحين، ولاسيما البدريون أهل الفرقان يوم التقى الجمعان.

كان عبد الله المصري الذي أقنع مروان بالخروج قد كتب له مولاه الشهادة، فكان في عداد شهداء جامع السلطان عليه رحمة الله.

لن أسترسل في الحديث عن الشيخ المجاهد مروان حديد كثيراً بهذا الملحق المختصر، لأن العديد من إخوانه يُعد عنه دراسات ضافية، بل أكتفي بنشر قصيدتين أو مختارات منهما نظمهما أخوان داعيان محبان للشهيد ومناقبه ومزاياه.

أ- قال الرجل الصالح والمربي الفاضل الشيخ عبد المنعم نيربية أبو عرفان حفظه الله وأطال عمره:

ذكرتني -يا أخا الإيمان- مروانا ... ذكرتني العزم بالإيمان ريّانا

ذكرتني علماً كانت شهادته ... للحق شاهدة روحاً وريحانا

ذكرتني بيعة لله صادقة ... كانت لنا مثلاً أعلى وبرهانا

ذكرتني بطلاً لم تخش ثورته ... في نظرة الحق طاغوتاً وسلطانا

كأنه مصعب في موكب زرعت ... فيه النبوة إيماناً وقرآنا

ذاق الحلاوة للإيمان فانطلقت ... طاقاته بانياً للدين أركانا

عرفته يا أخا الإيمان متقياً ... لله مبتغياً فضلاً ورضوانا

عرفته طيب الأخلاق مرتقباً لم يخش إلا الذي أحياه إنسانا
الجود أفقره والصدق أصبره على البلاء فما ولّى ولا بانا
كأنه عُمَرِيٌّ في شجاعته يخيف في عزة الإيمان شيطانا
كم كان يبغض فينا الخوف يحجبنا عن الجهاد لشر زاد كفرانا
وظل يدعو بحزم كل ذي رشد إلى الشهادة إسراراً وإعلانا
كم كنت أسمعه فينا يحدثنا للموت فن، وفن الموت مهوانا
أحب في حسن البنا أداعية وسيداً إذ بزاد الدرب أغنانا
كم من حدائق تزهو في (معالِمِهِ) وفي (الظلال) وعاها قلب مروانا
فلم تكن عنده قولاً وأغنية بل كان يبرزها بالفعل ألحانا

* * *

ذكرته يا أخا الإيمان معتصماً في فتية أخلصوا لله وجدانا
أعطوه في مسجد السلطان موثقهم أن ينصروا الله والإسلام شبانا
نعم الشباب بروض الخير منبتهم وحبذا فتية في الروع فرسانا
وحوصر المسجد المحزون تهدمه أيدي البغاة فما أضراه عدوانا
وسيق أحبابه أسرى تهددهم كتائب نفثت سماً وأضغانا
مثل الأرانب فروا من عدوهم لما أضاعوا بعام الذل جولانا
لكن أمام بني الإسلام في بلد يغدو اللئام مغاويراً وعقبانا
أيا أسود حماة عز رائدكم إذ كان حقاً (حديد) القلب إيقانا

ذاق السكينة فانزاحت مخاوفه ... أمام من بارز الجبار عصيانا
عناية الله لم تأذن بمصرعه ... كما أرادوه للطاغوت قربانا
ومنّ ربي على من حوكموا معه ... إذ أصبح الشيخ في تقواه سلطانا
دعاه ذو الأمر سراً أن يبشره ... بالعفو عن فتية فارتاح جذلانا
لله فرحته الكبرى يهنئهم ... بيوم بهجتهم بعد الذي كانا
أبت شهامته[1] إلا الطواف على ... مساكن القوم يُنسي الأهل أحزانا
فليرحم الله شيخاً للشباب حمى ... وليرض عمن أتى بالقلب سلمانا
لقد قضى نحبه من خير إخوتنا ... غر ميامين خاضوا الحرب شجعانا
لله دَرٌّ رعيل آثروا بدمٍ ... ديناً أصيب بمن باعوه خسرانا
فروا إلى ربهم في ميتة شرفت ... هي الحياة لهم روحاً وبستانا
لكن أطيافهم ظلت كأمثلة ... للاحقين على الآثار إخوانا
كم من جديد تقي القلب أزهره ... غدا بصدقٍ فدائياً ومعوانا

* * *

وخيمت محنة أضنت بكلكلها ... قد صُبَّ في ظلها التعذيب ألوانا
فاقت ضراوتها تلك التي سبقت ... إذ أشعلت قصة الدستور نيرانا
كم في الزنازين أضحى من ذوي رشد ... وكم طريد نجا بالنفس حيرانا
وكم توارى عن الأنظار محترس ... من كيد مفترس قد بات ثعبانا

---

(١) المقصود هو الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

ما كان يخرج من لأواء شدتها أماجدٌ صبروا يرجون غفرانا

حتى اشرأبت لها في جلق عنق وحوصر البيت إذ خالوه ميدانا

ظنوا الذين أحبوا الموت في شرف يستسلمون لهم خوفاً وإذعانا

قد خاب ظنهم في فتية درسوا فنّ الشهادة يستوحون قرآنا

أعطوا أبا خالد عهداً لئن ظلموا ليثبتن على الإسلام إيمانا

* * *

وكان أسبقهم للموت أجلدهم على العذاب الذي أرداه جوعانا

أجرى العدو له في السجن تصفية فاستقبلته جنان الخلد نشوانا

كأنني بلسان الحال ينشدنا قد فزت والله نعم الأجر يلقانا

مع النبي، مع الصديق قد نعمت روح الشهيد ترى حوراً وولدانا

هذي ملامح من أنوار سيرته رويتها عن إمام العز عرفانا

مهما نظمت فإني لن أوفيه حق الوفاء ولو أصبحت حسانا

ب- أما الشاعر النابه الدكتور يوسف محي الدين أبو هلالة فقد قال في الشهيد مروان حديد:

وردٌ زمانك يا (حديد) وزئبق تهفو القلوب إلى شذاه وتخفق

لما طلعت على (حماة) تضوّعتْ مسكاً وجلّلها البها والرونق

وغدت كأن جبينها بدر السما بروائها في كل واد تعبق

مروان هذي للقوافي زفرة حرّى وهذي مهجة تتحرق

فلقد تأخر يوم فقدك بَوْحُها ولقد كبا يوم ارتحلت المنطق

يا قاهر الأعداء لست ترام في ... ميدان بذل أو فداء تسبق

خضت الحياة فلم تزغك كنوزها ... وكنوزها تردي الكثير وتغرق

وصمدت والأيام تذرو كيدها ... وحملت ما يوهي الجبال ويزهق

أنت الحديد الصلب إلا أنه ... لك همة جبارة لا تُطرَق

ودماؤك الريحان إلا أنها ... عصفٌ على الباغي وسُمٌّ أزرق

* * *

قاد الشباب إلى الجهاد وعهده ... باب الخلود بغيره لا يُطرق

فمضوا لساحات الفداء يحثّهم.. ... حب المنية لا هوى وتملق

عشقوا ملاقاة الرصاص ولثمه ... هذا لعمري ما يصيب ويُعشق

قل للذي يبغي الحياة لقومه ... وديارهم بيد الفنا تتخرّق

بذل النفوس إذا تبرجب العدا ... في الساح من بذل المواعظ أليق

يا شام أين على رحابك ضيغم ... العزم من جنباته يتدفق

من ذا يدافع دون عِرضك بعده ... من خيّموا كاليل فيك وأحدقوا

يا فوز روحك يا حبيب وقد غدت ... من أسر هيكلها تطير وتُعتقُ

صعدت لبارئها الكريم يسوقها ... فرح ويحدوها إليه تشوّق

في موكب تبكي الدنا لفراقه ... والحور من شوق إليه تصفق

فبكل قلب لوعة مشبوبة ... وبكل عين عَبرة تترقرق

لم تنس من قدح اللظى في ساحها ... والشر مسنون الأظافر محنق

وقد اعتلت فيها الأمور زعانف بضلالها الطامي تضج وتُبرق

عبثية يعمي النواظرَ قُبحُها ويعاف ريح وبائها المتنشّق

ليعود مخذولاً يجر هوانه خزياً يفيض جبينه والمفرق

* * *

ما أعظم البلوى وصدر الدين من أيدي الغزاة بكل سهم يُرشق

عُمي البصائر صحب كل نقيصة فرشٌ لأقدام الطغاة ونمرق

تباً لهم مذ ضيعوا إسلامهم خير يودّعهم وشر يُطرق

* * *

يا صحب مروان الشهيد طريقكم كرهٌ، ودرب الخلد وعر مُرهق

فخذوا السبيل إلى العلا بجهادكم وأمام سيل الهَول لا تَتَفرقوا

لا تجزعوا واقْفُوا طريق شهيدكم وكما بأفق الجود حلّق حلِّقوا

لتقوم دعوتكم بغيث عطائكم ويسير تحت لوائها من يصدق

وإذا خبا في الأفق نجم هداية ومضى لمصرعه جواد أسبق

فثقوا بأن الله ناصركم و أن النور رغم أنوفهم متألق

* * *

تقريظ الكتاب

بقلم معالي الأستاذ رائف نجم

وزير الأوقاف الأردني السابق

اشتمل الكتابان الأول والثاني للمؤلف الأستاذ عدنان سعد الدين على شرح تفاصيل الأحداث التي دارت في سوريا على مدى السنوات من ١٩٤٥ - ١٩٦٣، أي منذ استقلال سوريا وإلى تاريخ الانفصال. ويأتي هذا الكتاب الثالث ليشرح أحداث الفترة من ١٩٦٣ إلى ١٩٧٧، أي مرحلة الحكم البعثي أو بالأحرى الحكم العلوي حتى وفاة حافظ أسد، ولكن هذه المرة بأدق التفاصيل وأغربها.

وفعلاً، كما قال المؤلف فإنه يتحتم على القارئ أن يتريث في حكمه على مادة الكتاب حتى يستكمل قراءته. فالناقد لا يعطي رأيه حتى يلم بهذه الأحداث العجيبة والمحن الصعبة التي عاشتها سوريا الحبيبة خلال عقد ونصف من الزمان.

عشت سابقاً مع أحداث المجلدين الأول والثاني، وقدمت لهما في حينه، بعدما شعرت بدقة وصدق ما روى. وهاأنذا اليوم أقدم للمجلد الثالث الذي استحوذ على تفكيري في أيام وليالي رمضان المبارك في هذا العام الهجري ١٤٢٩ .

لقد اعتمد الأستاذ عدنان سعد الدين على التوثيق الدقيق في سرد الأسماء والأحداث والتواريخ والأماكن وكأنه سجلها من مذكرات يومية منفصلة، وعرضها في شريط سينمائي تراجيدي أمام الأعين، وأوضح في كتابه كيف كانت سوريا العزيزة حقلاً لتجارب المغامرين العسكريين الذين منحوا أنفسهم مجمل الصلاحيات، ضاربين عرض الحائط بالدستور والقوانين والأنظمة. ويوضح كيف كانت الوحدة مع مصر خداعاً للجماهير السورية والعربية، وكانت خداعاً لجمال عبد الناصر، وكان هدف الانقلابيين كسب الوقت وتثبيت دعائم سيطرتهم على البلاد. كما اتخذوا حزب البعث ستاراً لتكتل طائفي خطير، واستغلوا البعثيين في هدم المساجد وتنفيذ المذابح واعتقال العلماء وانتهاك حقوق الإنسان وحل الجيش الوطني، وتشكيل جيش طائفي.

وكشف الكتاب عن الاتفاقيات السرية عام ١٩٦٧ وبعد عام ١٩٧٣ بين سوريا والإسرائيليين لعدم الاعتداء، والسيطرة على الحزب والجيش والدولة، مما ضمن الهدوء واستمرارية الحكم الطائفي.

وفي الكتاب قصة الإعداد المتقن من قبل بريطانيا للرئيس حافظ أسد منذ أن كان ملازماً وإلى أن أصبح رئيساً للجمهورية، وكيف رتبت بريطانيا علاقة بينه وبين وزير خارجيتها منذ نعومة أظفاره.

في هذا المجلد شرح دقيق لما حصل في معارك ١٩٦٧ في مصر وسوريا والأردن، وكيف سقطت الجولان قبل سقوطها، ووقع حافظ أسد القرار رقم ٦٦ بسقوط القنيطرة قبل أن يراها العدو الإسرائيلي، وكيف تركت دبابات ومدافع الجيش السوري في الجبهة، وحول الجيش الإسرائيلي اتجاهها إلى الجيش السوري الفار إلى دمشق،

وكيف طلب الملك حسين بن طلال من سوريا ضرب المطارات الإسرائيلية حتى لا تستطيع الطائرات الإسرائيلية العودة إليها بعد أن ترجع من ضرب الجيش المصري، فينقلب السحر على الساحر، ولكن حافظ أسد رفض تنفيذ الاقتراح، علماً بأنه أُنفق خمسة مليارات دولار على رفع مستوى الجيش السوري وتحصين الجولان قبل المعركة، وكل ذلك ذهب هباءً.

لقد تميزت المرحلة التي يغطيها الكتاب بانتشار الروح الطائفية والعشائرية ووقوع الخلافات بين العلويين والدروز والبعثيين التي أثارها صلاح جديد وحافظ أسد ومن حولهما، وخصوصاً في فئات الجيش، وأصبحت نسبة العلويين إلى غيرهم خمسة أضعاف.

لقد اطلعت في هذا المجلد على أسرار عديدة حصلت في هذه المرحلة، منها كشف ظهر الجيش العراقي الذي جاء لنجدة سوريا في معركة ١٩٦٧ والاتفاقيات السرية بين حافظ أسد من جهة وأمريكا وإسرائيل من جهة أخرى، وكيف تخلص من الضباط الوطنيين قبل معركة ١٩٦٧ وصفقات الأسلحة مع إيران خلال حربها مع العراق، وكيف تم توريث السلطة إلى بشار أسد، وعلاقة عائلة أسد بزراعة المخدرات في سهل البقاع وإطلاق يد حافظ أسد في لبنان مقابل القضاء على المقاومة الفلسطينية في سوريا ولبنان.

ويشرح الكتاب كيف حُوِّلت الهزائم والاتفاقيات الاستسلامية إلى انتصار، وكيف تم العفو عن الجواسيس اليهود الثلاثة والعشرين والسماح لهم بالسفر إلى إسرائيل رغم كونهم سوريين، وكيف ظهرت طبقة المليارديرات التي بلغ تعدادها الألوف.

ويكشف الكتاب عن العلاقة الحميمة بين الأكراد والإسرائيليين وعلاقة البرزاني مع كيسنجر وإشكول ومناحيم بيجن، والتعاون الإسرائيلي الكردي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، والضغوط الإسرائيلية على أمريكا وفرنسا لمنع أي تغيير في النظام السوري حتى لا يلحق التغيير أي أذى بإسرائيل، لأن البديل للنظام الحالي هو وصول الإسلاميين إلى الحكم علماً بأن العلويين لا يشكلون إلا عشرة بالمائة من الشعب السوري.

ولم ينس المؤلف عرض السيرة العطرة لعدد كبير من الشخصيات التي خدمت الإسلام والمسلمين في سوريا على مدى عقود من الزمن، منذ الثلاثينيات من القرن العشرين.

حقيقة أن القارئ للكتاب يشعر بأمانة التأليف، وفي هذه العجالة لا يمكنني استعراض جميع المحطات الهامة، ولذلك فإني أقترح قراءة الكتاب لمن يرغب بالاطلاع على الحقائق التاريخية من شخص عاش معها ووثقها.

المصادر والمراجع

١- تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط عن انتهاكات حقوق الإنسان في سورية حتى العام ١٩٩٠، الطبعة الأولى - دار السلام، بيروت ١٤٢٦، ٢٠٠٥ .

٢- وثائق سورية رقم (١) الناشر: مركز الشام للدراسات والمعلومات، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٣- سورية: لا خبز ولا حرية لمؤلفه آلن جورج، تعريب د. حصيف عبد الغني ٢٠٠٦، الناشر: دار الشروق في لبنان، صدر هذا الكتاب في بلجيكا عام ١٩٩١، وعرّبه د. حصيف عبد الغني، ونشرته مكتبة مدبولي في القاهرة ٢٠٠٦ .

ألن جورج كاتب كبير، وصحفي شهير، وأكاديمي في أبحاثه وتحليلاته ومقابلاته ومراجعه الموثقة المحدودة المصادر والتاريخ والجغرافيا، تخرج من أكسفورد عام ١٩٧٠، ونال شهادة الماجستير في موضوع جغرافية الشرق الأوسط من جامعة درهام عام ١٩٧٢ والدكتوراه عام ١٩٧٨ من نفس الجامعة ونشر بحوثه في عشرات الصحف الغربية والعربية.

٤- أوراق شـامـيـة من تاريـخ سـورية المـعـاصـر ١٩٤٦-١٩٦٦ صدرت في عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م للدكتور غسان حداد.

٥- التطور السـياسي الاقتصادي الاجـتماعي في سورية مـن نيسان ١٩٤٦ إلى نيسان ١٩٦٦ للدكتور غسان حداد.

٦- حـوار حول سـورية لمـؤلفـه محـمود صـادق الطـبعـة الأولى ١٩٩٣، إصدار: دار عكاظ في لندن.

٧- الصراع على سورية - الأسد- لباتريك سيل.

٨- الصراع على السلطة فـي سورية من عام ١٩٦١ وحتى ١٩٩٥ للدكتور نيقولاوس فان دام، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي في القاهرة.

٩- النصـيرية دراسة تـحليليـة لتقي شـرف الدين، بيروت- لـبنان ١٩٨٣ .

١٠- سقوط الـجولان للضابط الـسوري مصطفى خـليل بريّز، دار اليقين -عمان- الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

١١- التـغلغل الإسـرائيلي في الـعراق للسـيد محـمد الحـوراني، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، مركز الراية للتنمية الفكرية - جدة.

١٢- عن العـلويين ودولتـهم المسـتقلة لـلضابط الـسوري محـمد هواش، الـطبـعـة الأولى عـام ١٩٩٧، صـادر عن الـشـركة الـجـديدة للمـطابع المتـحدة، الدار الـبيضـاء، المملـكة المغـربية، النـاشر: د. غسان هواش.

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

في هذا الكتاب

إن أي مواطن سوري مهما كان على درجة عالية من الفطانة، وأي محقق أو باحث أياً كانت منزلته في عالم التحري ودراسة التاريخ، لن يقتنعا بأن فئة حاقدة صادرت الحكم في سورية من أصحابه الشرعيين بالبطش وقوة السلاح، فهدمت الحياة الدستورية والمدنية من القواعد، وأغرقت الوطن في كل أصقاعه بالدماء والمجازر الجماعية، وباعت البلاد بثمن بخس أو بدون ثمن لأشد الناس عداوة للذين آمنوا، ليضمنوا دعمه في بقائهم في السلطة عقوداً أخرى، ومزقوا وحدة الجيش، وجردوه من كل أسباب القوة المادية والمعنوية والسلاح، ليسلموه عن وعي وقصد لهزيمة مخزية ونكراء، ونهبوا المال والثروة، ليودعوا المليارات في بيوت المال الأوربية والأمريكية، ويتركوا الأكثرية من المواطنين (الذين كانوا في ترف وبحبوحة قبل أن تحكم هذه الأقلية) في فقر مدقع وتحت خط الفقر، وأقاموا مع الصهاينة هدنة وسلاماً دائماً وشهر عسل منذ أكثر من ٤٠ سنة، وما يزال، وسلموا أمتع الحصون دونما حرب أو دفاع. أقول: لا يمكن لأحد أن يصدق ذلك إلا إذا قرأ هذا السفر بما يحتويه من وثائق وحقائق مذلة، ليدرك أن كارثة السوريين الذين يعيشون في ظل حكم عرفي دائم أكبر مما يخطه قلم، أو يحيط به دارس أو باحث، وعلى هذه الصفحة أوجه للعرب والمسلمين ولكل ذي ضمير صيحة مدوية، بل استغاثة ألم أن يعملوا على تحطيم القيود والأغلال التي يرسف بها السوريون منذ نيف وأربعة عقود ولا يزالون على مسمع من العالم وبصره عسى الله أن يأذن بنهاية لما تعانيه سورية من مأساة لم يبتل أي شعب بمثلها منذ منتصف القرن الماضي وحتى كتابة هذه الكلمات الحزينة، والله غالب على أمره.





الإخوان المسلمون فى سورية
الحكم البعثى (العلوى) من عام ١٩٦٣ - حتى عام١٩٧٧

إن أى مواطن سورى مهما كان على درجة عالية من الفطانة، وأى محقق أو باحث أياً كانت منزلته فى عالم التحرى ودراسة التاريخ، لن يقتنع بأن فئة حاقدة صادرت الحكم فى سورية من أصحابه الشرعيين بالبطش وقوة السلاح، فهدمت الحياة الدستورية والمدنية من القواعد، وأغرقت الوطن فى كل أصقاعه بالدماء والمجازر الجماعية، وباعت البلاد بثمن بخس أو بدون ثمن لأشد الناس عداوة للذين آمنوا، ليضمنوا دعمه فى بقائهم فى السلطة عقوداً أخرى، ومزقوا وحدة الجيش، وجردوه من كل أسباب القوة المادية والمعنوية والسلاح، ليسلموه عن وعى وقصد لهزيمة مخزية نكراء، ونهبوا المال والثروة، ليودعوا المليارات فى بيوت المال الأوروبية والأمريكية، ويتركوا الأكثرية من المواطنين (الذين كانوا فى رغد وبحبوحة قبل أن تحكم هذه الأقلية) فى فقر مدقع وتحت خط الفقر، وأقاموا مع الصهاينة هدانة وسلاماً دائماً وشهر عسل منذ أكثر من ٤٠ سنة، ولا يزال، وسلموا أمنع الحصون دونما حرب أو دفاع.

أقول: لا يمكن لأحد أن يصدق ذلك إلا إذا قرأ هذا السفر بما يحتويه من وثائق وحقائق مذهلة، ليدرك أن كارثة السوريين الذين يعيشون فى ظل حكم عرفى دائم أكبر مما يخطه قلم، أو يحيط به دارس أو باحث، وعلى هذه الصفحة أوجه للعرب والمسلمين ولكل ذى ضمير صيحة مدوية،بل استغاثة ألم:

أن يعملوا على تحطيم القيود والأغلال التى يرسف بها السوريون منذ نيف وأربعة عقود ولا يزالون على مسمع من العالم وبصره عسى الله أن يأذن بنهاية لما تعانيه سورية من مأساة لم يبتل أى شعب بمثلها منذ منتصف القرن الماضى وحتى كتابة هذه الكلمات الحزينة، والله غالب على أمره.

